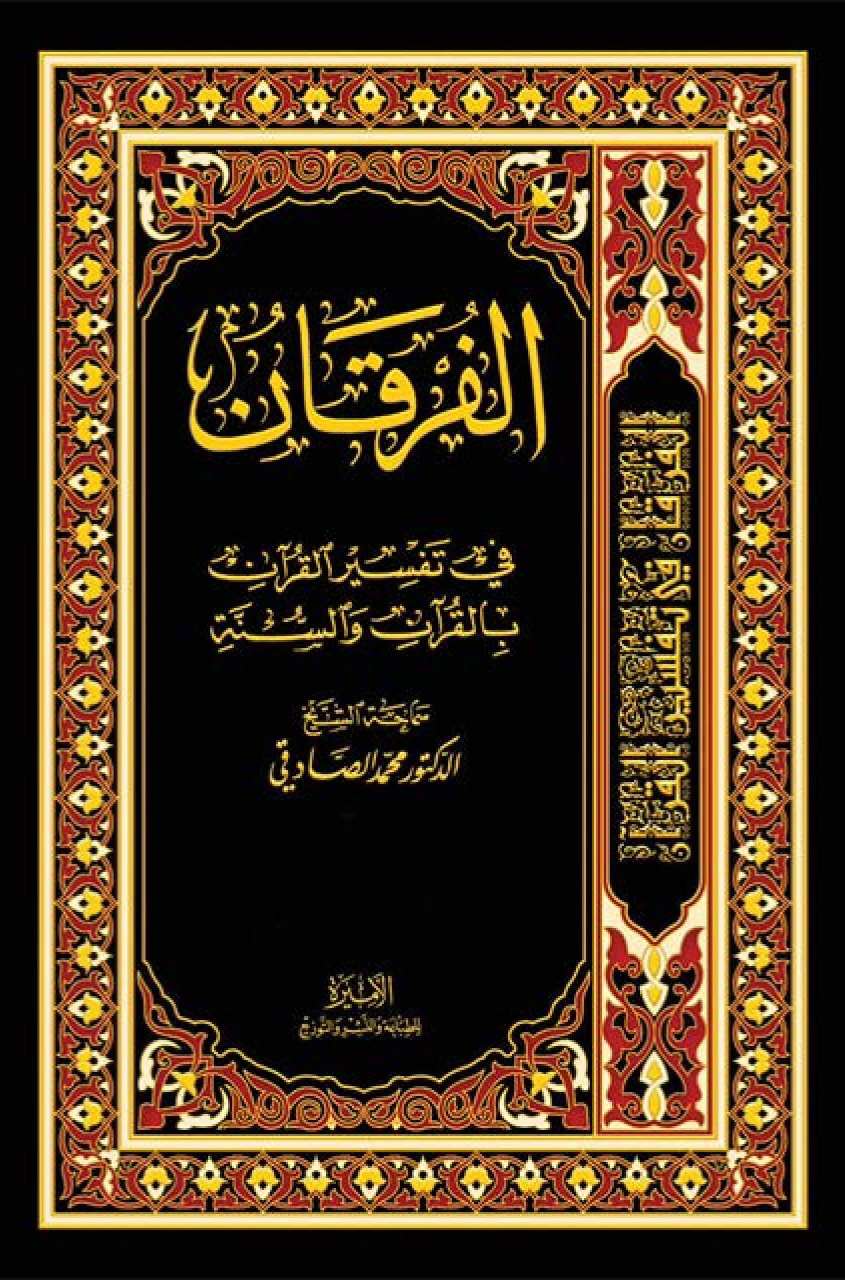


الفرقان
في تفسير القرآن بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

تفسير، ج ۳۰، ص: ۳

الجزء الثلاثون

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تبارک الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، و داعيا إلى اللّه بإذنه و سراجا منيرا، و صلواته التامات الزاكيات على محمد عبده و رسوله خاتم النبيين و سيد المرسلين، و على آله الطاهرين.

و بعد ف «إن هذا القرآن هو النور المبين، و الحبل المتين، و العروة الوثقى، و الدرجة العليا، و الشفاء الأشفى، و الفضيلة الكبرى، و السعادة العظمى، من استضاء به نوره، و من عقد به أموره عصمه الله، و من تمسک به أنقذه الله، و من لم يفارق أحكامه رفعه الله، و من استشفى به شفاه الله، و من آثره على ما سواه هداه الله، و من طلب الهدى في غيره أضله الله، و من جعله شعاره و دثاره أسعده الله، و من جعله إمامه الذي يقتدي به و معوله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم و

العيش السليم» ـ ف «إنه هدى من الضلالة، و تبيان من العمى، و استقالة من العثرة، و نور من الظلمة، و ضياء من الأحداث، و عصمة من الهلكة، و رشد من الغواية، و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا إلى الآخرة، و فيه كمال دينكم، و ما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار» ـ

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، و ما حل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل، و هو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل، و هو الفصل و ليس بالهزل.. ظاهره أنيق، و باطنه عميق، له نجوم (تخوم) و على نجومه (تخومه) نجوم (تخوم) و لا تحصى عجائبه، و لا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، و منار الحكمة، و دليل المعرفة لمن عرف الصفة» (الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)[١].

«نور لا تطفأ مصابيحه، و سراج لا يخبؤ توقده، و بحر لا يدرک قعره، و منهاج لا يضل نهجه، و شعاع لا يظلم ضوئه، و فرقان لا يخمد برهانه، و تبيان لا تهدم أركانه، و شفاء لا تخشى أسقامه، و عز لا تهزم أنصاره، و حق لا تخذل أعوانه، فهو

---

١. أصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠.

معدن الإيمان و بحبوحته، و ينابيع العلم و بحوره، و رياض العدل و غدرانه، و أثافي الإسلام و بنيانه، و أودية الحق و غيطانه، و بحر لا ينزفه المنتزفون، و عيون لا ينضبها الماتحون، و مناهل لا يفيضها الواردون، و منازل لا يضل نهجها المسافرون، و أعلام لا يعمى عنها السائرون و آكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريا لعطش العلماء، و ربيعا لقلوب الفقهاء، و محاجا لطرق الصلحاء، و دواء ليس بعده داء، و نورا ليس معه ظلمة، و حبلا وثيقا عروته، و معقلا منيعا ذروته، و عزا لمن تولاه، و سلما لمن دخله، و هدى لمن ائتم به، و عذرا لمن انتحله، و برهانا لمن تكلم به، و شاهدا لمن خاصم به، و فلجا لمن حاج به، و حاملا لمن حمله، و مطية لمن أعمله، و آية لمن توسم، و جنة لمن استلأم، و علما لمن وعى، و حديثا لمن روى، و حكما لمن قضى» (أمير المؤمنين علي عليه السّلام)[١].

المدخل

إن كلمة اللّه هي إله الكلمات، فلا تفسر إلا بكلمات اللّه

«و القرآن يفسر بعضه بعضا و ينطق بعضه على بعض»[٢]

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣ ص ٢٠٢.

٢. نهج البلاغة عن علي عليه السلام.

و التمسک بالکتاب في الأمور المشتبهة إصلاح لها و وصول للرشد فيها، و القرآن أحق و أولى أن يمسّک في تفسيره بنفسه: «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» (٧: ١٧) «وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» (٤٢: ١٧).

و قد يفسّر بالسنة القطعية الصادرة عن النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إطلاقا، أو عن خلفائه المعصومين الاثنى عشر دون تقية، و الميزة الصالحة لتمييز الغث عن السمين كتاب اللّه، يرد إليه، و يقاس عليه كل حديث، فيصدّق ما وافقه و يرد او يؤول ما خالفه او لم يوافقه، كما نجده في آيات العرض[1] و أحاديثه المتواترة[2]: «فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (٤: ٥٦)، «و أردد إلى الله و رسوله ما يضلعک من الخطوب و يشتبه عليک من الأمور.

و الرد إلى الله الأخذ بمحکم كتابه، و الرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة»[3].

---

١. و مثلها الآية ٧: ١٧ ـ الأمرة بالتمسک بالکتاب و ٤٢: ١٧ ـ التي ترجع الاختلاف الى الله

٢. راجع جامع أحاديث الشيعة لاستاذنا الأقدم الأعظم الامام السيد البروجردي قدس الله روحه

٣. نهج البلاغة.

و ليس لأحد أن يضرب القرآن بعضه ببعض، و ينثر آياته البينات نثر الدقل دون رعاية لرباطاتها و قد رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوما يتدارءون، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

هلك من كان قبلكم، بهذا ضربوا كتاب اللّه بعضه ببعض، و إنما نزل كتاب اللّه يصدّق بعضه بعضا، فلا تكذّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، و ما جهلتم فكلوه إلى عالمه[١]

«و خرج صلى الله عليه و آله و سلم على قوم يتراجعون القرآن و هو مغضب فقال: بهذا ضلت الأمم باختلافهم على أنبيائهم و ضرب الكتاب بعضه ببعض»[٢].

فعلى المفسر التدبر التام في آي الذكر الحكيم، أن يستنطق كل آية بنظائرها في المغزى، و يستفسر عنها من أشباهها و نظائرها فلا يجد أي اختلاف في القرآن:

«أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (۴: ۸۲) عبارات و معاني، قوانين و مباني، إخبارات و إنشاءات فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، و اختلاف المفسرين من جرّائه و من اختلاف أفهامهم، هذه

١. الدر المنثور، أخرج أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه (ص).

٢. الدر المنثور، أخرج ابن سعد و ابن الضريس في فضائله و ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه (ص).

الاختلافات تردّ على القرآن نفسه، فلا يصدّق عليه إلا ما يصدّقه، و إذا احتملت اللفظة و الآية وجوها عدة متلائمة فلتصدّق كلها، و إذا كانت متنافرة فأوجهها دلاليا و معنويا.

لذلک لا تجد في هذا التفسير مجالا لاختلاف الأقوال، إذ نحاول في تفسير الآيات الحصول على المعاني اللائقة بكتاب اللّه العزيز دون تأويل و تفسير إلا ما يصدقه الكتاب نفسه. و لا أدعي أنني أفسر كتاب اللّه كما يحق، إنما كما أستطيع على ضوء الدلالات القرآنية، و أتشرف بقبول أيّ نقد من أيّ ناقد خبير بصير، علنّا نوفق للأحرى فالأحرى من معاني القرآن.

و قد ابتدأنا بالجزء الثلاثين، لأن السور التي يضمها هي بداية الوحي الشامل لما يحتاجه البدائيون في معرفة الإسلام، فلنبدأ بها كلنا، علنا ندخل المدينة من بابها.

و سوف تصدر هذه الأجزاء تباعا، نصدرها عما كتبناها سابقا من دراسات التفسير التي ألقيناها على طلّاب علوم الدين في الحوزتين المباركتين (قم و النجف الأشرف) على زيادات و تنقيحات لفظية و معنوية، تفسيرا للقرآن بالقرآن متنا و بالحديث هامشا، و على اللّه قصد السبيل.

نصدرها بإذن اللّه تعالي و حسن توفيقه إجابة للمئات من طلبات طلاب علوم

الدين في الحوزتين المباركتين، و الذين انتشروا منهم في مختلف البلاد لبث الدعوة القرآنية، حفظهم اللّه و أيدهم اللّه جميعا لما يحبه و يرضاه.

و مما يجب أن يعرفه القراء الكرام أن الأرقام الأولى في هذا التفسير هي أرقام السور، و الثانية هي الآيات القرآنية، و هي في سائر الكتب السماوية إشارة إلى الفصول ثم الآيات و قبلهما اسم الكتاب.

مكة المكرمة في ۱۳ محرم الحرام ۱۳۹۷ هجرية محمد الصادقي

سورة النبأ ـ مكية ـ و آياتها أربعون

[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَساءَلُونَ (۱) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (۲) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (۳) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (۴)

ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (۵)

تساؤلات مرت و تستمر مدى الأجيال عن أنباء الغيب، و «يَتَساءَلُونَ» هنا

يشمل كافة التساؤلات عن الأنباء العظيمة طوال الزمن، فلم يقل: «تساءلوا» كي لا يختص بغابر الزمن، و إنما «يَتَساءَلُونَ» لكي يعم الغابر و المستقبل و الحاضر، و في القرآن إجابة عن كافة التساؤلات بما أنه كتاب الخلود.

عَمَّ يَتَساءَلُونَ:

مطلع يحمل تنديدا شديدا بالمتسائلين عن النبأ العظيم، ليس لأنهم سألوا تعلما و تفهما، فإنه موضع تبجيل لا تخجيل، و إنما لأنهم حينما يصدّقون الأنباء غير العظيمة، ما يصلح لحيونة الحياة، و حينما يصدّقون و يهرولون إلى الخرافات اللامعقولة التي يستنكرها العقل و الدين، و حينما يصدقون ـ دون تساؤل و تراجع ـ كل ما يتلائم و شهواتهم، فهؤلاء هم يتساءلون عن النبإ العظيم هزءا و إنكارا و تعنتا و استنكارا، بعد فلجهم في إبطاله، و فلح النبإ العظيم و أهله في إحقاقه، و بعد ما قامت البراهين من كل الصنوف وضح الشمس في رابعة النهار، قامت لإثبات و إحقاق أنباء الغيب العظيمة.

و التساؤل هنا يشمل ما هو بينهم، بعضهم مع بعض، تفكها، و ما هو منهم عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين تعنتا و هزءا، و ما هو بينهم و قلوبهم المقلوبة التي زالت عنها نور المعرفة: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ»

(۸۳: ۱۴) فالتساؤلات هذه كلها حابطة ساقطة ما لم ترد بـها استـنباط الحـق و استعلامه «عَمَّ يَتَساءَلُونَ»؟

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ فما هو النبأ؟ و ما هو عظمه؟ و ما هو الاختلاف فيه؟

النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غالب ظـن، و الخـبر الحـق الذي يتعرى عن الكذب، و النبيء هو الموحى إليه بأخبار الحق و الصدق، حاملة كافة البراهين المصدقة لهما ثم إذا كان النبأ عظيما كانت الفائدة و العلم فيه أعظم، دون أن يتطرق إليه أية شائبة و ريبة اللهم إلا جهلا و عنادا ممن لا يهوى إلا هـواه، و لا يهدف هداه.

و أول الأنباء العظيمة ـ منذ بزوغ الإسلام ـ هو نبأ الرسالة الاسلامية التي حملها الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فنبأ الرسالة المحمدية هو أعظم الأنباء الرسالية في تاريخ الرسالات، و لأنها تشملها كلها و فيها مـزيد هـو رمـز الخلود.

ف «لما بعث النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جعلوا يتساءلون بينهم فـنزلت

«عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ»[١]

«بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ» (٥٠: ٢).

فهذه الرسالة السامية كانت نبأ عظيما تحمل كافة الأنباء العظيمة: «وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» (٣٥: ١٤).. إنه نبأ و نبيء و نبيّ أمر بالإنباء: «نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ» (١٥: ٤٩)، فإنذار النبي و إنبائه نبأ التوحيد، هما من الأنباء العظيمة، و قد بدأ بنبإ التوحيد: لْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّـهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ. رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ. قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (٣٨: ٦٥ ـ ٧٠).

أجل، و إن نبأ التوحيد هو الركيزة الأولى من أنباء هذه النبوة السامية.

ثم القرآن نبأ عظيم لأنه المعجزة الخالدة لهذه الرسالة السامية، و أنه يحمل كافة أنباء الغيب «تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (١١: ٤٩) «وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما

---

١. الدر المنثور ج ۶ ص ٣٠٥، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن الحسن قال:..

نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ» (۱۱: ۱۲۰)[1].

و نبإ المعاد نبأ عظيم بعد التوحيد، و هما الهامتان في نبأي الرسالة و القرآن:

«هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ. بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ» (۳۴: ۷ ـ ۸) «وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» (۱۰: ۵۳).

هذه هي الدعائم الأربع من الأنباء العظيمة، تشملها: «النَّبَإِ الْعَظِيمِ» جنس النبأ العظيم لمكان «ال» لا شخصه لكي يفسر بخصوص المعاد ام ماذا ترى إن المعاد نبأ عظيم و ليس التوحيد؟ و ليس القرآن؟ و ليس نبي القرآن؟ و هي لا تنقص عنه و قد تزيد! و من الأنباء العظيمة هي استمرارية الولاية و الحكم المحمدي المتمثل في أخيه و نفسه و وليه و خليفته علي أمير المؤمنين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من ولده المعصومين، و كما يخاطبه الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنبإ العظيم:

«أنت حجة الله و أنت باب الله و أنت الطريق إلى الله و أنت النبأ العظيم و أنت

---

۱. الدر المنثور ۶: ۳۰۵، أخرج ابن مردوية عن ابن عباس أنه القرآن.

الصراط المستقيم و أنت المثل الأعلى»[١].

و كما

يقول هو عن نفسه: «و إني النبأ العظيم»[٢].

و في وجهة عامة هو الولاية ـ على حد تفسير

الإمام الصادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[٣] ـ ولاية اللّه و الرسول و الأئمة بعد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد تتلخص في حكم اللّه على العباد.

الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ:

كان الكفار مختلفين في هذه الأنباء العظيمة، في أصولها و في كيانها، رغم اتفاقهم على عدم تصديقها كما يجب.

فمن تقولاتهم في نبإ النبوة: «كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (٥١: ٥٢) «أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» (٥٢: ٣٠).

.. ساحر أو مجنون أو شاعر، تقولات ثلاث حول نبإ النبوة الذي هم فيه

---

١. نور الثقلين ٥: ٤٩١ ح ٨ عن عيون الأخبار عن الرضا (ع) عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي قال: قال رسول اللّه (ص)..

٢. نور الثقلين ٥: ٤٩١ ح ۶ عن روضة الكافي خطبة الوسيلة.

٣. نور الثقلين ٥: ٤٩١ ح ۴ في اصول الكافي بالإسناد عنه (ع).

مختلفون، بين طرفي الإفراط «ساحر شاعر» و التفريط «مجنون» بين فاقد العقل و راجح العقل.

و في نبإ القرآن: «وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (۱۶: ۱۰۳) «وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» (۲۵: ۵)، «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (۲۹: ۴۸)..

.. انحرافات ثلاث عن نبإ القرآن: ۱ ـ أنه من تعليم بشر سواء أكان حقا أم باطلا. ۲ ـ أنه من أساطير الأولين و خرافاتهم. ۳ ـ أنه مجموعة من سائر الكتب السماوية. و المبطلون هنا لا يرتابون[1] و إنما يعاندون.

و في نبأ التوحيد: «أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب.

و انطلق الملأ منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق» (۳۸: ۴ ـ ۷).

فهذا هو الإشراک، ثم إلى سائر الاختلاقات و الاختلافات عن صميم التوحيد من تثنية و تثليث و حلول و تجسيد.

---

۱. لأن الارتياب ليس إلا في أمر مريب، و أمر القرآن ليس مريبا بعد ان زالت: الاكتتاب و القراءة و الجمع: الم ذلِکَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» مهما شكوا فيه دونما حجة!.

و في نبإ المعاد: من إنكاره إطلاقا: «وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (۴۵: ۲۴)..

أو إنكاره جسدانيا: «وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» (۳۶: ۷۸)..

أو نكران الحساب بعد الموت بغفران شامل أو تكذيب الجنة و النار، أو تخصيص الحياة بالجنة، و غير ذلک من الإنكارات.

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ إن كون النبإ متساءلا عنه، و اختلاف المتسائلين أنفسهم ـ إنهما يوحيان بسفه التساؤل هنا و سقوطه، فلو كانوا على بينة من نكرانه لكانوا متوافقين في مدى نكرانه.. لكنه كلا ـ إنه نبأ عظيم: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم عظيم، يملک من البراهين كل أنواعها: العقلية و الواقعية، الآفاقية و الأنفسية.

فلقد يكفيهم اختلافهم، و يكفيهم نصوع النبإ، يكفيانهم لدحض افهامهم و تسفيه أحلامهم، و هكذا إجابة في الإيحاء، دون إدلاء بحقيقة المتساءل عنه، تلويحا بالتهديد الملفوف، و توصيفا للنبأ، إنه أوقع من الجواب المباشر، و أعمق في التخويف و أعرق في التبكيت.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ إنه ليس كما يزعمون ـ فسيعلمون بعد إذ كشف الغطاء بالموت، بعد إذ قضي على حياة الجسد. «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» في الحياة الثالثة و الأخيرة، يوم الفزع الأكبر، يوم القيامة الكبرى، علم ثم علم، بعد جهل على جهل، تجاهلا سفيها مارقا.

إن هذا الجهل أو التجاهل المتمادي سيزول قريبا بالموت، و لا نقول: سوف يزول، بل إنه سيزول: «سيعلمون» * إذ إن كل آت قريب، و: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً» (۷۰: ۷) قريب في التصور، و قريب في التصديق، و قريب في الواقع، و قريب في الوقوع، رغم استبعادهم له لحد الإحالة.

فالمتسائلون هنا المستهزئون بالنبإ العظيم، إنهم محكوم عليهم في حياة التكليف بالآيات البينات، و محكوم عليهم في حياة الجزاء إذ يرونهم في الأمر الواقع الذي استنكروه و تساءلوا عنه: سيعلمون بعد الموت: الحياة البرزخية، ثم بعدها في الحياة الآخرة، علما أوسع و أثبت منها، كما العلم البرزخي أوسع مما في الحياة الأولى.

[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۶ الى 16]

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (۶) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (۷) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (۸) وَ جَعَلْنا

نَوْمَكُمْ سُباتاً (٩) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (١٠)

وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (١١) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (١٢) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (١٣) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (١٥) وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (١٦)

.... تكريس للكون، من آفاقه الأرضية و السماوية، و من الأنفسية برهانا لنبإ التوحيد الذي هو أصل الأنباء و مبدأ الأنباء.. ثم آيات أخرى تكرس نبأ المعاد و هو يتلو نبأ التوحيد، و بينهما نبأ النبوة و القرآن ـ المبينان لهما ـ يدمجهما في أصلي المبدإ و المعاد كما هو دأب القرآن،

الجبال الأوتاد:

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً:

إنها كانت أرضا و لم تكن مهدا و لا مهادا: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا» (٢٠: ٥٤)، و لا ذلولا: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ» (٦٧: ١٥)، كانت شماسا لا تذل الراكب و لا

تحنّ لعائش[١].

إن جعل الأرض مهدا و مهادا و ذلولا يوحي بحقائق عدة كانت مـجهوله لدى الإنسان حتى زمن نزول القرآن، منها حراک الأرض دائبا منذ خلقت إلا أنها كانت شماسا مجنونة الحراک، فجعل الجبال أوتادا لهذا المهد لكي تسكن من الميدان.

وَ الْجِبالَ أَوْتاداً:

فإنها كانت جبالا و لم تكن أوتادا، فأرساها اللّه تعالى في قطع أديمها:

«و عدل حركاتها بالراسيات مـن جـلاميدها و ذوات الشـناخيب الشـم مـن صياخيدها فسكنت من الميدان برسو الجبال في قطع أديمها»

«فسكنت على حركاتها من أن تميد بـأهلها أو تسيخ بـحملها أو تـزول عـن مواضعها، فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها و أجمدها بعد رطـوبة أكـنافها فجعلها لخلقه مهادا و بسطها لهم فراشا فوق بحر لجي لا يجري و قائم لا يسري، تكركره الرياح العواصف، و تـمخضه الغـمام الذوارف، إن فـي ذلک لعـبرة لمـن يخشى»[٢].

---

١. «جعل» المتعدي إلى مفعولين، يفيد الجعل المركب، أي جعل الشيء شيئا آخر لا جعله بمعنى خلقه ـ ف «جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا»، أي جعل حالة التذلل لها بعد ما كانت شماسا.

٢. نهج البلاغة في مواضيع عدة عن امير المؤمنين علي عليه السلام.

فهنا مسألتان هامتان من أهم مسائل التكوين هما: الأرض المهاد المتحركة، و الجبال الأوتاد. و من الضروري لهذه المهاد المضطربة الشموس أن توتّد. لكي تسكن عن الاضطراب على حركتها، فإن بها مساک الأرض و قوامها و اعتدالها و ثباتها كما يثبت البيت بأوتاده و الخباء على أعماده، مساكا عن اضطرابها و ميدانها لا عن حركاتها

«أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال و أرساها على غير قرار و أقامها بغير قوائم و رفعها بغير دعائم و حصنها من الأود و الاعوجاج و منعها من التهافت و الانفراج، أرسى أوتادها...»[١]

فالأرض المهاد، هي مهاد للحياة عامة، و للحياة الإنسانية بصورة خاصة، تمهد الحياة للإنسان بسهلها و جبلها و مائها و فضائها و حركاتها، مهاد كالمهد، و مهد تريح الإنسان عن أعباء الحياة بحركاتها المعتدلة المتناسقة المتلائمة.

فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض و خلق الحياة على الأرض، هذا الاختلال يخرجها عن الأرض المهاد إلى الأرض الشموس العتاد.

و جبال الأرض ـ الأوتاد ـ هي أشبه شيء بأوتاد مهد الطفل، تحفظ توازنها في

---

١. من خطب أمير المؤمنين علي (ع)، و سوف نأتي على بحث فصل حول حركات الأرض في سورة المرسلات و سواها، و حول أوتاد الجبال في أنسب مواضيعها.

حراكها، و تعادل بين نسب الأغوار في البحار و نسب المرتفعات في الجبال، و تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض و تقلصاتها السطحية، و لأسباب أخرى نجهلها، أشار القرآن الكريم إليها، ثم عرف الإنسان طرفا منها يسيرا، على جهوده العلمية المتواصلة، و بعد مئات السنين.

هذه الأرض المهاد و الجبال الأوتاد، هي من البراهين الساطعة على وجود مدبّر واحد عظيم عليم قدير حكيم، و إنها من أدلة النبإ الأول من الأنباء العظيمة: «نبأ التوحيد» إذ ليس بالإمكان أن يحصل هذا التدبير دون مدبر، أو يدبره أرباب متشاكسون.

خلق الأزواج:

وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً:

الزوج هو المماثل الملائم، فكما خلق اللّه الأرض و الجبال متلائمين مع بعض، كذلك الإنسان خلقه اللّه أزواجا: أزواجا مع الأرض التي يعيشون عليها، ملائمة طباعهم معها، و أزواجا بعضهم مع بعض في كافة النواحي الجسدانية و الحيوية، دون منافرة ذاتية هنا و هناك.. أجل: «ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ»: منافرة ذاتية، اللهم إلا أن يتنافروا بينهم بسوء الإختيار.. ثم أزواجا مع نبات الأرض و

حيوانها، إذ يعيش معها مفيدا لها مستفيدا منها.. فالكون كله أزواج رغم اختلاف الأشكال. ف «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» (۳۶: ۳۶).

«وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ» (۴۳: ۱۲) الفرقان في تفسير القرآن (۲)

.. فهنا تزويج بين الإنسان و الفلک و الأنعام، و هناک بين الكون كله، و إن كان الإنسان هو من أهم الأزواج، و له خلقت سائر الأزواج[۱].

و هذه الملاءمة الذاتية بين أجزاء الكون، و الازدواجية الخلقية بينها، إنها برهان آخر على نبإ التوحيد، توحي لنا وحدانية الخالق المدبّر، لا سيما زوجية الذكورة و الأنوثة الكافلة لرغد العيش، و لبقاء النسل و كثرته.

فقد خلق اللّه الإنسان ذكرا و أنثى: «يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً» (۴۲: ۵۰).

و جعل حياة هذا الجنس و امتداده قائمة على اختلاف الزوجين و التقائهما، و كل إنسان يدرک ما وراءها من لذة و راحة و متعة و تجدد، و لأهمية ازدواجية

---

۱. سوف نبحث عن زوجية الكون أجمع على ضوء الآيات في أقرب المناسبات، و إن ذلک من معجزات القرآن - العلمية.

الحياة نرى الآيات تترى في المنّ و التذكير بها.

فهل يا ترى أنها الفوضى: أن تصبح النطفة ذكرا، و أخرى مثلها أنثى ـ على وحدتهما في الصورة و المنشأ؟ سبحان الخلاق العظيم

النوم السبات:

وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً:

إن مهاد الأرض و أوتاد الجبال و ازدواجية الكون بأنساله ـ على كونها من أهم النعم الدالة على نبإ التوحيد ـ إنها تبقى منفية الأثر عديمة الثمر لو لا أن الإنسان ينام، فكما أن حراك الإنسان في الحياة من النعم، كذلك سباته: (قطعه) عن الحراك نعمة، لولاها لما استقامت للإنسان حياة، و اندثر كيانه قبل قيامه بصالح الحياة..

جلّ من لا تأخذه سنة و لا نوم، فالكون كله في سنة و نوم ـ مما يدل على ضعفه و عدم استقلاله ـ إلا اللّه الواحد القهار.

إن النوم من رحمات اللّه و آياته: «وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ» (٣٠: ٢٣): آية العلم و الحكمة و القدرة الإلهية، و آية للموت و الحياة بعد الموت: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ» (۳۹: ۴۴) «وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (۶: ۶۰).

«وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً»: سكنا عن حركات التعب و نهضات النصب، لتجديد قوى الحياة، و جعل الليل لباسا لهذا السكن، سكنا على سكن: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ..» (۱۰: ۶۷) «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً» (۲۵: ۴۷)، فلو لم يكن الليل لم يكن سكن، و لو لم يكن النوم لم يكن سبات: «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ» (۲۸: ۷۱ ـ ۷۲) نوم سبات في ليل سكن على مهد الأرض، و يا لها من نعم لا تحصى.

مهد مهّد اللّه لنا فيه كل حاجيات الحياة حتى الممات، و سبات يقطعنا عن زعزعات الحياة و ينقل بنا إلى حياة البرزخ لنسكن مع الأحياء فترة هناك، ثم نرجع علنا نجدّد الحياة، و سكن يمهد لنا حراكا أقوى و أبقى مما لو لم يكن سبات و لا سكن.. فهل يا ترى أنها فوضى و صدفة عمياء؟ سبحان الخلاق العظيم! ثم لنعرف ما هو مدى هذا السبات، هل إنه سبات عن الحياة كل الحياة؟

أم سبات عن العمل مع بقاء الحياة كما كانت، أم سبات قسري عن أعمال الحياة الاختيارية: عقلانية و جسدانية، و تبقى الأعمال و الحركات القسرية الضرورية لإبقاء الحياة حالة المنام، فحالة السبات حالة لا موت و لا حياة، موت شيئا مّا و حياة شيئا مّا، إنه اندفاع الروح الإنساني مع الحيواني الإرادي إلى عمق الحياة، و انصراف لهما مؤقتا عن الحياة الدنيا ببدنها و هذه الحالة تتكفل بإراحة الإنسان نفسيا و جسدانيا، و تعويضه عن الجهد الذي بذله حالة الصحو و الانشغال بأمور الحياة.. و إنه هدنة للروح من صراع الحياة العنيف، تلمّ بالإنسان ليلقي سلاحه و يستسلم لفترة من السلام، و هذا هو الصحيح عن واقع النوم.

فإنه قفزة مؤقتة إلى حياة أعمق و كيان أعرق، سوف يقفز الإنسان إليه دون رجوع: «وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».. و ما أشبه المنام بالممات، إذ يذكّر الإنسان بحالة الممات: «وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (۶: ۶۰).

هذا السبات المؤقت عن كامل الحياة ثم الرجوع إليها، إنه من البراهين الواقعية لنبإ المعاد إضافة إلى نبإ التوحيد: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (۳۹: ۴۲).

فمن هنا تأخذ ازدواجية البرهان موقفها الحاسم، بعد وحدتها لنبأ التوحيد، ازدواجية تضم نبأ المعاد إلى نبإ التوحيد، و من ضمن النبأين الأصيلين توحي إلى نبأي النبوة المحمدية و القرآن، حيث البراهين تسبر أغوار الكون الخفية و حتى الآن، فضلا عن زمن نزول القرآن.

فمهاد الأرض، و أوتاد الجبال، و كائنات الأزواج، و النوم السبات، و الليل اللباس، إلى سائر الحالات المسرودة هنا من الكائنات، إنها إنباءات غيبية ليست من حصائل التفكير لإنسان الأرض كإنسان، و لا سيما الأمي الذي لم يدرس شيئا: «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (١٠: ١٦).. إنما هي من وحي السماء، سبحان الخلاق العظيم!

النوم في منطق العلم و الحديث:

من مقالات الإمام جعفر الصادق عليه السّلام حول المنام: «ما من حي إلا و هو ينام خلا الله وحده عز و جل»[١]..

هذا ـ و الواقع العلمي و الكوني يبرهنان على الضرورة الحيوية إلى النوم لكل حي: نبات و حيوان و إنسان:

---

١. سفينة البحار ٢ ص ٥٤٧.

«إن ظاهرة النوم في الكائن النباتي تظهر ـ على الأكثر ـ في اختلاف حالة التنفس و تصاعد الدبوس النباتية، فهي تعاكس عملية التنفس بين الليل و النهار، ففي النهار تأخذ الكربون و تدفع الأوكسجين، و في الليل تأخذ الأوكسجين و تدفع الكربون، و لذلك نراها تصعد دبوسها في الليل أكثر مما في النهار ـ و في البعض من النباتات نرى حالة تشبه حالة الحيوان، كوردة الأبريسم و أقاقيا، فإنهما تجمعان أوراقهما ليلا»[١].

«ثم نرى في الكائن الحيواني أن حالتي النوم و اليقظة لزام له دون استثناء، و كلما تكامل مخ الحيوان نرى الاختلاف بين حالتيه أكثر، و النظم فيهما أظهر.

و لقد دلت الفحوص حول مختلف الحيوان أن لوضح النهار و ظلم الليل ـ على الأكثر ـ تأثيرا عميقا في نومها و يقظتها.

فقد نرى الطير تأخذ في دورها الفعال منذ إشراق الشمس، و تلجأ إلى أكنانها عند غروبها.. و أثبتت التجربة أن النور الشديد في ظلم الليل يجعل الطير تأخذ في دور النهار.

ثم نرى فريقا آخر من الحيوان أن نومها لا يناط بالليل، فتجعل الليل نهارا و

---

١. النوم و الرؤيا ص ١٥.

النهار ليلا كالعكس، دون تمييز بينهما للنوم و العمل.

ثم نرى ثالثا تعكس الأمـر تـماما فـتجعل النـهار ليـلا فـتأخذ كـلا كـعكسه كالخفاش»:

«فهي مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها، و جاعلة الليل سراجا تستدل به في التماس أرزاقها، فسبحان من جعل الليل لها نهارا و معاشا و النهار سكنا و قرارا»[١].

ـ ثم نرى البعض من الحشرات أنها لا تعرف النوم طوال أشغالها الطويلة الزمن كالنمل، فهي تدور في تهيئة أرزاقها في غير الشتاء، ثم تستريح و تنام في الشتاء.

هذا «و لكن الإنسان لا يستطيع الإدمان في الشغل و ترك النوم لأكثر من عشرة أيام، ثم الموت قطعا»[٢].

و على أية حال لا تجد حيا في الكون إلا و هو بحاجة ملحة إلى النوم، مـهما اختلفت أوقاته و مقاديره، و من ثم نرى القرآن يمن فيما يمنّ على الإنسان بجعل النوم سباتا.

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً. وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً:

«أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذٰلِکَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

---

١. نهج البلاغة، الخطبة: ١٥.

٢. النوم و الإنامة ـ أو ـ هيبنوتيزم ص ١٢.

يُؤْمِنُونَ» (٢٧: ٨٦) «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً» (٢٥: ٤٧) «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً» (٤٠: ٦١).

توحي لنا هذه الآيات البينات أن الليل لصالح الراحة و المنام، و النهار لصالح الإبصار فالنشور لابتغاء فضل اللّه و رحمته، و هذا هو الأصل الأول في قرار الليل و النهار، و إن كان للإنسان أن يلفق بينهما و يعكسهما: «وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» (٣٠: ٢٣) «وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٢٨: ٧٣).

و هذا جعل ثان ينوب عن الأول شيئا ما عند الحاجة، و فيما لزم عكس الأمر، و إن كان الالتزام بالأول أحرى و أصلح لراحة الإنسان، و هذه الحرية في تبديل وقت المنام للإنسان هي في عداد فضائله على سائر الحيوان الملزمة خلقيا بأوقات خاصة لا تتبدل.

ترى في الآيات الأولى فكاكا بين الليل و النهار للنوم و الشغل، حينما الآيات الأخيرة تجمع بينهما للأمرين، لكيلا يظن أن في نوم النهار و شغل الليل محظورا،

بعد ما نعلم أفضلية المنام في الليل و الشغل في النهار، و الواقع الملموس يشهد أن قليل النوم في الليل أريح بكثير من كثير النوم بالنهار، و أن نوم النهار يأتي بالكسل و الفشل.

الليل اللباس و النهار المعاش:

اللباس ما يلبس الإنسان و يستره، ستر الجسد للجسد كلباسه من عورته او الروح من طغواها كتقواها: «قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً» (٧: ٢٦) و سترا له عما يصطدمه من حر أو برد أو بأس دون ذلك: «وَ جَعَلَ لَكُمْ... سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ (١٦: ٨١)، أو سترا للروح من طغيانها و تخلّفها عن شريعة اللّه: «يا بني* آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (٧: ٢٦).

و مما يقي الإنسان لباس الجنس: لباس النساء للرجال و الرجال للنساء:

«.. هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ..» (٢: ١٨٧) يلبس البعض البعض من حملة الجنس الشاذة، و من حيرة الحياة و وحدتها.

أو سترا للإنسان روحيا و جسديا عن عبء الأشغال، و سباتا عن حراب الحياة في محراب المعاركات و هذا الأخير هو لباس الليل ينير بظلمه على الإنسان درب

الحياة جديدة، هدنة للروح و الجسد من صراع الحياة العنيف، لباس هدنة تلم بلابسه فيلقي سلاحه و جنته و يستسلم لفترة السلام الآمن، الذي يحتاجه الإنسان تبقية و تنشيطا لحياته.. فهذا هو الليل اللباس: لباس على الإنسان كما هو لباس على النهار و كما النهار لباس الليل: «وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ» (۳۶: ۳۸) سلخ لباس النهار عن الجو، و إلباس الجو لباس الليل، و كما هو لباس على لباس النساء في ضجعة الجنس:

«يلايل الرجال من النساء»[۱].

ثم النهار هو معاش: زمن العيش التمام حيث اليقظة التامة، و زمن المعيشة و تحصيلها رغدا[۲].

و الليل اللباس و النهار المعاش آيتان لنبإ التوحيد و المعاد:

«وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً» (۱۷: ۱۲) ليل الموت كما هو للنوم «فالنوم أخ الموت» و نهار النشور كما هو للحياة

---

۱. نور الثقلين ج ۵ ص ۴۹۲ ح ۱۴ عن علل الشرايع باسناده إلى عبد اللّه بن يزيد بن سلام أنه سئل رسول اللّه (ص) فقال: أخبرني لم سمي الليل ليلا؟ قال (ص): لأنه يلايل الرجال من النساء، جعله اللّه عز و جل ألفة و لباسا، و ذلك قول اللّه عز و جل «وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً»، قال: صدقت يا محمد!..

۲. المعاش: هو المعيش، مصدر ميمي و اسم زمان و مكان، فهو كما في المتن: زمن العيش واقعيا و تحصيلا لوسائل العيش، و هو نفس العيش.

التمام، فهما آيتان دائبتان للحياة بعد الموت كما اليقظة بعد النوم.

وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً:

.. سبع شداد هي السماوات و الأجواء السبعة، و أقربها إلينا هي السماء الدنيا، سماء الكواكب.

لقد بنيت هذه السبع الشداد من الدخان الصاعد من الماء المضطرم: المادة الاولية لخلق الكون أجمع، إذ فجّرها ربها و أضرمها فصعد منها دخان هي مادة السماء و السماوات السبع، و أزبدت زبدا هي مادة الأرض و الأرضين السبع[١].

فمم بني السبع؟ و ما هو السبع؟ و ما هو الشداد؟

إنها بنيت من الدخان الصاعد من اضطرام المادة الأولية لخلق الكون:

«الماء» *[٢]: «.. ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً

---

١. البحث الفصل حول خلق السماوات السبع و الأرضين السبع محول إلى مجالها الأنسب فالأنسب كالآيات من «فصلت» * و «النازعات» و أمثالها، و هنا نشير شيئا ما الى بناء السماوات و شدادها من دخانها.

٢. لا نعني الماء المعروف عندنا فإنه أيضا مخلوق من مادة أولية، إنما هو تعبير عن كيان تلك المادة و أنها مسانخة الأجزاء و كأبسط تركيب من كائنات العالم، و البحث الفصل تجده في سورة هود عند قوله تعالى:.. و كان عرشه على الماء، و شاهدا على ذلك ـ إضافة إلى الواقع الملموس ـ روايات عدة عن مصادر الوحي:

منها ما

رواه الكليني عن محمد بن مسلم قال: قال لي أبو جعفر (ع) كان كل شيء ماء و كان عرشه على الماء فأمر الله تعالى الماء فاضطرم نارا ثم أمر النار فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان و خلق

←

أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (٤١: ١١ ـ ١٢).

و الدخان هو المستصحب للهيّب، و ليس للماء المغلي لهيب، و إنما هو لما يصعد من احتراقه نار ملتهبة، من حطب و فحم حجري و بترول.. و من الذرات و فوق الذرات المتفجرة، و قد يصل الالتهاب إلى ٧٠ مليون درجة كمركز الشمس الذي لا يبقى فيه أي تركب جسماني إلا ما يحافظ على كيان المادة لحدّ مّا، و لذلك فإن مركز الشمس لا يحمل إلا الئيدروجينات التي هي أبسط الذرات فيما نعرف.

و هناك غازات لها ٢٨٠ مليون درجة من الحرارة كمركز الشعرى، و إنها بعيدة عنا ٠٠٠، ٥٠٠ أضعاف بعد الشمس، و لو كانت على بعد الشمس لكانت درجة الحرارة في كوكبنا الأرضي ٤٠ ضعف الآن.

و هناك غازات لم يعرفها العلم حتى الآن، و كل هذه الحرارات و الغازات هي ولائد الغاز (الدخان) الأول، الناتج عن التفجّر الأول للمادة الأولية، و هي أم

← الأرض من الرماد»..

في آخر عنه (ع): «فجعل نسب كل شيء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف إلى شيء»،

و معلوم أن ماءنا المشروب، له نسب هما ذرتا الهيدروجين و الأوكسجين، و هما أبواه.

الكائنات.

إنها تفجرت فأولدت دخانا ساطعا إلى الجو العالي، و أزبدت زبدا ربّتها عندها، ثم الولد المتخلف الفرار ظل دخانا إلى أن قضاه اللّه سبع سماوات.

ثم من هذا الدخان خلقت السبع الشداد، أجواء سبعة متداخلة: «.. الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً..» (۶۷: ۳) أدناها إلينا سماء الأنجم: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ» (۳۷: ۱۰) «وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» (۶۷: ۵).

أجل إنها: السماء الدنيا، لا سماء الدنيا، إنما السماء الموصوفة بأنها الدنيا:

أدنى السماوات السبع إلينا، و كرتنا الأرضية هي من أصغر كواكب السماء الدنيا إذا فليست السبع عددا دون مفهوم[۱] و لا عددا للأجواء السبعة للسيارات السبع[۲] فإنها مع المليارات من المجرات الحاملة للكواكب، هي كلها في السماء الدنيا، ثم لا ندري ما هو في الست الباقية.

و إنها شداد، فالسماء هنا لا تعني الفضاء و الجو الخالي، او بما فيه من كواكب بل هي جو يحمل أجراما غازية ـ خفيفة و ثقيلة ـ من النوع الذي خلقت منه الكواكب،

---

۱. كما يصر به و يكرره الشيخ الطنطاوي دون تفكير في الآيات المعنية.

۲. و كما يقوله السيد هبة الدين الشهرستاني في كتابه الهيئة و الإسلام، و تجد البحث الفصل في طيات التفسير عند الأنسب من الآيات فالأنسب، و هنا آيات تسع تصرح بعدد السبع و لا مبرر في تأويلها إلا الجهل.

و كما عرفنا من الآيات في «فصلت»: أن السماوات السبع ـ و الكواكب في دنياها، إنها كلها ـ خلقت من الدخان الأمّ: «ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (٤١: ١١ ـ ١٢).

و كما القرآن يوحي أن المملكة السماوية في توسع دائم في بلادها: «الكواكب» «وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» (٥١: ٤٧): لموسعون بناءها بما فيها من كواكب و أنجم و بروج، من الدخان الأمّ.

تسمع لفظة الدخان و علك تظنه غازا رقيقا، رغم أن اللهيب الذي يستصحب الدخان ليس نوعا واحدا كلهيب الحطب، فقد يكون لهيب التفجرات الذرية و ما فوقها، يتبعها في الثقل و الخفة، فكل ذرة تتحمل حرارة أكثر ـ دون أن تتجزأ ـ فثقلها أكثر، فإذ قد نرى أن الحديد يذوب و يتجزأ في ألف درجة، فليكن الغاز الموجود في مركز الشمس ٧٠،٠٠٠ ضعف الحديد ثقلا و صلابة، و الموجود في مركز الشعرى ٢٨٠،٠٠٠ ضعفه، ثم لدينا مزيد.

أجل: إن هذه السبع شداد كأشد ما يتصور: شداد في البناء كأتقن البناء، لا تنفطر

إلا بمفطّر إلهي، شداد في الصلابة و إن لم تكن في كل جوانبها، شداد بأبوابها فلا تفتح إلا بفاتح إلهي: «وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» (٧٨: ١٩) «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ» (٥٤: ١١).

سبع شداد نرى من شدة الأولى منها أن علقت فيها بليارات البليارات من قناديل الكواكب، و دون أن تؤثر في سقفها فتورا و فطورا، فهي معلقة بعمد لا ترى: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (١٣: ٢)

«فثم عمد و لكن لا ترونها»[1].

نرى سيارات الكواكب في أفلاكها و راقصاتها في مراقصها، لا تنزلق عن مداراتها.. فيا لها من عمد تدعمها، و يا لهذا السقف الرفيع المحفوظ من صلابة و استقامة! إنها سبع شداد، متينة التكوين، قوية البناء، خارقة البنّاء، بقوة تمنعها من التفكك و الانثناء.

«وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ» و بما أن «كم» تعني كافة سكنة الأرض، فلزامه كون السبع الشداد أيضا فوق الكل، و هنا إيحاء لطيف إلى كروية الأرض و معها السماوات، فالسماء الدنيا فوق الأرض كلها، ثم مقتضي طباق السماوات كون الباقيات كمثلها

---

١. كما يروى عن الامام محمد بن علي الباقر (ع)

سواء.

وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً:

شمسنا التي نستضيء بها و نتدفأ، هي سراجنا الوهاج، بين الملائين من السرج الوهاجة في المملكة السماوية.

إن الوهاج هو ما يجمع بين الضوء و الحرارة، و جعل الشمس وهاجا، إنما هو بعد بناء السبع الشداد، خلقت من ضمن ما خلق من مصابيح السماء الدنيا:

«وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ..» و مصباحنا الوهاج الذي ينتج وضح النهار هي شمسنا، فهي ضياؤنا كما القمر نورنا في ظلم الليل، و سوف تعلمون أن خلق الكرة الأرضية أسبق من خلق الشمس و سائر الأنجم.

فالشمس السراج الوهاج، و القمر النور المنير: «وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً» (۲۵: ۶۱) «وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً» (۷۱: ۱۶)..

إنهما من الآيات البينات لنبأي التوحيد و المعاد، بما أن «الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.. وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» (۳۶: ۳۸ _ ۳۹).

و هذا السراج الوهاج هو الباعث للحرارة التي تعيش بها الأرض و ما عليها و ما

فيها، و هو الذي يكوّن السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض و رفعها إلى طبقات الجو، فهي من المعصرات و هو المشرق علينا بأنواره، إشراق الحياة، و راحة الحياة، و تقدّم الحياة..

و الشمس بحرارتها و نورها هي من المعصرات التي ساعدت على تروية الأرض بالماء الثجاج.

المعصرات و الماء الشجاج:

وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً. وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً»:

استعراض لبداية نزول الماء من السماء على كرتنا الأرضية الشموس العطشى فإنها كانت منذ بدايتها محترقة، إذ كانت زبدا: حصيلة التفجر الأول للمادة الأم «الماء» حيث أزبدت زبدا فكانت أرضا، و صعّدت دخانا فكان سماء ثم سماوات: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» (٢٣: ١٨).. و لو أن مياه الأرض أو بعضها كانت منها نفسها، لم يكن للتهديد بذهاب مياه السماء منها معنى! أجل إن حياة الأرض «وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» (٢: ١٦٤) و حياة الأحياء فيها كلها، إنها من ماء السماء: «وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ» (٢١: ٣٠).. و قد

جعلت الأرض ذلولا بعد شماسها بأوتادها و بماء السماء: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ» (٦٧: ١٥).

و بطبيعة الحال ما كان بالإمكان نزول الماء من السماء على هذه الكرة المحترقة إلا بالإعصار و الصب، إعصار ينتج الصبّ و الماء الغزير الثجّاج.

و هناك للماء الثجاج مراحل عدة، أولاها و أقواها الصب الأول الذي أنتجته معصرات عدة:

من الرياح التي أعصرت أنفسها حتى وصلت إلى الأجواء الأرضية، و أعصرت السحاب فأوصلتها إلى أجوائها.

و من السحاب التي أعصرت بعضها البعض و تضاغطت حتى استقرت هناك.

و من التفريغات الكهربائية هنا و هناك التي ساعدت هذه الإعصارات و أعصرت[1].

فلقد تناصرت معصرات رياحية و سحابية و تفريغات كهربائية ـ و من ورائها و معها الإعصار الإلهي ـ حتى كافحت حرارة الأرض و روّتها ماء و برّدت ظاهرها رغم ذوبان باطنها نتيجة الحرارة الزائدة.

---

١. «من» في معصرات الرياح و التفريغات الكهربائية ـ تكون سببية، و في السحاب نشوية أو تبعيضية و لا بأس بقصد معاني عدة من كلمة واحدة في القرآن فيما إذا تتحملها اللفظة لغويا و من حيث المقام.

إنها أعصرت فأنزل اللّه بها ماء ثجاجا: غزيرا كثيرا يصبه صبا: «أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا. وَ عِنَباً وَ قَضْباً. وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا. وَ حَدائِقَ غُلْباً. وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا. مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ» (٨٠: ٢٥ ـ ٣٢).

إنه تعالى روّى كرتنا العطشى المحترقة بما فتح من أبواب السماء بماء منهمر، و بمعصرات عدة، فجعل من الأرض بحرا متلاطما، ثم يبست شيئا مّا لكي:

«لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ».

و هنا صب ثان في طوفان نوح: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ. وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» (٥٤: ١١ ـ ١٥).. كما الأرض أصبحت كأنها بحر لجّي، إلى أن أقلعت السماء ماءها و ابتلعت الأرض: «وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (١١: ٤٤).

و صب ثالث هو أخفها وطئا و أكثرها عددا، هي السيول التي تجري على الأرض، بمعصرات الرياح و السحاب و التفريغات الكهربائية: «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ

مِنْ خِلالِهِ..» (٣٠: ٤٨).

إن معصرات الرياح هنا تزجي السحاب من أبخرة مياه الأرض: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ» (٢٤: ٤٣).

و هذا بخلاف الرياح المعصرات في الإعصار الأول و الثاني، أنها كانت تـعصر أبخرة مياه السماء، و تفتح أبواب السماء بماء منهمر..

و لقد كانت المعصرات الأولى أقواها، و لكي تكافح حرارة الأرض، و تسيل و تصبّ عليها سيلا و تجعلها بحرا بعد أن كانت قفرا:

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً. وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً.

والد السماء أمطر على رحم أم الأرض بنطف المياه لتخرج منها ـ بإذن ربها ـ حبها و نباتها و جناتها الألفاف، لإخراج نوعي المأكول و الملبوس: ما يؤكل هو ذاته حبا كسائر الحبوب، و نباتاً كبعض النبات، و ما يؤكل منه كالبعض الآخر من النبات و كسائر الجنات.

«و جنات» : أشجار كثيرة تجنّ بعضها البعض و تـجن الأرض، و تـجنها مـن السماء «ألفافا»: تلف بعضها البعض، و تلتف بعضها بالبعض.

بالفعل تتزاوج و تتمازج أموات و أموات لتلد أحياء و أحياء: نباتية و حيوانية، أ فلا يدل هذا الصنع البارع المتقن على وحدة الصانع، و على إمكانية الحياة بعد الموت، سبحان الخلاق العظيم!

[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (۱۷) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (۱۸) وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (۱۹) وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (۲۰)

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ:

فصل الخلافات، و الفصل بين المختلفين: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (۳۲: ۲۵)

و الفصل بين المتصلين يوم الدنيا بالقرابات: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ» (۶۰: ۳).

و الفصل عن الآمال و الأعمال: «هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ. فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ» (۷۷: ۳۸: ۳۹).

و فصل الحق عن الباطل و المحق عن المبطل، و فصل كل مجمل و مجهول..

كانَ مِيقاتاً:

«إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» (۴۴: ۴۰).. كان ميقاتا: منذ خلق الكون و المكلفون، و يكون ميقاتا يوم ينفخ في الصور.

«ميقاتا»: فالوقت نهاية الزمن المفروض للعمل، و الميقات مكانه و زمانه[1] عرصات المحشر ميقات، و زمن المحشر ميقات، إذ انقطعت الأعمال بانقطاع دار التكليف و زمن التكليف، بالنسبة للمجموع لا الجميع، فإن الميت تقوم قيامته الشخصية بانقطاع عمله بالموت، و لكنما الميقات للمجموع ككل ليس إلا يوم الفصل.

فيوم فصل القضاء ـ و هو من عظيم الأنباء ـ كان في علم اللّه يوم خلق الأرض و السماء، حدا مضروبا إليه ينتهي دار التكليف ككل.

يوم الفصل و يوم العزل، يوم الحساب و لا عمل، كما الدنيا عمل و لا حساب، إنه ميقات المكلفين أجمعين، لا يغادر منهم أحدا، و لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها.

---

١. فميقات الحج يجمع بين نهاية المكان و الزمان المسموح فيهما للعمل الحر، ثم يقيد المحرم آنذاک و عند ذاک بترک الكثير مما كان مسموحا له قبل الإحرام.

و ميقات القيامة كذلک ـ نهاية المكان و الزمان الممكن فيهما العمل.

إنه يوم ينقلب فيه نظام الكون الحالي و ينفرط عقده إلى نظام أرقى و أبقى! من هنا نرى سردا منسقا لنبإ المعاد بعد نبإ التوحيد، فما أن ثبت التوحيد بأدلته فلا حاجة لاستعراض براهين للمعاد إلا أحيانا، و إنما العرض هنا لواقع المعاد و لمّا يقع، و تحصل يوم الفزع الأكبر، و لكي يتذكره المتذكرون و يتحذره الحاذرون.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً:

هناك نفختان يوم الفزع الأكبر: نفخة الإماتة و نفخة الإحياء، نفخة تدمّر و أخرى تعمّر، قد تجمعان كيوم واحد لاتصالهما و أنهما في نهاية يوم الدنيا:

«وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (٣٩: ٦٧ _ ٦٨): نفخة الصعقة المميتة ثم نفخة القيام.

و قد تجمعان كذلك إلا بتقديم الأخرى على الأولى كما هنا: «فَتَأْتُونَ أَفْواجاً» فهو في النفخة الثانية: «وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً» و هو في الأولى، تقديما لما هو أهمّ و أحرى و هو الغاية القصوى من نفخة الإماتة.

و قد تفرد إحداهما بالذكر كالأولى: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ. وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ. وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ» ثم تتبع بواقع الثانية: «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ» (٦٩: ١٣ ـ ١٨)، و كالثانية و هي الأكثر ذكرا من الأولى: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (٣٦: ٥١) «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ» (٢٣: ١٠١)..

و كلمة الجمع عن النفختين و عما يحصل فيهما و بعدهما لغير النهاية، أنها: «يَوْمَ الْقِيامَةِ» و إن كان يعتبر ـ حسب مختلف الأحداث فيه ـ يعتبر أحيانا أياما.

فما هي النفخة؟ و ما هو الصور؟ و من هم الأفواج؟

إن الصور ليس هو الصور و الأبدان لكي يعنى بالنفخ فيها نفخ الأرواح في الأبدان، لأنه لا يستقيم إلا في نفخة الإحياء دون الإماتة، و التعبير بالأخرى:

«ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» يوحي بأنها تشبه الأولى، فهل هنا من شبه بين الإماته و الإحياء؟ كذلك و رجوع ضمير المذكر إلى الصور:

«ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى» رغم أن جمع الصورة مؤنث، و أن الصور هي المناسبة لجمع الصورة كما في آيات «فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» (٤٠: ٦٤) و ٦٤: ٣).. هذه شهود صادقة

على أن الصور بوق و ليس جمع الصورة[١].

ثم التعبير عن النفخة الثانية بالنقر في الناقور: «فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ. فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ» (٧٣: ٨ ـ ١٠) و هو قرع الشيء المفضي إلى النقر، هذا شاهد ثان على أن الصور غير الصور.

إن الصور بوق لا كالأبواق التي نعرفها، كما النفخة فيه لا تشبه نفخاتنا، و نحن لا نتصور هنا أو نفهم من نفخ الصور شيئا إلا أنها النفخة المميتة، و النفخة الباعثة المجمعة التي يأتي بها الناس أفواجا، التي تبعثر القبور و ما في القبور فيأتون من كل فج إلى حيث يحشرون.

و بطبيعة الحال نستوحي من أحوالها و أهوالها الشاملة للكائنات أنها سوف تكون في الأرض و السماوات أجمع، و بصرختها تفزع الكائنات و تميتها، و بوقعتها تجددها و تحييها، و إنها الهول البادي في انقلاب الكون المنظور، كالهول البادي في الحشر بعد النفخ في الصور، و هذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة و تدبير.

و مما نعرفه، على جهلنا بالصور و نفخه: أنه ليس بوقا ينفخ فيه، إنما هو كناية و إيحاء إلى بسبب التدمير و التعمير، أنه صيحة ما أقواها و أفزعها، يسمعها الكائنات

---

١. في اللسان: الصور جمع الصورة، و الصور القرن ـ أقول و هذا شاهد راجع على ما نروم ـ إذ لو عني بالصورة جمع الصور لكان بحاجة إلى قرينة معينة لمكان الاشتراك، و ترك الخاص بالمشترك خلاف الفصيح.

في أعماقها، سمعا في كيانها، استمع سامعوها أم لم يستمعوا، كان لها سمع أم لم يكن، فإنما الصرخة هذه تؤثر هكذا تدمير و تعمير، إماتة مرة و إحياء أخرى بزجرتها.. «فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» (۷۹: ۱۴ ـ ۱۵) فنفخة الإحياء زجرة واحدة تنقل الموتى إلى أرض القيامة:

الساهرة: «فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ» (۳۷: ۱۹).

و الزجرة هذه و الصيحة تلك و الدعوة، على سواء: «وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» (۳۰: ۲۵).

و بما أن للكل نصيب منها على حد سواء: «فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» نستوحي أنها بمقربة من الكل، بجنب الكل، أو كأن الكائنات هي الصور كلها ينفخ فيها مرة لإزهاق أرواحها، و مرة أخرى فتنفج لإعادة أرواحها.

فَتَأْتُونَ أَفْواجاً:

أفواج الأخيار و أفواج الأشرار، كل مع زميله و كل مع رتيبه، فكما الأخيار أفواج لأنهم درجات، كذلك الأشرار أفواج فهم أيضا درجات: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ» (۹۹: ۶).

و الفوج هو الجماعة المارّة المسرعة، تسرع كل إلى ما أعده لنفسه، من نحسه و

نفيسه.

يقول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن أفواج المجرمين، تفسيرا ل «فَتَأْتُونَ أَفْواجاً»:

«هم عشرة أصناف من أمتي أشتاتا، قد ميزهم الله من جماعة المسلمين، و بدل صورهم: فبعضهم على صورة القردة، و بعضهم على صورة الخنازير، و بعضهم منكبين (منكسين) أرجلهم فوق و وجوههم أسفل، يسحبون عليها، و بعضهم عمي يترددون، و بعضهم صم بكم لا يعقلون، و بعضهم يمضغون ألسنتهم و هي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعابا، يقذرهم أهل الجمع، و بعضهم مقطعة أيديهم و أرجلهم، و بعضهم مصلبون على جذوع من نار، و بعضهم أشد نتنا من الجيف، و بعضهم يلبسون جبابا سابغات من قطران لازقة بجلودهم.. فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس (النمامون). و أما الذين على صورة الخنازير فأكلة السحت. و أما المنكسون على رؤوسهم فأكلة الربا. و العمي من يجور في الحكم. و الصم البكم، المعجبون بأعمالهم. و الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء و القضاة من الذين تخالف أقوالهم أعمالهم. و المقطعة أيديهم و أرجلهم الذين يؤذون الجيران. و المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان. و الذين أشد نتنا من

الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات و اللذات و يمنعون حق الله و حق الفقراء من أموالهم. و الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر و الخيلاء و الفخر»[١].

وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً:

هل للسماء أبواب مغلقة قبل قيامتها فهي تفتح عندها؟ أو أنها بمجموعها تصبح أبوابا؟ علّهما معا مقصودان هنا.

نحن نعرف من أبواب السماء أبواب الماء: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ» (٥۴: ١١) فهذه أبواب كانت مغلقة و لكنها فتحت على الأرض مرتين، كما مرّتا، و أما عند قيامتها فليست لها مياه لكي تفتح بها أبوابها، و إنما تمور مورا و تنفطر و تنفجر و تحترق، فأين ـ إذا ـ الماء؟

و أبواب أخرى تفتح للمؤمنين لكي يدخلوا الجنة: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ» (٧: ۴٠).. إيحاء لطيف أن النار ليست في

---

١. الدر المنثور ج ۶ ص ٢٠٧، أخرج ابن مردوية عن البراء بن عازب ان معاذ بن جبل قال: يا رسول اللّه (ص)! ما قول اللّه «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً»؟ فقال: يا معاذ! سألت عن أمر عظيم، ثم أرسل عينيه ثم قال:.. و في مجمع البيان مثله إلا يسيرا أشرنا إليه، و الأفواج المذكورون هنا هم المتخلفون من المسلمين، فما هو ـ إذا ـ أحوال الكفار؟

السماء، أو ليست في سماء الجنة.

إذا فغلق أبواب السماء من هذين النوعين لا يمنع الأسفار الجوية مهما بلغت من العمق، اللهم إلا ما يعلمه اللّه من أعماق السماء.

ثم الأبواب من النوع الثاني ليس فتحها للمؤمنين فتحا للسماء ككل، ففرق بين فتح أبواب السماء و بين فتح السماء حتى تصبح أبوابا.

علّ المعنيّ من السماء الأبواب أنها إذا انفطرت، و كواكبها إذا انتثرت، و شمسها مع قمرها إذا جمعت، كانت جنود السماء وقتئذ منهزمة، فلا تمنع موانع المجرات بكواكبها و لا سائر الأجرام الجوية بأثقالها، لا تمنع من صعود الصاعدين من المؤمنين، و لا نزول النازلين من الملائكة: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (١۴: ۴٨).

تدمّر السماء و تفطّر و ترجع دخانا كما كانت بلا بروج و لا مدن و لا أبواب و لها فروج و كلها فروج، و إلى حيث كأنها كلها أبواب، فقد كانت بلا فروج:

«أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ» (۵٠: ۶) ثم تصبح و كلها فروج: «وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ» (٧٧: ٩).

وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً:

و على حد تفسير

أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «و تذل الشم الشوامخ و الصم الرواسخ فيصير صلدها سرابا رقراقا و معهدها قاعا سملقا».

سيّرت عن قواعدها لحد تصبح القواعد سرابا لا ماء فيها و لا كلاء، و ترى من صقلها أنها ماء يلمع: «حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ» (٢٤: ٣٩).

إن منشار الزلزال تنشرها عن قواعدها بسرعة لامعة محيرة لحد السراب.

و الترتيب المفهوم من القرآن حول قيامة الجبال: أنها على أثر الرجفة المدمرة الأرضية تصبح كأتلال الحصى من شدة سيرها و وقعها: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا» (٧٣: ١٤) ثم على أثر اصطدامات متواصلة في مسيرها تتبدل كالخمير، ثم كالغبار المنبثّ: «وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا» (٥٥: ٥) و كالعهن المنفوش: «وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) (١٠١: ٤) ثم تنسف فلا يبقى إلا سراب وقاع صفصف: «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً. لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً» (٢٠: ١٠٦ ـ ١٠٧)؟ أرضا أملس مستوية دون انخفاض و لا ارتفاع.

فهذه الجبال الراسيات الأوتاد الشامخات تصبح هباء كالسراب ثم ماذا تكـون حـال الإنسان الضعيف الضعيف ـ سبحان الغفور الرحيم!

[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۲۱ الى ۳۰]

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (۲۱) لِلطَّاغِينَ مَآباً (۲۲) لابِثِينَ فِـيها أَحْـقاباً (۲۳) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً (۲۴) إِلاَّ حَمِيماً وَ غَسَّاقاً (۲۵)

جَزاءً وِفاقاً (۲۶) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (۲۷) وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (۲۸) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (۲۹) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (۳۰)

.. إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً:

كانت قبل القيامة منذ حلقت، كانت مرصادا: و الرصد هو الاستعداد للـترقب، فالمرصاد آلة و وسيلة مستعدة تترقب أهلها الذين يتهيئون لها بما قدمت أنفسهم، ثم منهم وقود لها تتّقد بهم، كأصول الكفر و الضلالة: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (۲: ۲۴) ثم أتباعهم الماشين على هوامش الضلالة، هم يتّقدون بهم في مرصادهم، و: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» (۸۹: ۱۴).

فكما أنهم ـ طول حياتهم ـ مرصاد للطغيان، كذلك جهنم مرصاد لهم:

تنتظرهم و تترقبهم و ينتهون إليها فتستقبلهم.

لِلطّٰاغِينَ مَآباً:

مرجعا يرجعون إليه، حيث كانوا يوم الدنيا في جحيم الأفكار و العقائد و الأعمال و الآمال دون أن تظهر لهم نارها، ثم في رحلتهم إلى عمق الحياة يرجعون إلى ما كانوا فيه، ظاهرة نارها: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (٥٠: ٢٢).

ليست النار يوم القرار شيئا جديدا، إنما هي النار التي أوقدوها بما عملوا من قبل «و اليوم يجزون عذاب الهون بما كانوا يعملون».

الخالدون في النار و الجنة:

لاٰبِثِينَ فِيهٰا أَحْقٰاباً:

.. آية فريدة في نوعها تقرر أمد الخلود المؤبد للذين يخلدهم اللّه في النار آبدين، و منهم المذكورون هنا: «إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً. وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذّاباً» طاغون طغوا على اللّه و طغوا على أنبياء اللّه، و طغوا على سائر عباد اللّه، عاشوا الطغيان حياتهم دون إبقاء و إن كانوا هم أيضا درجات. و ليس فوق الأبد من

عذاب النار عذاب، و هو للذين كفروا و ظلموا و صدوا عن سبيل اللّه: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» (۴: ۱۶۷ ـ ۱۶۹) «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً. خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (۳۳: ۶۴ ـ ۶۵) و لمن يعصي اللّه و رسوله عصيانا عقديا و عمليا: «قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً. قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً. إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً» (۷۲: ۲۰ ـ ۲۳).

هذه جماع الآيات في أبد الخلود، من عامة في الكافرين، و من خاصة في الظالمين منهم و المكذبين بآيات اللّه، الصادين عن سبيل اللّه، و تجمعهم لفظة:

«الطاغين» و هم الناكرون لوجود اللّه أو المشركون به ـ المنكرون للقيامة المكذبون به، و الصادون الظالمون.. أولئک هم المؤبدون في النار: «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً» على سواء في طول أمد العذاب و هو الأبد، و هم درجات في كيفية العذاب: «جَزاءً وِفاقاً» يوافق قدر الكفر و الجحود، كما المؤمنون في الجنة درجات «هُمْ

دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ» (٣: ١٦٣).

فلنعرف إذا: ما هي الأحقاب و ما هو الجزاء الوفاق؟

الأحقاب: في غريب القرآن: «قيل هو جمع الحقب أي الدهر، قيل: و الحقبة ثمانون عاما و جمعها حقب، و الصحيح أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة».

أقول: و قد يؤيد: الدهر و الزمن المبهم في الحقب حقب موسى عليه السّلام: «لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» (١٨: ٦٠) فلا يناسب إلا زمنا مبهما، فلو كان على علم بزمن البلوغ ما كان يتردد بين الحقب و دونه من بلوغ المجمع، و الحقب و الحقب بمعنى، و قد تؤيده مجموعة أحاديث مروية عن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و أهل بيته الكرام (ع).

فقد تذكر له معاني أخرى تحده بحدّ خاص كسنة أو سبعين أو أربعين أو بضع و ثمانين و قد روي الأخيران عن النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[1].

---

١. الدر المنثور (٦: ٢٠٨) أخرج البراز و ابن مردوية و الديلمي عن ابن عمر عن النبي (ص) قال: و اللّه لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا، و الحقب بضع و ثمانون سنة كل سنة ثلاثمائة و ستون يوما، و اليوم ألف سنة مما تعدون، و أخرج ابن مردوية عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول اللّه (ص): الحقب أربعون سنة.

و قد تناسب الروايتان دهرا من الزمن، فلكل كافر أحقاب من الخلود حسب كفره، جزاء وفاقا، أربعون عاما أو

←

و مهما يكن من شيء فالذي لا يريبه شك أن الحقب زمن محدود، عرفناه أم جهلناه، فجمعه أيضا محدود لا تتصور فيه اللانهاية الزمنية، التي تدّعي للمكوث في النار، إضافة إلى سائر المشاكل الدلالية و العقلية في المكوث اللانهائي الحقيقي في النار، و إلى أن هذه اللانهاية في العذاب ليست جزءا وفاقا، و كيف الوفاق بين العصيان المحدود و الجزاء اللامحدود؟

و هنا في معنى خلود النار و واقعه أقوال عدة بين علماء الإسلام و سواهم، لا يوافق النقل و العقل منها إلا فناء الآبدون في النار مع النار، ثم لا نار و لا أهل نار[1].

← ثمانون أو.. و كما الأحقاب قد يفسر بثمانية ـ فيما

روي عن الصادق (ع) قال: الأحقاب ثمانية أحقاب و الحقب ثمانون سنة و السنة ثلاثمائة و ستون يوما و اليوم كألف سنة مما تعدون» (نور الثقلين ٥: ٤٩٥ ح ٢٤).

في نور الثقلين (٥: ٤٩٤ ح ٢٣) القمي بالإسناد إلى حمران بن أعين قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً»، قال: هذه في الذين لا يخرجون من النار، و فيه عن الباقر (ع) مثله.

و الخروج من النار بعد مكوث الأحقاب يعني هنا خروج النار عن كيانها و فناءها بفناء أهلها، فهو خروج عن الوجود، و هذا هو معنى «لا يخرجون من النار»، أي: خروجا مع بقاءها.

١. و هي ثمانية:

١) «كل من دخلها مخلد فيها أبد الآباد بإذن الله» ذهب إليه الخوارج و المعتزلة و طائفة من الشيعة الامامية.

٢) «أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم ثم تبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم الثانوية» ابن العربي في فصوص الحكم.

٣) «أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها و يخلفهم قوم آخرون» (عن اليهود) كما ادعوه و أجابهم القرآن «وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلّا أَيّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ

←

و فيما روي عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن حفيديه الصادق و الباقر عليهما السلام تلميح و تصريح أن أبد النار محدود و إن طال الزمن.

و ما يروى أن آية الأحقاب في الذين يخرجون من النار يتنافى و كونهم من المكذبين المنكرين للحساب الذين تصرح الآيات بأبديتهم في النار، فهي إذا من المجعولات مع كونها معارضة برواية أخرى عن نفس الراوي[1].

الماكثون في النار.. المخلدون:

أدلة النقل و العقل و العدل تتناصر في استنكار اللانهاية الفلسفية في العذاب مهما

← ما لا تَعْلَمُونَ» (٢: ٨٠).

٤) «يخرجون منها و تبقى نارا على حالها ليس فيها أحد يعذب» حكاه شيخ الإسلام.

٥) «تفنى النار بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن و ما ثبت حدوثه استحال بقائه و أبديته» جهم بن صفوان و أتباعه دون فرق بين الجنة و النار.

٦) «تفنى حياتهم و حركاتهم و يصيرون جمادا لا يتحركون و لا يحسون بألم» أبو الهزيل العلاف إمام المعتزلة طردا لامتناع حوادث لا نهاية لها.

٧) «يفنيها ربها تبارك و تعالى، فإنه جعل لها أمدا» ابن مسعود و أبو سعيد و عمرو و..

و هو القول المرضي لدينا على تفصيل تذكره.

٨) «يخرجون منها و ينعمون بعد الخروج»، عدة من الفلاسفة مثل الصدر و الكاشاني و غيرهما.

١. نور الثقلين (٥: ٤٩٥ ـ ٢٦) روى العياشي باسناده عن حمران قال: سألت أبا جعفر (ع) عن هذه الآية «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً» فقال: هذه في الذين يخرجون من النار، و روى الأحول مثله

و يعارضه ما

رواه حمران نفسه قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن هذه الآية قال: هذه في الذين لا يخرجون من النار.

أقول: و لعل النقل الأول خطأ بزيادة «لا».

كانت درجة الكفر و الطغيان.

فالنقل ـ قرآنيا و في السنة ـ لا يساعد الخلود اللانهائي في النار، و المروي عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه أجاب في السؤال عن الخلود في الجنة و النار: إنما خلّد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا لو خلّدوا فيها أن يعصوا اللّه أبدا ما بقوا فالنيات تخلّد هؤلاء و هؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ» قال: على نيته[١].

هذا الحديث مضروب عرض الحائط، على وحدته و معارضته القرآن: أن النية السوء لا تحقق الجزاء السوء، فلا عقاب إلا على الكفر و العمل السوء:

«مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ» (۴: ۱۲۳) «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (۲۷: ۹۰) «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (۵۲: ۱۶).. و لأن العقوبة على النية السوء ظلم: «فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (۳۶: ۵۴) ثم هو إضافة إلى ذلک ليس جزاء وفاقا.

و أما اللانهاية في الثواب فهي رحمة من اللّه و فضل فوق العدل، و الواجب في العقاب هو العدل، و فضله يتطلب إما الغفران أو تقليل العقاب، عكس الثواب.

---

١. بحار الأنوار ج ٨ ص ٢٩٢ ج ٣۴ عن علي بن ابراهيم القمي.

ثم نظرة عميقة في آيات الخلود ـ أبديا أم سواه ـ توضّح لنا أنها لا تعني اللانهاية في العذاب، حيث اللغة و القرآن يتوافقان في أنّ الخلود محدود! فاللغة تقول: «الخلود هو تبري الشيء من اعتراض الفساد و بقائه على الحالة التي هو عليها، و كلما يتباطأ عنه التغيير و الفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي خوالد و ذلك لطول مكثها لا لدوام بقاءها ثم استعير للمبقى دائما»[1].

و القرآن يصدق القسم الأول من معناه: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً» (٤: ٥٦).

فلا يعني الخلود إلا طول المكوث، أو أبد المكوث إذا كان أبديا، و وصف الخلود بالأبد أحيانا، و تركه أخرى، يشهد أنه ليس المكوث الأبد، و كما أن الأبد لا يعني اللانهاية الفلسفية، و إنما البقاء طوال الحياة كما الآيات تشهد:

«وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ» (٩: ٨٤) «وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ

---

١. غريب القرآن للراغب، و في لسان العرب أن الخلود هو دوام البقاء في دار لا يخرج منها، و الإبطاء عن الشيء كما يقال: خلد: أبطأ عنه الشيب، و يقال للرجل إذا بقي سواد رأسه و لحيته على كبره: إنه لمخلد، و للذي يسقط أسنانه من الهرم: مخلد، و الخوالد الجبال و الصخور لطول بقاءها بعد دروس الاطلال، و أخلد الرجل بصاحبه إذا لزمه.

أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» (٢: ٩٥) «إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها» (٥: ٢٤) «فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً (٩: ٨٣) «لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً» (٩: ١٠٨) فلا يعنى من الأبد هنا إلا مدى الحياة، هذه حال الأبد فكيف الخلود؟

فهل يعقل أن الكافر ـ أي كافر ـ يزعم بقاءه على الأرض حيا لغير النهاية، أو طوال عمر الأرض؟: «و لكنه أخلد إلى الأرض وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (٧: ١٧٦) «الَّذِي جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ» (١٠٤: ٣).

فهل نكذّب القرآن هنا و هناك لكي نصدق زعم اللانهاية الفلسفية في الخلود، دون أي سناد، إلا شهرة سوقية متحللة عن أي برهان؟

فمن الخالدين في النار من يخرج منها بعد زمن طويل أو أطول حسب ما يستحقه من العذاب[١]، و منهم من يحبس فيه و يعذّب مدى الحياة المعبّر عنه بالخلود الأبد: «لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها» (٣٥: ٣٦) «كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها» (٢٢: ٣١) «وَ لا يَجِدُونَ عَنْها

---

١. كما في الآيات: ١٠: ٥٢و ٣٢: ١٤و ٤١: ٢٨و ٤: ٩٣و ٩: ٦٣و ٥٩: ١٧و ٢: ٣٩و ٨١و ٢١٧و ٢٥٧و ٣: ١١٦ و ٥: ٨٠و ٧: ٣٦و ٩: ١٧و ١٠: ٢٧و ١٣: ٥و ٢١: ٩٩و ٢٣: ١٠٣و ٤٣: ٧٤و ٥٨: ١٧و ٢: ١٦٢و ٣: ٨٨و ٩: ٦٨و ١٦: ٢٩و ٢٠: ١٠١و ٣٩: ٧٢و ٤٠: ٧٦و ٦٤: ١٠و ٩٦: ٦.

و هذه هي موارد الخلود غير المؤبد، إما لاختصاصها بغير الآبدين أو اعتبارا بجمعهم مع الآبدين ثم لا تجد أبد الخلود في النار إلا في ٤: ١٦٩و ٢٣: ٦٥و ٧٢: ٢٣و ٢: ١٦٧.

مَحِيصاً» (۴: ۱۲۱) «.. وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ» (۴۳: ۷۷).

فهؤلاء هم المؤبدون بدوام النار ثم يقضى عليهم مع النار، فلا تبقى نار و لا أهل نار.

و لاختلاف أمد الخلود ترى فرقا من الكفار ينص على خلودهم بالأبد، كالمشركين المكذبين الصادين عن سبيل اللّه، و فرقا أخرى بالخلود دون الأبد، كفساق المسلمين و أهل الكتاب غير المشركين: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً..» (۹۸: ۶ ـ ۷).

هنا ـ رغم تأبيد الخلود للمؤمنين، لا يؤيده لأهل الكتاب و المشركين، رعاية للأولين إذ لا يخلد أهل الكتاب أجمعين، ثم آيات أخرى تخص الخلود الأبد بالمشركين و من نحى منحاهم.

و لمحة أخرى لحد الخلود توحيها الآيات التي تحده ما دامت السماوات و الأرض و بمشيئة اللّه تعالى: «قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (۶: ۱۲۸) «يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ. خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» (۱۱: ۱۰۵ ـ ۱۰۷).

فإنها تقيّد و تحدّ الخلود بدوام السماوات و الأرض مرة، ثم بأقل منه حسب مشيته اللّه تعالى ـ أخرى.

و بعد هذه الدلالات القرآنية و اللغوية لا نجد ما يعارضها دلالة على المكوث اللانهائي فلسفيا في النار، لا كتابا و لا سنة و لا عقليا، بل العقل حجة قاطعة على تزييف أسطورة اللانهاية في العذاب، فهل تجد عاقلا مهما بلغ من الظلم و البربرية و الوحشية و الخشونة أن يحكم بعذاب اللانهاية على من عصاه طوال عمره؟ كلا! فغاية الأمر تعذيبه لزمن ثم إعدامه بالمرة، فما ذا تظن إذا برب العالمين الذي سبقت رحمته غضبه، و ليس عذابه انتقاما، و إنما جزاء وفاقا ناتجا عن ذات العمل، إلى حيث يعتبر الجزاء نفس العمل: «فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (۳۶: ۵۴).

و لأن العمل ـ أي عمل ـ محدود بطبيعة الحال، زمنيا و في كيانه و أثره، فليكن الجزاء الذي لا يزيد عن العمل ـ بل هو نفس العمل بملكوته و ذاته ـ ليكن ذلك

الجزاء أيضا محدودا و مماثلا له في السوء: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِـثْلَها» (۴۰: ۴۰).

فهل يا ترى أن اللانهاية في عذاب الخالدين أبديا ـ أنها الجزاء المثل الوفاق، و هل إنها هي العمل بذاته؟ فكيف بالإمكان عقليا جعل المحدود غير محدود، و كيف بالإمكان في عدل اللّه تعالى أن يزيد على العمل السوء المحدود زيادة لا محدودة و لو أمكن عقليا؟ و كيف نسمح لأنفسنا كموحدين أن نظن هكذا ظلم و قساوة برب العالمين؟ إن هذا إلا افتراء على اللّه أن يخالف العقل و العدل و الرحمة التي كتبها على نفسه، و كتابه الدال على حدود العذاب.

إننا نصدق إمكانية اختلاف السيئة و عذابها في الزمن، فلا اعتبار بالزمن، فكم من عصيان في زمن قليل له من الأثر السوء ما لا يساويه إلا آلاف أضعافه من الزمن، و كم من عصيان في زمن طويل يقل عن الأول بكثير، فالحد الزمني ليس هو المقياس في حد العذاب، و إنما الآثار هي المدار في الجزاء.

نحن نصدق هكذا اختلاف و لكننا نحيل الاختلاف بالنهاية في العصيان و اللانهاية في العذاب، إحالة بسناد العدل و العقل و النقل.

ثم لنفرض إمكانية اللانهاية في العذاب و أنها عدل توافق العقل، فأين رحمة اللّه

تعالى التي سبقت غضبه؟ «و لذلک (الرحمة) خلقهم»!

من موانع المكوث اللانهاني في النار:

أنّ الرحمة هي المقصودة في الخلق مبدئيا دون الغضب، و من سبق الرحـمة و أصالتها لا نهائيتها في الجنة للمؤمنين، فليس الغـضب المسـقوق ـ العـدل ـ هـو اللانهاية و لو كان فلتقتض الرحمة للغصب أمدا، فما كان بالرحمة و للرحمة فـهو مقصود لذاته قصد الغايات، و ما كان من موجب الغضب فهو مقصود لغيره قـصد الوسائل، فالعذاب مسبوق مغلوب، و الرحمة سابقة غالبة و رحمته وسعت كل شيء دون غضبه، فلتشمل أهل النار، رحمة مكتوبة على اللّه للصالحين مـن عـباده، و أخرى راجحة للطالحين منهم: «و رحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين آمنوا و كانوا يتقون» فليعذب الآخرون دون استحقاقهم.

ثم النار إنما خلقت تخويفا للمؤمنين و تطهيرا للخاطئين أو تدميرا و إفناء لهـم أخيرا، فهي ـ إذا ـ طهرة من الخبث الذي اكتسبته النفس في عالم التكـليف، فـإن تطهرت منه هنا بالتوبة النصوح و الحسنات الماحية و المصائب المكفّرة، لم تحتج إلى تطهير هناک في عالم الحساب، و قيل لها في جملة الطيبين: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ»، و إن لم تتطهر هنا و وافت البرزخ بدرنها أدخلت نار البرزخ

طهرة لها، و إن بقيت دنسة لم تتحلل عن كامل خبثها دخلت نار الآخرة و عذّبت لحد الطهارة، فإن الدرن الناتج عن العصيان له حد أيا كان، و فيما إذا أصبحت النفس درنا لا يزول فمقتضى العدل أو الفضل و الرحمة، إفناءها بنارها، إذ ليست العقوبة إلا للتطهير و لم يحصل، أو للفرق بين المسلمين و المجرمين و قد حصل: «أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (٦٨: ٣٥) «أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ» (٣٢: ١٨) «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (٣٨: ٢٧ ـ ٢٨).

و يكفي فرقا بين الفريقين عقوبة الفجار لحد ما، جزاء وفاقا، حيث يحرمون الرحمة زمن العقوبة، ثم ليست مواصلة العذاب لغير النهاية ضرورة أو رجحانا تنتج الفرق بين الفريقين ـ اللهم إلا عبثا و ظلما ـ تعالى اللّه عنهما علوا كبيرا.

٣ ـ إن اللّه تعالى لم يک يعامل الخلق إلا بفضله دون عدله، فالجنة الخالدة اللانهائية للصالحين ليست إلا من فضله، إذ هم لم يعملوا الصالحات إلا لصالحهم دون استحقاق للجزاء إلا فضلا و إحسانا من اللّه في أصل الجنة و خلودها اللانهائي.

و نرى أنه يجازي بالحسنة عشرا و أعشارا و يزيد، و لا يجازي على السيئة إلا مثلها و يعفو عن كثير، بتوبة أو شفاعة أو تكفير: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (۴: ۳۱) «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» (۱۱: ۱۱۴) «فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» (۲۵: ۷۰).

و لو أن اللّه عامل خلقه بعدله دون فضاء لم ينج أحد من عذابه أو لم يستحقوا رحمته.

۴ ـ إن العفو أحب إليه من الانتقام ـ لو كان العذاب انتقاما ـ و كما أمرنا بالعفو عمّن ظلمنا: «وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى» (۲: ۲۳۷).

إذا فكيف لا يخفف عن أهل النار عذابهم اللانهائي، لو كان هو الحق العدل؟! هذه مما يبرهن لنا فناء النار بأهلها، و خروج غير الآبدين قبل استحقاقهم، و كما يغفر المذنبين فضلا منه و رحمة.

لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً. إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً. جَزاءً وِفاقاً:

هناك حرمان من ذوق البرد و الشراب إلا حميما و غساقا.. بدل البرد حميم، و بدل الشراب غساق.

فما هو البرد و ما هو الشراب؟

البرد كل ما يبرد الجسم ـ ظاهره و باطنه ـ من هواء بارد، و ريح ناعمة، و ظل ظليل، و من ماء يغمسه أو يغسل به بدنه أو يشربه.. لا يذوقونه ذوقا، في أيّ من هذه، فضلا عن أن يستفيدوا منه بشرب أم سواه.

بردا يعم الشراب و سواه ـ «وَ لا شَراباً» يبرد الباطن فيريح الظاهر، شرابا ينوب البرد في التبريد ـ أيّ تبريد ـ لا يذوقونه فضلا عن شربه.

ليس للطاغين برد و لا شراب إلا حميم و غساق: الماء الساخن الذي يشوي الوجوه و الخلوق و البطون: «بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً».. فهذا هو بردهم، و الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين و يسيل، و يغسق على الإنسان حياته كغسق الليل، و هذا هو شرابهم: «وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً» (١٨: ٢٩).

جزاء وفاقا: إن جهنم المرصاد الآمب، و لبثها الأحقاب، و عدم ذوق البرد و لا الشراب، كل ذلک جزاء وفاق، لا يزيد عما قدموا لأنفسهم أو قد ينقص.

إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً. وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً. وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً. فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً.

إن مهمة اعتناق عقيدة الحياة بعد الموت، تنحو نحو الحساب، و إذ لا تصديق بالحساب الحق فلا يجدي الاعتراف بالحياة الأخرى نفعا.

لذلک ترکّز الآية على «إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً» و إن كانوا يرجون حياة أو لا يرجون، فإن رجاء الحساب هو أقل ما يـدفع الإنسـان إلى الصـالحات رجـاء الثواب، و يمنعه عن محارم اللّه رجاء العقاب[١]، ثم فـوقه الإيـقان بـالحساب، و الموقنون أيضا درجات.

هؤلاء الطاغون لم يكن الحساب عندهم حتى و لأدنى ما يـجب، أن يـرجـوا حساب اللّه الذي وعده و أكّد عليه.. كانوا يعيشون نكران الحساب، فأخذوا حريتهم في حيونة الحياة كأنهم يعلمون ألّا حساب!..

«كانُوا لا يَرْجُونَ»: لا يأملون و لا يخافون حسابا، أي حساب، قليلا و لا كثيرا، فقد تركوا ما فيه أمل الثواب و اقترفوا ما فيه خوف العقاب، و لو أنهم أملوا الثواب لأقبلوا إلى الطاعات، و لو أنهم خافوا العقاب لأدبروا عن موجبات العقاب، و لكنهم كانوا لا يرجون حسابا أي حساب: رجاء الثواب أو خوف العـقاب، ثـم و كـذبوا بآيات اللّه الكذاب.

---

١. الرجاء من اللغات المتضادة جاءت بمعنى الأمل و الخوف و قد نعنيهما معا كما هنا.

«وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً»: كـذبوا بـالآيات الآفـاقية و الأنـفسية، التكـوينية و التشريعية، إذ كذبوا بآيات اللّه الواقعية و العقلية و الفطرية، التي تدل على وجوده و توحيده، و كذبوا بآيات النبوات: معجزات الأنبياء، فكذبوا الرسل و كذبوا بآيـات الوحي في كتابات السماء، و من ضمنها كذبوا بآيات الحساب.

كذبوا بهذه الآيات الإلهية رغم أنها آيات: علامات قاطعة تدل على أنها إلهية، لمن أبصر بها و تذرع لمعرفة ما وراءها و معها من حقائق إلهية.

كذبوا بها كذابا: تكذيبا عجيبا في أصله و في كيفيته، في أصـله أن كـذبوا مـا أحاطت به بينات الصدق، و في كيفيته أن كرّسوا كافة طاقاتهم و إمكـانياتهم فـي تكذيبها، فأصبح تكذيبهم عجبا على عجب: «كذابا» ! فجرس اللفظ يوحي بشدة التكذيب كما المعنى يسانده في جرسه.. «وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً»!

كتب الأعمال الضوئية و الصوتية:

وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً:

الإحصاء هو الضبط أيا كان، و الكتاب هو المكتوب الثابت منه واقـعيا، فكـل شيء: من أقوال و أعمال و أفكار، أحصاه اللّه تعالى إحصائا كتابيا، لئلا تذهب هدرا، و لكي تبقى حجة تنطق على العاملين: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ

لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (١٧: ١٥ ـ ١٦) فهذا كتاب في عمق الذات.

يكتب اللّه تعالى على جوانح المكلفين و على جوارحهم صور الأعمال و أصوات الأقوال ـ الصادرة عنها ـ و يا له من كتاب لا سبيل إلى نكرانه، لأن اللّه هو الذي استنسخ كل شيء في عنق الإنسان: «وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٤٥: ٢٨ ـ ٢٩) فهل يا ترى إن الاستنساخ الإلهي يكون عن أسماء الأعمال؟ فليس هذا استنساخا! إنما هو عن أصول الأعمال بصورها و أقوالها و أحوالها.. استنساخا في كتاب الذات و في الأرض و جوّها، و فيما لا نعلمه و اللّه يعلمه.

هذه الأرض التي نعيش عليها هي كتاب آخر لأعمالنا و سوف «تُحَدِّثُ أَخْبارَها بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها. يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ».

كتاب و كتب إلهية تضبط كل شيء دون مغادرة و لا مثقال ذرة: «وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» (١٨: ٤٨)

«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (٣: ٣٠).

و كل شيء أحصيناه كتابا: إحصائا كتابيا في إمام مبين: «وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» (٣٦: ١٢) و علّه كتب الأعمال أو تشملها و ما في اللوح المحفوظ.. كتب الأعمال: النفسية و الأرضية، و شهود الأعمال ملائكية و رسالية و رسولية.. شهود و شهود تشهد بالحق دون إمكانية النكران بحقهم، فإنهم يشهدون علينا معنا: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» (٢٤: ٢٥ ـ ٢٦).

«فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً»: ذوقوا أعمالكم لا أقل و لا أكثر، فنفس الأعمال بظهورها في حقائقها، هي الجزاء لا سواها: و «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٢٧: ٩٠) فلن نزيدكم باستدعاء الغفران إلا عذابا تستحقونه، جزاء وفاقا، إذ إنكم ما كنتم تزدادون ـ على ضوء الآيات البينات ـ إلا كذابا «وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ».

فأصل العذاب بأصل الطغيان، و ازدياده بازدياده، كل على حسبه و لا ظلم اليوم.

فهؤلاء هم الطاغون، ثم ما هي حال المتقين؟ «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً..».

[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۳۱ الى ۴۰]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (۳۱) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (۳۲) وَ كَواعِبَ أَتْراباً (۳۳) وَ كَأْساً دِهاقاً (۳۴) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً (۳۵)

جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (۳۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (۳۷) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (۳۸) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (۳۹) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (۴۰). لما كانت جهنم مرصادا و مآبا للطاغين، دون انفلات منها و لا جواز عنها، فإن المتقين، الذين اتقوا و تحذروا عن الجحيم يوم الدنيا، إن لهم هناک مفازا:

ظفرا بالخير على سلامة في كيانهم من الشر: خيرا على خير يوم الآخرة، كما كانوا خيرا على خير يوم الدنيا.. إنهم ينتهون إلى مفازة و منجاة عن الجحيم إلى الجنة:

«جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً»: «مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» (۶: ۱۶) «وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ» (۳۹: ۶۱) «وَ

يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً» (۴۸: ۵) «وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (۵۰: ۹)، فالمفاز كيانه ازدواجية الخير: بعدا عن النار و دخولا في الجنة.

مفازا روحانيا إلى جنة الرضوان: «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (۹: ۱۱۱).. و مفازا جسدانيا إلى جنة النعيم: «حَدائِقَ وَ أَعْناباً. وَ كَواعِبَ أَتْراباً. وَ كَأْساً دِهاقاً».. فائزين كلتا الجنتين: «وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» (۵۵: ۴۶ ـ ۴۷).

إن للمتقين مفازا، يتمثل ـ جسدانيا ـ في أفضل المناظر: حدائق و أعنابا ـ و جنسيا ـ في أجمل البنات: و كواعب أترابا.. و جوا بعيدا عن كل أذى:

لا يسمعون فيها لغوا و لا كذابا.. حياة مصونة من اللغو و من التكذيب الذي يصاحبه الجدل و هي حالة من الرفعة و المتعة تليق بدار الخلود.

حدائق ذات بهجة.. غلبا، لا كغلب الدنيا و بهجتها فإنها مثال ضئيل عما في الجنة، و الحديقة قطعة من الأرض ذات ماء و كلاء، محصورة بجدران و أبواب تحدق بها من أطرافها، إيحاء إلى صلوحها للسكن دون فوضى و لا تدخل لغير

صاحبها فيها، مستورة عن الناظرين إليها.

حدائق تضم من كافة الأشجار و الفواكه و الوردان ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين، و من أعمها نفعا، و أتمها فائدة، و أقواها غذاء، و ألذها طعما هي الأعناب.

وَ أَعْناباً:

تستحق التخصيص بالذكر أكثر من كل الفواكه لجمعها فوائدها و زيادة..

تذكر في عشر مواضع دون سواها من الفواكه[1].

فهي شراب و إدام و طعام و دواء و فاكهة، تأتي إلى السوق قبل الفواكه و تخرج بعدها، و يابسها تحفظ خواص رطبها، فهي مثال تام عن عالم الفواكه.

وَ كَواعِبَ أَتْراباً:

إن دور الجنس يأتي بعد مهمة المسكن و الغذاء و إن كان قبلهما في الاندفاع، إلا أنه ناقص ما لم تتم معداته، و قد يجرف بالإنسان إلى شفا جرف الهلكات النفسية و الاقتصادية إذا لم تكمل الظروف.

و الكواعب جمع كاعب:

---

١. كما في الآيات التالية: ۲: ۲۶۶، ۶: ۹۹، ۱۳: ۴، ۱۶: ۱۱ و ۶۷، ۱۸: ۳۲، ۲۳: ۱۹، ۳۶: ۳۴، ۷۸: ۳۲، ۱۷: ۹۱، ۸۰: ۲۸.

هن الفتيات النواهد[١]: المستدارة ثديهن مع ارتفاع يسير، و الملتحمة أفخاذهن و صدورهن و وجوههن، فلهن الكعاب المطلوبة في النساء في مختلف المواضع من أبدانهن.

و الأتراب هي المماثلات المتوافيات السن و الجمال مع لداتهن «وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ» (٢٨: ٥٢) «عُرُباً أَتْراباً» (٥٦: ٣٧) و علّه مع أزواجهن أيضا: أترابا مع اللدات و أترابا مع الأزواج. في الكفاءة لا في العمر[٢].

إن الثدي الليمونجية و مماثلة اللدات جعلت هذه الفتيات كأجمل ما يتصور، فكعب الثدي بداية لسن البلوغ، و هي أفضل سنيّ التمتع، و ترب العمر و الجمال يقضي على التفاضل و التفاخر بينهن، و على التسابق و التحاسد في تخيرهن، فقد زودت و زينت الجنة لأهلها بما لا يأتي بحرمان و لا نقصان أو عقد نفسية، فهي دار التواسع لا التضايق، رغم الحياة الدنيا التي هي دنيا مهما بلغت من السعة و الجمال.

وَ كَأْساً دِهاقاً:

---

١. كما عن الامام الباقر (ع) نور الثقلين ٥: ٤٩٥ ح ٢٨.

٢. و قد يستفاد من قوله تعالى: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً. فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً. عُرُباً أَتْراباً» أنه مماثلتهن مع لداتهن، أو و مماثلتهن مع الأزواج في الكفائة، و أما في العمر فالأمر فيه بالعكس كلما كانت الزوجة أصغر كانت ألذ.

هي الممتلئة المترعة المتتابعة[١] تقدّم إلى المتقين بأيدي الكواعب الأتراب.

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً:

.. لا بصورة عامة إذ الجو جو الجد و الصدق.. و لا عن الكأس الدهاق بما فيها الخمر، فما هي إلا: «بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ. لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» (٣٧: ٤٦ ـ ٤٧): لذة لأذواقهم، و لذة لعقولهم و أرواحهم، تزيدهم عقلا إذ ليس فيها غول «فساد» ، و لا هم عنها ينزفون «لا يسكرون» فهي تجمع لذات الخمر و زيادة فوق الوصف، و ليس فيها غولها و نزفها، لا جسدانيا و لا روحيا:

«يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» (٥٢: ٢٣).

فخمر الدنيا تخمر العقل و تستره عن إنارته، و خمر الآخرة تخمر الجهل و تزيد العقل إنارة، فهم يخمرون و الهين في معرفة اللّه و حبه.

.. هذه مناعم محسوسة الظاهر مجهولة الحقيقة لأهل الأرض و هم مقيدون بمدارك الأرض و تصوراتها المحدودة.

جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً:

إذا كان جهنم للطاغين جزاء وفاقا لا تزيد عما قدموا لأنفسهم، فالجنة للمتقين

---

١. ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد و ابن جرير ـ و هو المعنى الجامع لمعاني اللفظة.

أيضا جزاء، و لكنها جزاء العطاء لا الجزاء الوفاق، لو لا العطاء هنا لم يكن جزاء، أو هكذا جزاء، و نفس التعبير بالجزاء أيضا عطاء، فما هو جزاء من عمل لصالحه في نضد الحياة، دون أن يرجع لفائدة و عائدة لرب العالمين:

«وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى» (۹۲: ۱۹ ـ ۲۰).

إنه ليس الجزاء للمتقين إلا بالوعد الإلهي عن فضل و عطاء، لا العدل الذي هو الجزاء الوفاق، و لكنه للطاغين جزاء وفاق كأكثر الجزاء، اللهم إلا أن يشملهم بعض الغفران أو بعضهم.

عطاء حسابا: عطاء محسوبا كجزاء فضلا من اللّه و إحسانا، و عطاء على حساب الوعد دون الاستحقاق، و عطاء وفق الحساب، فلكل عطاء حساب، لأن المتقين درجات، و حساب البعض منهم هو الرزق بلا حساب «إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ»: لا يدخل تحت حسابنا و إن كان عند اللّه مقدرا معلوما.

عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «.. حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم ثم أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عز و جل: جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً[1]».

---

١. نور الثقلين ج ۵ ص ۴۹۵ ح ۲۹، أمالي الطوسي باسناده إليه (ع) في حديث طويل.

إن جزاء الطاغين جزاء وفاق لم ينسب إلى الرب: «إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً. لِلطَّاغِينَ مَآباً»، و لأنه ليس انتقاما، و إنما ظهور لحقائق الطغيان، فالجزاء هو الأعمال، منهم لا من ربک «جَزاءً وِفاقاً».

لكنما جزاء المتقين هو من ربک جزاء العطاء، لو لا فضل الربوبية و وعد العطاء لم يكن لهم ذلک الجزاء، و لكنه الرب المعطي يعطي الجزاء العطاء الحساب «جَزاءً مِنْ رَبِّکَ عَطاءً حِساباً».

رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً:

ربک.. رب السماوات: لو لم يكن ربک لما كان رب السماوات، فإذ قدّر أن يكون ربک، قدر أن يكون رب السماوات أيضا، و كما

قال: «لولاک لما خلقت الأفلاک»: إن ربک طوى فيک ما طواه من خيرات في الأرض و السماوات و ما بينهما، و فيک مزيد، تستحق به أن تكون غاية لخلق الكون.

ربک رب السماوات، دون أن تكون للسماوات و الأرض أرباب سواه زعم المشركين، و لک رب تزعمه! انما هو رب واحد لا رب سواه و لا معبود إلا إياه.

«رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ»: بالرحمة العامة الشاملة لكائنات

العالم، و ربک: بالرحمة الرحيمية الخاصة للصالحين من خلقه، و أنت مجمع الرحمتين: الرحيمية برسالتک المحمدية العظمي، و الرحمانية بما أودع فيک ما في الكائنات كلها.

«الرحمان»: و من رحمته الثواب و كذلک العقاب، فمن الرحمة أن يجد الشر جزائه، و ألّا يتساوى مع الخير في مصيره، كما من العذاب مساواة المصير.

«الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً»: رحمة يصاحبها الجلال و الهيبة في ذلک اليوم المهيب الرهيب، يغمر الجو بالروعة و الجلال و الرهبة و الوقار.

«لا يَمْلِكُونَ»: الكائنون في المحشر كلهم، من الملائكة و الروح و الإنس و الجن، الصالحون منهم و الطالحون.

«لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً»: لا خطابا يخاطبوه به فيما فعل أو يفعل بحق المؤمنين و المجرمين، ف «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» (٢١: ٢٣).

و لا خطابا يطلبون به منه شفاعة و غفرانا أو مزيدا أو نقصانا «يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» (٢٠: ١٠٩) «لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً» (١٩: ٨٧).

و لا خطابا منه يخاطبهم به، لا يملكون أي كلام و خطاب من اللّه لهم أو منهم

إليه، فله الأمر و له الحكم، لا مدخل لأحد في أمره إلا بإذنه، و لا يشفعون إلا بإذنه.

فليس كما يزعم: أن لأولياء اللّه هناک ما يشاءون، فما يشاءون إلا أن يشاء اللّه كما كانوا يوم الدنيا.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً:

إنه يوم القيامة و القيام: يوم يقوم الموتى عن أجداثهم، يوم يقوم الأشهاد، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم يقوم الروح و الملائكة: يوم القيامة الكبرى! مقابلة الروح و ردفه بالملائكة هنا توحي أنه من غير الملائكة: إنه عظيمهم و زعيمهم الآمر الناهي فيهم، و كما في آيات عدة تستعرض عروجهم: «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (۷۰: ۴) و نزولهم على منزل القدر و الرحمة: قلب محمد أو قلب محمدي: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» (۹۷: ۴) و كما

في المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سبوح قدوس رب الملائكة و الروح[۱].

إذا فالروح هو خلق أعظم من الملائكة و من جبرئيل كما يروى عن أئمة أهل

---

۱. الدر المنثور ۶: ۳۰۹، أخرج مسلم و أبو داود و النسائي و البيهقي في الأسماء و الصفات عن عائشة أن رسول اللّه (ص) كان يقول في ركوعه:..

البيت عليهم السلام[1] و عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنه جند من جنود اللّه ليسوا بملائكة لهم رؤوس و أيد و أرجل ثم قرأ: يوم يقوم الروح..»[2].

هذا الروح العظيم و هؤلاء الملائكة الكروبيون يقومون ـ يوم الطامة الكبرى ـ صفا، لا يتكلمون في شفاعة و سواها، إذ لا يملكون من اللّه خطابا، إلا من أذن له الرحمان و قال صوابا، فالكلام المأذون مقيد بالصواب، كما الصواب أيضا مقيد بالإذن.

هذا الموقف الرهيب الذي لا يتكلم فيه المقربون إلا بإذن و حساب و صدق و صواب، إنه يغمر جو المحشر بالروعة و الوقار، و عندئذ تنطلق صيحة الإنذار

---

١. نور الثقلين ٥: ٦٣٨ ح ١٠٤، أبو بصير قال: قلت للإمام جعفر الصادق (ع): جعلت فداك الروح ليس هو جبرئيل؟ قال: الروح أعظم من جبرئيل، إن جبرئيل من الملائكة و إن الروح هو خلق أعظم من الملائكة، أليس اللّه يقول: تنزل الملائكة و الروح؟ و عن الباقر (ع) مثله ح ١١٠ و يلمح إليه ح ١٠٨ ص ٦٣٩ المصدر. و قد يروى أنه ملك أعظم من جبرئيل و ميكائيل كما عن تفسير القمي عن الصادق (ع) في الآية: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ..» قال: «الروح ملك أعظم من جبرئيل و ميكائيل و كان مع رسول الله و هو مع الأئمة».

و مقتضى العرض على القرآن ترجيح السابقة لملائمتها المقابلة بين الروح و الملائكة في آيات ثلاث، إضافة إلى أن الروح الذي يتنزل مع الملائكة ليلة القدر لا يمكن أن يكون مع المعصومين دائما. فكيف الملائمة بين التنزل عليهم لليالي القدر و المقام معهم طوال الزمن؟

٢. الدر المنثور ٦: ٣٠٩، أخرجه ابن أبي حاتم و أبو الشيخ في العظمة و ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (ص) قال:..

للسادرين في الغفوة و الخمار:

ذلِکَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً:

مآبا و مرجعا إلى ربه، حسب ما تصبّغ بصبغته أو تخلف، إما مآبا إلى جهنم المرصاد، أو الجنة العطاء الحساب «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّکَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» (٦: ١٣٢).

«فَمَنْ شاءَ» يوم الدنيا و حقق مآبه «اتخذ» بما قدمته يداه «إِلى رَبِّهِ مَآباً» جزاء وفاقا أو عطاء حسابا.

ّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً

«أنذرناكم» بالنذر: نذر القول و الفكر و الفطر، و نذر الرسل و وحي السماء.:

َذاباً قَرِيباً»: محتوما، فإن كل آت قريب، قريبا في العقول، و قريبا في واقعه إذ يبتدأ به منذ تفارق الروح جسدها، ثم «وَ ما يُدْرِيکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» (٤٢: ١٧) «وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً» (١٧: ٥١).

«إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً» (٧٠: ٧).

«يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ»: ينظر أعماله بصورها إذ تحضر عنده:

«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (٣: ٣٠).. و بحقايقها التي هي جزاؤها، نظرا في أعماقها و في أعماق ذاته نفسه: ف «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٢٧: ٩٠).

«يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً»: ١ ـ كنت ترابا كما كنت قبل أن أخلق، ٢ ـ أو كما صرت ترابا بعد الموت، فكنت كما كنت دون أن أحشر، ٣ ـ أو كما تصبح غير المكلفين من الحيوان ـ ترابا ـ بعد حساب قصير يسير، ٤ ـ أو كنت ترابا لرب الأرباب خاضعا غير متخلف عن أوامره[١].. يا ليتني كنتها، ف «لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ. يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ. ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ. خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ» (٦٩: ٢٦ ـ ٣٢).

فقد يعنى منُنْتُ تُراباً»

---

١. كما يروى عن النبي (ص) ففي العلل باسناده إلى عباية بن ربعي قال: قلت لعبد اللّه بن عباس لم كنى رسول اللّه (ص) عليا أبا تراب؟ قال: لأنه صاحب الأرض و حجة اللّه على أهلها بعده، و به بقاءها و إليه سكونها، و لقد سمعت رسول اللّه (ص) يقول: إذا كان يوم القيامة و رأى الكافر ما أعد اللّه تبارك و تعالى لشيعة علي من الثواب و الزلفى و الكرامة قال: ا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً»

أي من شيعة علي (ع) و ذلك قول اللّه عز و جل: يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً»

و عن الصادق (ع) في الآية «يعني علويا يوالي أبا تراب» (البرهان ج، ص ٤٢٣ ح ١).

أقول: و هذا من الجري و التطبيق و التأويل و ليس تفسيرا، إنما مثال لأكمل ما يجب على المسلم، أن يضيف ولاية علي إلى ولاية الرسول (ص) و كما عن شرف الدين النجفي بعد نقله الرواية الأخيرة: «و جاء في باطن تفسير أهل البيت ما يؤيد هذا التأويل».

كل هذه المعاني الأربعة، و تأوّه الكافر و تحسره عما قصر أمر واقع لا مرية فيه يوم الطامة الكبرى.

إنه يرى انعدامه و صيرورته إلى عنصر مهمل زهيد، يراه أهون من مواجهة هذا الموقف الرعيب الرهيب يوم النبإ العظيم.

أو يرى لو أنه كان ترابا لرب الأرباب دون عصيان و طغيان، لكان في هذا اليوم العصيب من زمرة الناجحين.

فيا ليت كان لا يحشر و ظل ترابا من البداية، أو لا يحشر بعد ما صار ترابا، أو حشر ترابا لرب الأرباب.

سورة النازعات ـ مكية ـ و آياتها أربعون

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١ الى ١٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً (١) وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً (٢) وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً (٣) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (٤)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ

واجِفَةٌ (٨) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (٩)

يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (١٠) أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (١١) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (١٣) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)

.. آيات تخلق هزة في الحس و توجسا في الشعور، و توقعا لشيء مجهول يروع و يهول من أمر الراجفة و الرادفة و الطامة الكبرى، يقسم بها اللّه بطاقات أعدها لما يريده ليوم الزجرة الواحدة فإذا هم بالساهرة.

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً:

القوات النازعات، ملائكية و بشرية و نجومية و سواها، دون اختصاص بالملائكة كما يظن و يتوهم، و لأنهم ليسوا مؤنثين: «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى» (٥٣: ٢٧)[١].

---

١. إن الملائكة ليسوا إناثا و لا ذكورا، و لا يؤتى بضمير التأنيث إلا للأنثى، و يؤتى بضمير التذكير لغيرها، ذكرا، أم لا ذكرا و لا أنثى كما اللّه تعالى و ملائكته، و لم يأت القرآن للملائكة بضمير التأنيث بتاتا، إذا فالمناسب هنا كون النازعات هي القوات الشاملة للملائكة و سواهم.

في الدر المنثور ۶: ٣١٠، أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن علي (ع) في قوله:

«وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً» قال: هي الملائكة تنزع أرواح الكفار، و الناشطات نشطا هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار و الجلد حتى تخرجها، و السابحات سبحا هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء و الأرض،

←

«غرقا» النازعات التي تنزع و تجذب الغرقى من الغرق ـ ١ ـ الأرواح الغريقة في الأبدان، الراسبة الثابتة فيها كأنها هي هي بعينها، إذ الغرق هو الرسوب في الماء و في البلاء ـ ٢ ـ و الأرواح مع الأجساد الغريقة في أكناف العالم و أعماقه بعد الموت ـ ٣ ـ و الأرواح الكافرة الغريقة في حيونة الحياة ـ ٤ ـ و الأرواح المؤمنة الغريقة في مرضاة اللّه رغم طبائع الأبدان الدافعة إلى خلافها[1].

«غرقا»: القوات الغارقة في الأبدان لانتزاع أرواحها، و الغارقة في العالم لنزع أمانات الأرواح و الأبدان، و الغارقة في الأعماق لتنزع الرواسب إلى الساهرة.

«النّازِعاتِ غَرْقاً»: التي تنزع الرواسب الغرقى، و هي تغرق لكي تنزع الغرقى:

١ ـ من الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار عن أبدانهم بالشدة، كما يغرق النازع بالقوس فيبلغ بها غاية المد، كما يروى عن علي أمير المؤمنين عليه السّلام.

٢ ـ و الموت الذي ينزع النفوس إلى البرزخ، من المؤمنين و من الكفار، كما

← فالسابقات سبقا هي الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى اللّه. فالمدبرات أمرا قال هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة.

أقول: هذا من باب الجري و التطبيق على المصاديق البارزة في بعض أفعالها. فهو بعض من بعض من المذكورات في هذه الآيات. و اختصاصها بالملائكة تشبه مقالة الكفار «وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً» كما قاله أبو مسلم بن بحر الأصفهاني.

١. كل هذا إذا كان غرقا مفعولا به و بمعنى المفعول للنازعات أي غريقا، ثم الأخير على كونه حالا من النازعات بمعنى الفاعل، و الظاهر قصدهما معا.

يروى عن جعفر الصادق عليه السّلام.

٣ ـ و الملك الذي يتوفى الأرواح و الأجساد دون أن تضل في الأرض فتضيع: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (٣٢: ١٠ ـ ١١).

٤ ـ و القدرة الإلهية النازعة للأعمال و الأقوال، الغريقة في فضاء العالم، فـإنها تنتزعها و تحافظ عليها لتشهد يوم يقوم الأشهاد.

٥ ـ و الطاقات الإيمانية التي تنزع الأرواح الغريقة في الأبدان و لكي تعكس أمر الحياة الدنيا الجسدانية إلى الحياة العليا الايمانية.

٦ ـ و النجوم التي تنزع من أفق لتغيب في آخر: تطلع من مطالعها لتغرب فـي مغاربها.

٧ ـ و القسيّ النازعة بأسهمها، إذ تمد يجذب و ترها إغراقا فـي المـد، قسـي المجاهدين في سبيل اللّه التي تنزع غرقا، تـنزع بـأسهمها فـتنتزع أرواح الكـفار الغارقة في حيونة الحياة.

قسما بهذه النازعات غرقا، الغارقات في نزعها، الجاذبات الغرقى:

«أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» «لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ

بِما تَسْعى» فإنها محضرة بسعيها، منزوعة عن رسوبها المزعوم إلى دار الجزاء.

وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً:

في غريب القرآن: ثور ناشط أي خارج من بلد إلى بلد، و النشط هو العقد الذي يسهل حله، و في غيره أنه حل العقد أيضا، فالنشط إذا هو التنقل في البلاد لعقد يسهل حلّه أو حلّ عن العقد.

القوات الملائكية التي تحل عقد الأرواح عن أبدانها، و تحل الأجزاء المعقدة من أبدان بأبدان، تحلها و تجمعها لكل روح على حدة، نشطا و تنقلا في مختلف أكناف الأرض لتجمع و تضم هذه المتفرقات المتحللات.. و التي تعقد الأرواح بالأجساد و تنفخها فيها بإذن ربها، و تعقد أجزاء الأجساد المتفرقة، على نشاط بالغ دون إهمال و لا إبطال.

و الموت الذي كأنه مؤمّر في تجوال، لتحل الأرواح من أبدانها الدنيوية، و لتعقدها بأبدانها البرزخية، ثم الموت عن الحياة البرزخية الذي يحل أيضا و يعقد، يعقد الأرواح بالأجساد المعادة في المعاد.

و النجوم الناشطات في تجولاتها عقدا لأحيان و حلا لأخرى.

و الناشطات الإنسية و الجنية في مختلف مجالات الحياة: حلا و عقدا.

و الناشطات الحيوانية تنشط العظم و اللحم و كما هي

«كلاب النار»[١].

وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً:

السبح هو المر السريع في الماء و في الهواء، و يجمعه المر السريع أيا كان.

و السابحات هي القوات المسرعات في بحر الكون، في الماء و في الفضاء و في الأرض، سبحا جسدانيا أو روحانيا، فالكون كله مسبح للسابحات: «وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (٢١: ٣٣).

السابحات الكوكبية من الأرض و الشمس و القمر و زملائها التي تسبح ـ حسب تصريحات الآيات ـ في أفلاكها و مداراتها الجوية.

و السابحات البشرية التي تسيح و تسبح غائصة في بحر الحياة بغية الصيود التي تبغيها، و هي مغلوبة بقضاء اللّه كما تسعى «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى» دون أن تملك من الكون ما يريد، إلا ما قضاه اللّه نتيجة السعي.

و السابحات الملكية التي تسبح لتحقيق أوامر اللّه، من إيصال وحي و تصوير

---

١. الدر المنثور ٦: ٣١١، أخرج ابن مردوية عن معاذ بن جبل قال: قال رسول اللّه (ص) لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار، قال اللّه و الناشطات نشطا أ تدري ما هو؟ قلت: يا بني اللّه ما هو؟ قال: كلاب في النار تنشط العظم و اللحم.

الأجنة في الأرحام و تقريب الأرزاق.

و سابحات الفكر و العقول التي تسبح في الآفاق و في الأنفس حتى يتبين لها أنه الحق أو لم يكف بربک أنه على كل شيء شهيد.

فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً. فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً:

في هذه النازعات الناشطات السابحات، سابقات في مأمورياتها تسبق سائر القوات التي قد تمانعها في تحقيق ما أمرت به، تسبقها في معارک الموت و الحياة، في معارک تنازع البقاء إذ تنزع الأرواح أجسادها متمنّعة عن موتها، فتسبقها ملائكة الموت، و تأخذ الأبدان إلى التناثر و التفرق، و الأرواح إلى الاختفاء، فيسبقها ملک الموت الذي و كلّ بها فيتوفاها و يحافظ عليها و ينزعها إلى محفظات الأرواح و الأجساد.

فالسابقات من هذه النازعات و أمثالها، تسبقها فيما تريد في ميادين السباق، و كما في الناشطات و السابحات سابقات، كلها تنحو منحى تدبير الكون إلهيا و تدميره إلهيا.

هذه السابقات هي المدبّرات أمرا: إذ تنزع ما أمرت بنزعها من أرواح، ثم تدبّر أمر اللّه فيها، برجع الأبدان إلى حيث كانت ـ و كما يناسب الحياة الآخرة ـ ثم رجع

الأرواح إليها و جمعها يوم الجمع.

إنها نشيطة في سبحها و سابحة في نشطها، سابقة سائر القوات في تحقيق أمر اللّه في جو الحياة و معداتها، و الموت و معداته.. و لأنها مدبرات لأمر اللّه «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ».

هذه المدبرات أمرا، تدبّر بما سبقت سائر القوات، فهي مدبّرة و تلك مدبّرة، بما سبقت في نضالها، في نزعها و نشطها و سبحها.

لا يمكن و لا يكون إلا ما أراد اللّه في دنيا الحياة و عقباها، إلا ما فيه الاختيار، دون أن يملك الاختيار أيضا جبرا في إرادة اللّه.

إن ملائكة اللّه ينزعون ـ نازلين ـ عن أمر اللّه: غرقا في أعماق الكون لتحقيق أمره، و ينشطون محللين و عاقدين كذلك، و يسبحون في بحر الوجود ابتغاء تلقي الأوامر الإلهية تحقيقا و تطبيقا، و يرجعون إلى مقام العز نشيطين منبسطين سابقين مناوئيهم في ميادين السباق، مدبرين أمر اللّه بما أراده اللّه

«يدبرون ذكر الرحمن و أمره»[1].

---

١. الدر المنثور ٦: ٣١١، أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب ان ابن الكوا سأله عن المدبرات أمرا قال: الملائكة يدبرون ذكر الرحمان و أمره.

أقول: ذكر الرحمان إشارة إلى الأمر التشريعي و أمره هو التكويني.

هل يدبر الأمر إلا اللّه؟

من الضروري عقليا و قرآنيا أن اللّه هو المدبر و لا مدبر سواه في التكوين و في التشريع و في الجزاء يوم الجزاء: «.. ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» (١٠: ٣) «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ» (١٣: ٢) «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (٣٢: ٥).

و هذه الآيات توحي أصالة التدبير الإلهي، دون أن تنافي وساطة التدبير الملائكي أو البشري أو الكوني في الأسباب الطبيعية التي سخرها اللّه تعالى.

فالملائكة المدبّرون لا يدبّرون إلا أمر اللّه بإذنه و بأمره: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (٢١: ٢٧) «يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» (١٦: ٥٠).

حركات الأرض:

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ:

آخر المطاف في هذه النزعات و النشاطات و السبحات، و في سبقها و تدبيرها أمر اللّه، آخره هو يوم الرجفة و الردفة.

«تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ»: توحي أن الأرض راجفة قبل قيامتها، و راجفة عندها: مرة

رجفة الإماتة، و أخرى رجفة الإحياء و هي الرادفة، فهذه رجفات ثلاث و تسبقها رجفة مجنونة قبل أن تجعل ذلولا «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا» (٦٧: ١٥).. رجفات شاملة مجنونة مرة، و معمرة أخرى تحافظ على الحياة و الأحياء، و مدمرة ثالثة، و راجعة الأموات من أجداثهم أخيرا «فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» رجفات أربع تتلاحق! تتسمى الأرض راجفة لحركاتها المتداخلة المعتدلة المعدّلة، حيث الرجفة تعبير بليغ عن الحركات المتداخلة، فما هي حركات أرضنا التي كنا نحسبها جامدة؟

إن أرضنا من السابحات في بحر الجو في فلكها كزملائها السابحات:

«وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ.. وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها.. وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ.. وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (٣٦: ٣٣ ـ ٤٠) سبّاحة في أعماق الفضاء، دائرة حول نفسها و على جادتها الفضائية كأنها تعقل كيف تسبح: «يسبحون».

تسيّرها على مداراتها القوة الجاذبية العمومية، فهي تسير و تطير دون انزلاق عن أفلاكها و لا انفلات و تناثر عنها، بعمد لا ترونها: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (١٣: ٢) فثمّ ـ في السماوات المرفوعة بأنجمها ـ ثم عمد و لكن لا ترونها، و علها ـ أو منها ـ القوة الجاذبية العمومية.

و تكفينا آية الكفات إيحاء صريحا لطيران الأرض و حركاتها: «أَ لَمْ نَجْعَلِ

الْأَرْضَ كِفاتاً. أَحْياءً وَ أَمْواتاً» (٧٧: ٢٥ ـ ٢٧) حيث الكفات هو سرعة الطيران على تقبّض فيه[١]، فأرضنا هذه مسرعة في طيرانها متقبّضة ـ على ظهرها و في حضنها ـ أطفالها: أحياء و أمواتا، لو لا انضباط حركاتها و القوة الجاذبية المتحكّمة عليها لانفلتت أطفالها و تساقطت إلى أعماق الأجواء النازلة.. و لكنها كفات و يا لها من بركات في حركات، و على حد تعبير علي أمير المؤمنين ـ عليه أفضل السلام و الصلاة ـ حين يعطف إلى عطف الأرض على أولادها:

«و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشم من صياخيدها فسكنت من الميدان برسو الجبال في قطع أديمها» «.. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها، و أجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مهادا و بسطها لهم فراشا..».

«و عدل حركاتها»: إن لأرضنا هذه حركات متداخلة استحقت بها اسم الراجفة، أنهى علماء معرفة الأرض حركاتها إلى أربعة عشر، و علها أزيد.

.. هذه هي الرجفة المعمّرة، ثم ترجف رجفتها المدمّرة، رجفة الإماتة، ثم الرجفة

---

١. تفصيل البحث عن الكفات إلى سورة المرسلات.

الرادفة هي رجفة الإحياء «فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ».

أجل إن الراجفة هي التي ترجف، لا الجامدة، و ما أحلى و أجلى هذا الاسم فيما كانت البشرية تنكره من حركات الأرض، فللقرآن متشابهات يفسرها الزمن.

إن للأرض ـ عند قيامتها و من عليها ـ نفختان و صيحتان و رجفتان، كلّ رجفة إثر نفخة و صيحة ما لها من فواق، و نتاجها زجرة إلى الساهرة أرض العرض و الحساب.

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ:

وجفة لقلوب مقلوبة تتبع رجفة الأرض: حين الإماتة و حين الإحياء، و الوجفة هي سرعة السير و الحركة، فهي حراك في اضطراب لقلوب، تلي رجفتي الأرض.

جوّ راجف و قلب واجف مبهور مذعور، وجفة من الرجفة التي تنقلهم إلى الساهرة: أرض الحساب و العقاب، و هناك ترى:

«أَبْصارُها خاشِعَةٌ»: أبصار القلوب و هي البصائر، تتبعها أبصار العيون:

«وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (۱۴: ۴۲).

هذه هي القلوب المقلوبة المذعورة تتقلب يومذاك بأبصارها: «يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ

الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ» (۳۴: ۳۷)

«رب هب لي كمال الانقطاع إليک و أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليک» (علي عليه السّلام).

و هناک تخشع الأصوات «وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً» (۲۰: ۱۰۸) و تخشع أبصار القلوب.. و تخشع من الإنسان ما لم تكن تخشع يوم الدنيا، فيوم القيامة تخشع خشوع الذل عن تقصير «وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» (۴۲: ۴۵) «خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِکَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ» (۷۰: ۴۴) «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ. عامِلَةٌ ناصِبَةٌ. تَصْلى ناراً حامِيَةً» (۸۸: ۲ ـ ۴).

قلوب و وجوه و أبصار هناک خاشعة من الذل ينظرون من طرف خفي:

«يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ. أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً. قالُوا تِلْکَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ».. فيما هي شديدة الاضطراب، بادية الذل، يجتمع عليها الخوف و الانكسار، و الوجفة و الانهيار، و هذا هو الذي يتناوله القسم بالنازعات إلى السابقات سبقا و المدبرات أمرا.

يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ:

متحدثين عن وهلتهم و انبهارهم إذ يقومون من أجدائهم خشعا كأنهم جراد منتشر، يقولونها في خبال و ذهول. متسائلين سؤال الوحشة و الدهشة، عن رجوعهم إلى الحياة بعد نكرانها في حيونة الحياة الدنيا. و يقولون ـ هذه ـ علها جواب الأقسام الماضية.

فما هي الحافرة التي يخافونها؟ أ هي القبر؟ و لا ترجع الأحياء يوم الإحياء إلى القبر! و ليس في هكذا رجوع خوف، بل هو ما يتمناه الكافر إذ يقول:

ا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً».

أم هي القيامة، و ليس ورودها ردا إليها إذ ليست إلا مرة واحدة؟

أم هي الحياة كما كانت: «الخلق الجديد» كما عن باقر العلوم (ع)[١]: رجوعا إلى حياة كانت في الدنيا، إلا دنياها و تكاليفها، و إنما الجزاء على ما قدمت يداه و أن اللّه ليس بظلام للعبيد، و إذا كانت الحافرة هي الخلق الجديد فما هي المناسبة في هكذا تعبير؟.

إن الحافرة من الحفر و هو التراب الذي يخرج من حفرة، و حافر الفرس ما يحفر التراب من رجله، و الحافرة الأرض المحفورة، فالرد إلى الحافرة على ما في

---

١. نور الثقلين ٥: ٤٧٩ عن القمي عن الباقر (ع).

المفردات: مثل يمثل به لمن يرد من حيث جاء، يقال: رجع في حافرته: أي:

في طريقه التي جاء منها، فهم إذ يردون إلى حيث جاءوا، إلى مثل الحياة الأولى، قالوا عنه بالرد إلى الحافرة، ثم «تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ»، فإذ يموت الإنسان يبقى موضع وجوده خاليا كالحافرة من الأرض التي يراد ترابها، فهم إذا حائرون مذعورون أن كيف رجعوا إلى الحياة بعد ما كانوا عظاما نخرة، و تلك إذا كرة خاسرة.

كرّة خاسرة لمن خسروا أنفسهم في الحياة الدنيا، و كرة رابحة للذين ربحوها فيها، فليس الخسار إلا من أنفس الكفار و لا يظلمون فتيلا.

أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً:

«أن صارت الأجساد شحبة بعد بضنها، و العظام نخرة بعد قوتها»[١]

عظاما منخوبة بالية يصوت فيها الهواء لرخوتها، بعد أن كانت قوية لا ينفذها الماء و لا الهواء.. عظاما بالية هبت بها الرياح فبثتها أيدي سبأ، فكيف تجتمع أجزاؤها بعد تفرقها؟ و كيف ترجع إلى صلابتها بعد نحرتها؟ و كيف تحيى بعد موتها؟ «وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا

---

١. من خطب أمير المؤمنين علي (ع) عن نهج البلاغة.

الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» (٣٦: ٧٨ ـ ٧٩).

قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ:

قالوها بعد دهشتهم و وحشتهم في وهلتهم و ذهولهم و هم يفيقون و يبصرون فيعلمونها كرة إلى الحياة، و لكنها الحياة الأخرى، فيشعرون بالخسار و الوبال فتبتدر منهم كلمتهم الحاسرة: «تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ» كرة لم يكونوا ليحسبوا لها حساب، و لم يقدموا لها إلا كل تباب، فهم في حسرتهم يعمهون و في خسرتهم يتيهون.

هذا وجه في هذه المقالات، و وجه آخر عله مقصود مع الأول أو أنه هو المقصود فقط: أنها مقالتهم يوم الدنيا في نكران الحياة بعد الموت، و يتأيد بقولهم: «أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً» فإنها إلى الإنكار أقرب منها إلى الاندهاش و التصديق على عجب، و بقول اللّه عنهم: «قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ» حكاية عن مقال مضى، و أخيرا إن الحي بعد الموت و إن كان صحيحا قوله: إنها خاسرة، لكنه لا يصح قوله «أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً»، و لا قوله:

«أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ» أقولا هكذا بعد إذ قضي الأمر؟ اللهم إلا دهشة و تعجبا.. لذلك نقول عل الوجهين هنا مقصودان، و أحرى بالثاني أن يعنى.

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ. فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ:

إنما هي: الكرة، زجرة واحدة، صيحة خارقة تزجر عن الأجداث فإذا هم إلى ربهم ينسلون، و إنها لا تكلّف مديدا من الزمن، خلاف ما كانت الولادة في الدنيا، إنما زجرة واحدة و صيحة ما لها من فواق.

إن الولادة يوم الدنيا كانت تتطلب زجرات و رحلات و تنقلات، و هنا الولادة الثانية و الخلق الجديد ليست إلا بزجرة واحدة، واحدة فقط.

هذه هي زجرة الإحياء و قبلها زجرة الإماتة في النفخة الأولى، زجرتان تختلفان في مفعوليهما، و كما الزلزال و الصيحة و نفخ الصور تختلف المرتان فيها.

«فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ»: فما هي الساهرة؟ أكيد أنها ليست هي القبور، فقد انتقلوا بالزجرة عن أجدائهم إلى ربهم ينسلون، فهل هي وجه الأرض بعد زلزالها: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ» (١٤: ٤٨) فإذا تبدلت أرضيتها استحقت تبدّل اسمها، و هي هي أرض العرض و الحساب، و كما يروى عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و سلّم[1]؟ أم هي أرض في السماء ينتقلون بأجسادهم من أجدائهم إليها؟ أم إن

---

١. نور الثقلين ٥: ٤٩٩ ح ١٩ مجمع البيان، روى أبو هريرة عن النبي (ص): «تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ» فيبسطها و يمدها مد الأديم العكاظمي «لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً» ثم يزجر اللّه الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدلة في مثل مواضعهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها و ما كان في ظهرها كان على ظهرها.

←

الساهرة هي ساهرة الأرواح بعد الانتقام من الأبدان كما يروى عن الإمام الصادق عليه السّلام[1]؟ أم ماذا؟.

أقول: إننا نصدّق ساهرة الأرواح يوم الحساب: خلودها في الجنة أو النار، لكنها مع الأجساد المناسبة لها، و لكنها إذا هي الساهرة، لا بالساهرة، عكس الآية «فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ».

و فيما إذا كانت أرض المحشر هي الساهرة، فباعتبار كثرة الوطء بها كأنها تسهر بمن يمشي عليها دون انقطاع، و أرض الدنيا ليست هكذا، فهذه ساهرة الأرض، و هي الموطئ و الموطن لساهرة الأرواح بالأبدان، سهرة بالحياة الأخروية، و هذه السهرة تزيد أرض الحساب سهرة حقّت بها أن تسمى بالساهرة.. ساهرة بعد أن كانت أرضا فانية دائرة.. ثم لا حجة لنا أن الساهرة هي أرض في السماء، في حين التصديق أن الجنة فوق السماء السابعة و النار تحتها، حيث الانتقال إلى الآمل ليس إلا بعد قضاء الحساب في موقف الحساب، ثم لا دليل على وحدتهما.

← في البرهان ٤: ٤٢٥ ح ٣ عن القمي عن الباقر (ع): و الساهرة الأرض كانوا في القبور فلما سمعوا الزجرة خرجوا من قبورهم فاستووا على الأرض.

١. و فيه عن الصادق (ع): «إذا انتقم منهم و ماتت الأبدان بقيت الأرواح ساهرة لا تنام و لا تموت.

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١٥ الى ٢٦]

هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ مُوسى (١٥) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (١٦) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَکَ إِلى أَنْ تَزَکَّى (١٨) وَ أَهْدِيَکَ إِلى رَبِّکَ فَتَخْشى (١٩)

فَأَراهُ الْآيَةَ الْکُبْرى (٢٠) فَکَذَّبَ وَ عَصى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (٢٢) فَحَشَرَ فَنادى (٢٣) فَقالَ أَنَا رَبُّکُمُ الْأَعْلى (٢٤)

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَکالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى (٢٥) إِنَّ فِي ذلِکَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (٢٦)

.. هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ مُوسى:

هل أتاک بوحي السماء؟ فإنه المعتمد المؤكّد، استفهام بدافع ترغيب النبي الأقدس لكي يستقيم في كفاح الطاغين، و ترهيب المشركين الناكرين لوجود اللّه و البعث و المعاد، فسواء في ذلک الاستفهام أن أتاه حديث موسى مسبقا ـ كما أتاه في المزمل إجمالا ـ أم لم يأته، كما لم يأته حتى الآن هكذا، و إن لم تكن صورة منه مفصلة.

و قصة موسى هي أكثر القصص ذكرا في الذكر الحكيم، وردت منها حلقات

منوّعة و في أساليب شتى كما تناسب مواضيعها، و هنا ترد مختصرة سريعة المشاهد منذ ندائه بالواد المقدس إلى أخذ فرعون نكاله في الآخرة و الأولى.

إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً:

من أولى النداءات الإلهية لموساه إذ ناداه: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً. وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى. وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى. قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى. قالَ أَلْقِها يا مُوسى. فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى. قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى. وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى. لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى. اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى» (۲۰: ۱۲ ـ ۲۴).

و هذه أولى النداءات الرسالية: «اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى» بعد برهنة الرسالة، و أنه كيف يواجه و يكافح فرعون الطاغية.

«ناداهُ رَبُّهُ»: الذي رباه تربية رسالية و اصطنعه لنفسه فصنع على عينه، و لكي يستأهل لتلقي وحي الرسالة و تطبيقها.

«بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً»: الواد الذي قدسه اللّه بالوحي الموسوي، و علّه «طوى» ، و قد تكون (طوى) إيحاء لما طواه موسى من الفلاة بينه و بين الواد المقدس حتى آنس من جانب الطور نارا، فطوى أهله و تحلّل عنهم أيضا قاصدا وادي الوحي، ثم طواه اللّه بالوحي بعد انتشاره و تفرق باله، و بعد ما طوى نفسه عن غير الوحي و عما سوى اللّه، إذ خلع نعليه، نعل الأهلين، و نعل نفسه و إنيته، فحلّ بالوادي مجردا عما سوى اللّه فاحتل منزلة الوحي.

أو أن «طوى» هي الأرض التي حلّ بها موسى، سميت طوى لما عرفنا من طوى موسى و انطوائه إلى مطوى الوحي.

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى:

أولى النداءات الرسالية الموسوية و بدايتها المحورية التي تدور عليها رحاها طوال الدعوة، و هكذا يجب أن يكون موقف رجالات الوحي و جاه فراعنة التاريخ، كفاحا متواصلا بالحكمة و الموعظة الحسنة، و بالطاقات الجبارة الفولاذية، استئصالا للفرعنات و النمردات، و لكي تعيش الشعوب على رغد الأمن و الصلاح.

و هكذا يجب للمصلحين أن يكرسوا حياتهم في معارضة الطاغين و الدفاع عن المظلومين دون سكوت و خمول و استسلام و انظلام.

فعلى المصلحين الحراک الدائم و التجوال المتواصل في دفع الطغيان أيا كان و من أي كان، دون أن يعتبروا أنفسهم «بيتا يؤتى و لا يأتي» فإن الشر يبتغي ـ دوما ـ مجالات لنموه و تحقيقه، فلا بد لدعاة الخير أن يضيّقوا كافة المجالات على دعاة العيث و الشر «وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ» (۲: ۲۵۱).

«اذهب» : أنت إليه، دون أن ترجو ذهابه إليک، فإنه لا يأتيک إلا قاهرا ساهرا ساحرا، ف «اذهب» إليه ناصحا و مرهبا، و لكي تزيله أو تخفف عن بأسه و بؤسه..

«إِنَّهُ طَغى»: طغى على عباد اللّه إذ استعمرهم و استخفهم و استحمرهم، و طغى على اللّه إذ قال: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» فأصبح حياته حياة الطغيان و ما أسوأها حياة و ما أخطرها نكالا على الشعوب! إن الطغيان أمر لا ينبغي أن يترک، و لا ينبغي أن يهمل فيبقى، إنه يعيث الفساد في الأرض، و يهلک الحرث و النسل و اللّه لا يحب الفساد، و ما جور الجائرين و ظلم الظالمين إلا نتيجة إهمال القادة الروحيين، و فسح المجال للطائشين الظالمين، و خمول المظلومين و إحنائهم ظهورهم لهؤلاء الشياطين.

فَقُلْ هَلْ لَکَ إِلى أَنْ تَزَكَّى. وَ أَهْدِيَکَ إِلى رَبِّکَ فَتَخْشى:

يعلّم اللّه رسوله كيف يواجه و يخاطب الطاغية بأحسن الأساليب و أقواها جاذبية، جامعة برهان العاطفة و العقل و الإحساس، لعله يتذكر أو يخشى.

إنه أمر بالذهاب إلى فرعون، فاستدعى من ربه أن يشرح له صدره و ييسّر له أمره و يحلّ عقدة من لسانه، و يجعل له وزيرا من أهله هارون أخاه، فأوتي سؤله فضمّ إليه أخاه عمادا و مساندا و ناصرا: «وَ اصْطَنَعْتُکَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوکَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِکْرِي. اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى. فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى. قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى. قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى. فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّکَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناکَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّکَ وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» (٢٠: ٤١ ـ ٤٨).

لا نجد ألين من هذا الكلام عند ألعن حمقاء الطغيان: «هَلْ لَکَ إِلى أَنْ تَزَكَّى» يبتدئ بالسؤال عن ميله إلى التزكي، دون أن يحتّم عليه أنه قذر فيجب عليه التزكي «هَلْ لَکَ»؟! هل لک ميل و رغبة إلى ما يرغب إليه كل إنسان؟ «أَنْ تَزَكَّى» و لا يخلو من رغبته المتزكون أيضا فكيف بمن سواهم من الأدناس! إن الإنسان كائنا من كان، يشعر دوما بالنقصان، لذلک يحاول فكريا و عمليا أن يزيل عن نفسه و صمة

النقصان إلى الكمال و الأكمل، و ما من أحد يرى نفسه بالغا إلى ذروة الكمال رغم «أن حب الشيء يعمي و يصم».

و هذه الحالة هي لزام الإنسان ككائن من الكائنات المخلوقة، مهما كانت ادعاءاته الكاذبة أنه بالغ ذروة الكمال.

إذا فكل إنسان ـ بل و كلّ حيوان ـ له اندفاع إلى الكمال و الأكمل، و كل مرحلة تالية تزكّ بالنسبة للسابقة و إن كانت هي أيضا تزكيا لسابقتها.

إذا فهذا سؤال لا جواب له إلا الإيجاب: «بلى إن لي رغبة إلى أن أتزكى».

ثم شعور النقص هذا، و أنه متدرج إلى الكمال، يدفعه أن يعتنق عقيدة الإله، الرب الذي لا ينقص شيئا و لا ينقصه شيء، و هو الذي يدرج إلى مدارج الكمال دون أن يتدرج هو نفسه.

ففرعون هذا، الذي ظن أنه الرب الأعلى، عليه أن يشعر بهذا البرهان أنه ليس ربا، و إنما عبد في نقصان، عليه محاولة التزكي، ثم عليه أن يهتدي إلى ربه فيخشاه فلا يطغى، فما ألينه كلاما و أنعمه! و ما أبلغه برهانا و أقومه! «وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى» «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» العلماء باللّه، و ما عدم الخشية من اللّه إلا لعدم العلم و المعرفة به و عدم الهداية إليه.

إن الهداية إلى الرب: «المالک المدبر» هي السبيل المنحصرة في التزكي، فـإنه يملک الإنسان فيدبر أمره كأحسن ما يكون دون حاجة منه إليه، و المتزكي عـند الرب المحتاج ـ الذي لا يملكه فلا يملک تزكيته ـ إنه ما يفسد أكثر مما يصلح.

إن مرض الطغيان المبتلى به فراعنة التأريخ لا علاج له إلا الشعور بالنقصان ثم محاولة التزكي بالهداية إلى الرب تبارک و تعالى، فما أحلى دلالة تضم بيان المرض و علاجه كأتقن و أحسن ما يتصور.

فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى. فَكَذَّبَ وَ عَصى:

أراه الآية الكبرى، الحسية، بعد ما أراه الآية الكبرى العقلية، ليجمع له الآيتين و يلزمه بالحجتين، فما هي الآية الكبرى هنا؟!

إنها ليست هي الآية الكبرى بين الآيات، و إنما هي منها و كما أراها موسى من قبل: «لِنُرِيَکَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى» (٢٠: ٢٣) و إنها هي العصا التي انقلبت ثعبانا مبينا بعد ما انقلبت حية تسعى، هذه العصا التي نتجت عنها آيات تترى:

فقد فلق بها البحر «فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» (٢٦: ٦٣) و ضرب بها الحجر: «فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً» (٢: ٦٠) ثم الآية الكبرى:

«فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ» (٧: ١٠٧) و ٢٦: ٣٢) آية أراه ربه إياها إذ

كان بالواد المقدس طوى، ثم أراها فرعون فكذب و عصى: «فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ» (٢٦: ٤٥).

«فَكَذَّبَ وَ عَصى» لم يزده هذا البلاغ إلا فرارا، فلم يفلح هذا الأسلوب الحبيب في إلانة قلبه المقلوب الخاوي من معرفة اللّه، فكذب موسى و استمر في عصيانه للّه و لموساه، و تجاوز عن طغيانه الأول إلى أشرّ و أطغى «فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» تلك الكلمة الوقحة المتطاولة المليئة بالغرور و الجهالة.

«وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى. قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى» (٢٠: ٥٦ ـ ٥٧) أري آيات اللّه كلها بما فيها من آيات ربه الكبرى، فكذب و عصى.

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى. فَحَشَرَ فَنادى. فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى:

ثم ـ بعد ما كذب و عصى ـ أدبر عن موسى و عن آية اللّه الكبرى، أدبر يسعى في كيده فحشر حشره و جمع جمعه فنادى نداءه كأحمق حمقاء التاريخ:

«فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى» (٢٠: ٦٠): إنه تولى و سعى و جمع كيده و جمعه و عله مرتين: مرة لدعواه: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» و أخرى لمكافحة السحرة بسحرهم: آيات اللّه الكبرى، أو عله مرة واحدة جمع فيها بين الكيدين:

استخف قومه أنه ربهم الأعلى، فأطاعوه فيما أراد.

«فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى»: إنه تدرج في ربوبيته المزعومة المدعاة حتى إذا وصل إلى ذروتها، و التدرج بنفسه برهان لا مردّ له على كذبه في دعوى الربوبية.

يقولها الطاغية مخدوعا بغفلة جماهيره الحمقاء و غفوتهم و إذعانهم له و انقيادهم، أجل و إنها الجماهير الذلول تحني له ظهورها كالحمير فيركبها، و تمدّ له أعناقها فيجرها، و تحني له رؤوسها فيستعلي عليها، و تتنازل له عن حقوقها الإنسانية فيطغى:

«فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ».. و ما كان له أن يتقول بهذه القولة الكافرة لو وجد أمة واعية أبيّة كريمة مؤمنة عارفة أنه عبد كسائر العباد، إن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذه منه ضعف الطالب و المطلوب.

فرعون في تضاد الآلهة:

إنه قد يعبد آلهة كما يعبدها غيره «وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ» (٧: ١٢٨) آلهته اعتبارا أنه كان يعبدها، أم آلهته لأن قومه كانوا يعبدونها، أم بالاعتبارين.

و قد يدّعي هو الألوهية لأن له ملک مصر بما فيها الآلهة «وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ» (۴۳: ۵۱ ـ ۵۲).

و يهدد موسى إن اتخذ إلها غيره، توحيدا لنفسه في الألوهية: «قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» (۲۶: ۲۹) يعني إلها لا أرتضيه و هو الإله الحق، فإنه كان يعترف بوجود أرباب و أنه أعلاهم: «فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» هناک أرباب متفرقون و أنا أعلاهم و ربهم أيضا إذ أملكهم بمالي ملک مصر.

يبقى في طغيانه و غيّه هكذا: «حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (۱۰: ۹۰ ـ ۹۱).

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى. إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى:

نكال الآخرة تتقدم هنا على الأولى، و لأنها أشد و أبقى، و أنها تشمل حياتي البرزخ و الأخرى، فأما نكال الأولى بما أنه يمثل نكال الآخرة تمثيلا ضئيلا، فهو غرقه بمن معه في اليمّ على حين غرّة و غفلة و طغيان: «وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى. فَأَتْبَعَهُمْ

فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ. وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى» (٢٠: ٧٧ _ ٧٩).

فلما غشيه اليم بما طغى «قالَ آمَنْتُ.. آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ...؟ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ» (١٠: ٩٢).

هذا هو نكاله في الأولى، بقي عذابا على روحه القذرة ما دام بدنه لمن خلفه آية، ثم نراه حين الغرق يدخل جحيم البرزخ، ثم يوم القيامة أشد العذاب:

«فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ» (٤٠: ٤٥ _ ٤٦)، و على حد تعبير

باقر العلوم عليه السّلام: «أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة»[1].

فإذا كان نكال الأولى عنيفا قاسيا دائبا على روحه ببدنه، فكيف بنكال الآخرة و

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٠٠ عن الخصال عن زرارة عن أبي جعفر (ع) «قال: أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة و الأولى، فكان بين أن قال الله تعالى لموسى و هارون: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما» و بين أن عرفه الإجابة أربعين سنة ثم قال: قال جبرئيل (ع) نازلت ربي في فرعون منازلة شديدة فقلت: يا رب تدعه و قد قال أنا ربكم الأعلى؟

فقال: إنما يقول هذا عبد مثلك»

أقول و الكلمتان قوله «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» و قوله «آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ».

هو أشد و أنكى و أبقى؟ «إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى».

عبرة ما أعظمها بما يرى بدنه القذر في الأهرام، يراه السائحون الوافدون إلى مصر، عبرة لمن يخشى اللّه و يخشى نكاله الآجل و العاجل، و كلّ سائر على نهجه، و كل إنسان يعمل على شاكلته.

[سورة النازعات (۷۹): الآيات ۲۷ الى ۳۳]

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (۲۷) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (۲۹) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (۳۰) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (۳۱)

وَ الْجِبالَ أَرْساها (۳۲) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۳)

.. جولة أخرى لها جرسها الصارخ في أعماق الأسماع، تندّد بالمشركين الطغاة المعتدين المغترين بقوتهم، ردا لهم إلى شيء من مظاهر القوة الإلهية الكبرى الملموسة المحسوسة، التي لا تحسب قوّتهم بجنبها شيئا يذكر.

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً:

قوة و صلابة و رموزا و غموضا، بدءا و عودا.

أَمِ السَّماءُ بَناها:

بناها كسماء لا كسبع سماوات، لأن دحو الأرض و إخراج مائها و مرعاها، كل ذلک كان قبل خلق السماء سبعا كما تفصلها الآيات في «فصلت» : «قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِکَ رَبُّ الْعالَمِينَ. وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَکَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَواءً لِلسّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِکَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (۴۱: ۹ ـ ۱۲).

فخلق السماوات السبع متأخر عن خلق الأرض و تعميرها بمرحلة، و خلق أنجمها بما فيها الشمس متأخر عنه بمرحلتين.

بناها من مادتها المنبثقة عن المادة الأولية «ماء» باضطرامها، و هي الغاز «الدخان» «ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ».. بناها و سواها من ذلک الغاز، أن «رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها».

فهنا بنا آن: بناء السماء، و بناء السبع الشداد، و الآيات هذه بصدد بيان البناء

الأول، و لقد نبأتنا عن البناء الثاني ـ من قبل ـ سورة النبأ.

رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها:

و السمک هو الطاق المسموک بما یسمکه و یمسکه من السقوط، و هو هنا عمد لا ترونها، کما السماوات أیضا بأنجمها: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (۱۳: ۲).

فسمک السماء قبل السبع، و سمک السماوات السبع، إنهما کلیهما «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها»

فثمّ عمد و لکن لا ترونها و علی حد تفسیر باقر العلوم علیه السّلام.

«فسواها» سماء یرفع سمکها، فلو لا سمکها لم تکن سماء، بل کانت تتساقط إلی أعماق الأجواء کما سوف تتناثر الکواکب عند قیامتها و استرجاع سمکها و جاذبیتها.

«فسواها» سماء عادلة الأطراف، متساویة الجوانب و الأکناف، دون اختلاف بین أجزائها لأنها کانت کلها الغازات الأولیة علی حراراتها و ظلماتها و إشراقاتها، فتلک لیلها و هذه ضحاها، إذ لم تخلق بعد شمسها المضحیة و شموسها المشرقة و کراتها المستنیرة أحیانا و المظلمة أخری.

وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها:

أصل الغطش من الأغطش و هو الذي في عينه شبه عمش، و التغاطش هو التعامي عن الشيء، فإغطاش ليل السماء هو جعله مظلما، و علّه يرمز إلى أن الدخان السماوي كان نيرا لما خلق من تفجر المادة الأولية «الماء» فلما تصاعد دخانا أظلم: أن أحاطت الظلمة جوانبها المجاورة للفضاء، و النور و الضياء باطن في بطنها، ثم اللّه أخرج ضحاها إذ نشر الدخان في الفضاء و قلبّه ظهر بطن فأصبح ليلا و ضحى، نورا و ظلاما ف «أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها».

كل ذلک تؤيده السنة المهتدية بالكتاب و على حد تفسير باقر العلوم عليه السّلام[1] كما ترى تفاصيلها في البحث الفصل عن خلق السماوات و الأرض عند مواضعها الأنسب.

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٠١ في روضته الكافي بالإسناد عن محمد بن عطية عن أبي جعفر (ع) أنه قال لرجل من أهل الشام: و كان الخالق قبل المخلوق و لو كان أول ما خلق من خلقه الشيء من الشيء إذا لم يكن له انقطاع أبدا و لم يزل اللّه إذا و معه شيء و ليس هو يتقدمه، و لكنه كان إذ لا شيء غيره و خلق الشيء الذي جميع الأشياء منه فجعل نسب كل شيء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف إليه. و خلق الريح من الماء ثم سلط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلک الزبد أرضا بيضاء نقية ليس فيها صدع و لا ثقب و لا صعود و لا هبوط و لا شجرة ثم طواها فوضعها فوق الماء، ثم خلق اللّه النار من الماء فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلک الدخان سماء صافية نقية ليس فيها صدع و لا ثقب و ذلک قوله: و السماء بناها رفع سمكها فسواها و أغطش ليلها و أخرج ضحاها، قال: و لا شمس و لا قمر و لا نجوم و لا سحاب ثم طواها فوضعها فوق الأرض ثم نسب الخلقتين فرفع السماء قبل دحو الأرض فذلک قوله عز ذكره: و الأرض بعد ذلک دحاها، يقول بسطها.

دحو الأرض و طحوها:

وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحاها:

إن دحو الأرض و طحوها: «وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها» (٩١: ۶) إنه كان أيا كان ـ بعد خلق السماء، لا بعد السماوات السبع، لما درسناه في الآيات من «فصلت» أن تسبيح السماء كان بعد خلق الأرض ببركاتها و جبالها، فما هو دحوها و ما هو تأثيره عليها؟

إن الدحو و الطّحو هما: الرمي بقهر و الإزالة و الرحي و الدحرجة[1]، و الأخيرة هي أشمل معانيها و أكفاها دلالة على أن دحوها هو الحركة المنظمة، أو بدايتها المكمّلة بإرساء الجبال في أعماقها و على حد تعبير

الأمير عليه السّلام «و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشم من صياخيدها فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها» و «سكنت الأرض مدحوة في لجة تياره، و ردت من نخوة بأوه و

---

١. في تاج العروس «دحى السيل بالبطحاء رمى، و المطر الداحي الذي يدحو الحصى عن وجه الأرض بنزعه، و الدحو الحجارة المراماة بها، و يقال للفرس: مر يدحو إذا رمى بيده رميا.

و في غريب القرآن للراغب الأصبهاني «دحى المطر الحصى من وجه الأرض، أي جرفها ثم ذكر بقية المعاني المسبقة» و الحركة المنظمة و الدحرجة ظاهرة هنا و هناك.

اعتلائه و شموخ أنفه و سمو غلوائه و كعمته على كظة جريئة فهمد بعد نزقانه و لبد بعد زيقانه و ثباته»[١].. و سكون الدحو هنا هو السكون عن الاضـطراب بـانتظام حراكها في دحوها.

و قد ذكرنا مسبقا ـ سنادا إلى آيات ـ أن الأرض كانت متحركة منذ خلقت، ثم جعلها اللّه تعالى ذلولا بعد شماسها، و هنا تعرفنا على بدايتها في انتظام حركاتها أنها بعد خلق السماء قبل تسبيعها.

و في روايات مستفيضة أن الدحو كان من تحت الكعبة ـ زادها اللّه شرفا ـ فعن إمام المتقين علي عليه السّلام: «إن شاميا سأله عن مكة المكرمة لم سميت مكة؟ قال: لأن الله مك الأرض من تحتها، أي دحاها».

و المك هو الدحرجة كما في القاموس، و عنه عليه السّلام أيضا: «فلما خلق الله الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها على الماء».

---

١. و بداية الخطبة

«كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة و لجج بحار زاخرة يلتطم أواذي أمواجها و تصطفق متقاذفات أثباجها و ترغو زبدا كالفحول عند هياجها فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها و سكن هيج ارتمائه إذ وطأته بكلكلها و ذل مستخذيا إذ تمعكت عليه بكواهلها. فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجيا مقهورا و في حكمة الذل منقادا أسيرا»..

أقول: و الظاهر هنا و من غيره أن الأرض رويت لأول مرة بالغرق و لم يكن سبيل لترويتها إلا هذا. ثم ابتلعت الماء ثم أخرج الماء منها بدحوها.

و هذه كرامة لمكة المكرمة أنها نقطة الابتداء لانتظام حركات الأرض الناتجة عنه مختلف ألوان الحياة، و كما أن حج البيت قيام في الحياة و انتظام للحركات الإنسانية في مختلف مجالاتهما «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» أي نقطة تلاق و انطلاق لكافة المتطلبات الحيوية الجماعية الإسلامية السامية.

هذا، و إن تفسير الدحرجة لدحو الأرض ما تصرّح به اللغات الصراح و الأحاديث المفسرة لحق المعني منه، و لا تنافيه اللغة و الأحاديث التي تفسره بالبسط، لأن انبساط الأرض في نفسها و للحياة هو لزام حراكها المنظمة المعقولة الدورانية، إذ كانت لينة تتأثر بالحراک على أثر قانون الفرار عن المركز، و لم يفسره ب «البسط» إلا لغة التفسير، و كما نراه في الكثير من كتب التفسير، و كذلك الأحاديث التي تعني تفسير النتيجة الهامة من دحوها و حراكها، و من الشاهد عليه أننا لا نرى البسط في معنى الدحو إلا بالنسبة للأرض لا سواها! و إن أهم ما أنتجه دحو الأرض و طحوها هو بسطها و إخراج مائها و مرعاها و إرساء جبالها في أعماقها، بعد أن كان ماؤها مخبوا فيها، و جبالها لينة دون رسوّ في قطع أديمها.

إن بداية ظهور الجبال هي من حصيلة الأمواج التي ظهرت على سطح الأرض نتيجة الحركات و الاصطدامات بالجو البارد، و قانون الفرار عن المركز، و كما

عن علي عليه السّلام حين يسئل: «مم خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج»: أي أمواج السطح المذاب، الضارب إلى الانجماد في المواضع المستعدة.

فلقد مدّت الأرض و سطحت على أثر حركاتها الأولية، ثم على أثر دحـوها، فألقي فيها رواسي شهقت من فوقها و أرسيت في بطنها: «وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ» (۱۵: ۱۹) «هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً» (۱۳: ۳).

و الرواسي الملقاة تعم المخلوقة الممتدة على سطح الأرض إلى باطنها، و التي انبثقت من تفجرات البراكين، و التي سقطت من نجوم السماء.

و من أهم ما نذكره هنا كأبلغ نموذج روائي بعد الآيات ما

عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام بشأن الجبال: «و جبل جلاميدها و نشوز متونها و أطوادها فأرساها في مراسيها فألزمها قرارتها فمضت رؤوسها في الهواء و رست أصولها في الماء، فأنهد جبالها عن سهولها و أساخ قواعدها في متون أقطارها و مواضع أنصابها فأشهق قلالها و أطال أنشازها و جعلها للأرض عمادا و أرزها فيها أوتادا فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسـيخ بـحملها أو تـزول عـن مواضعها».

فقد سطحت الأرض و مدت بما دحيت «وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ» فهيئت لرسوّ الجبال و إرسائها في قطع أديمها، ثم «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها».

أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها. وَ الْجِبالَ أَرْساها:

عرفنا مسبّقا أن مياه الأرض كلها من السماء، و هنا نعرف أنها نزلت عليها قبل دحوها و قبل تسبيع السماء و خلق أنجمها، فما كان الماء ليخرج من كبد الأرض ـ و هي مجنونة الحراک و الحرارة، يتصاعد منها بخارا إلى السماء ـ لو كانت على حرارتها، أو كان بخارا مكنونا في جوفها لكي لا يفر عنها لو ظهر على سطحها، حتى إذا دحاها ربّها، فأرسى جبالها المتكونة من الأمواج على سطحها الذائب، أرساها في قطع أديمها بعد ما كانت ليّنة غير راسية، ثم إرساء الجبال ـ و لزامه برودة الأرض شيئا مّا ـ هيّأ الأرض لإخراج مائها و من ثم مرعاها: «مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ».

و إرساء الجبال يوحي بتكوّنها قبل إرسائها، و كما الآيات المسبّقة تدل أنها نصبت ثم أرسيت «وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ»..

فلقد خلقت الأرض محترقة مذابة لا ماء فيها و لا كلاء و لا جبال، ثم اللّه أنزل عليها من السماء ماء بعد ما بردت شيئا مّا، و لكنها ابتلعت ماءها خوف ارتجاعه إلى

السماء نتيجة الحرارة الزائدة، و أخذت الجبال تظهر عليها من الأمواج، ثم دحاها فأرسى جبالها و أخرج منها ماءها و مرعاها[1].

مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ:

كل ذلک ليمتّعکم و أنعامكم، يمتّع أنعامكم لكي تتنعموا منها، و يمتعكم إلى أجل مسمى لتذكروا نعمة ربكم و تشكروه عليها.

[سورة النازعات (۷۹): الآيات ۳۴ الى ۴۲]

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (۳۴) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (۳۵) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (۳۶) فَأَمَّا مَنْ طَغى (۳۷) وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (۳۸) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (۳۹) وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (۴۰) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (۴۱) يَسْئَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (۴۲)

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى:

---

۱. في الدر المنثور بالإسناد عن قيس بن عبادة قال: إن اللّه لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا، فأصبحت صبحا و فيها رواسي فلم يدروا من أين خلقت.

هي الداهية الغامرة المتفاقمة التي تنسي الدواهي كلها، و لا تطاق لمن وافاها[١]، و هكذا سوف تكون الساعة «وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ. و ما أمر الساعة إلا كلمح البصر» (١۶: ٧٧).

إن هناك طامات، داهيات غامرات، و القيامة الكبرى كبراها، فطامة الموت[٢]، و طامة قيام القائم[٣]، و طامة الرجفة و الصيحة، إنها كلها طامات، إلا أنها غير تامات، إلا الأخيرة الآخرة، فالصيحة و الرجفة الثانية هي الطامة الكبرى التي تغمر الكون أجمع فلا تبقي و لا تذر، لوّاحة للبشر، «يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ».

إن الحياة الدنيا و متعها كلّها متاع ينتهي إلى أجل، فإذا جاءت الطامة الكبرى غطّت كل شيء، على المتاع و على إنسان المتاع، و على الأرض و السماء المتاع، إنها تطمّ و تعمّ الكون بمن فيه و بما فيه، و لكي تبدأ الحياة جديدة داخرة، ثم لا يبرز

---

١. طمه: ملأه، و الماء غمر و الشيء كثر و الأمر عظم و تفاقم، و العدد الكثير و الداهية، و القيامة تطم، أي تغمر كل شيء، و الطمطام وسط البحر، و الطامة الداهية التي لا تستطاع و أصله من طم الفرس إذا استفرغ جهده في الجري، و طم الماء إذ أملأ النهر كله.

٢. نور الثقلين ۵: ۵٠۶، القمي عن النبي (ص) «كفى بالموت طامة يا جبرائيل! فقال جبرائيل: إن ما بعد الموت أطم و أطم من الموت».

٣. المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النعمة عن أمير المؤمنين (ع) بعد ما يذكر الدجال و من يقتله و أين يقتل «ألا أن بعد ذلك الطامة الكبرى، قلنا: و ما ذلك يا أمير المؤمنين! قال:

خروج دابة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان.. و ذلك بعد طلوع الشمس من مغربها..».

هناک إلا ما سعاه الإنسان و قدّمه لأخراه.

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى:

يتذكر ما نسيه أو تناساه، و ما لم يكن ليتذكره يوم الدنيا لغفلته:

«يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (۵۸: ۶): يتذكره ما هو؟ «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ» (۸۲: ۵) (عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ» (۸۱: ۱۴) إذ كان حين الدنيا يعلم ظاهره دون باطنه و مصيره، كما و يتذكر بما يسمعه و يراه من أقواله و أعماله، من حلّه وتر حاله، التي كان ربه يستنسخها في ذاته و في أرضه.. «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (۳: ۳۰) وْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ» (۷۸: ۴۰).

صحيح أن الإنسان يتذكر ما سعاه يوم البرزخ أيضا، و لكنه برزخ و ليس تاما، و كما أن طامته ليست تامة، فيوم الطامة الكبرى سوف يكون تذكر الأعمال تاما كما الجزاء «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى» (۸۹: ۲۳) و أنى! ولات حين مناص، و لا تنفعه الذكرى.

وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى:

بروزا للرؤية للناظرين، من أهله و سواهم، و بروزا لصلي الغـاوين: «وَ بُـرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ» (۲۶: ۹۱). تسعّر الجحيم بمن يدخلها من أصول الضلالة، بعد أن كانت خامدة: «وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ» (۸۱: ۱۲) «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْـجَحِيمِ» (۸۳: ۱۶).

و الجحيم هي نار شديدة التأجج بوقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين.

و تبريز الجحيم هو إظهارها بعد خفائها، و لقد كانت الجحيم مع أهلها يوم الدنيا، غافلين عنها، جحيم الذوات و الأفكار و الأعمال، و هي تبرز يوم يقوم الاشهاد:

«لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (۵۰: ۲۲) و ما الجحيم يوم الطامة الكبرى إلا بروزا لحقائق الأعمال، مهما كانت أرضها حاضرة.

فَأَمَّا مَنْ طَغى. وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى:

تقسيم ثنائي للناس أجمعين من أهل الجنة و الجحيم بمن فيهما من درجات، و يذكر لكلّ مرجعه بما قدمت يداه.

«فَأَمَّا مَنْ طَغى»: على ربه و على المربوبين، تجاوز عن طوره و عـن الهـدى، فمدى الطغيان هذا أوسع مما لذوي الجبروت و السلطان، شاملا لكل مجاوز حده،

الذي يحيا حياة الطغيان، التي هي ممات للحق و ذوي الحق، و ليس الطـغيان إلا نتيجة عدم المعرفة باللّه، و عدم الشعور بالمسئولية، و أن يحسب الإنسان نفسه كأنه الكل: مدار رحى الكون.

«وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا»: إن الطغيان يدفعه إلى إيثار الحياة الدنيا على الحياة العليا، و كما الإيثار يدفعه إلى الطغيان: «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» (٩٦: ۶).

ليست الحياة الدنيا هي الحياة في دار التكليف، فإن الدنيا مدرسة الآخرة، و إنما أن يعيشها الإنسان حيوانا لا يعرف القيم الإنسانية، فـإذا أهـملت الحـياة العـليا، المناسبة لآلخرة و الأولى، اختلت كل الموازين و القيم في تقدير الإنسان، و اختلت كل ضوابط الإدراک الحق و السلوک العدل في حياته، و أصبح حيوانا وحشيا على صورة الإنسان.

«فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى»: لا في أخراه فحسب، بل و في أولاه أيضا، فبما أن المأوى هو الملجأ و المسكن، فالذي يعيش الحياة الشريرة، فحياته جحيم لنفسه و من سواه، مهما كان غافلا عن جحيم الحياة، و سوف تظهر حقيقة هذا الجحيم يوم الطامة الكبرى.

وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى:

«وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ»: خاف مقامه، دون أن يخافه: «وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ» (١٤: ١٤) فليس خوف المقام هنا إلا لخوف الوعيد الناتج عن مقام الرب.. فما هو المقام؟

مقام الرب هنا هو قيامه بالعدل و الجزاء الوفاق للحسنات و السيئات[١]، هذا هو مقامه و كما شهد: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (٣: ١٨).

و من قيامه بالقسط هو الجزاء العدل على الحسنات و السيئات و إن كانت الحسنات فيها فضلا بعد العدل.

فاللّه تعالى لا يحيف حتى يخاف من جوره: «أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» (٢٤: ٥٠) و إنما يخاف من الجائر الفاجر «تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» (٨: ٢٦).

إذا فلا يخاف الرب، و إنما يخاف مقام الرب العاصي لعصيانه، و العادل فلا يعصي: «إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (١٠: ١٥).

فخوف اللّه ليس لألوهيته، و إنما لعدله بربوبيته: «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ»

---

١. فإن المقام بين كونه اسم مصدر و اسم زمان و اسم مكان و الأخيران لا يناسبان مقام الربوبية إذ لا زمان له و لا مكان.

(٥: ٢٨)، فالذين يخافونه فلا يعصونه: «الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» (٤١: ٣٠). «وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ» (٥٥: ٤٦).

و الجنتان هما الجسدانية و الروحانية و هي أكبر: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (٩: ٧٢) «.. لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» (٣: ١٥).

«وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى»: إن خوف مقام الرب لا يثمر إلا بنهي النفس عن الهوى «.. إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي» (١٢: ٥٣) فالنفس البهيمية هي التي تدفع الإنسان إلى خطوات الشيطان و إلى الطغيان على الرحمان و إلى أن يؤثر الإنسان الحياة الدنيا، فليعش الإنسان حياته بجناحي السلب و الإيجاب: أن يسلب عنه هوى النفس الطائشة الطاغية تنزيها و تزكية، و أن يفرض على نفسه خوف مقام ربه تحلية له و تجلية، فيطير بجناحيه إلى معراج المعرفة و العبودية الكاملة: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى».

«فمن علم أن الله يراه و يسمع ما يقول و يعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى»[١]

«فلا تدع النفس و هواها فإن هواها في رداها و ترك النفس و ما تهوى داؤها، و كف النفس عما تهوى دواؤها»[٢]

«و احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم و حصائد ألسنتهم»[٣].

هذه هي الطريقة المثلى في تزكية النفس إذ ألهمت طغواها و تقواها: أن أن يتقي فجورها و يقوّيها في تقواها: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» (٩١: ٩ ـ ١٠).

و الخوف من اللّه هو الحاجز الصلب أمام نزعات النفس و هوساتها، كما أن نهيها عن الهوى يساعد على خوف أكثر و أتم فهما متناصران في هذا الميدان.

و إنما الإنسان إنسان بهذا النهي و هذا الخوف دون أن يترك نفسه لهواها فتأخذ

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٠٧ ح ٤٤ عن الصادق (ع) في الآية.

٢. في ح ٤٥ عن أبي الحسن الرضا (ع): اتق المرتقي السهل إذا كان منحدره و عرا. قال: و كان أبو عبد اللّه (ع) يقول: لا تدع النفس..

٣. في ح ٤٩ باسناده إلى أبي محمد الدابشي عن الصادق (ع).

حريتها فتعيث في الأرض فسادا.

«فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى»: في الأولى بحياة سعيدة آمنة أمينة، و في الأخرى بحياة خالدة هي أسعد و أبقى، فهناك جنة في الحياتين و هناك جحيم فيهما.

إن الأول يرتفع و يتهيأ لحياة رفيعة طليقة، و الآخر يرتكس و ينتكس في درك الجحيم إذ هدر إنسانيته فانهدرت، فيرجع أخيرا و قودا للنار كما بدأ الحياة وقودا لمشاكل الحياة الجهنمية الغادرة.

فالمؤمن جنة أينما حل، و الكافر نار حيثما دار، و إلى دار القرار.

و الدواء الأول و الأخير لأدواء الإنسان ككل، ما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «إن الله يقول: و عزتي و جلالي و كبريائي و نوري و علوي و ارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا شتت عليه أمره و لبست عليه دنياه و شغلت قلبه بها و لم أوته منها إلا ما قدرت له، و عزتي و جلالي و عظمتي و نوري و علوي و ارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا و استحفظته ملائكتي و كفلت السماوات و الأرضين رزقه و كنت له من وراء تجارة كل تاجر و أتته الدنيا و هي راغمة»[1].

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٠٧ ح ٤٨ باسناده إلى أبي جعفر (ع) قال: قال رسول اللّه (ص):

[سورة النازعات (۷۹): الآيات ۴۳ الى ۴۶]

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (۴۳) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (۴۴) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (۴۵) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (۴۶). مرسى الساعة و منتهاها:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ:

يسألونک المتعنتون عن مرسى الساعة، كما و عن الساعة نفسها: «يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» (۳۳: ۶۳) فما هي الساعة؟ و ما هو مرساها؟ و ما هو منتهاها؟

أصل الساعة من ساع الشيء إذا ضاع و زال، و ساعت الإبل: سرحت و تخلت بلا راع، فالساعة. هنا و في سواها من آيات إلا القليل، هي وقت ضياع الكائنات و زوالها بأسرها و كأنها سرحت بلا راع يرعاها، و يقال لجزء من الزمان ساعة، لتصرّمه و ضياعه، و كما الزمان كذلک بأسره.

و بما أن زوال الكائنات تستقبله القيامة الكبرى، قيامة الأموات، اعتبرت هي أيضا ساعة، فالرجفتان: رجفة الإماتة و رجفة الإحياء، كلتا هما الساعة، و الأولى

أولاها و الثانية منتهاها، و «يَوْمَ يَرَوْنَها»: الساعة، توحي إلى الثانية لقوله «لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» فهي إذا ساعة الإحياء. كما أن هنا آيات توحي إلى الأولى و إليهما أيضا.

فالساعة هنا هي زوال الزمان و ضياعه بكائناته، و الانتقال إلى زمان لا زوال له و لا انتهاء..

فما هو مرساها؟ إنه من الإرساء و هو مقابل الجريان: «قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها» (۱۱: ۴۱) «وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ» (۳۴: ۱۳) «وَ الْجِبالَ أَرْساها» ثبّتها و وتّدها في كبد الأرض.

فمرسى الساعة ثباتها أو زمن الثبات[۱] ثباتها واقعيا، أم ثبات الاختلال و الزوال المعنيّ من الساعة، أم وقفة الزمان لهذا الكون، تبدلا إلى زمان دون وقفة و انتهاء.

أَيَّانَ مُرْساها:

أي زمان يكون إثباتها أم ثباتها؟..

كل ما نعرف عن الساعة ـ بما عرفنا اللّه ـ أنها قريب: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ» (۵۴: ۱) «وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» (۴۲: ۱۷) و لا معنى لقربها، إلا

---

۱. لكونها مصدرا ميميا أو اسم زمان لا اسم المكان إذ لا معنى لمكان رسو الساعة.

أن الكائنات تجاوزت عن النصف من عمرها حين نزول القرآن ـ إذ يعتبر انشقاق القمر من أشراط الساعة و آيات قربها ـ و إلا أن كل آت قريب.

هذا ـ ثم لا نعرف ـ و لا يعرف و حتى النبيين ـ عن زمن الساعة شيئا، إلا عن علاماتها حينها بما أوحى اللّه: «وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» (١٦: ٧٧).

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها:

أنت بعيد عن ذكرى الساعة كلّ البعد، و هي خفيّة لحدّ يكاد اللّه يخفيها حتى عن نفسه المقدسة: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى» (٢٠: ١٥).

رغم أنه من المستحيل خفاء أمر عن اللّه، و لذلك قال: «أَكادُ أُخْفِيها» لا «أخفيها» إخبارا بشدة خفائها عمن سواه إلى حيث يكاد يخفيها حتى عن نفسه المقدسة و ليس بمخفيها عنها، و إنها من اختصاصات الربوبية علمها و إقامتها:

«إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ» (٤١: ٤٧) «وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» (٤٣: ٨٥).

و في أحاديث عدة أن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم كان يسأل اللّه عن الساعة،

إذ كثرت أسئلة المشركين حول الساعة فنزلت الآية «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها»[١].

إِلى رَبِّکَ مُنْتَهاها:

منتهاها علما و إقامة، و منتهى زمن الدنيا و البرزخ المتداخل معها، و هو الساعة أيضا إذ تضمحل الكائنات، لا منتهى زمن الآخرة إذ لا منتهى لها، و إن الساعة ليست هي اليوم الآخر كله، إنما ساعة منه لها بداية: «الرجفة الأولى» و لها نهاية: «الرجفة الثانية» رجفة الإماتة و الإحياء، فإلى ربک منتهاها كما منه مبتدأها.

من هنا و هناک نستوحي أن السؤال عن الساعة كان عن مرساها و منتهاها، عن زمن رجفة الإماتة و الإحياء، و الثانية هي الأصل و هي المعاد، فمنتهى الساعة التي هي الإحياء إنما هو إلى اللّه، لا يشاركه فيه أحد، و لا يعلمه غيره أحد، كما و رجفة الإماتة منه لا سواه، و إنهاء الكائنات إلى ساعة الضياع أيضا منه لا سواه.

إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها:

ليس لک إلا الإنذار بشأنها، دون أن تعلم أو تقدر على شيء منها، و لا يـؤثر إنذارک إلا فيمن يخشاها: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» (٢:

---

١. الدر المنثور ٦: ٣١٤، أخرجه ابن مردوية عن علي بن أبي طالب عنه (ص) و ابن أبي حاتم و ابن مردوية عن ابن عباس و البزاز و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن عائشة، و أخرجه عبد بن حميد و النسائي و ابن جرير الطبراني و ابن مردوية عن طارق بن شهاب عنه (ص).

۴۶) و أما الناكرون لها و الشاكون فيها فليس لک إلا إلقاء الحجة عليهم، و إن كانوا: «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (۲: ۶) سواء عليهم إذ لا يتذكرون، لا سواء لک ـ «فَإِنَّما عَلَيْکَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ» (۱۳: ۴۰).

«إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ» (۳۶: ۱۱).

فهذه من حدودک الرسالية أن تنذر بها من ينفعه الإنذار، و هو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها و يعمل لها و يتوقعها في موعدها الموكول إلى صاحبها.

زمن لبث البرزخ:

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها:

يخيّل إلى الناكرين الشاكين في اليوم الآخر و ساعته، يخيل إليهم يوم يرون الساعة: صيحة الإحياء ـ فإنها من ساعة ذلک اليوم ـ أنهم لم يلبثوا في الحياة قبلها ـ برزخ و سواه ـ لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، يحسبونهم لبثوا هذا القليل القليل من الزمن، لضخامة وقعة الساعة و قرعة القارعة، بحيث تتضاءل إلى جواره ما لبثوه قبلها بأشيائها و أشياعها و أحداثها، فتبدو في حسّهم كأنها «عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» و هو ليس كما يزعمون.

أو أنه ساعة من نهار: «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ» (١٠: ٤٥) بل و يقسمون عليه أيضا: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ» (٣٠: ٥٥).

أو يوما أو بعض يوم: «قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ. قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٢٣: ١١٥ ـ ١١٧).

أو عشر ليال أو سنين: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً. يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً. نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً» (٢٠: ١٠٣ ـ ١٠٥).

إن المجرمين ـ على مختلف دركاتهم ـ يحسبونهم لبثوا في الأرض ـ أرض التكليف و أرض البرزخ ـ لبثوا ساعة من نهار، أو يوما أو بعض يوم، أو عشية أو ضحاها أو عشر ليال أو سنين، و كلهم على خطأ فيما حسبوه من تحديد زمن مكثهم، إلا في أنه كان قليلا بجنب الحياة الآخرة الخالدة، و قد يصدقهم اللّه تعالى في أصل القلة: «قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» و يكذبهم في هذه التي زعموها من الزمن، إذ يجيب عن زعمهم «ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ» بقوله:

«وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (٣٠: ٥٦).

و القلة لمكث الدنيا هنا قلتان: ١ ـ القلة بجنب الآخرة من كافة الجهات غير التكليفية، و قد صدقها اللّه تعالى تنديدا بمن كان يؤصّلها و يكثرها بنكران الآخرة، أو أنها كمثل الدنيا: «قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٢٣: ١١٧)، فإن الحياة الدنيا مهما طالت و ازدهرت فهي قليلة بجنب الحياة الخالدة.

٢ ـ و قلة يزعمها المتخلفون أننا ما أمهلنا في حياة التكليف إلا قليلا لا يكفي لأداء الواجب، فهذا ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا» (١٧: ٥٢).

و هم الذين يلتمسون من اللّه الرجوع إلى الدنيا لكي يعملوا صالحا غير الذي كانوا يعملون، كأن الوقت ما كان كافيا لما هم يأملون: «رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (٣٥: ٣٧).

أجل و إن حياة التكليف كثيرة ـ مهما قلت ـ لمن أراد أن يتذكر، إذ إنها ـ كلها ـ ذكرى لمن ألقى السمع و هو شهيد.. مهما كانت هي و حياة البرزخ قليلة بجنب

الحياة الآخرة الخالدة.

و لبث البرزخ يحسب قليلا و هو صادق بما عاشوها من حياة أكثرها النوم، و بما قاسوها إلى الآخرة، و هو كاذب على ما حددوه من ساعة أو يوم أو بعض يوم أو عشر.

فأهل البرزخ أغلب أوقاتهم في غفوة و نوم إلى حيث سمي البرزخ مرقدا: «يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا..» (٣٦: ٥٢) و إنما يقظتهم في الغدو و العشي «النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» (٤٠: ٤٦) «وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» (١٩: ٦٢).

.. فمن قائل من المجرمين أنه لبث ساعة من نهار، و من قائل: عشية أو ضحاها، و كما يناسب يقظتهم، و علّ المسلمين أيضا يجيبون عن قدر مكثهم أنه أحد الجديدين: ليل أو نهار، فإنهم ـ و معهم غيرهم:

«لا يتعارفون لليل صباحا و لا لنهار مساء، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا»[1]

فإن ذهبوا في نهار لم يعرفوا له ليلا، أو في ليل لم يعرفوا له نهارا.. لذلك

١. عن علي أمير المؤمنين في نقل السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة.

يترددون في قدر مكثهم بين عشية أو ضحاها، أو ساعة من نهار أو عشر، لكن الصادقين في إيمانهم منهم، الذين أوتوا العلم و الإيمان، إنهم لا يحددون موقف البرزخ بهذا و ذاك، و إنما مقالتهم «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (٣٠: ٥٦).. و لئن قالوا إنهم لبثوا قليلا فقد صدق اللّه مقالتهم: «قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا..» (١٧: ٥٢)، فإنه ـ حقا ـ كان قليلا بجنب الحياة الآخرة، و لأنهم كانوا في البرزخ رقادا نوّما إلا قليلا، فهم ـ إذا ـ ينظرون إلى أصل القلة لا حدّها، كما و يصدّق المجرمون أيضا في أصلها و قد يروى عن الرسول الأقدس في تفسير الآية قوله: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار، قال لأهل الجنة: كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، قال: لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي و رضواني و جنتي، اسكنوا فيها خالدين مخلدين، ثم يقول: يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، فيقول: بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري و سخطي، امكثوا فيها خالدين»[1].

«.. لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» إن هذه الحياة الدنيا التي يتنافس لأجلها

---

١. الدر المنثور ۶: ١٧، أخرجه ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي عنه (ص).

المتنافسون و يتطاحنون، و التي يرتكبون لأجلها ما يرتكبون، إنها تنطوي في نفوس أصحابها فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها.

هذه القصيرة العاجلة، و الزهيدة الهزيلة التافهة، أ فمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة.. إنها الحماقة الكبرى، لا يرتكبها ذو حجى.

سورة عبس ـ مكية ـ و آياتها اثنان و أربعون آية

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١ الى ١٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (١) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (٢) وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (٤)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَ ما عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (٨) وَ هُوَ يَخْشى (٩)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤)

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرامٍ بَرَرَةٍ (١٦)

عَبَسَ وَ تَوَلّى. أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى:

من هذا العبوس القمطرير؟

العبوس قطوب الوجه من ضيق الصدر لمن كان له صدر، و القطوب المعمّق لسواه: «يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً» (۷۶: ۱۰) و بنفس الإعتبار قيل العبس لما يبس على هلب الذنب من البعر و البول، و عبس الوسخ على وجهه، و قد وصف اللّه ألدّ أعدائه المعارض لكتابه، بالعبوس: «ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ. فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ. سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» (۷۴: ۲۱ ـ ۲۶).

فمن هذا العبوس، ضيّق الصدر، القذر الخلق كالبعر اليابس و البول على هلب الذنب؟ و الذي يعده اللّه صلي سقر لأنه عبس و بسر ثم أدبر و استكبر؟..

من هذا العبوس القمطرير الذي يعبس في وجه المؤمن الأعمى الضرير الفقير؟ في حين ينصدى لعميان القلوب من الكفار الأقذار الأشرار؟

من هذا الأحمق الذي يتلهى عمن يسعى إلى الحق و هو يخشى اللّه، و يتصدى لمن استغنى عن اللّه، و هو يسعى ليعيث الفساد في الأرض و يهلك الحرث و النسل.

من هذا الغبي البعيد البعيد الذي يردعه اللّه تعالى بهذا العنف عن فعلته السخيفة و يسوقه إلى التذكرة التي هي في صحف مكرّمة. مرفوعة مطهّرة.

بأيدي سفرة. كرام بررة؟

هل يجرأ مسلم أن يتقول القولة الجاهلة الفاتكة: أنه الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ و هو على خلق عظيم! و العظيم عند اللّه إله العظمة، فما للخلق العظيم أصبح كالأم اللئيم؟ فما لمن شرح اللّه صدره يضيق صدره لما شرحه اللّه به:

يضيق لمن يستعلمه شيئا من القرآن، أ إكراما لألعن الخلق المحاربين للقرآن؟

إن نقلة الأخبار هنا أنه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حاشاه، لم يراعوا كيان الرسالة المحمدية حق رعايتها و لا شيئا منها، أم جهلوا أو تجاهلوا مدى التنديد الشديد في هذه الآيات بشأن الذي عبس و تولى أن جاءه الأعمى، و هم لم ينقلوها إلا عن الهوى، و لم يسندوا فيها إلى ركن وثيق من كتاب أو سنة، إلا نقلا عن هذا و ذاك، عن الذين لا تسمن أقوالهم و لا تغني من جوع.

في حين أن الرواية عن أهل بيت الرسالة المحمدية تكذّب هذه الوقيعة بشأن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، تصديقا لطبع الرسالة القدسية، و للقرآن هنا و

في سواها من آيات.

فعن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام قوله: «كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: جاء و مرحبا مرحبا، و الله لا يعاتبني الله فيك أبدا و كان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي مما يفعل»[١].

فالرسول الأقدس يقسم باللّه أنه ليس هو المعاتب بشأن الأعمى، ثم

حفيده الصادق عليه السّلام يقول: «إنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي صلى الله عليه و آله و سلم فجاءه ابن أم مكتوم، فلما جاءه تقذر منه و عبس في وجهه و جمع نفسه و أعرض بوجهه عنه»[٢].

في نقل آخر عنه عليه السّلام: «نزلت في عثمان و ابن أم مكتوم، و كان ابن أم مكتوم مؤذنا لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و كان أعمى فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و عنده أصحابه و عثمان عنده فقدمه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على عثمان، فعبس عثمان في وجهه و تولى عنه»[٣].

---

١. البرهان ٤: ٤٢٨ ـ ٢، الطبرسي عنه (ع).

٢. البرهان ٤: ٤٢٨ ـ ١، الطبرسي عنه (ع).

٣. البرهان ٤: ٤٢٧ ـ ١، علي بن ابراهيم عنه (ع).

إذا فلا يعبأ بما يتقوّل أو ينقل أنه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[1]، إذ يتنافى و الكيان الرسالي، و القرآن الحاكي عن كيان الرسول و خلقه العظيم، و الآيات في هذه السورة نفسها.

فالآيتان الأوليان تنقلان العبوس و التولي عن غائب: «عبس ـ تولى ـ جاءه»، و القرآن موجّه بالذات إلى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو المخاطب في آياته الكريمة لا سواه، إلا بدليل قاطع، و فيما إذا خوطب غيره، فإنما هو بواسطته، إذ إنّ وحي القرآن ليس إلا إليه: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِکَ» (٢٦: ١٩٤ ـ ١٩٥).

لا يقول: عبست و توليت أن جاءک الأعمى، و إنما «عَبَسَ وَ تَوَلَّى» فمن هذا

---

١. كما في الدر المنثور ۶: ٣١۴ ـ ٣١٥، و ليس شيء منها عن المعصوم، و حاصلها بإلقاء المكررات «أن النبي (ص) كان عنده رجل أو رجال من عظماء المشركين يدعوهم إلى الإسلام فجاء ابن ام مكتوم ـ و هو مؤذن الرسول ـ يسترشده و يستقرئه شيئا من القرآن قائلا: يا رسول اللّه علمني مما علمک اللّه، فأعرض عنه و عبس في وجهه و تولى وكره كلامه و أقبل على الآخرين، فلما قضى رسول اللّه (ص) نجواه و أخذ ينقلب إلى أهله أمسک اللّه ببعض بصره ثم خفق برأسه ثم أنزل اللّه «عَبَسَ وَ تَوَلَّى» عن عائشة و أنس و أبي مالک و الحكم و ابن زيد و ابن عباس». و الاعتذار مما يظنونه من عبس النبي (ص) أنه (ص) كان مستخليا بصناديد من صناديد قريش و هو يدعوه إلى اللّه و هو يرجو أن يسلم إذ أقبل ابن أم مكتوم، فلما رآه النبي (ص) كره مجيئه و قال في نفسه: يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان و السفلة و العبيد، فعبس فنزل الوحي، كما عن مجاهد.

هذا الاعتذار يتنافى و القرآن القائل: «وَ ما عَلَيْکَ أَلَّا يَزَّكَّى» إذ لو رجا إيمانه لكان مكلفا بالتصدي له، و يتنافى و خلق الرسول من إكرامه للمؤمنين، فليضرب بهذه الأخبار عرض الجدار.

الذي يشكو إليه اللّه تعالى عنه، هل هو غير من يوحي إليه بالقرآن؟ و إذ كان هو النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهل يشكو إليه عن نفسه المقدسة شكاة منه إليه؟

ثم نرى هنا التفاتا من الغيبة إلى الحضور، فالمخاطب ثانيا هو الغائب أولا، و ليست الغيبة في البداية إلا لأنّ العابس هو البعيد البعيد، لا يستحق الخطاب لبعده بعبوسه عن ساحة القرب، يشكوه ربه إلى نبيه، ثم يخاطبه بعناد و عتاب قاس: «وَ ما يُدْرِيكَ..»؟ إضافة إلى نسبته إلى الكفر أو الكفران: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ» و لم يسبق هنا من الكفران إلا العبوس و التولي.

و من وجهة النظرة العامة إلى القرآن فيما يعرّف الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو يكلّفه، نرى من المستحيل أن يكون العابس هو الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: فقد سبقت آية العبس آية الخلق العظيم: «وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٦٨: ٤) و لزمته آية خفض الجناح للمؤمنين: «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» (١٥: ٨٨ ـ ٨٩) أ فتحسب الرسول يترك أمر اللّه و هو «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» (٤٣: ٨١) و يترك الخلق العظيم، تكذيبا لما قرره رب العالمين: «وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ»، كل ذلك تصديا و إكراما للطغاة اللئام المستغنين، فيعبس في وجه مؤذّنه الفقير الضرير لأنه استقرأه آيا من الذكر الحكيم، فيتولى عنه توليا عما

أمر أن يعيشه طوال حياته المنيرة؟ «وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ»! إن العبوس لم يكن من شيم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع الأعداء المباينين فضلا عن المؤمنين المسترشدين، و قد أمر أن يصبر نفسه معهم: «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا، وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (١٨: ٢٨).

و ألا يطردهم: «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ» (٦: ٥٢).

و أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٢٦: ٢١٥).

و ألا يكون فظا غليظ القلب: «وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (٣: ١٥٩).

و أن يعرض عن المشركين: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» (١٥: ٩٤ ـ ٩٥).

هذه و ما إليها من أوامر و تعليمات ربانية، و إنها من أوليات الشروط الرسالية من

بدايتها، أ فهل يتركها الرسول فيعامل مؤذنه الضرير الفقير بهذه الفظاظة و الغلظة فيطرده فيكون من الظالمين التاركين لأوليات شروط الدعوة؟

أمن العقل و العدل أن يهتك الرسول العظيم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يفتك به هكذا ذودا عن فرع من فروع الشجرة الملعونة في القرآن: و كما نراه كثيرا[1]؟ و ليس اختلاق هذه الروايات إلا من التعصب الأعمى و اللامبالاة بالدين و عدم الاكتراث بشأن الرسول الكريم، الذي كان يجابه من يهينه بكل لين و احترام، فكيف يواجه هذا المؤمن بكل شقوة و اخترام؟ فهل لأنه سأله عن شيء من القرآن، أو لأنه

---

١. في كتابنا «علي و الحاكمون» تجد الكثير من هذه الاختلاقات في تفضيل الخلفاء الثلاثة على الرسول الأقدس (ص) نرويها عن مسانيد إخواننا السنة:

ففي نزهة المجالس أن اسم أبي بكر نقش على خاتم النبي بخط الله تعالى.

و عن انس بن مالك كان أبو بكر شيخا يعرف و النبي شاب لا يعرف.

هذه و أمثالها تفضيلا لأبي بكر على النبي (ص) قبل النبوة و بعدها، فيا لها من فضيحة فاتكة هائكة! ثم نرى الخليفة عمر لا يحب الباطل و الله و النبي يحبان الباطل!

فعن الأسود بن سريع قال: أتيت النبي (ص) فقلت: قد حمدت ربي بمحامد و مدح و إياك، فقال: إن ربك يحب الحمد فجعلت أنشده فاستأذن رجل طويل أصلع فقال لي رسول الله (ص):

اسكت، فدخل فتكلم ساعة ثم خرج فأنشدته ثم جاء فسكتني النبي (ص) فتكلم ثم خرج ففعل مرتين أو ثلاثا، فقلت: يا رسول الله من هذا الذي أسكتني له، فقال: هذا عمر لا يحب الباطل.

نرى أمثال هذه المختلقات الزور بين الروآيات عن عالم من الجهل و سوء الأدب، و منها ما وردت في أن العبوس هو الرسول دون عثمان! حفاظا على عثمان الأموي و إزراء بالرسول الألمعي (ص)! فيا له مراما ما أبعده و زورا ما أغفله!

لا يملک من زخارف الحياة شيئا؟! أو لمجرد أنه جاءه كما الآية تشير:

«أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى» لا «أن كلمه» فاستنكر مجيئه و قال في نفسه: يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان و السفلة و العبيد فعبس فنزل الوحي كما عن مجاهد! و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يمارس طوال حياته و رسالته عشرة الفقراء المؤمنين كما أمره اللّه، و بطبعه الرسالي!..

«عَبَسَ وَ تَوَلَّى»: عثمان الأموي الارستقراطي الفخور «أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى».. جاءه ابن أم مكتوم مؤذن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلک المؤمن الهرم الفقير الضرير، جاءه بأمر النبي ليحلّ محله و يجلس مجلسه إذ قدّمه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على عثمان في مجلسه:

فقد جاء النبيّ ليستقرأه آيا من الذكر الحكيم، و عنده صناديد قريش و إلى جانبه عثمان، فأكرمه النبي و أجلسه بجانبه و أخّر عثمان، فضاق صدره منه و عبس في وجهه و تولى عنه و تقذر و جمع نفسه عنه، سخطا على عماه و فقره، وردا على حكم اللّه و رسوله، فنزلت الآيات بالتنديد الشديد على عثمان، و ردعته أخيرا عن فعلته المشئومة ارجاعا إلى تذكرة: في صحف مكرمة، بأيدي سفرة، كرام بررة، و الرسول الأقدس من أكرم السفرة و البررة، و قد حدث ما حدث بمحضره الشريف..

لذلک نرى الآيات تقتل عثمان بعد ما تندد به: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ..».

هكذا يبدأ الرسول دعوته و رسالته، و بكلمة جامعة لا محيص عنها:

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» فلا موضع ـ هنا ـ للأمجاد العائلية، و الفخفخات المالية، و الطنطنات القومية، و الادعاءات الجوفاء، ففي حين نرى سورة فذة تلعن أبا لهب عم النبي و هو من أعرق قريش، نجد سلمان الفارسي يحتل من الكرامة ما يغبطه بها العالمون:

«سلمان من أهل البيت»

«لا تقولوا سلمان الفارسي بل قولوا سلمان المحمدي».

و لذلک نراه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يكرم عبد اللّه ابن أم مكتوم ـ بعد ما هتكه عثمان ـ أكثر مما كان يكرمه قبله:

«فلما نزلت الآية دعاه فأكرمه و استخلفه على المدينة مرتين»[1]، «و كانت عائشة تكرمه بأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم: تقطع له الأترج و تطعمه إياه بالعسل»[2].

كل ذلک إكراما لمن أهانه ابن عفان و إعلانا لمهانة عثمان جبرانا للمهان.

---

١. الدر المنثور ۶: ٣١٥، أخرجه ابن سعد و ابن المنذر عن الضحاک.

٢. الدر المنثور ۶: ٣١٥، أخرجه الحاكم و صححه و ابن مردوية في شعب الايمان عن مسروق.

وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى:

ما يدريک أيها الأعمى القلب، لعل هذا الأعمى العين يتزكى أكثر مما تتزكى، بما يستقرئه و يستعلمه النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو ـ على الأقل ـ يتذكر بما يذكّره النبي فتنفعه ذكراه في أن يتزكى بها، يتزكى معرفيا ثم عمليا، فما يدريک أن يتحقق هذا الخير الكثير، أن يتطهر هذا الرجل الضرير الفقير الذي جاء الرسول راغبا فيما عنده من الخير الغزير! ما يدريک أن يشرق هذا القلب المنير بما هو أنور بقبس من نور اللّه، فيزداد نورا على نور فيستحيل منارة في الأرض تستقبل نور السماء؟.. أ فهكذا تواجه المؤمن الفقير؟! أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى:

هنا تعلو نبرة الخطاب و تشتد لهجة العتاب أن كيف تقتسم هكذا قسمة ضيزى بين من استغنى و لا يزّكّى و من جاءک يسعى و هو يخشى «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» (٩٦: ٦ ـ ٧) فهؤلاء الطواغيت المستغنون المتأنفون المتعنتون الذين «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (٢: ٦) الذين لا يتزكون و ليسوا بصدد التحري عن الهدى.. فهؤلاء الحمقاء الطواغيت أنت لهم تتصدى! إن التصدي أن يقابل الشيء مقابلة الصدى، أي الصوت، الراجع من الجبل. «فَأَنْتَ لَهُ

تَصَدَّى»: تتصوت له كالبوق و كأنه إله يعبد.. إنه يستغني عن شرعة اللّه و يطغى، ثم أنت له و لتبجيله تتصوت و تتعربد..

ليس إلا لأنک من زمرتهم دون استحياء من النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

«وَ ما عَلَيْکَ أَلَّا يَزَّكَّى»: ما كلّفت أنت بتزكيته، إذ لست رسولا، و لو كنته فإذ هو لا يتزكى فسواء إنذاره و عدم إنذاره، فليس هذا التصدي الباطل يبرره رجاء أن يتزكى، فليس عليک بأس ألا يتزكى، لا سيما إذا كان التصدي له بقيمة إبطال قيم الإيمان و العبس في وجه المجرب الصامد في الإيمان.

أو ماذا عليک ألا يتزكى؟ ماذا يضرک بعد ألّا يهتدي رغم المحاولات في هدايته، في حين أن العبس في وجه المؤمن هو عليک و على كرامة الإيمان! أو: لا يهمک انه ليس بصدد التزكي، و إنما تهمک الظواهر المغرية![1].

فهذه حالتک الإيجابية و جاه الطغاة الذين لا يرجى خيرهم و هواهم، ثم سلبيتک لمن يسعى و هو يخشى.

وَ أَمَّا مَنْ جاءَکَ يَسْعى. وَ هُوَ يَخْشى. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى:

---

١. هذه احتمالات ثلاث في «ما» أن تكون نافية أو استفهامية، و على الأول أن تكون أخبارية أو تنديدية أنه لا تفرق عندک تزكيته و عدمها.

من جاءك ساعيا إلى رسول الهدى، جاءك ليجلس مجلسك بمقربة من الرسول، يسعى إلى الخير ليستزيد منه، إلى منار الهدى ليستنير منه، و إلى مدينة العلم ليستعلمه و يستقرئه.

جاء يسعى، مسرعا في مشيه رغم عماه، و متسرعا إلى الاستزادة ابتغاء كل الفرص، مطبقا أمر اللّه في سعيه و سرعته: «وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ» (۳: ۱۳۳).

من جاء بهذا النمط اللطيف «وَ هُوَ يَخْشى»: يخشى الوقوع على الأرض لعماه و سرعته في سعيه، و يخشى الكفار أن يخدعوه أو يغتالوه، و لكنه لا يبالي كل ذلك لأنه يخشى اللّه، دون كبرياء و استغناء و دون أنفة و رياء، و إنما يسعى إلى الرسول، و يقترب إليه منحيا إياك يا عثمان! بأمر الرسول، يسعى بدافع الخشية و: «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» (۳۵: ۲۸) و القرآن تذكرة لمن يخشى دون من يطغى: «ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى. إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى» (۲۰: ۳ ـ ۵) «سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى» (۸۷: ۱۰).

«فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى»: أنت الذي تتصدى و تهتم بمن يطغى و لا يزكى، أنت تلهى عمن يسعى و يخشى و يزكى، تلهّى عنه عابسا في وجهه موليا عنه إلى الطواغيت، أ

فعبسا في وجه الإيمان و تلهيا عنه إلى وجه الطغيان؟

هنا نسأل ذوي الضمائر الصافية، هل من المحتمل ـ إذا ـ أن يكون العابس المولي وجهه عن الأعمى، اللاهي عنه إلى الطواغيت، المتصدي لهم و لا يرجى إيمانهم، أنه الرسول الذي هو خير العابدين و هو على خلق عظيم؟! فبذلك تتهدم دعائم رسالته و أساس دعوته.

كلا ـ إنه من أرذل الناس و أسوأهم أدبا و أجهلهم بالأدب الإسلامي و الإنساني، إنه فرع من الشجرة الملعونة في القرآن.

«كلا» : ليس هذا هو الأدب، ليست هذه هي الشيمة الإسلامية، ليس الإسلام بالذي يقرّك على هذه الحالة الرديئة، و ليس الرسول بالذي يسكت عن التذكرة، و ليس بالذي يقدمك على الأعمى ولى في مجلسك..

«كلا» : بعدا لخلقك اللئيم، البعيد البعيد عما جاءت به الصحف المكرمة بأيدي سفرة، كرام بررة.

إنّ عليك أن ترجع إلى رسالة السماء، إلى كتب السماء، إلى الكرام البررة، لتخرج من هذه اللئامة، لتخرجك من الظلمات إلى النور، إلى صراط العزيز الحميد.

«كلا» لا يكون هذا هو النبي البار الكريم، و على حد

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و الله لا يعاتبني الله فيک أبدا»..

«كلا» فإنه تذكرة للغافلين، و تنبيه للجاهلين.

كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرامٍ بَرَرَةٍ:

«كلا..» إنها تذكرة رسالات السماء، بأيدي سفراء السماء رجالات الوحي، يقدمهم الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ميثاقا و وثاقا، و هو آخرهم مبعثا.

هذه الدعوة المقدسة مكرمة مطهرة، مستغنية عن كل أحد و عن كل سند، و إنما هي لمن يريدها لأنها دعوة السماء، و لأنها كريمة في كل اعتبار، عزيزة لا يتصدى بها للمعرضين، و لا يتلهى بها عن المؤمنين.

«إِنَّها تَذْكِرَةٌ»: آي الذكر الحكيم هي تذكرة لمن ألقى السمع و هو شهيد.

«فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ»: ذكر ما تذكّره به الآيات[1] تذكرة حاصلها الذكر لمن شاء أن يتذكر.. تذكرة لما سجله اللّه تعالى في كتاب الفطرة و العقل، فإنها لا تجانب الفطر و العقول، و ليست جديدة لا صلة لها بأعماق ذواتنا و ما تتطلبه حيوياتنا، و إنما كيانها

---

١. ضمير المذكر في «ذكره» لا يرجع إلى «تذكرة» فإن الذاكر لا يذكر التذكرة و إنما يتذكر به أمرا آخر كان عنه غافلا. ف (ه) يرجع إلى حاصل التذكرة و هو الأمر الآخر. ذكره: أي ما تذكره التذكرة.

أن تذكّرنا بما غفلنا عنه و استغفلناه، بما ران على قلوبنا، و ستر على عقولنا «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى».

فمن الآيات ما تعرفها عقولنا إذ تتذكر بها ما نسيته، و منها ما لا تنكرها لأنها لا تنافيها، فالكل ـ إذا ـ تذكرة.

«إِنَّها تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ»: الصحيفة هي المبسوط من الشيء دون خفاء و خباء، و إنها صحف القرآن في القرآن و في صحف النبيين أجمعين، فإن القرآن يحمل الوحي الصادق النازل عليهم من قبل، و فيه زيادات خالدة، و أنه بينة ما في الصحف الأولى:

«أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى» (٢٠: ١٣٣) أتتهم في خاتمة الوحي، في القرآن.

و إنها مكرمة عند اللّه و عند ملائكة اللّه و رسل اللّه و لمن ألقى السمع و هو شهيد، مكرمة عند من يكرم عقله و ضميره و يهدف إكرام نفسه في الحياة.

و هي مرفوعة عن وحي الأرض، فإنها وحي السماء، مترفعة عن تدخل الأرض و تحريفها، مرفوعة عن أن تنالها أيدي الدس و التحريف و النسخ و التزييف.

و هي مطهرة من قذارة الباطل و لغو القول و الريبة و التناقض: «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (٤١: ٤٢) «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ» (٨۶: ١۴) «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (۴: ٨٢).

و جماع القول في تلكم الصحف أنها لا ينقصها شيء من الكمال و الجلال و البهاء و الجمال، فهي الحجة البالغة الدامغة على من تصله، هذه ذاته و طبيعته اللمّاعة.

ثم نرى وسائطها الملائكية و البشرية أنهم كرام بررة، لا يزيدونها إلا جلاء و نورا و بهورا.

«بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرامٍ بَرَرَةٍ»: سفرة ربانيون مرسلون، سماويون و أرضيون، أرسلهم اللّه تعالى للبلاغ: من جبريل أمين الوحي و ملائكته الأعوان، إذ ينزل بها على قلب الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاتمة الوحي و أفضله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ» (٢۶: ١٩۴) «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» (٨١: ٢١).

و إذ يوحي ملائكته الأعوان معه إلى سائر النبيين ما نجده خالصا موجزا خالدا في الذكر الحكيم..

و أنهم سفرة: مرسلون سافرون، دائمو الحركة في البلاغ، بوجوه سافرة: بشّاشة، و صدور سافرة، و قلوب سافرة، و ألسنة ناطقة بالحق سافرة، كيانهم السفور في الحق لا يختبون عن أمر أمروا ببلاغه، يعيشون حياتهم السفارة الإلهية كما اللّه أراد.

فالسفارة هي الكشف و الحركة و التنقل بالكشف، فهم يكشفون الستر عن الحقائق بما أوحي إليهم، و يتنقلون مناكب الأرض لتحقيق هذه السفارة الإلهية، جماعة كشافة و هم كرام بررة[١].

إنهم كرام بررة في رسالاتهم و بلاغاتهم، و ليسوا لئاما خبثاء، و أكرمهم و أبرّهم في بلاغ الوحي هو الرسول الألمعي الأبطحي محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما الأكرم في الملائكة هو جبرائيل و من فوقهم الروح زعيمهم العظيم.

فلينح نحوهم و نحوه في مواجهة المؤمنين أمثال ذلک العابس المتولي اللئيم ليخرج عن عبوسه و لؤمه تخلقا بخلقه العظيم، و ليذّكّر بذكراهم المستغنون

---

١. و قد يقال أن السفرة من السافرة بمعنى الكتبة و لكنه بعيد إذ أن الكتبة هنا أماهم كتبة الأعمال الكرام الكاتبون ـ و لا يناسب المقام من عدة جهات ـ أو أنهم كتبة الوحي فليسوا هم الملائكة و لا النبيون، و الكتبة غير المعصومين ليست لهم تلک الأهمية البالغة التي تخصهم بالذكر دون المرسلين.

و قد يحتمل أن السفرة بمعنى المصلحين، و لا بأس أن يعنى مع المعنى الظاهر، المرسلين.

فإنهم هم المصلحون الكرام البررة.

الكافرون.

فهذه هي الرحلة الثانية في توجيه ابن عفان العابس و من تصدى هـوله، مـن الطواغيت، بعد تأنيبه أولا، توجيها له إلى الصحف المكرمة بأيدي سفرة و أكرمهم هو الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذي أساء الأدب بمحضره الشريف.

ثم تأنيب ثالث يقتله و أمثاله بالكفران و نسيان نعم الرب المنان، و يـقتل مـن استغنى و لا يتزكى.

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١٧ الى ٢٣]

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (٢٣)

.. «قُتِلَ الْإِنْسانُ»: إخبار أنه مقتول هواه و غبائه، قتلته نفسه الأمـارة بـالسوء، قتلت روحه و ضميره و قلبه، فالمثل العليا فيه مقتولة ميتة مقبورة، و مثل الحيونة و الطغيان فيه حية مائلة، و كما عرفناه من ابن عفان، و أحرى منه في من استغنى و لا

يريد أن يزكى، تنديدا بالمتصدي و المتصدّى له، كل على حدّه.

هذه هي اللعنة التي يستجرها الانسان إلى نفسه بأخلاقه و أعماله الملعونة، و على حد تفسير

الإمام عليه السّلام: «لعن الإنسان»[1].

أجل إنه إخبار من اللّه بهذه اللعنة، و ليس دعاء و كيف يدعو اللّه! اللهم إلا عن ألسنة السفرة الكرام البررة يدعون لهكذا إنسان بالقتل، أن يقتله اللّه ختما على قلبه و يزيغه «فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ».

و إنه يستحق القتل على فظيع تصرفه، فإنها صيغة تقبيح و تفضيح، و إفادة إنه يستوجب القتل لشناعته و بشاعته، إن قتلا لأخلاقه التي قتلت انسانيته، أو قتلا و ازهاقا لروحه الجهنمية التي سواء عليها الإنذار و عدم الإنذار:

«وَ ما عَلَيْكَ أَلّا يَزَّكّى».

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ:

استفهام انكاري: ما الذي ستره؟ ستر عقله و ضميره و فطرته و بصيرته فأعماه!..

أم فعل التعجب: عجب منه كيف يكفر بربه ناس؟؟؟ ا كيانه؟ كيف كان و كيف

---

١. نور الثقلين ٥: ٥١٠ ح ١٠ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين علي (ع).

صار؟..

علام يستغني و يستكبر؟ و لم يتصدى له من يدعي الايمان، عابسا في وجه المؤمن؟! و الكفر هنا يعم كل ستر و حجاب على بصيرة الإنسان بجنب ربه، شاملا دافة ألوان العصيان و درجاته تجاه رب العالمين[١].

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ:

«هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» (٧٦: ١) كان شيئا لا يذكر لتفاهته و قذارته لحدّ كان يستحى من ذكره باسمه وقتذاك «مني».. خلقه من هذا الذي لم يكن يذكر، أصل لا قوام له و لا قيمة، عفن نتن رجس مهين، نطفة من منيّ يمنى.

نطفة عجيبة في خلقها و شكلها على حين مهانتها، نطفة أمشاج من بحر لجي من علق. «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ»: الدودات الصغيرة السابحة في البحر المنوي «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً»: نطفة في وحدتها أمشاج: أخلاط من عناصر عدة، و من أشكال عدة من اخرياتها الخلط الثنوي بين

---

١. من كفران النعم و إن كان من الموحد المسلم، و من كفر العصيان كذلك، إلى آخر درجات الكفر، فللشيطان خطوات في الإضلال كلها كفر و ظلام.

الحيوان المنوي و البويضة[١]، فلما ذا يستغني و أوله نطفة قذرة، و آخره جيفة مذرة، و هو بينهما حمال عذرة؟! و لماذا يستغني و أوله دليل على قدرة اللّه و حكمته أن كيف خلق النطفة؟ و تقديره و تيسره و إلى نهاية أمره، كل ذلک دليل على إتـقان الصنع و إحكامه.

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ:

«وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ. ثُـمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (٢٣: ١٤).. هكذا خلقه من نطفة و هكذا قدره جسدانيا و روحيا دون أن يكون خلقه فوضى، دون تقدير و لا غاية.

خلقه من نطفة فقدّره إنسانا، بدّله من دودة تافهة نتنة إلى أحسن المخلوقين، و لأنه أحسن الخالقين.. قدّره و هيأه لتفهم السبيل و تقبّل السبيل.

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ:

يسر السبيل ذاته لا أنه يسره لها أو يسرها له. ليت السبيل منفصلة عن ذاته، إنما هي في ذاته ـ فطرته و عقله ـ و من ثم يتزود زيادة الهدى من آفاقه:

---

١. تجد تفصيل البحث عن كيان المني و النطفة في مناسبات أخرى.

«سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (٤١: ٥٣).

إن السبيل هي الدين: المعرفة فالطاعة للّه لا سواه: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (٣٠: ٣٠).

كذلک و يسره سبيل الشر ليجتنبه كما يسره سبيل الخير ليسلكه: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» (٩٠: ١٠).

و التيسير هنا و هناک علمي و تطبيقي، يسرهما اللّه تعالى له في ذاته «فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» (٩١: ٩).

و الهدف الأصيل هو سلوک سبيل الخير على بصيرة «وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (٦: ١٥٣).

و أي تيسير أقرب و أسهل من كون السبيل المقصودة مندغمة في ذوات المكلفين، دون حاجة في ابتغائها إلى طي مسافة و غور مفازة، و إنها لهي النعمة الكبرى و الحجة العظمى الربانية أن زوّدنا بسفراء في ذواتنا، و من ثمّ سفراؤهم كرام بررة يذكروننا بما فطرنا ربنا عليه، ثم الكائنات كلها شهود صدق لهؤلاء السفراء في أنفسنا و في الآفاق.

يسره سبيله تعالى و سبل الحياة كلها، لرحلات الحياة و للاهتداء فيها:

«سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى» (٨٧: ٣ ـ ٤).

إنه ليس تقديره الإنسان بالذي ينافيه اهتداء السبيل التي يسره: فإنه تقدير لخلقه، ثم تقدير لأفعاله أن يحصل عديد منها دون اختياره و هي التي لا يثاب عليها و لا يعاقب، و أخرى باختياره و هي التي يعاقب عليها و يثاب، تقديرا و قضاء بالاختيار، و نفس الاختيار من التقدير.

يسره السبيل و أمره بسلوك السبيل و أمهله و عمّره ما يتذكر فيه من تذكر حتى إذا قضى نحبه.

ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ:

فكما الخلق و التقدير في الحياة الدنيا نعمة، كذلك الموت فإنه قفزة إلى حياة أوسع و أرقى، حياة البرزخ التي تظهر لنا حقائق أعمالنا: رحمه للمؤمنين إذ انتقلوا إلى رحمة اللّه، و لمن سواهم أيضا إذا انقطع بموتهم المزيد من دوافع و أسباب العذاب، و رحمة للباقين أن يتخلصوا من أذاه، و رحمة بصورة عامة إذ لو لا الموت لأصبحت الحياة عذابا فوق العذاب، كيف لا و مع واقع الموت نرى كيف يظلم بعضهم البعض؟ و كيف يفترسون؟! فالموت إذا من رحمات اللّه كما الحياة الدنيا و

لأنها مدرسة الآخرة.

و كما الموت له نعمة كذلك قبره بعد الموت ـ و على حدّ تعبير

الإمام الرضا عليه السّلام: «لئلا يظهر الناس على فساد جسده و قبح منظره و تغير ريحه و لا تتأذى به الأحياء بريحه و بما يدخل به الآفة و الدنس و الفساد، و ليكون مستورا عن الأولياء و الأعداء فلا يشمت عدو و لا يحزن صديق»[1].

«فأقبره»: ينسب قبره إلى نفسه تعالى إذ هو علّمنا كيف نواري سوآت موتانا، «فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يـا ويـلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين» (٥: ٣١) فهذه بداية معرفة الإنسان كيف يواري سوآت الأموات تحت التراب، و من ثم أمر اللّه تعالى بدفن الأموات كرامة لهم و رعاية، فلم يجعل السنة أن يتركوا على ظهر الأرض للجوارح و الكواسر، و الأمر بالقبر هو الإقبار كما الدفن و هو فعل الإنسان هو القبر، فلذلك نسب الإقبار إلى نفسه لا القبر.

ثم نعمة أخيرة هي مفتاح نعمة الخلود لمن عرف قيمة الحياة و لم يمهلها سدى.

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ:

---

١. نور الثقلين ٥: ٥١٠ علل الشرائع فضل بن شاذان سمع الرضا (ع) فإن قال فلم أمر بدفنه؟ قيل: لئلا يظهر..

بمشيئته خلقه و قدّره ثم السبيل يسره ثم أماته و أقبره، ثم بمشيئته ينشره مرة أخرى، قفزة إلى الحياة الأخيرة الخالدة، و «لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى، وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى».

«أنشره»: بجسمه و روحه و حيث يجمع أجزاءه الأصلية المتوفاة المكفولة عنده و عند ملك الموت و ملائكته: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ. ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (٣٢: ١١) توفّيا في الأجساد و الأرواح، فلا تضل عن رب العالمين و عن ملائكة الموت مهما ضلت عنّا «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ...».

«ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ»: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً» (٧٥: ٣٦) كلا: إنه سوف ينشر للحساب بمشيئة من إليه الحساب.

أنشره للحساب بعد طيّه في التراب، و الإنشار هو الإحياء للتصرف:

تصرف رب العالمين في الحساب، و تصرف المربوبين فيما قدموه لأنفسهم، فليس هو الإحياء دون قيد و كما يدلنا قرنه بالحياة: «وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً» (٣٠: ٢٥). و إذا «جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً» فبما أنه حياة التصرف، و إن كان ليس كاملا كحياة النشور يوم النشور، و كما لا ترى الآيات في خلق الإنسان تعبر

عنه بالنشور.

ثم ـ و بعد هذه النعم، و بعد هذه الحجج، هل يا ترى الإنسان قاضيا ما أمره ربه، أمره لصالحه في مختلف مراحل الحياة، لا لصالحه سبحانه.

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ:

الإنسان ككلّ، الإنسان كعامة النوع، إن كيانه هو كونه. «كلا»: ليس كما اراده اللّه فيما هداه.. «لما» : و حتى قبره.. و حتى نشره «لَمَّا يَقْضِ» لم يؤدّ «ما أَمَرَهُ» اللّه ربه، لم يقض هذه المرحلة على الأرض في الاستعداد ليوم الحساب.. و هو هكذا بطبعه الثاني المتخلف، رغم خطوته المهتدية، فهو هكذا في مجموعه، فوق أن الكثرة تستغني و لا تتزكى، و تتكبر على الهدى، و معها من يعبس في وجه الهدى، ثم لمن استغنى تتصدى.

فيا له مراما ما أبعده «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ»! «إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» (١٤: ٣٤) و أكفر من كل كفّار: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا» (٣٣: ٧٢).. فالأمانة قد تؤدّى و قد تحمل، و ليس الإنسان بمؤدّ للأمانات الإلهية لأنه ظلوم جهول، إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر و قليل ما هم، و

الباقون يحملون أمانة اللّه و لا يؤدونها.

[سورة عبس (٨٠): الآيات ٢٤ الى ٣٢]

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (٢٧) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (٢٨)

وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً (٢٩) وَ حَدائِقَ غُلْباً (٣٠) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (٣١) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (٣٢)

.. فلكي ينتبه الإنسان لشكر الخالق، لينظر إلى طعامه كيف خلق، و ما هو الجدير بطعمه لصالحه، نظرات عدة من جهات عدة لكي يصبح طعامه طعام الإنسان.

فلينظر الإنسان إلى طعامه: هنا الآيات تنبهنا على كيفية خلق طعام الأبدان ثم يتلوها ـ و بالأحرى ـ وجوب النظر إلى كيفية تحصيله من حلاله و حرامه، من ضاره و نافعه، جسدانيا.

فثم إذا ما كان النظر إلى طعام الأبدان واجبا شرعيا، فهل يا ترى النظر إلى طعام

الأرواح ليس واجبا، و البدن مدرسة الروح و قنطرة لكماله؟!.. لذلك ترى الإمامين الصادقين يسألان عن معنى الطعام يجيبان:

«علمه الذي يأخذه عمن يأخذه»[١]

تفسيرا موسّعا و بالمصداق الخفي، أو تأويلا و ما أحسنه تنبيها لغير الخالدين إلى الأرض.

إن الطعام ألصق شيء بالإنسان بعد خلقه، و ألزمه له استبقاء لكيانه كحيوان. فهلّا يلصق به كإنسان طعام الإنسان، طعام الروح: المعرفة و العلم، و غذاء القلب: الإيمان، فإذ «لا» فإنه قسمة ضيزى، و إلا فلينظر الإنسان إلى طعام الروح ماذا يجب أن يكون و ممن؟.. إنه من اللّه، من وحيه و إلهامه، من مصادر الوحي و الإلهام، حيث لا يخالطه مثوب الأرض، طعام من الصحف المكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة.

فلو لم ينظر الإنسان إلى طعامه المادي و في صلوحه لغذائه، مرض، أو أنه مسموم، مات، أو في أنه من حل أو حرام عصى ربه، و كل ذلك قابل للجبران و غايته فيما سوى الأخير فناء الجسم و ما عليه لو سلّم القلب من كدر الكفر و

---

١. تفسير البرهان ٤: ٤٢٩ محمد بن يعقوب بسنده عن زيد الشحام عن الصادق (ع) و الشيخ المفيد في الاختصاص بسنده عنه عن الباقر (ع).

العصيان.

و أما إذا لم ينظر في طعام الروح في أصله فيبقى الروح جائعا، أو في نوعه فسمّ الروح أو قتل، فهناك الطامة الكبرى مهما كان الجسم قويا صحيحا ناضجا.

قد تؤخذ المعرفة من مصدر الضلالة على غرة الجهالة دون نظرة عميقة فتصبح الروح جهنمية شاردة عن مصدر المعرفة، فتقتل بسمها القاتل طول الحياة و إلى الخلود، كهؤلاء الذين يتبعون كل ناعق و ناطق بهواه، همج رعاع، لا ينظرون إليهم نظر العقل، يميلون مع كل ريح و لا يستضيئون بنور العلم، هؤلاء هم المقتولون بذات أيديهم إذ لا ينظرون إلى طعامهم.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا:

هنا نستوحي من النظر إلى طعام الجسم، إلى أصوله و مهيئاته، نستوحي نظرا إلى طعام الروح.

«أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا»: عله أو أنه هو الصب الأوّل على كرتنا الأرضية، إذ كانت محترقة عطشانة، صبّ عليها ماء ثجاجا، ليخرج به حبا و نباتا و جنات ألفافا.

إن درجة حرارة الكرة الأرضية ـ بداية ترسبها زبدا عن التفجر الأول للمادة الأولية «الماء» ـ إنها كانت هائلة جدا، لم تكن لتقبل الماء و لا أن يتحد جزءاه

«الأوكسجين و الهيدروجين» إلا بعد أن هبطت حرارتها إلى زهاء أربعة آلاف درجة حرارية، حينذاک تكوّن الماء في الفضاء الخارجي البعيد عن كرتنا فصب عليها صبا ثجاجا لحدّ غرقت الأرض في ثجاجها، ثم يبست بعد ما؟؟؟ من الماء و أبـخرت الباقي فشقت الأرض شقا.

فانشقاق الأرض، المهيأ لخروج النبات فيها، كان متراخيا بزمن عن صب الماء عليها المشار إليه ب «ثم».

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا:

بعد موجان ذائبها، و موجان مياهها، و بعد انجمادها شيئا مّا، انشقت الأرض في ظواهرها.

فشقّ الأرض هو المرحلة التالية لصب الماء، فما لم تشق لم ينفذ فيها الماء و لم يخرج منها الكلاء، و بما أن الشق هو الخرم في الشيء، فقد يشمل تفتت صـخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات و مختلف العوامل الجوية التي تفرض انشقاقات الصخور الصلبة الكاسية وجه الأرض، و لكي توجد الطبقة الطمية الصالحة للزرع.

و لا شک أن هذه الانشقاقات ابتدأت من دحو الأرض و قد عدّلت حـركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشم من صياخيدها، و في الدور الرابع

من الأدوار الأرضية حسب التفصيل في الآيات من «فصلت».

فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا:

صبّ ثم شقّ فإنبات الحبّ، أول ما نبت على وجه الأرض و هو من أوليات ضرورات الحياة و أشملها.

الحب هو أصل المأكولات كلّها، تنبت عنه ثم تنبته أيضا استبقاء لها، لكي يبذر مرّ الحياة، فينبت مختلف النبات.

فقد خلق اللّه تعالى حبوب النباتات أولا بعد شق الأرض، ثم أنبت منها نبات الحبوب و نبات الفواكه و الأشجار، و كل نابتات الأرض:

«وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً. وَ جَنّاتٍ أَلْفافاً» (٨٧: ١٤ _ ١۶).

وَ عِنَباً وَ قَضْباً:

عنبا و خضروات: بقولات تقضب، أي تقطع مرة بعد أخرى، خضروات متواصلة النبات، تقطع فروعها و تترك أصولها.

وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا:

«شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ» (٢۴: ٣۵) «تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ

لِلْآكِلِينَ» (۲۳: ۲۰).. إنها مباركة لحدّ يقسم بها ربها فيما يقسم «وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ» (۹۵: ۱) «وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ» (۵۰: ۱۰) شجرتان مباركتان تختصان بالذكر من بين الشجر، و لأنهما أهمها و أعمها و أتمها نفعا.

وَ حَدائِقَ غُلْباً:

البساتين المحوطة ذات الأشجار العظيمة الغليظة.

وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا:

«فاكهة» يتفكه بها الإنسان بعد إدام الطعام، عونا على انهضام الطعام، و تصليحا و تغزيرا للحياة.

«و أبا»: عشبا و كلاء، يتمتع بها أنعامكم، و كما تتمتعون أنتم بالفواكه و الحدائق الغلب و النخل و الزيتون و الحب و سائر النبات.

مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ:

هذه كلها لكم، و لأنعامكم التي هي أيضا لكم، و التعرف إلى المعني من الأب لا يكلّفنا أكثر من أن نميز بين أكلنا و أكل أنعامنا بين المذكورات، فما هي أكل الأنعام منها؟ و ما هي أكلنا؟ معلوم أن الفاكهة لنا فللأنعام الأب..

فهل الأنعام تتمتع إلّا بالأعشاب، فلتكن هي الأبّ، ثم للإنسان الفاكـهة، مـهما

اشتركا في البعض من هذه و تلك.

و هنا العجب العجاب من الجهالة المتواضعة! ممن تصدّروا أمور المسلمين، و ادّعوا أنهم من خلفاء الإسلام، كيف لا يعرفون ـ فيما لا يعرفون ـ معنى «الأب» كأنهم بدافع التواضع و الحائطة على القرآن جهلوه! و كما

عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام إذ بلغه جهل أبي بكر بالأب: «سبحان اللّه! أما علم أن الأب هو الكلاء و المرعى و أن قوله تعالى «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا» اعتداد من اللّه بإنعامه على خلقه فيما غذاهم به و خلقه لهم و لأنعامهم مما تحيى به أنفسهم و تقوم به أجسادهم»[1].

---

١. نور الثقلين ٥: ٥١١ في ارشاد المفيد، ينقل الرواية التالية دون الذيل الذي نقلناه في المتن، و قصة «الأب» مشهورة متضافرة عن خليفتي المسلمين «أبي بكر و عمر»:

فقد «سئل الخليفة أبو بكر عن قوله تعالى «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا» فقال: أية سماء تظلني أو أية أرض تقلني أم أين أذهب؟ أم كيف أصنع إذا قلت في كتاب اللّه بما لم أعلم؟ أما الفاكهة فأعرفها و أما الأب فاللّه أعلم فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليا (ع) فقال: إن الأب هو الكلأ و المرعى».

ذكره الزمخشري في الكشاف ٣: ٢٥٣، و القرطبي ١: ٢٩، و ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ٣٠، و ابن كثير في تفسيره ١: ٥ و صححه في ۶، و ابن القيم ١٥٨ ـ ١٥٩، و الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ٤٢٠ و حلية الأولياء ٢: ٤٠، و البيهقي في إعلام الموقعين ٢٩ و صححه، و الخازن في تفسيره ٤: ٣٧٤، و النسفي في هامش الرازي ٨: ٣٨٩، و السيوطي في الدر المنثور ۶: ٣١٧، و ابن حجر في فتح الباري ١٣: ٢٣، و الكلبي في تفسيره ٤: ١٨.

و قد قرأ الخليفة عمر على المنبر: «فأنبتنا فيها حبا و عنبا و قضبا و فاكهة و أبا» قال: كل هذا عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت في يده فقال: هذا لعمر اللّه هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم هداه من

←

نرى هنا و هناك كيف نؤمر بالنظر إلى الكون، نظر البصر و البصيرة، النظرة العلمية و الاعتبارية، كل نظر ممكن لنا فيما و هبه اللّه إيانا، و لكننا مع الأسف، تركنا النظرات العلمية في الكائنات لغيرنا، ثم و لم نعتبر بالعبر، عبر هذه الكائنات، و من الناحية الروحية لأنفسنا.

.. إن النباتات التي أنبتها اللّه من حبوبها، لا تحصى عددا و أنواعا، مهما يعددها علم النبات اليوم إلى نصف مليون صنفا، إضافة إلى الأصناف المنقرضة المحفوظ بعضها في المتاحف دون أن يسميها الإنسان باسم[١].

ثم منها ما هو للتغذية، و ما هو للبس، أو للدواء، أو فاكهة، أو ما هو للبهائم.

و إذا ما فتحنا القلع المغلقة علينا في مختلف الحبوب؛ لوجدنا عالما من مختلف العناصر، ليس اختلاف الأصناف فيها إلا لاختلاف المقادير، فالكل متشابهة

→ الكتاب فاعملوا به و ما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه».

أخرجه سعيد بن منصور في سننه و أبو نعيم في المستخرج و ابن سعد و عبد بن حميد و ابن الأنباري و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان و ابن جرير في تفسيره ۳۵: ۳۸ و الحاكم في المستدرک ۲: ۵۱۴ و صححه هو و أقره الذهبي في تلخيصه و الخطيب في تاريخه ۱۱: ۴۶۸ و الزمخشري في الكشاف ۳: ۲۵۳ و محب الدين الطبري في الرياض النضرة ۲: ۴۹ و الشاطبي في الموافقات ۱: ۲۱ و ۲۵ و ابن الجوزي في تفسيره ۴۵: ۳۷۴ و السيوطي في الدر المنثور ۶: ۳۱۷ و كنز العمال ۱: ۲۲۷ و ابن سعد في طبقاته و البيهقي في شعب الايمان و أبو السعود في تفسيره و القسطلاني في ارشاد الساري ۱۰: ۲۹۸ و العيني في عمدة القاري ۱۱: ۴۶۸ و ابن حجر في فتح الباري ۱۳: ۲۳.

۱. من مقالات «اللورد أفبرأ» في كتابه «محاسن الطبيعة».

العناصر.

لنأخذ مثالا حبة القمح التي لا يهمنا إلا أكلها، فإذ نحلل ألف غرام منها نجد الماء فيها ۱۳۴ غراما و النشاء ۶۶۳ غ و ملح النوشادر ۶۰ غ و الخشب ۳۰ غ و الزيت ۱۵ غ و المانيزيا ۲ و ۲ غ و البوتاسا الكاوية ۶ و ۶ غ و السفور المائي ۲۷ و ۹ غ و كبريت العمود المائي ۱۵ غ و إلى عناصر أخرى كالصوديوم.. ثم و نجد أكثر هذه المواد باختلاف المقادير في القطن، فأصبح من الملابس بعد أن كانت في القمح مطاعم، و هكذا في الفواكه: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ».

إن النظر التام إلى الطعام لا يتم إلا بدراسة علم الكيمياء و علم النبات و هما أيضا لا يتمان إلا بدراسة علوم عدة، و هذه هي النظرة الأدنى إلى الطعام، فنظرة لما هو أعلى نطاقا و هو الوصول إلى معرفة أعلى في الحكمة و القدرة الإلهيه، و منه النظرة العميقة الأنيقة إلى طعام الروح: العلم - و كما

عن باقر العلوم عليه السّلام «إلى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه».

[سورة عبس (۸۰): الآيات ۳۳ الى ۴۲]

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (۳۳) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ

صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (٤١) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ»:

الصاخة هي الصاكّة ـ بشدة صوتها ـ الآذان؛ فتصمّها، و كما أن لفظها أيضا ذو جرس صاكّ يخرق صماخ الآذان، تناصر اللفظ و المعنى، و لكي نشهد المشهد الهائل، مشهد الفرار دون قرار، للذين تربطهم يوم الدنيا روابط لا تنفصم، و لكن الصاخة تمزقها تمزيقا بما أن لكلّ يومئذ شأن يغنيه، و لحدّ كأنه ينسى حتى نفسه.

إنها يوم الفصل، و منه فصل الأنساب و الأحساب، روابط القرابات و الصداقات، لا يحكم فيها حاكم الأنساب و لا يتساءلون عنها: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ» (٢٣: ١٠١) و إنما العداء هي التي تنوب كل هذه و تلك إلا للمتقين: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (٤٣: ٦٧).

إنها هي الساعة الصاخة (صيحة الإحياء) فإذا هم إلى ربهم ينسلون، صيحة تصخّ الأسماع و تقرعها، و تجعل الإنسان يفر من ذويه، لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه.

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...:

و لأن الهول هناک هول نفسي يفزع النفس و يفصلها عن محيطها و عنها أيضا: «وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (٢٢: ٢)، لذلک تراه ـ و بالأحرى ـ يفر من ذويه الأقربين و الأنسبين «مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ».

فهل يا ترى لماذا الفرار «وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ» (٤٠: ٣٩)؟

فهل لأن كلّا ظالم بحقوقهم فيفر؛ كيلا يطالبوه بظلمهم؟ و ليس كل امرء ظالما! أم مخافة أن يطالبوه بشفاعة و لأنه من أهلها؟ و ليسوا إلا قلة قليلة! أم لأنهم لا ينفعونه شيئا؟ و هذا لا يستوجب الفرار.

أم لأنهم لا يعرفونهم «فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ»؟ فكذلک الأمر! أم مخافة أن يتعلقوا به لماذا قصرت تجاهنا؟ و ليس الكل هكذا! إذا فلما ذا؟ لا نجد أخصر و أشمل من هذا التعبير الذي يشغل الحس و الضمير:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ:

يكفيه ـ شأنه الشائن، و هوله الكائن إثر الصاخة القارعة، هذا يكفيه عما سواه و عمن سواه.

هول أول مفاجئ لا يدع الإنسان ـ أيا كان ـ أن يفكر في غيره، فهو يفرّ و حتى عن أقاربه، فرارا فكريا فبالأقدام، و لحدّ لا يكاد يرى بعضهم البعض، و كما يروى عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق و بلغ شحوم الآذان، قيل: يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! وا سوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض، الرجال إلى النساء؟ قال: شغل الناس عن ذلک نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر و مثاقيل الخردل «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ»»[1].

شأن يغنيه، إضافة إلى المحتملات المسبّقة حسب الدرجات: فرارا عن المطالبة بالتبعات، يقول الأخ: ما واسيتني، و الأبوان: قصرت في حقنا، و الصاحبة: لم تصاحبني كما يجب، و البنون: ما ربيتنا كما يحق.

أو فرارا عن الشفاعات، و الأصل الشامل هو الذي قال اللّه «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ».

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ:

تقسيم ثنائي لوجوه الناس إلى مسفرة، و التي عليها غبرة: مسفرة مشرقة بعد

---

١. الدر المنثور ۶: ٣١٧، عن سودة بنت زمعة و سهل بن سعد و أم سلمة و عائشة عن النبي (ص) نقلنا المجموع كرواية واحدة رعاية للإضافات.

الهول العام، إذ نعرف نجاحها يومذاک، مسفرة لأنها سافرت مع السفرة، كرام بررة، فتلت صحفهم المطهرة، و طبّقتها و عاشتها حـياتها، و لأنـها اتـجهت حـياتها إلى الوجهات الربانية و أعرضت عن الشيطانية.

فكما الصبح يسفر بعد الظلام بخرقه، فينير، كذلک هذه الوجوه تسفر بعد ظلام الصاخة، العام، منيرة متهللة مشرقة، تتغير شأنها الذي كان يهمّها و يغنيها، ثم ـ علّها ـ تنعطف إلى الذين يلتصقون بها لشفاعتهم، إن قريبا أو بعيدا، ف «الْأَخِلَّاءُ يَـوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ».

إنها مسفرة ضاحكة فرحة مستبشرة، تتطلب بشارات الرحمة كما اللّـه بشـرها يوم الدنيا لهذا اليوم، و لأنها عرفت مصيرها و تبيّن لها مكانها و مكانتها بعد حريتها من هول الصاخة المذهل المبكي.

و إنها الوجوه الناعمة الراضية: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ. لِسَعْيِها راضِيَةٌ» (۸۸: ۷ ـ ۸).

و الناضرة الناظرة: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ» (۷۵: ۲۱ ـ ۲۲).

وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ. تَرْهَقُها قَتَرَةٌ. أُولئِکَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ:

تعلوها غبرة الحزن و الحسرة و سواد الذل و الانقباض و الانكماش، فهي إذا:

«باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» (۷۵: ۲۵ ـ ۲۴) و هي: «خاشِعَةٌ. عامِلَةٌ ناصِبَةٌ» (۸۸: ۲ ـ ۳).

وجوه مغبرة عليها غبرة الحزن و الأسى، ترهقها: تغشاها ـ قترة: هي سواد الذل ـ و ترغمها، يبقى عليها هول الصاخة، و يزيد إذ عرفت ما قدمت لأنفسها ـ من سخط شديد و عذاب عتيد.

إن هذه الغبرة الظاهرة على تلك الوجوه هي شيء من فوضى الحياة المغبرة التي عاشوها، و هنا يعرفون بها «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» (۵۵: ۴۱) و كما المؤمنون «سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (۴۸: ۲۹).

«أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ»: كفروا باللّه و أنعمه، و فجروا حرمات اللّه و ما راعوها.

سورة التكوير مكية و آياتها تسع و عشرون

[سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱ الى ۱۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (۳) وَ إِذَا

الْعِشارُ عُطِّلَتْ (۴)

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹)

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (١١) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢)

وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (١۴)

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ:

أحداث كونية ضخام جسام تشير إلى أن هذه الكائنات المنسّقة في نظامها و حركاتها سوف ينفرط عقد نظامها و تتناثر أجزاؤها.

فهذه الشمس التي هي نور كل ظلام، و حياة الأحياء مع الماء، هذه النبعة الحيوية النورية الحرارية سوف تموت و تنقرض، تكوّر و تدوّر، فما هو كورها؟

و ما هو دورها؟

فهل إنّ كورها أن يحاط عليها؟ كما: «يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ» (٣٩: ٧) إحاطة الليل على النهار بظلامه، و النهار على الليل بضوئه، إحاطة ماحية لكيان كلّ منهما بكل منهما، فكذلك يحاط على الشمس بما يدمرها و يظلم

عليها، و هذا هو كور الطاقات المدمّرة للشمس؟

أو كورها في نفس ذاتها بضم بعضها إلى بعض ككور العمامة و لفّها بنحو الإدارة؟

أو انه جمعها و صرعها، بنقص كيانها و نورها؟

أو زيادتها في حرارتها و سرعتها عند احتضارها كما

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «أعوذ من الحور بعد الكور»،

أي من النقص بعد الزيادة.

أو كورها على أخيها الأصغر: القمر، بشمولها عليه «وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْـقَمَرُ» (۷۵: ۸)[۱]؟

كلّ محتمل[۲]، أو أنها مرادة جمعاء، فإن قيامة الشمس تضم ضمها و لفها و جمعها و صرعها و نقصها في كيانها و زيادة سرعتها و نورها في اللحظات الأخيرة من عمرها[۳]، ثم برودتها و انطفاء شعلتها و انكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد الآن من

---

۱. و في كور القمر

أخرج البخاري عن النبي (ص) قوله: الشمس و القمر مكوران يوم القيامة (الدر ۶: ۳۱۸).

۲. هذه المعاني اللغوية للكور المستفاد بعضها من القرآن و الحديث، ذكرت في لسان العرب.

و عن ابن عباس تفسير الكور بالانظلام و الاغورار و كما عن مجاهد و سعيد بن جبير الأخير و عن أبي صالح «نكست» و عن مجاهد اضمحلت و عن الضحاك و قتادة ذهب ضوؤها، و مرجع الكل واحد كما عرفناه.

۳. و لعلها المعنية مما

←

جوانبها إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء، فسوف تكوّر لا ألسنة لها حداد لها و لا امتداد و لا جريان و لا ضياء، و هذا هو مصير الشموس كلها، إذا جاء أجلها فتتّت و رجعت لحالها الأولى، و أحيلت إلى المصانع الإلهية في العوالم الأثيرية ليصاغ منها عالم جديد.

نرى بعض علماء الفلك يؤكدون أن منبع الطاقة الحرارية للشمس ليس إلّا انقباضها و انكماشها و كورها التدريجي، و هذا هو الأثر الملموس في كل انضغاط و انكماش و لا سيما في الجسم الحار في نفسه كالشمس.

و حسب قانون الجاذبيه ل (نيوتون) نتأكد أن التشعشعات الشمسية هي إلى النقصان المستمر، زهاء كيلو مترين في كل قرنين، و بهذا تتأكد نظرية الإنقاض ل (هلمولتز)، و بالإمكان ألّا يدرك هكذا نقصان في الشمس طول تاريخ الإنسان، لكنه قياسا إلى الزمان في أدوار معرفة الأرض، يظهر كثيرا و ملحوظا، فالقدر الناقص عن جرم الشمس حتى الآن زهاء (٢ /١٠٤٧) أرجا، و هي أقل بآلاف المرات من الطاقات العامة المنفصلة عنها حتى الآن.

← روي عن الرسول (ص) «كورت في جهنم (المصدر)» إن اللحظات الأخيرة من عمرها تصبح كأنها جهنم من شدة حرارتها. إذ تنقبض إلى النهاية فتحترق إلى النهاية.

إن نظرية الانقباض و إن كانت بمحل من التصديق، إلا أن من المؤكد وجود منبع آخر لها أثقل من الطاقة الكيماوية و الثقالة، و يقول (جورج قاموف) بعد تحقيقات عدة[١] أن حرارة الشمس من الطاقة تحت الذرية.

و يقول: «ليس بالإمكان أن يتجاوز عمر الشمس (٠٠٠، ١ / ١٠٠) مما هو الآن، لو كان المنبع الحراري لها شيئا من المواد الكيماوية، لذلك فليكن القسم الأكبر من منبعها الحراري من العناصر الخالصة التي هي آخر المطاف للتبدلات الكيماوية لكل العناصر غير الخالصة».

هذا ـ و حرارة الشمس الآن ـ في سطحها ثلاثة آلاف درجة و في باطنها سبعون مليونا، و لو لا نزول الأمطار المتناوبة عليها لأحرقت الأرض و انقرضت هي أيضا قبل أجلها، و كما

عن باقر العلوم قوله: «إن الشمس تطلع و معها أربعة أملاک، ملک ينادي يا صاحب الخير أتمم و أبشر، و ملک ينادي يا صاحب الشر انزع و أقصر، و ملک ينادي أعط منفقا خلفا و آت ممسكا تلفا، و ملک ينزحها بالماء، و لو لا ذلک اشتعلت الأرض[٢]».

---

١. في كتابه موت الشمس.

٢. بحار الأنوار ج ١۴ كمباني ص ١٢۴ عن الكافي روى الجابر عن الباقر (ع)..

و يؤيد الرواية ما عن الدكتور (دونالد منزل) الفلكي الأميركي الشهير:

«إن اختلاف الأشكال في القطع المرئية في وجه الشمس، إنها نتيجة نزول أمطار غزيرة دائبة عليها، و قد أظهر هو قطعة من الأفلام المصورة عن الشمس، و فيها صورة أمطار شديدة تنزل على الشمس من ارتفاع ثمانين ألف كيلومتر، رآها مرسلوا الفلكيين في المؤتمر المعني لذلك[1].

إذا فالشمس في كور دائم شيئا فشيئا حتى يخلص دورها فتنتهي إلى كورها الأخير، جارية في هذا الكور لمستقر لها ثم لا دور لها و لا كور: «وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (٣٦: ٣٨).

و مما يطوّل عمرها أكثر، ما تسيل عليها من الأمطار الغزيرة؛ فتمدها في تباطؤ كورها؛ و تمنعها أن تحرق الأرض و سائر الكرات القريبة منها إلى أجل معدود.

وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ:

النجم هو الكوكب الطالع، و علّه يعم طلوع التمدن فيه أيضا و أحرى، و الانكدار من الكدرة و هي الظلمة، أو كانكدار الطائر إلى الأرض و هو انقضاضه و سقوطه نحوها.

---

١. نقلته جريدة اطلاعات الايرانية المنشورة يوم الخميس ١٥ ربيع الاول ١٣٦٩ هجرية قمرية الموافق ١٩٥٠ ميلادية، نقلته عن مكتوب الدكتور دونالد منزل.

فالكواكب الطالعة سوف تغرب عن ضوئها و عن تمدنها، و سوف تتساقط هذه الطائرات الجوية السائرة على أفلاكها، بما معها من الكواكب غير الطالعة:

«وَ إِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ» (٨٢: ٢) و الكوكب يعم الطالع و سواه، و الانتثار هو من جرّاء الانكدار، كما تنتثر الطير و تتساقط إلى عمق الفضاء عقب انكدار حياتها، فما دامت حية لا تنتثر بمسكة الحياة، فإذا انكدرت عليها حياتها انتثرت.

إن المعني من طلوع الكوكب هو واقع الطلوع، لا بالنسبة لإنسان الأرض، و مع العيون المجردة، إنما واقع الطلوع أينما كان موقعه من السماء.

و الكوكب منذ خلقه ليس طالعا، ثم يتكامل؛ فيصبح طالعا نيّرا، و من ثم قد يصلح للحياة و التمدن و هو الطلوع الأخير.

فمن الكواكب ما لم يطلع بعد، أو هو في الطلوع الأول أو الأخير، و منها ما طلع طلوعا أو طلوعين ثم غروب، و الانكدار يعني الغروب النهائي و الوقوف عن الحراك، و التساقط إلى أعماق الفضاء، فالانتثار هو المرحلة الأخيرة من غروبها[١].

---

١. قد يؤيد كون النجم أخص فأكمل من الكوكب أن الآيات المستعرضة للخلق لا تأتي إلا بذكر الكواكب، ثم نرى ما تذكر الحالات المتوسطة و الاخيرة تذكر النجوم، فمن بين ثلاث عشرة مرة تذكر النجوم، لا تجد و لا مرة واحدة استعراض خلقها، و إنما: الاهتداء بها في ظلمات البر و البحر» (٦: ٩٧) و انها مسخرات بأمر اللّه (٧: ٥٤) و أن لها مواقع (٥٦: ٧٥) ثم انها تطمس و تنكدر، بينما الكواكب تذكر بخلقها، «إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ» (٣٧: ٦) ثم قيامتها: «وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ» (٨٢: ٧).

يتبدل النجم كوكبا «لا نجم» ثم ينتثر و ينطمس «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ» (٧٧: ٨) طمس الكيان النجومي، طلوعا و حراكا و تجمعا، ارتجاعا إلى الحالة الغازية الأولى التي خلقت هي ـ بادئ ذي بدء ـ منها «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ» (٨٦: ٩): ترجع بأنجمها إلى ما كانت عليه: «الدخان»:

«.. ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ: ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قالَتا: أَتَيْنا طائِعِينَ، فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (٤١: ١٢).

أجل ـ و إن هناك انكدارا و انتثارا و انطماسا، فالكواكب تنتثر، و النجوم تنطمس و تنكدر، و هذه حوادث جل و طامات كبرى تقضي على السماء و كراتها حيث الطمس هو المحو و إزالة الأثر.

إن النجوم و الكواكب لا تنحصر فيما نراه في السماء بالعيون المجردة أو بواسطة المراصد الفلكية، انها هي العوالم السماوية كلها، التي لا يعلم عددها و مواضعها إلا اللّه، فوراء ما نرى منها بمراصدنا مليارات من الفضاءات و المجرات لا نعرف لها عددا، فمنها ما هي بعيدة عنها بما لم يصلنا ضوؤها منذ خلقت، و بعد مليارات السنين، و الضوء يسير كل ثانية ٣٠٠،٠٠٠ كيلومترا، فيا لها غورا و بعدا عنا! و منها

ما انقرضت قبل أن يصل إلينا ضوؤها، و علّ منها ما لن يصل إلينا ضوؤها إلى حين انكدارها و انتثارها، و منها ما لم تخلق بعد: «وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» (٥١: ٤٧). إنه تعالى دوما في توسيع المملكة السماوية و حتى القيامة الكبرى، و من ثم سوف يخلق عوالم أخرى، ف «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» (٥٥: ٢٩).

وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ:

.. «وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً»: إن هذه الجبال الرواسي الأوتاد سوف تصبح كالسراب، تحملها القدرة الإلهية و أرضها حمل التدمير: «وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً» (٦٩: ١٤) بعد ما كانت تحملها قبل قيامتها حمل التعمير: «وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» (٢٧: ٨٨): هذه قدرة الصنع و التعمير و تلك هي ـ قدرة السحق و التدمير و كلتا هما من حكمة الخبير البصير.

و الأنباء المسبقة عن قيامة الجبال في سورة النبأ كافية لحدّ مّا فيما توحي لنا آيتنا هذه، و سوف يأتيكم نبأها الفصل في طيات التفسير.

وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ:

العشار ـ جمع العشراء ـ هي النوق الحبالى في شهرها العاشر، و هي أعلى ما

تكون بما هي قريبة الولد، صاحبة اللبن.. فهي تعطل يوم الطامة الكبرى في الصيحة الأولى: عطلة عن الحراك و الولد و الحليب، إذ تضع حملها قبل أوانه، و يجف حليبها لشدة الوقعة.. و هي تهمل عن صواحبها - ف «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» و كيف لا؟ و هي الساعة التي: «تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (٢١: ٢).

و العشار - بما هي أثمن ما كانت تملكه العرب المخاطبون وقت النزول - إنها، و بصورة عامة، تمثل أثمن ما يملكه الإنسان و يتنافس فيه المتنافسون، فهو يشتغل عنها بنفسه في صيحة الإماتة، و كما يفرعن ذويه في صيحة الإحياء، ف «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ».

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ:

فما هي الوحوش؟ و ما هو حشرها؟.. فهل إنها كل الدواب سوى الإنسان؟ و ليست الكل نافره عن الإنسان، متنافرة مع بعض، حتى تكون وحوشا كلّها! أم هي غير الآنسة و المتآنسة من الدواب، و من الإنسان؟ أظنه أسلم من غير الإنسان خاصة، و لأنه أعم، و يساعده عموم اللفظ، و من الإنسان الوحش ما هو أوحش من

وحش الحيوان! ثم هل إن حشرها هو جمعها يوم الجمع في صيحة الإحياء كسائر الأحياء من بني الجان و الإنسان؟ قد ينافيه أن الآيات الست الأول من السورة و هي خامستها، أنها كلها تصف حالة الكائنات في رجفة الإماتة، و أن الحشر المطلق هو مطلق الجمع عن تفرق و افتراق دون اختصاص بجمع خاص، فما لوحوش الحيوان تختص بهكذا حشر؟

أم هو جمعها للموت كما الآية تخبر عن رجفة الإماتة؟ و لكنهما الجمع هذا لا يختص بالوحوش، فإنه يعمها و الكائنات الحية و سواها بأسرها.

أم هو جمعها بعد تفرقها، و أنسها بعد توحشها و تمزقها، فإنها نسيت نفسها من هول الواقعة القارعة، فكيف بتفرسها و توحشها؟.. و إنها تمضي هائمة على وجوهها كأنها زالت طباعها المتنافرة الوحشية، و كما هو الحال في كافة المتنافرين المتوحشين من الإنس و من سائر الحيوان، فهي إنما تفر و تهجم و تضر ما لم تر حادثة أشد و كارثة أعتد، ففيما إذا انفزعت بالفزع الأكبر نسيت و تناست ما بينها من عداء، و تآلفت و اجتمعت و حشرت.

كما و قد يكون هكذا حشر لشمول العدل إذ لا ظلم و لا تخسير، و هو الحشر الأول في القيامة الوسطى، في دولة القائم المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه

السّلام إذ

«تصطلح في ملكه السباع»[١].

هذا هو الحشر بالمعنى العام: الجمع عن التوحش، و أما فيما إذا كان الحشر إلى اللّه فهو الحياة بعد الموت لعامة ذوي الحياة، و لتجزى كل نفس بما تسعى:

«وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (۶: ٣٨).. و هذا هو الحشر بمعنى الإحياء في صيحة الإحياء، يشمل الدواب و الطير كلّها، وحشا و سواها، إنسانا و سواه، و علّ الدابة في الأرض تشمل ما تمشي عليها و ما في جوفها و في بحارها، دبّا على الماء و الأرض و في باطن الأرض.

و فيما إذا سئلنا عن حشر الحيوان غير الإنسان: لماذا يحشر و يحيى؟ أ لكي تجزى بما تسعى؟ فكيف تجزى الدابة و لا عقل لها و لا شرعة و منهاجا؟

---

١. نجد هذه الجملة في روايات مستفيضة اسلامية و آيات عدة من كتب الأنبياء السابقين فصلتها في كتابي «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و منها: في كتاب أشعياء ١١: ۶ ـ ١٠؟؟؟

«فيسكن الذئب مع الحمل و يربض النمر مع الجدي و يكون العجل و الشبل و المعلوف معا و صبي صغير يسوقها ۶. ترعى البقرة و الدب معا و يربض أولادهما معا و الأسد يأكل التبن كالثور ٧.

و يلعب المرضع على حجر الأفعى و يضع الفطيم يده في نفق الأرقم ٨. لا يسيئون و لا يفسدون في كل جبل قدسي لان الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر ٩. و في ذلك اليوم أصل يسي القائم راية للشعوب إياه تترجى الأمم و يكون مثواه جيدا ١٠».

فهنا الجواب: أن الجزاء يعم ذوي الشعور كما تشعر، إن عاقلة أم لا، فإنما المدار في الجزاء معرفة اللّه و إمكانية معرفته، و شعور يميز بين العدل و الظلم، كلّ على قدره، و الطير و الدواب كلها تعرف اللّه تعالى دون تكلف و اكتساب:

«أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ» (٢٤: ٤١) «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ» (١٦: ٤٩).

ثم نراها قد تظلم و قد تظلم و هي شاعرة أنه قبيح و اللّه لا يحب القبيح، فلولا شعورها بالقبح فلما ذا تفر من الظلم، أو تعضّ و تركل أو تفترس من يهاجمها من نوعها أو سواه؟

ثم اللّه أحل لنا أكل لحوم قسم منها، فعليه أن يبدلها ـ بما ذبحت ـ برحمة منه في حشرها.

و قد نرى الإنسان يظلم ما يملكها فلا يؤدي حقها، و اللّه تعالى أعدل من أن يدرها سدى لا يقتص لها من ظالمها.

و كل ذلک يتطلب لها حياة بعد الدنيا، من عدل اللّه و رحمته، و لكي تجزى كل بما تسعى.

هذه الآية هي الفريدة في نوعها و من حيث حشر الدواب، ثم تضافر الروايات تدلنا على ما استوحينا منها[١].

وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ:

البحار هنا هي كل البحار، أرضية و سماوية، و التسجير هو تهييج النـار، مـن سجرت التنور إذا أو قدتها، فكيف تهيج البحار بالنار، فأين الماء و أين النار؟

الجواب: أن الآية توحي للمصير الأخير للبحار يوم تكوير الشمس و انكـدار النجوم، و أنها سوف تنقلب نارا بعد ما كانت بحارا كالترتيب التالي:

إن البحار تفجّر في البداية: «وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ» (٨٢: ٣) تفجّرا على أثر زلزال الأرض و انشقاقها، و التفجر هو الانشقاق الواسع، تفرقا و انشقاقا لمياهها، و تغلغلا عن حراكها الشديدة ـ و الحركة تولّد الحرارة ـ و عن ازدياد حرارة الشمس عـند

---

١. ففي نور الثقلين ١: ٥٩٢ عن الفقيه أن النبي (ص) أبصر ناقة معقولة و عليها جهازها فقال: أين صاحبها؟ مروه فليستعد غدا للخصومة.

في المجمع عن أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول اللّه (ص) إذا انتطحت عنزان، فقال رسول اللّه (ص): أ تدرون فيما انتطحا؟ فقالوا: لا ندري! قال: و لكن اللّه يدري و سيقضي بينهما.

عن محمد بن جرير و غيره بزيادة: قال أبو ذر: لقد تركنا رسول اللّه (ص) و ما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علما». (الدر المنثور ٣: ١١).

عن الكافي بالإسناد عن سماعة بن مهران قال: أخبرني الكلبي النسابة قال: قلت لجعفر بن محمد (ع) ما تقول في المسح على الخفين؟ فتبسم ثم قال: إذا كان يوم القيامة ورد اللّه كل شيء إلى شيئه، ورد الجلد إلى الغنم فترى أصحاب المسح أين يذهب و ضوؤهم.

تكويرها.

ثم تحوّلها بخارا بخروج الكرة النارية المذابة من بطن الأرض، ثم تحوّل البخار نارا كما كان بداية خلقة الأرض و السماوات و هذا هو تسجير البحار، فإن التسجير هو تهييج النار و كما هم: «فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (٤٠: ٧٢) فكما النار تحرق بلهيبها دون اقتصار على الإغلاء، كذلك البحار تسجّر، تبدلا إلى لهيب النار بعد أن تفجّر، و كما البحر المسجور من العذاب الواقع: «وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ. إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ» (٥٢: ٥ ـ ٦).

إن المواد الكيماوية كلما زيدت حرارتها تفسّخت و تفجرت عن تركباتها و أخذت سبيلها إلى البساطة و إلى المادة الفردة الأولية، التي هي آخر المطاف في التقلبات الكيماوية، و هي تتحمل حرارة أشدّ و أكثر، كلما كان التحلّل عن التركبات أكثر و أكثر.

لذلك نجد الشمس في مركزها أثقل و أحر مما في سطحها، إذ إنها تحمل أبسط الذرات الكيماوية «الهيدروجين» التي هي آخر المطاف في التقلبات الكيماوية فيما نعرفه حتى الآن، و ثم إلى المادة الفردة التي لا نعرفها حتى الآن، و قد تحمل مليارات المرات من الحرارة التي نجدها الآن.

و هذه هي مصير كل المركبات و العناصر الكيماوية، ترجع إلى ما كانت، و منها الماء، فالبحار تفجّر و تسجّر، كما الكائنات كلها تسجّر، فلا يبقى إلا مسجور محروق.

أجل ـ و إن الزلازل و البراكين سوف تزيل الحواجز بين البحار فتغلغل على أثرها، و سائر العوامل الحرارية المسبقة و إلى انفصال ذرتي الماء: الأوكسجين و الهيدروجين، و إلى تفجرهما أيضا.. و آخر المطاف أن البحار تسجّر: تصبح نيرانا ملتهبة هائلة لا يتصور مداها.

و أنّ تفجر قدر محدود من الذرات بالقدرة المحدودة البشرية في القنابل الذرية يحدث الهول الذي لا نتحمله، فكيف بنا إذا انفجرت الذرات كلها و معها البحار، بحار الأرض و السماء؟!

فعن القمي عن الصادق عليه السّلام في الآية قال: «تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيرانا»[1]

وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ:

التزويج هو قرن كلّ شيء إلى شيئه، أو مثله، أو ما يحق أن يقرن به، و علّه لا

---

١. نور الثقلين ۵: ۵١۴ ح ۶.

يشمل هنا النكاح لأنه يخص أهل الجنة دون النفوس كلها، و أن الآية تستعرض قيامة الإحياء قبل الحساب و الجزاء و نشر الصحف و تسعير الجحيم و إزلاف الجنة، و قبل أن تعلم كل نفس ما أحضرت[۱] اللهم إلا أن يعنى من تزويج الأشرار غير النكاح، و أن خلط الآيات في القيامتين يسمح بشمول التزويج للنكاح و إن ذكر قبل الحساب[۲].

إذن فهو التزويج العام يوم القيام، الشامل لكل نفس خيرة و شريرة، قرنا في كل شيء.

من قرن الأجزاء الأصلية المعادة ـ لكل نفس ـ بعضها ببعض. دون أن تضل أو أن تتصل إلى غير بدنها، و قرن كلّ نفس ببدنها الأصيل الذي عاشته طوال حياة التكليف، دون تقمّص بغير قميصها، و دون أن تضل الأرواح و لا الأجساد: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ

---

۱. هذه الآيات تجمع بين علامات قيامة الاماتة و الاحياء، فمن تكوير الشمس إلى تسجير البحار تشير إلى الأولى، و من تزويج النفوس إلى نشر الصحف إلى الثانية، ثم ترجع إلى الأولى في كشط السماء، ثم بقية الآيات إلى الثانية، جمعا بين القيامتين لوحدتهما في الطامة و اتصالهما.

۲. و يؤيده المروي عن الامام الباقر (ع) في الآية قال: أما أهل الجنة فزوجوا الخيرات الحسان، و أما أهل النار فمع كل إنسان منهم شيطان، يعني قرنت نفوس الكافرين و المنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم (نور الثقلين ۵: ۵۱۴ ح ۷ في روآية أبي الجارود عنه (ع))»

أقول و هذا من بيان بعض المصاديق الظاهرة.

ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (۳۲: ۱۰)[۱]، و قرن كل نفس بما تجانسه و تقارنه في عقيدة الإيمان و عمل الإيمان من السابقين و أصحاب اليمين، أو ما تشاركه في تركهما من أصحاب الشمال: «وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً. فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْـمَيْمَنَةِ. وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ. وَ السَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ. أُولئِكَ الْـمُقَرَّبُونَ» (۵۶: ۳ ـ ۷)[۲]، و قرن كل تابع بمتبوعه و كل مأموم بإمامه: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ» (۳۷: ۲۲) «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَـقْرَؤُنَ كِـتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» (۱۷: ۷۱ ـ ۷۲). و قرن كل ساع بسعيه: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى» و قرن المؤمنين بالمؤمنات و الحوريات في الزواج، و غير ذلک من التشكيلات المتجانسة، عدلا في كل مجالاته، إذ ليس الملک هناک إلا للّه الواحد القهار، دون الحياة الدنيا التي

---

۱. الدر المنثور ۶: ۳۱۹ عن ابن عباس: «ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلک قول اللّه: و إذا النفوس زوجت» و مثله عن أبي العالية و الشعبي.

۲. في الدر المنثور ۶: ۳۱۹، أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير سمعت رسول اللّه (ص) يقول: «و إذا النفوس زوجت: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة و النار».

أقول: و هو تزويج كل إنسان بعمله أي قرنه به، و فيه أخرج الفراء عن عكرمة في الآية قال: يقرن الرجل في الجنة بقرينه الصالح في الدنيا و يقرن الذي كان يعمل السوء في الدنيا بقرينه الذي كان يعينه في النار.

يقرن فيها الشيء بضده أو نقيضه.

وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ:

الموؤدة من «وأد» مقلوب «آد»: أثقل، فهي المثقلة و كما توحي إليه آية الكرسي «وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما»: لا يثقله و يتعبه ثقل السماوات و الأرض، و كذلك الموؤدة كانت ثقلا عند العرب الجاهلي، و في عصر الصاروخ أيضا من جهات عدة.

ان الموؤدة، المسؤولة ـ عنها و لها ـ هي البنت إذ كانت عبئا و ثقلا ـ زعم العرب الجاهلي ـ في الحياة: المادية منها و المعنوية سواء، ثقل المعيشة و ثقل العار، فكانوا يثقلونها بالتراب تخفيفا عنهم ثقلي الحياة، و علّها سميت موءودة لهذه الأثقال الثلاثة كلّها.

و رغم أن الوأد «الثقل» الأوّل كان خاصا بالفقراء، و أكثرهم كانوا فقراء: «وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ ـ... خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ـ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ» (٦: ١٥١ ـ ١٧: ٣١). كان الأخيران يعم عرب الجزيرة كلهم: «وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ. يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ» (١٦: ٥٧ ـ ٥٨).

و إذا الموؤودة التي زعمت ثقلا: ماديا و معنويا ـ و لذلک كانت تثقل بالتراب ـ إنها سئلت، بأيّ ذنب قتلت.

و لقد كان من هوان تاريخ الإنسان عادة و أد البنات المظلومات خوف الفقر و العار، و القرآن يندد بها في مواضع عدة، و أنهن إذا كن عارا فلما ذا تنسبون إلى اللّه البنات: «أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ» (٥٢: ٣٩) «أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ. وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ. أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ» (٤٣: ١٦ ـ ١٨).

يختص القرآن هذه العملية الوحشية القاسية هنا بذكرها في طيّات علامات الطامة الكبرى و آثارها، إيحاء إلى أنها من أقسى و أوحش ما مضى على تاريخ الإنسان، إنها طامة من الطامات، يحاسب بها فاعلها أول ما يقوم يوم الحساب، يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام.

إن العرب الجاهلي الوائدين للبنات كانوا على فرق شتى، تعمها الصورة القاسية الوحشية لهذه العملية العارمة.

فمنهم من كانوا يجلسون المرأة حين وضعها فوق حفرة هيئوها من قبل، فإن كان المولود بنتا رمي بها فيها و ردمت.

و منهم من كان يتركها إلى السادسة من عمرها ثم يقول لأمها زينيها و طيبيها لكي أذهب بها إلى أحمامها فيأخذها إلى حميم البئر، يدفعها فيها بكل قساوة و ضراوة، و يهيل التراب عليها «أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ».

و البعض القليل كانوا يمسكونها مهينة «أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ» إلى أن تقدر على الرعي فيلبسها جبة من صوف أو شعر و يرسلها في البادية ترعى له إبله، و فيما إذا تزوجت و مات زوجها جاء وليه فألقى ثوبه عليها منعا لها عن زواج آخر ثم يرثها أو تفتدي نفسها منه..

هذه و تلك كانت العادة الجاهلية بحق البنات عند العرب، فما كان لقبيل الأنثى أيّ كيان عندهم، بل كنّ أنزل مكانة من الحيوان أيضا و أرذل كيانا.

و لقد كانت في نظر بعض الأجيال صفرا و تحت الصفر، ففي الجيل الخامس الميلادي كانت تعقد المجامع للنظر في: هل هي إنسانة لها نفس إنسانية؟ أم هي دون الإنسان رغم صورتها الإنسانية، و هكذا كان العصر السابق على الإسلام عصر ضياع المرأة، و كان للرجل كل حق عليها و حتى و أدها دون أي نظام يطالبه بالتجريم أو يحكمه بالتحريم، كأن الوأد هو القانون، حتى جاء الإسلام مشنعا بهذه العادات، و متّعها بحقوقها و اعتبرها بنتا و زوجة و أما، و خلّصها من و أدها و

حرمانها حقوقها، و رفع لها من درجاتها كما تحق في كافة مجالات الحياة فردية و جماعية.

فهل تظن الآن أن البنات خلصن من الوأد، و في عصر تحضّر المرأة و تقدمها مع كل ما وصلت إليه المدنية الحديثة؟.. كلا.. و إنها الآن موءودة أشر مما كانت في الجاهلية الأولى.

إن الآيات تندد بمن يئد البنات أيّا كان، و أدا في التراب أم وأدا في تباب، قبل الولادة و بعدها، جسدانيا أم روحيا، و أحرى أن يسمى الوأد الروحي وأدا! فإنه بعد عن حياة الروح، و ذلک عن حياة الجسم.

فإذا كانت الجاهلية الأولى تئد البنات، فالجاهلية المتحضرة تئدهن مع الذكور بعملية الإجهاض المتبعة في كافة البلاد، و تئدهم جميعا بالأمراض التناسلية الناتجة عن تفشي الفحشاء و الخلط بين الجنسين، لحد تولّد الولائد المرضى، المبتلين بالأمراض المهلكة، أم تقتلها قبل ولادتها، و ما إلى ذلک من ألوان الوأد لحدّ لا يحصى.

و إذا كانت الجاهلية الأولى تدفن البنات تحت التراب مخافة الفقر أو العار، فالجاهلية الأخيرة تدفنهن بشبابها و تدفعها إلى كل عار و دمار و بوار خلقي و

رذالات جنسية همجية، وأدا لكرامتها و دفنا لإنسانيتها، جاهلية أعمى من الأولى، غليظة الحس، حيوانية التصور، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين و ضلال مبين، فقدت المرأة ميزتها الإنسانية و انحطت إلى أحط الورطات و النكبات الحيوانية، لحدّ توزن بثقل جسدها و جمالها و شبابها و نضارتها الجنسية، كأنها حيوانة خلقت لإرضاء ناحية الجنس ليس إلا.

فإذ يصف أمير المؤمنين عليه السّلام الجاهليين الأولين بما يصف ـ و الآخرون أحرى بوصفه ـ يخاطب الناس فيه:

«أيها الناس إن الله تبارك و تعالى أرسل إليكم الرسول ـ إلى أن يقول: ـ و دفنوا في التراب الموؤودة بينهم من أولادهم، أو لا يختارون دونهم طيب العيش و رفاهية خفوض الدنيا، لا يرجون ثوابا و لا يخافون و الله منه عقابا، حيهم أعمى نجس، و ميتهم في النار مبلس فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى»[١].

فهل يا ترى إن وأد البنات و قتلهن في أجسادهن مخافة الفقراء و العار المزعوم، هل إنه أوحش و أفحش، أم دفنهن في الملاهي و الشهوات و الدعارات و ألوان العار و البوار، أن يصبحن لعبة للرجال دونما حسّ؟؟؟؟ و لا حجز، نتيجة عدم الاكتراث

---

١. نور الثقلين ٥: ٥١٥، الكافي بالإسناد عن مسعدة عن الصادق (ع) عنه (ع).

بشأنهن؟

فهذا دفن الروح و الجسم معا و ذاک دفن الجسم، هذا دفن المثل العليا و القيم الإنسانية، و ذاک دفن القيم الجسدانية، فهو أشد من قتل الأجساد و وأدها و كما توحي إليه آيات عدة: «وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ -.. أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» (٢: ١٩١) (٢: ٢١٧) و أية فتنة أشد و أكبر من فتنة اللامبالاة بين الفتيان و الفتيات، الناتجة عن تركهم سدى في خوضهم يلعبون و في غيهم يعمهون.

و قد يفسر الإمامان الصادق و الباقر عليهما السلام القتل في الآية: «مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً» (٥: ٣٢) يفسر انه بقتل الروح و على حدّ

قولهما: «من أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها»

بيانا لأهم المصاديق، كما و يفسر الحياة أيضا بحياة الروح «و من أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا»: من أخرجها من ضلال إلى هدى[1].

فسؤال الموؤودة يوجه إلى الآباء الحاليين قبل أن يوجّه إلى القدامى، حيث القتل في عصور الحضارة أشد و أكبر منه في الجاهلية الأولى.

---

١. المصدر ١: ٥١٤ ح ١٥٣. و مثله عن الباقر (ع) بسند آخر.

إن موءودة الجاهليات «سئلت» تسأل هي بأي ذنب قتلت: سؤال ترحّم و اعتذار، و يسأل وائدها سؤال تقحّم و إنذار، سئلت:

«لها و عنها».

إن السؤال في لفظ الآية لم يوجّه إلى الوائد و هو المسؤول! إذ خرج بفعلته الوحشية عن أهلية الخطاب، و الموؤودة هي المؤهلة للسؤال، أن تسأل ترحما و اعتذارا بجنب المسؤول، و تنديدا و إنذارا للمسؤول، و كما السيد المسيح سئل: «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (٥: ١١٦).

فقد انحطت درجة المسؤول هنا و هناك لحدّ لا يوجه إليه و حتى خطاب العتاب فكيف بسائر الخطاب: «وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (٢: ١٧٤).

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ:

نشر الصحف و كشط السماء، فما هي الصحف المنشورة؟ و ما هو كشط السماء؟ فما هي النسبة بينهما إذ قرنا؟

الصحيفة هي المبسوط من الشيء، و هي غير منشورة يوم الدنيا لأهلها، ثم

تنشر: تبسط و تخرج عن الخفاء و الخباء، و إنها: صحف الوحي، و صحف الأعمال من الأعضاء و من الأرض، و صحف القلوب و الصدور و الأفكار، التي كانت مبسوطة، عليها سطور الهداية و سجلات الأعمال، و لكنها كانت خفية عن غير أصحابها، أو خفية عن بعض أصحابها، الذين خفيت صحائف عقولهم «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى» و صحائف قلوبهم «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» (۸۳: ۱۴) «وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» (۲۹: ۳۸).

أخفوا على بصائرهم صحف الوحي، و أخفيت عن أبصارهم سجلات الأعمال، و حقائق الأعمال، و خفيت على أنفسهم أنفسهم فهم في غمرتهم و سكرتهم يعمهون و في غيهم يترددون.. و كان بإمكانهم أن يرووا الصحف صحفا منشورة عندهم، رغم خفائها على من سواهم، و لكنهم عموا و صمّوا حتى جاءهم وعد اللّه.

إن نشر الصحف هناك يفيد كشفها و معرفتها فلا تعود خافية و لا غامضة و هذه العلنية الشاملة يوم المحشر أشد على إنسانها و أنكى، فكم من سوأة يخجل صاحبها منها في نفسه و يرجف و يذوب من كشفها، فكيف إذا رآها منشورة حاضرة مشهودة! إن صحف الإنسان تتكشف للحجة و الحساب، و كما يتكشف الكون،

بأرضه كما عرفناه، و بسمائه إذا كشطت: تحللت عن كونها سماء إلى ما كانت عليها من دخان: «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ» (۴۴: ۱۱) تكشط و تتكشف لتحضير موقف الحساب و مصير أهل الحساب:

«وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ».

فذلك يوم الكشف و الكشط، يوم ظهور الحقائق دون خفاء، فما هو إذن كشط السماء؟

إنه من كشط الناقة ـ أي تنحية الجلد عنها ـ و منه استعير انكشط روعه أي زال، فكما الناقة تكشط بعد نحرها فتقطع، كذلك السماء سوف تكشط بعد موتها في الطامة الكبرى، ينحّى عنها جلدها و جلدها، و ينزع عنها رباطها، و ترتجع إلى ما كانت «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ» (۸۶: ۹) و أنها تنشق بكشطها: «إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ. وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ» (۸۴: ۱ ـ ۲) انشقاقا و افتراقا عن امتدادها و التئامها، فكانت وردة كالدهان: «فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ» (۵۵: ۳۷) واهية مسترخية: «وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ» (۶۹: ۱۶) و يومئذ تتساقط و تنتثر أولادها من حجرها و تفرج: «وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ» (۷۷: ۸) «وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ» (۸۲: ۲) و فتحت بعد غلقها: «وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» (۷۸: ۲۰) و

تمور و تكون كالمهل: «يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً» (٥٢: ٩) «يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ» (٧٠: ٨)، و حينذاك ينقضي دور السماء و تطوى طيّا: «يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ» (٢١: ١٠٤).. يطوى طومار السماء كما تطوى طوامير الإنسان و صحفه، ثم تنشر الصحف المطوية بعد النشر و قيامة الحشر و لتجزى كل نفس بما تسعى.

إنها ليست هي السماء بمفردها التي تكشط و تسترخي عن الجاذبية العامة، إنها رخوة الكائنات كلها أن تعمل فيها فوضى الطاقات رجعا إلى حالتها الأولى، تدميرا شاملا بعد تعمير، فكما اللّه أعطى كذلك اللّه يأخذ.

هنا نعرف أن كشط السماء و قشطها ليس عن جلدها الظاهر فحسب، إنما عن كيانها السماوي ـ ككل ـ و إلى طيّها، تبدلا إلى غيرها: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (١٤: ٤٨) و كما

عن باقر العلوم عليه السّلام في قوله: كشطت، قال: أبطلت[1].

وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ:

إن الجحيم قبل دخول أهلها غير بارزة و لا مسعرة، و إنما تسعيرها هو التهاب

---

١. نور الثقلين ٥: ٥١٦ح ١۴ عن القمي في تفسيره.

النار فيها، و إنه بوقود الأجساد الجهنمية و أعمالها من الخالدين فيها، فإنهم «سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» (۴: ۱۰) أي يوقدونها: «مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً» (۱۷: ۹۷).

إن السعير هذا معدّ للكافرين مهما كانت أرضها حاضرة، و الإعداء استعداد الواقع لا الواقع نفسه: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً» (۳۳: ۶۴) «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً» (۴۷: ۱۳) «إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالًا وَ سَعِيراً» (۷۶: ۴).

فإعداد السعير شيء و تسعير الجحيم شيء آخر، إذا فالجحيم موجودة الآن دون نار مسعرة، أو أن فيها نار غير مسعرة.

و إزلاف الجنة تقريبها لأهلها إذ قدموا و قربوا لها ما يؤهلهم لاحرازها، قربا بقرب: «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» (۵۰: ۳۱) أزلفت للمتقين ـ إليهم ـ و علها إلى الجحيم أيضا ليتراءى أهلوهما فتزداد رحمة اهل الجنة و عذاب اهل الجحيم بهذه المواجهة و إزلاف الجنة للمتقين يوحي لمكرمتين: ۱ ـ أنها كانت جنة قبل القيامة لأنها من فضل اللّه دون أن تختص بقدر الطاعات، و إن كانت تزيد نضارة و طراوة بدخول أصحابها، ۲ ـ أنها على عظمتها تقرب إلى أهلها دون أن يتكلف

أهلوها لطي مسافة إليها.

ذلک و لأن النار إنما هي على قدر الأعمال عدلا من اللّه فلا تتأجج قبل أوانها، و الجنة هي على قدر فضل اللّه فليس له حدّ يعرف، و إن كانت الصالحات هي التي تؤهل لإزلافها و دخولها.

و حيث تسعّر الجحيم بوارديها و تزلف الجنة لروّادها الموعودين بها أو الموعوظين لها، عندئذ لا يبقى لدى النفوس أية ريبة في حقيقة ما أحضروها، إذ هم يرون أنفسهم في آثار الأعمال و حقائق الأعمال بعد ما يرون صور الأعمال.

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ:

بعد هذه الحوادث العظام، و بعد ما كانت النفوس جاهلة بما عملت، علمت كلّ نفس ما أحضرته من خير أو شرّ، علما بما يرى و يسمع من أفعاله و أقواله: علم العيان: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (٣: ٣٠).

تجدها وجدانا واقعيا فلا تملک إنكارها و لا أن تغير شيئا منها و لا أن تزيد عليها أو تنقص منها، فقد جفّ القلم عما كان و لا يحضر إلّا ما كان.

صحيح أنه تبدّل كل شيء و تغير، و لكنما الأعمال لا تتغير، فإنما تبرز بحقائقها

كما ارتجعت الكائنات كلها إلى حقائقها التي صدرت منها.

إن الحياة الدنيا رغم كونها حياة العناء، و لكنها حياة التقديم، تخلّص و تحضر لآلخرة، و كتابها: «لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً».

إن الحياة الآخرة حياة العلم الضروري، تعلم فيها ما قدمت شئت أم أبيت، تعلم عن جهل أو تجاهل كما في الكافرين، أم بعد علم كما في المؤمنين، فهم و إن كانوا على علم ـ مهما اختلفت مراتبه ـ علم بما يحضرون، و لكنما الغفلة أحيانا من ناحية، و الجهل بحقيقة الأعمال من أخرى، جعلاه جاهلا، ثم يعلمها علم اليقين و عين اليقين و حق اليقين، و إن كان أولياء اللّه الأكرمون يعلمون قبل الميعاد، و كما

عن الإمام علي عليه السّلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا»

و الدنيا كلها غطاء تكشف بالموت، الموت الاختياري عن الشهوات:

«موتوا قبل أن تموتوا»

أو الموت الاضطراري «وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ»: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْکَ غِطاءَکَ فَبَصَرُکَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

[سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱۵ الى ۲۹]

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (۱۷) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (۱۸) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (۱۹)

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (۲۰) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (۲۱) وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (۲۲) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (۲۳) وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (۲۴)

وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (۲۵) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (۲۶) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۲۷) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (۲۸) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۲۹). «فَلا أُقْسِمُ»: نجدها في ستة مواضيع أخرى، و منها التي تنحو منحاها هنا: «فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ. وَ ما لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ. وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (۶۹: ۳۸ ـ ۴۳) «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» (۵۶: ۷۵ ـ ۸۲).

في هذه المواضيع الثلاثة نجد موضوع اللّاقسم أنه صدق القرآن و حيا، و صدق بني القرآن موحى إليه.

ثم نجدها في سواها باختلاف المواضيع: «فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ. وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ. وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» (۸۴: ۱۶ ـ ۱۸) «لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ. وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ. وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ» (۹۰: ۱ ـ ۳) «لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ. وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ. أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ» (۷۵: ۱ ـ ۳) «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ. عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» (۷۰: ۴۰ ـ ۴۱).

و موضوع اللاقسم في الأخيرين هو القدرة الإلهية على تجديد الحياة يوم المعاد، و لعلّ ركوب الإنسان طبقا عن طبق، و خلقه في كبد، عله أيضا يوحي إليه أو يعمه فيما يعنيه.

إذا فمدار اللاقسم في هذه المواضيع السبعة إنما هو أصل الرسالة القرآنية و أصل المعاد.

فهل يا ترى إن القرآن و هو أعظم برهان، إنه بحاجة إلى برهان سواه، يدل عليه؟ «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ» (۲۹: ۵۱)..

هذا القرآن ـ و كله برهان ـ نور لا تطفأ مصابيحه، هل يحتاج في إثبات وحيه إلى سواه، و هو الشمس تشرق في الظلمات؟! فما بال الشمس تستضيء بنور

غيرها، و ما بال النور يستنير بسواه؟.. كلا: إنه الدليل يدل إلى خير سبيل، برهان لنفسه و فرقان لسواه: يميز الحق عن الباطل في كافة الميادين.

ليست في الرسالة المحمدية أية خارقة تدل عليها كالقرآن و كما يقسم لإثبات هذه الرسالة السامية بحكمة القرآن: «يس. وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (۳۶: ۱ ـ ۴) فسماع الوحي الذي هو النبوة، و الرسالة على صراط مستقيم، يتوسطهما القرآن الحكيم، برهانا لا مردّ له، لهما.

إذا فما هي الحاجة لإثبات وحي القرآن أن يقسم له بالخنس الجواري الكنس و الليل إذا عسعس، حتى و الصبح إذا تنفس[1]؟.

فهل في الخنس: (المنقبض المتأخر المستتر) و الجواري الكنس: (المختبئ الداخل في كناسه) هل فيهما دلالة لإثبات وحي القرآن؟ و الكائنات كلها منقبضة متأخرة مستترة تجاه نور القرآن، و برهانه، و هو المنشرح المتقدم الظاهر الباهر كالشمس في رابعة النهار؟! كلا؛ و لا في الصبح إذا تنفس لأنه أول النفس و القرآن بلغ من أنفاس الحياة المعنوية منتهاها.

---

۱. و قد يشهد له المروي عن علي (ع) في «وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» قال: «يعني بذلك الأوصياء، يقول: إن علمهم أنور و أبين من الصبح إذا تنفس» (البرهان ۴: ۴۳۳ ح ۴)

أقول و هو يؤيد اللاقسم، إذا لا يقسم بالنور لاثبات الأنور، و علم الأوصياء هنا مثل عن علم القرآن.

كلا؛ و لا بمواقع النجوم و هي الظاهرة لكل ذي بصر، رغم أنه لقسم لو تعلمون عظيم! كلا؛ و لا بأيّ من كائنات العالم: «فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَ ما لا تُبْصِرُونَ» إذ لا أظهر من القرآن حتى يظهره و يدل عليه، أ لغيره من الظهور ما ليس له؟

عميت عين لا تراه! ثم و ما هي النسبة الدلالية بين الخنس الجواري الكنس لإثبات وحي القرآن، و الآية تصرح بنفي القسم: «فَلا أُقْسِمُ»: تفريعا على الآيات الكونية السابقة كالشمس المكوّرة و النجوم المنكدرة، أنهما و أمثالهما من نيّرات الكون مصيرها إلى التكوير و الانكدار، و شمس القرآن لا تكوّر و لا تنكدر، و قد تتلألأ أكثر و أكثر حينما النيرات تنكدر، فهي أيضا من الخنّس الجواري الكنس، و كيف يقسم بها لإثبات وحي القرآن وضوئه الذي لا يكنس و لا يخنس!: «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوارِ الْكُنَّسِ».

و قد يجوز ـ فيما لا يجوز ـ كون الليل المعسعس و الصبح المتنفس مقسما بهما لمكان. الواو: «و الليل ـ و الصبح» كما في «وَ الضُّحى. وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى» (۹۳: ۱ ـ ۳): ليس ترك الوحي للفترة التي ترك فيها ـ و هو سجي ليل النبوة ـ ليس إعراضا عن النبي بتوديع و لا قلي، إنما هو من اللّه، لحكمة قضت، و كما أنّ استمرارية الوحي ـ و هو ضحى نهار النبوة ـ إنه من اللّه تعالى.

كذلك ليس وحي القرآن إلّا كالصبح إذا تنفس، في حين أن ما سواه من وحي الأرض هو الليل إذا عسعس: أن ميزة وحي السماء في نورها كميّزة الصبح أن يشق نوره ظلم الليل الدامس العسعس.

فهذا هو الكتاب المنير، و على حدّ تعبير الرسول البشير النذير:

«هو النور المبين و الحبل المتين و العروة الوثقى و الدرجة العليا و الشفاء الأشفى و الفضيلة الكبرى و السعادة العظمى، من استضاء به نوره و من عقد به أموره عصمه الله و من تمسک به أنقذه الله، و من لم يفارق أحكامه رفعه الله، و من استشفى به شفاه الله و من آثره على ما سواه هداه الله و من طلب الهدى في غيره أضله الله و من جعله شعاره و دثاره أسعده الله و من جعله إمامه الذي يقتدي به و معوله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم و العيش السليم» و «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن.. له نجوم و على نجومه نجوم.. فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة و دليل المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره و لبلغ الصفة نظره ينج من عطب و يتخلص من نشب، فإن التفكر حياة قلب القصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور..».

و على حد تعبير

علي أمير المؤمنين عليه السّلام: «نور لا تطفأ مصابيحه و سراج لا يخبؤ توقده، و بحر لا يدرك قعره، و منهاج لا يضل نهجه، و شعاع لا يظلم ضوؤه، و فرقان لا يخمد برهانه، و بنيان لا تهدم أركانه، و شفاء لا تخشى أسقامه، و عز لا تهزم أنصاره و حق لا تخذل أعوانه..».

من هنا و هناك نستوحي غنى القرآن البرهان عن أي شاهد و برهان، اللهمّ إلا لمن كلت بصيرته، فليستدل لأنواره المعرفية المعنوية بالأنوار المادية المحسوسة كالضحى و الصبح إذا تنفس، و يستدل لظلمات ما سواه بالليل إذا سجى و عسعس، بما أنهما باهران في المثال، دون الخنّس الجواري الكنّس، إذ الخفي المذبذب، المستتر المختبئ، لا يمثّل الظاهر الجلي، اللهم إلا للدلالة على وحي الأرض الخانس العسّ، ف «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ»: فقد يكون، إذن، قسما و لا قسما: «فَلا أُقْسِمُ..» للدلالة على نور الوحي، و لو أقسمت فإنما لظلمة وحي الأرض، و لكي يعرف تجاهه وحي السماء.

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوارِ الْكُنَّسِ:

إن الجواري الكنس هي الخنس بشاهد عدم العطف، خلافا لكافة المفسرين الفاصلين بينهما، كأن الثاني غير الأول و هما واحد! فالخنس هي التي تقبع و

تستسر و تخفى و تستتر، كما الكنس هي المتوارية المستخفية: سواء في ذلك النجوم الظاهرة الزاهرة بالليل، و المستسرة المتتبعة بالليل[١].

و كذلك الشمس الخانسة يوميا، المكورة نهائيا، كما و إن كل طالع في الحياة من الكائنات، إنه بين طلوع و غروب حتى تغرب نهائيا، و قد ذكرت منها مسبقا الشمس و النجوم و البحار و الوحوش و السماء و الجبال، و هي من أبرز و أقوى الخنس الجواري الكنس، تجري دوما طلوعا و غروبا و إلى الغروب الدائب.

لا أقسم بها مهما كانت نجوما و شموسا، و هي مثال لشموس الفصاحة و البلاغة التي خفيت، خنست و كنست، عند بزوغ شمس الرسالة المحمدية في أفق الجزيرة،

---

١. الدر المنثور ۶: ٣٢٠ عن علي (ع) في قوله تعالى: فلا أقسم بالخنس، قال: هي الكواكب تكنس بالليل و تخنس بالنهار فلا ترى.

أقول: هذا من التفسير بالمصداق الظاهر، و جمع الخنس و الكنس للكواكب يشهد لما استوحيناه من وحدتهما.

و فيه أخرج الحاكم أبو أحمد في الكنى عن العدبس قال: كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين ما الجواري الكنس، فطعن عمر مخصرة معه في عمامة الرجل فألقاها عن رأسه، فقال عمر: أ حروري! و الذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتک محلوقا لأنحيت القمل عن رأسک».

أقول: أ فهكذا يجاب من يسأل عن القرآن؟ فإذا جهل الخليفة معنى آية من القرآن فلما ذا يهتک من يستعلمه؟ و لماذا يفتري عليه؟.

على الحق مع الخليفة يؤدب من يستعلمه و ليس المسؤول من أهل الذكر، و اللّه تعالى يقول:

فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.. و لكنه هل من الخطأ أن يظن بخليفة المسلمين بعض الخير: أنه يعلم بعض الشيء من القرآن فيستعلم؟ أنا لا أدري! (راجع كتابنا علي و الحاكمون في باب ثقافة الخليفة).

إذ إن القرآن شمس لا تخنس و لا تكنس، تحريضا للجهال لكي يستيقظوا، و استنهاضا لهم أن يفكروا في القرآن نفسه و لكي ينتبهوا أنه هو برهان وحيه بنفسه، دون حاجة إلى سواه، حيث البراهين كلها خانسة كانسة تجاه القرآن الذي كله برهان، و كيانه ـ ككل ـ أنه نور و برهان.

وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ. وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ:

«عسعس» لفظة مؤلفة من «عس» مرتين، و أصله طلب الشيء بالليل، و العسعسة من الأضداد، فهي الإقبال و الإدبار: إقبال الليل و إدباره، و إقبال الطالب بالليل و إدباره فيه للحصول على المطلوب[1].

و الليل المعسعس هنا مثال لزمن الفترة الرسالية بين السيد المسيح و سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ كان يقبل أحيانا بظلمات الجهل العارمة، و يدبر أخرى تخفيفا عنها، و لقد كان طلاب الحقيقة في هذه الفترة العس الداعس، كانوا حيارى، بين من لا يجد إلا الظلام، و من يجد خليطا منه و من النور عن كتابات الوحي الخليطة من الغث و السمين.

و الصبح إذا تنفس بالنور و الحياة و الحركة إذ أخذ يفجر ظلم الليل العس، و

---

١. في لسان العرب: العسعاس الخفيف من كل شيء، و العسعسة قيل هي الإقبال، و قيل هي الأدبار، و قيل هو من الأضداد كما عن أبي إسحاق.

التنفس هنا خروج ضوء الصبح من عموم غسق الليل، فكأنه متنفس من كرب، أو متروح من همّ، و من ذلک قولهم: قد نفس عن فلان الخناق أي انجلى كربه و انفسح قلبه.. أو بمعنى انشق و انصدع من قولهم: تنفس الإناء إذا انشق و تنفست القوس إذا انصعدت.

و هذا مثال للقرآن إذ أخذ يفجر منذ بزوغه ظلم الأوهام التي خنقت البشرية طوال الفترة الرسالية، ففي الصبح الذي بزغ نور الوحي القرآني على القلب المحمدي، لمست البشرية و تنفست بحياة جديدة بعد موت عارم خيم بظلمه على بني الإنسان إذ كانوا في ليل داج عسعس، و لم تكن الأنوار في الأرض إلا خنسا كنسا: فأنوار وحي الأرض كانت غاربة، و أنوار وحي السماء كانت خليطة بشيء كثير من وحي الأرض، حتى تنفس صبح الرسالة القرآنية، مهيمنة على وحي الرسالات كلها.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ:

ليس القرآن قول إنسان و منه، و لا قول ملک و منه، و إنما هو قول رسول إلهي، يحمل هذه الرحمة الواسعة الربانية دون ابتغاء جزاء أو شكور، و هذا هو معنى كرم الرسول، فكما الوحي كرم من اللّه، كذلک من يحمل الوحي كريم يبلغه مهما بلغت

به الصعوبات في هذه السبيل دون قهر و لا أجر و لا أنفة و لا كبر، و إنما حياته هي الرسالة الكريمة بدء ختم.

و هذه الحقيقة الناصعة لا يستشهد لها بأي من كائنات الوجود «فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَ ما لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ. وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (٦٩: ٣٩ ـ ٤٤).

بل و لا بأظهر ما تبصرون «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» (٥٦: ٧٥ ـ ٨٢).

فهذه النجوم السماوية الواقعة في عمق الفضاء، من النيازک النارية التي تقذف الشياطين المسترقين السمع في الملأ الأعلى، و الأحجار السماوية التي تقذف شياطين الأرض، و من النجوم الواقعة في مداراتها لتطلع أو لتغرب... لا أقسم بها لإثبات أن الآي القرآنية هي نجوم سماء الوحي الضاربة في أعماق الأفكار و القلوب، المنيرة للمهتدين، و المظلمة على المعاندين.

لا أقسم بها، لأن نجوم القرآن هي أظهر للبصائر، رغم الأبصار الكليلة التي تعمى

عنها أو تتطمى، و كيف يقسم للنجوم الزاهرة الخالدة بالخنس الجواري الكنس!.

و قد يكون لا أقسم في حين كونه «اللاقسم» توجيها لما يصلح أن يكون قسما لمن كان بصره أقوى من بصيرته، جمعا بين جماع الناس، فمن أراد أن يتذكر بالآيات الكونية لإثبات وحي القرآن، فالكون كله يصلح له شاهدا مما يرى منه و ما لا يرى: ما يرى من النجم و الشمس و القمر، و ما لا يرى من العقول و الفكر و الفطر.

و من أراد أن يستدل بالقرآن نفسه على وحيه فها هو القرآن أظهر برهان و أزهره «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

فسواء القسم و اللّاقسم هنا و هناك، فالقرآن برهان لا مردّ له على وحيه «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ..».

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»: فليس قول محمد و لا جبريل، إنما قول اللّه يحمله الرسول كرسول، فقول الرسول ليس إلا قول المرسل يحمله كما أوحي إليه، فمن هو الرسول هنا؟ هل إنه جبريل رسول اللّه إلى الرسول؟ أم هو الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رسول الرسل و معلم جبريل؟ أم هما المعنيان هنا من: «رَسُولٍ كَرِيمٍ» إذ إن الرسالة واحدة و القول واحد يحمله ملك الوحي إلى رسول الوحي؟

أقول: طالما الرسالة الإلهية تعم الرسولين، و لكنها هنا ـ حسب القرائن الموجودة ـ ليست إلا الرسالة المحمدية، حيث الأوصاف الإيجابية و السلبية المسرودة هنا للرسول تختصه بالرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فهنا إنه «كَرِيمٍ ـ ذِي قُوَّةٍ ـ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ـ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ـ وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ـ وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ـ وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ـ وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ».

و هناك «و ما هو بقول شاعر ـ و لا بقول كاهن ـ فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ. وَ ما لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ. وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ» (٦٩: ٣٨ ـ ٤٣).

و جلّ هذه الصفات ـ أو كلّها ـ لا تنطبق إلا على الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن كان القرآن قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قول جبريل كرسولين، و لكنما الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو موضوع البحث هنا أصالة كموضوع الرسالة[1].

---

١. و عليه يحمل ما يروى من تفسير «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» بجبريل و «مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» برسول اللّه كما في نور الثقلين ٥: ٥١٨، القمي بالإسناد إلى الصادق (ع)

←

فكلنا نعلم أن جبريل لم يصاحب غير الرسول لكي تستدل بصحبته و عشرته للمخاطبين أنه غير مجنون، و لم ينسب إليه الشعر و لا الكهانة و لا الشيطنة و لا الجنون لكي تنفى عنه، فالمشركون لم يكونوا ليعترفوا بوجوده حتى ينسبوه إليها، و أهل الكتاب كانوا يحترمونه فكيف يتهمونه بالشيطنة و الجنون! في حين أنهم نسبوا إلى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كل هذه: «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ» (٢٣: ٢٥) «أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ» (٣٧: ٣٦) «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (٧: ١٨٤)..

«كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (٥١: ٥٢).

← فلا ينافيه ما عن الرسول (ص) أن «مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» - أيضا - هو جبريل (المصدر عن: المجمع) ثم لا ينافيهما أن الآيات خاصة بالرسول تنزيلا، و كما تدل القرائن فإن أمثال هذه الروايات تحمل تفسير التأويل: أن جبريل (ع) يحمل وحي القرآن كما يحمله الرسول محمد (ص)، فتنزيل الآيات بشأن الرسول و تأويلها بشأن جبريل، و كل من يحمل وحي القرآن من فروع الرسالة المحمدية من أئمة أهل بيته الكرام.

ثم رواية ثالثة تفسر «مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» بالرسول (ص) كما

في الدر المنثور (٦: ٣٢١)، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: قال النبي (ص) لجبريل ليلة الإسراء: أكشف عن النار، فكشف عنها، فنظر إليها، فذلك قوله مطاع ثم أمين على الوحي و ما صاحبكم بمجنون، محمد (ص).

في حين نرى ابن عساكر يخرج عن معاوية بن قرة أن الرسول (ص) قال لجبريل: ما أحسن ما أثنى عليك ربي «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» فما كانت قوتك و ما كانت أمانتك؟..

فليس من الواجب طرح الروايات التي تفسر الآيات بجبريل، و إنما نقول إنها من تفسير الجري و التأويل، نزلت في رسول اللّه و جرت في كل من يحمل وحي القرآن و أولهم جبريل - تأمل.

و من جهة أخرى نعلم أن جبريل ليس هو موضوع الرسالة و الوحي لكي تحاول الآيات إثبات رسالته و أنه لا يسحر و لا يكذب، و إنما دوره دور الوسيط في الوحي المفصّل، و لا يثبت له كيان إلا بعد ثبوت الرسالة المحمدية و سواها، فهي التي تعرّفنا الغيب و منه الوحي و منه ملائكة الوحي الغائبون عن الإحساس.

إنما موضوع الرسالة هنا هو الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذي صاحبهم عمرا قبلها، و هم ينسبونه إلى الشعر و السحر و الكهانة و الشيطنة و الجنون، الصفات التي تتنافى و الكرامة و المكانة عند اللّه و القوة الروحية التي تؤهله لتلقي الوحي، و المعرفة الإلهية لحد الرؤية: كأنه رآه! «وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ» و كونه مطاعا في دوره الرسالي و أمينا في دعوته.

«ذي قوة»: فكما اللّه هو شديد القوى: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى» كذلك الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذو قوة: «ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى» قوة معرفيه تؤهله لتلقي الوحي، فليس ضعيفا يتشبث بالشعر و الكهانة و السحر، و لا ضعيف العقل مجنونا، و لا ضعيف التمييز لكي لا يميز وحي الرحمان عن وحي الشيطان، و لا ضعيف الإيمان لكي يخون في الوحي الإلهي ـ و إنما: «ذي قوة» و كما اللّه شديد القوى.

نلمس هذه القوى الروحية من القرآن نفسه، دون أن تكون دعوى بلا برهان

لرسول القرآن، فقوة القرآن تشهد لقوة الرسول و كما قوة الرسول تشهد لقوة القرآن: قوتان متناصرتان.

«عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ»: ذي قوة عند ذي العرش، مكين عنده، أو: ذي قـوة، مكين عند ذي العرش، و الأوّل أولى و أليق، أن الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس ذا قوة في موازين الأرض: أنه قوي الساعد شجاع في الحروب، و إنما «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ» و القوة عند اللّه إله القوى، قوة ربانية لا قبل لها و لا مثيل في ملإ العالمين من الملائكة و من الجنة و الناس أجمعين.

و القوة عند ذي العرش ـ و هو صاحب عرش الألوهية ـ إنها قوة عرشية تعلو سائر القوى و كما القدرة الإلهية تعلوها، و لكن قوة ذي العرش «شَدِيدُ الْقُوى» و هي من ذاته المقدسة، و أما «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ» فإنما له قوة من القوى غير شديدة، و هي من ذي العرش، دون أن يملك الرسول هذه القوة لذاته، و إنما هي رحمة من اللّه خاصة لرسوله الكريم الأمين.

لكنما القوة هذه على قلتها و عدم شدتها تجاه القوة الإلهية، إنها تعلو القوى غير الإلهية كلها، ملائكية و بشرية و سواهما.

«مكين» : عند ذي العرش، إن له مكانة عرشية خاصة عند ذي العرش ليست

لغيره من ذوي المكانات من خملة الرسالات الإلهية.

مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ:

«مطاع» عند ذي العرش يطيعه من عنده من أصحاب القوى و ذوي المكانات، و كما نرى جبريل، رسول اللّه إلى الرسل، يخدمه و يطيعه، فليس كيانه إلا كيان الوسيط بينه و بين اللّه، لا لأن الرسول بحاجة إلى وساطته ـ إذ هو أقرب إلى اللّه و أقوى ـ و إنما لكي لا يظن به الناس ما ظنوه في بعض المرسلين من الألوهية كأنهم يقولون من عند أنفسهم دونما وحي، فإذ يصرح الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن جبريل هو الوسيط بينه و بين ربه في وحيه، فهنا تنطمس الظنون: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ» (۱۶: ۱۰۲).

فليست الغاية من نزول روح القدس إلا تثبيت المؤمنين، لئلا يقولوا ما قيل من قبلهم للرسل إنهم آلهة كما ظنوا في المسيح عليه السّلام.

«ثَمَّ أَمِينٍ»: عند ذي العرش، أمين على وحي اللّه و رسالة اللّه و دين اللّه، و لقد عاش قبل الرسالة أيضا أمينا لحدّ سموه محمّد الأمين، و هذه الأمانة المسبقة في الناس و عند الناس، تجعله ـ و بالأحرى ـ أمينا عند اللّه: «قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (۱۰: ۱۶): عمرا

بوفور العقل و الأمانة، فكيف تتهمونني الآن بالجنون و الخيانة؟! فالأمين عند الرعية أحرى له أن يكون أمينا عند ذي العرش، فهو إذ لا يخون الناس و هم ضعفاء، فكيف يخون اللّه و هو شديد القوى؟!.. أجل و إن وحي القرآن ليس ليحمله إلا رسول كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين.

فلو لا الكرم ـ و هو الرحمة العظيمة الواسعة دون ابتغاء أجر ـ لكان وحي القرآن في مضيق يختص بمن يؤتي الأجر دون الناس كافة! و لو لا القوة العرشية لما كان بمستطاعه تلقي الوحي ـ فأين التراب و رب الأرباب ـ. إنه لا بد من قلب عرشي قوي لكي يقوى على تلقي الوحي من ذي العرش.

و لو لا ها لما كان يقوى على إبلاغ الوحي كما يجب، صبرا على المزالق و المشاق في سبيل الدعوة الشاقة.

و لو لا مكانته العظيمة عند اللّه لما كان يستحق هذه الكرامة الخاصة في تحمل الوحي الأخير و حمله إلى الناس كافة.

و لو لا أنه مطاع في دوره الرسالي، و عند وسائط الرسالة و عمال رب العالمين، لما استطاع أن يحقق و يطبق الرسالة الخالدة.

و لو لا الأمانة لكانت منه الخيانة، أو ممن كانوا يتربصون الدوائر بوحي القرآن

أن يبدلوه و يحرفوه كما حرفوا كتب السماء من قبل.

و لكن أمانته و قوته و صموده و صلابته و مكانته جعلت وحي القرآن خالصا عن كل شين، خالدا إلى يوم الدين.

وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ:

لقد اتهموه ـ فيما اتهموه ـ بالجنون، لا المشركون فحسب، بل و أهل الكتاب أيضا، و هم يعلمون أنه صاحب وحي و إلهام كما التوراة تشير:

ففي الأصل العبراني من «كتاب هوشع ٩: ٥ ـ ٩»:

(مه تعسو ليّوم موعد و ليّوم حک ادوناي ٥ كي هنيّه هالخو ميشود ميصرييم تقبصم موف تقبرم محمّد لكسفام قيموش ييراشم حوح باهاليهم ٦ بائوا يمّي هفقوداه بائوا يمّي هشّلوم يدعو ييسرائل إويل هنابئ مشوكاع إيش هاروح عل رب عونحا و ربّاه مسطماه ٧ صوفّه إفرييم عم إلوهاي نابيء فح ياقوش عل كال دراخايو مسطماه ببيت إلوهايو ٨ هعميقوا شيحمطو كيم هكييعاه ييزكور عونام ييفقود هطوتام ٩):

أي: «ما ذا تصنعون يوم الاحتفال و يوم عيد الرب ٥ ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب، فمصر تجمعهم و موف تدفنهم و «محمد» لفضتهم و القرّاص يرثهم و

العوسج يستولي على أخبيتهم ٦ تأتي أيام التمييز، تأتي أيام الجزاء، سيعلم إسرائيل: ـأن النبي السفيه و رجل الروح مجنون لكثرة إثمك و شدة الحنق ٧ إن النبي رقيب، أ فرأيتم عند إلهي قد صار فخ صيّاد على جميع طرقه و حنقا في بيت إلهه ٨ لقد توغّلوا في الإفساد كما في أيام جبعة فهو يذكر إثمهم و يفتقد خطاياهم ٩»[1].

هذه الآيات المبشرة بسيدنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تندد باليهود الذين اتهموه بالجنون و هم يعلمون أنه صاحب الروح الرسالية، اتهموه لكثرة إثمهم و حنقهم و هم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (٢: ١٤٦). «وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» (٦٨: ٥١).

و تقول التوراة أيضا: «يدعو ييسرائيل إوايل حنبيا مشوكاع إيش هاروح عل روب عونخا و رباه مسطماه»:

«بنو إسرائيل يعلمون و يعرفون أن النبي الأمي المجنون صاحب روح إلهامي و صاحب وحي».

هكذا يجابه و يواجه أعقل العقلاء: أنه مجنون ـ مستور العقل ـ لا لشيء إلا لأنه

---

١. تفسير هذه الآيات إلى كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص ٧٣ ـ ٧٩.

يدعوهم إلى غير ما يشتهون؟ فهل لأنه يضاد آراءهم المفندة أصبح مجنونا؟

إذا فكل الناس مجانين لأنهم ـ كلهم ـ مختلفون في آرائهم، يجنن بعضهم البعض! فمجانين بالإجماع!.

أو لأنه يعمل الأعمال المجنونة من ضرب و فتک و هتک و سب و قتل و حركات أخرى لا يصدقها العقل. فما هي؟ إنها ليست إلا التوجيهات التي تصدقها العقول و الفكر و الفطر، فإذا دحض حججهم و فنّد آراءهم يتمسكون بما يزيف مكانته، من الجنون و السحر و الكهانة و الشعر دونما حجة إلا الدعايات و العربدات الهمجية.

«وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ»: إنه لبث فيكم عمرا قبل الرسالة و صاحبكم عاقلا صادقا أمينا لحد سمّي بمحمد الأمين، فهذه المصاحبة العاقلة الأمينة هي الكافية لدفع تهمة الجنون عن ساحته القدسية، فإذا جاءكم بما يصلحكم تقولون إنه لمجنون؟

و ما هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم.

وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ. وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ:

فمن هذا الذي رآه الرسول الكريم بالأفق المبين، الرؤية التي عدّت من دلائل

رسالته الإلهية و من مفاخرة المعنوية؟

هل إنه جبريل وسيط الوحي؟ و لم يسبق له ذكر! و الآيات المسرودة تركّز على رسول واحد، محمد أم جبريل، فهل رأى أحدهما نفسه في الأفق المبين؟

ثم رؤية الرسول لجبريل لا تختص بالأفق المبين، فلقد كان يتشرف ملك الوحي بحضرة الرسول عدد الوحي المفصل، مئات المئات من المرات، ثم ليست رؤيته لجبريل من مفاخره، و لا دليلا على رسالته، و إنما سماع الوحي و معدّاته الروحية، و إنما رؤية الرسول هي مفخرة لجبريل، رؤية التلميذ أستاذه في تعليم الوحي، رغم أنه كان وسيطا في ألفاظ الوحي و شيئا من معانيه حسب مقدرته.

فإنما الرؤية هنا كمال المعرفة و الزلفى الممكنة للممكنات، للرسول الأمين، أن رأى ربه بالأفق المبين: «بِالْأُفُقِ الْأَعْلى» أعلى الآفاق المعرفية بأعلى الآفاق الكونية: «وَ النَّجْمِ إِذا هَوى. ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى. وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى. وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى. ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى. فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى. ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى. أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى. وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى. ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى. لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ

الْكُبْرى. أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى. وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى. أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى» (۵۳: ۱ ـ ۲۲).

هنا الآيات تركز على التعليم و الرؤية، و ليس لرؤيته صلّى اللّه عـليه و آله و سلّم جبريل، و لا أنه وسيط وحيه، ليست لهما كثير أهمية، و لا أن هناك من ينكر الرؤية و الوساطة:

أبعد التصديق أنه نبي؟ أم مع نكران نبوته؟ فلا تصل النـوبة ـ إذا ـ إلى نكـران الرؤية! و كما درسناه مسبقا في سورة النجم، بشهادة الآيات أنفسها و الروايات:

ليس شديد القوى إلا اللّه[1]، و إنما رسوله ـ أيا كان ـ هو ذو قوة، لا شديد القوى.

و شديد القوى ـ هنا ـ أوحى إلى عبده ما أوحى، فهل يا ترى أن محمدا تنزّل إلى درجة العبودية لوسيط الوحي المفصّل؟.. ثم جبريل لم يصاحب الرسول إلى عمق المعراج، إلى سدرة المنتهى، فكيف رآه الرسول عند السدرة نزلة أخرى؟

ثم القسمة الضيزى بين رؤية محمد ما رأى، و بـين رؤيـة المشـركين اللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى، ليست هذه القسمة الضيزى «الظالمة» إلا في رؤيـة الإله، إن رؤية بالبصر كاللات و العزى، أم بالبصيرة كـما رأى الرسـول ربـه بـنور

---

۱. في دعاء الندبة «يا شديد القوى يا من على العرش استوى ـ و في دعاء: يا شديد القوى و يا شديد المحال» و في نهج البلاغة: شديد القوى يعني به اللّه و كما في تفسير القمي أيضا.

المعرفة و اليقين لآخر درجات الإمكان، فنكران رؤيته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ربه هكذا، في حين يرى المشركون أربابهم، هذا هو القسمة الضيزى، لا نكران رؤية جبرائيل! فقد درج الرسول بكيانه ككل، بجسمه و روحه، درج فعرج إلى الأفق الأعلى، و لأنه ذو مرة: (قوة) فاستوى: استولى على الكون أجمع، و إلى أعلى الآفاق: الآفاق الكونية إذ وصل إلى سدرة المنتهى، منتهى الكون و كاهله، واضعا قدميه عليه فرأى من آيات ربه الكبرى.

و إلى أعلى الآفاق العقلية و المعرفية من الملائكة و المرسلين، فقد عرج الرسول الكريم إلى معراج تلكم الآفاق، خارقا حجب الظلمات و النور، فما زاغ بصره و بصيرته، و ما نقص في معرفة ربه، «وَ ما طَغى»: ان يراه ببصر العيان، أم يعرفه بالبصيرة حق المعرفة، و إنما ازدلف إليه و عرفه كما يمكن، خارقا كافة الحجب إلا حجاب ذات الألوهية، المستحيل خرقه.

إن الرؤية هذه هي رؤية الفؤاد بنور اليقين «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى»[1] فللقلوب

---

١. في البحار ج ۶ ص ٣٨٠، عن ابن عباس قال: قال النبي (ص) فيما احتج على اليهود:.. حتى انتهيت إلى السماء السابعة فجاوزت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى حتى تعلقت بساق العرش فنوديت من ساق العرش: إني أنا اللّه لا إله إلا أنا السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم، فرأيته بقلبي و ما رأيته بعيني.

في ٣٩٨ عن انس قال: قال رسول اللّه (ص) لما عرج بي إلى السماء دنوت من ربي حتى كان بيني و بينه قاب ←

أبصار كما للقوالب: «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ» (٧٩: ٧ ـ ٨): أبصار القلوب الكليلة أو البصيرة النيرة و كما في العلوي:

«و أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليک حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة» و عند ما يسأل: هل رأيت ربک؟ يجيب: كيف أعبد ربا لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان، و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان».

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لم أره بعيني و رأيته بفؤادي مرتين ثم تلا «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى»

و هذا جوابا عمن سأله هل رأيت ربک»[1] و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «نوراني أراه»[2]، و قال: «رأيت نورا»..

كل ذلک إشارة إلى المعني من الرؤية: أنها كمال المعرفة بعد خرق الحجب

→ قوسين أو أدنى.

في ٣٩٩ عن حمران قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول اللّه عز و جل في كتابه «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى» فقال: أدنى اللّه محمدا منه فلم يكن بينه و بينه إلا قعص لؤلؤ فيه فراش يتلألأ.

أقول: اللؤلؤ هذا المتلألئ هو نور الذات الأزلية التي لا تظهر إلا له سبحانه لا سواه.

١. في الدر المنثور ٦: ١٢٤، أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي (ص) قال: قالوا يا رسول اللّه (ص)..

٢. المصدر أخرج مسلم و الترمذي و ابن مردويه عن أبي ذر قال: سألت رسول الله (ص) هل رأيت ربک. فقال: نوراني أراه.

الممكن خرقها لأفضل الكائنات و أشرف الموجودات.

و الرسول الكريم و إن كان عارفا بربه حق المعرفة طوال حياته الرسالية ـ مهما اختلفت درجاتها طولها ـ إلا أن طبيعة الحال تقضي في معراج هكذا، و إلى الأفق الأعلى، واضعا قدميه على كاهل الكون، تاركا ما سوى اللّه تحت قدميه و بقالبه، بعد أن تركها بقلبه المنير، متخليا متحللا منقطعا عما سوى اللّه و حتى عن نـفسه المقدسة، مشتغلا بربه دون سواه، منعزلا عمن أرسل إليهم لهذه الفترة، فهذه الحالة تقتضي أن يكون هناک من ربه «قابَ قَوْسَيْنِ»: ليس بينه و بـين اللّـه أحـد و لا حجاب «أَوْ أَدْنى»: ليس و حتى نفسه المقدسة و هي أقدس الحجب النورانية:

«بيني و بينک إني ينازعني فارفع بلطفک إني من البين»

فلم يبق آنذاک حجاب عن المعرفة إلا حجاب ذات الألوهية الذي لن يـرتفع أبدا، فقد خرق ـ إلى الأفق الأعلى و فيه ـ خرق حجب الظلمة و حجب النور، ناسيا لها و تاركا إياها مشتغلا بربه، و لو أن بقيت هذه الحالة التجردية للرسول الكريم لاشتغل عن الكون و عن رسالته و عن نفسه و قضى نحبه، و هذا باب من المعرفة لا يعرفها إلا صاحب المعراج، و هي التي استدعاها موسى فأجيب:

«لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي» إذ ليس فـي

وسعه العروج إلى هذا الأفق المعرفي كما لا يتسع الجبل فوق ما يتحمل.

«وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ»: ليس الرب على غيبه بخيلا: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً» (٧٢: ٢٧).

ليس الرب ضنينا برسوله الكريم على غيبه الممكن كشفه على غيره، كما و أن الرسول ليس على غيب ما أوحي إليه بضنين على الناس أجمعين، فلا ضنة لا هنا و لا هناك، فقد كشف اللّه عن غيب معرفته و عن غيب وحيه لرسوله الكريم ما لم يكشفه لأحد من العالمين، ليس لأنه ضنين على من سواه من المرسلين، و إنما لأن القلوب أوعية المعارف، لا تعي إلا على قدرها، فلو حملت فوق مستطاعها لتفتتت كما و الجبل لم يتحمل لما تجلى ربه له فوق ما يتحمل، مثالا لموسى إذ سأله منتهى المطاف في المعرفة، أنه لا يتحمل.

و لكن الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يؤهل لهكذا كشف عن الغيوب المكنونة الممكن كشفها، فإذ ليس اللّه على الغيوب هذه ضنينا، و قلب محمد يعيها، و إذ ليس محمد على بلاغ الغيب ضنينا ـ و لأنه يحمل الشريعة الإلهية كلها، و يتحمل عبء الرسالات كلها ـ لهذا و ذاك «رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ» «فَأَوْحى إِلى

عَبْدِهِ ما أَوْحى».

«وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ»: فهل الشيطان الرجيم يوحي بهذا المنهج القويم لحدّ يفوق سائر الوحي النازل على أنبياء اللّه من قبل؟

ثم هل الشيطان يعارض نفسه في شيطنة العقائد و التصرفات ـ طوال وحيه ـ و يحافظ على كرامة اللّه و دين اللّه كما نلمسه تماما في وحي القرآن؟

فوحي القرآن ليس صادرا إلا عن اللّه ـ قضية قياسها معها ـ فليس وحيا نفسيا من كاهن و لا مجنون و لا عاقل يتكلم عن وحي نفسه و إن كان عن عقل و صفاء، و ليس وحيا من كاهن و لا شاعر و لا ساحر و لا شيطان و لا مؤمن عاقل عبقري إليه، فإننا لا نجد أيا من هذا و ذاك يلمح من هذا الوحي العظيم، و هو بنفسه يشهد علميا و عقليا أنه وحي اللّه ألقاه إلى رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ:

أين تذهب بكم المذاهب و تتيه بكم عن هذه المواهب: عن هذا الوحي القويم و هذا الرسول النبي الكريم؟ أين تذهبون و أنى تأفكون، من حيث لا تعلمون و لا تعقلون؟ أين تذهبون في أقوالكم و ادعاءاتكم و أحكامكم: أين تذهبون منصرفين

عن الحق و هو يواجهكم أينما ذهبتم و حيثما كنتم، و ما ذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ:

إن وحي السماء و رسل السماء ـ و بالأحرى رسول الرسل و أم الكتب ـ إنها لا تأتي بما ينافي العقول و الفطر أو لا يلائمها، و إنما كيانها: «ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» ذكريات تذكرهم بما نسوا أو تناسوا، بما درنت و رانت قلوبهم و كسفت عقولهم و مسخت فطرهم.

إن هذه الذكرى الرسالية تتركز على الأحكام الكلية العقلية و المصاديق الجزئية، إزاحة لشبهات العقول، و إنارة الدروب عليها، لتسابق فيما هو خيرها في الأولى، و إن كان الإنسان كإنسان الأرض لا يستطيع أن يعرف كافة الحكم في الأحكام الجزئية اللهم إلا ما يذكّرنا وحي السماء..

فوحي القرآن و نبيّ القرآن ليس له كيان إلا «ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» تذكيرا عن الغفلة و الغفوة و الجهل و الجهالة، ذكرا بما هو منقوش في كتاب الفطرة، و تعرفه العقول المستقيمة.. «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ».

فكما المقوّم يجب أن يكون مستقيما، كذلك المقوّم، عليه أن يشاء الاستقامة و

يعمل لها: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (٣٠: ٣٠).

فمشيئة الاستقامة تأخذ بالإنسان إليها حيث المقومات من وحي السماء و رسل السماء تترى و «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ:

هل إن آية المشيئة هذه تعلّق مشيئة الإنسان بمشيئة اللّه: أنه مسيّر في مشيئته و ليس مخيّرا؟ و هذا خلاف الواقع الملموس، و لا تلائمه الآية المسبّقة:

«لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» إذ توحي باختيار الإنسان في مشيئة الاستقامة و سواها.

نقول انها ـ على احتمال ظاهر بين محتملاتها[1] ـ تخرج الإنسان عن استقلاله في

---

١. و احتمال آخر: و ما تشاؤون استقامة إلا أن يشاء اللّه ذلك الاستقامة، فليست مشيئة اللّه لتحقيق الاستقامة و الهداية إلا بعد مشيئة العبد و هذا عكس الاحتمال الأول إذ كانت المشيئة الالهية فيه هي السبب لمشيئة العبد المحققة للاستقامة و الهداية.

و مشيئة العبد مشيئتان: مشيئة أولى في البداية، و ثانية لتحقيق الغاية، و مشيئة اللّه كذلك هنا في مرحلتين: تشريعية و تكوينية، فما لم تكن الأولى لم تتحقق المشيئة الثانية للعبد لعدم الدلالة، و ما لم تكن الثانية لم تتحقق كذلك لأمرين في الخير و أمر واحد في الشر، يزيد الخير على الشر في مشيئة التوفيق و يشتركان في عدم تحقق المراد إلا بإرادة اللّه التي هي آخر المطاف في أسباب تحقق الغاية.

(راجع كتابنا حوار بين الآلهيين و الماديين بات الأمر بين الأمرين).

مشيئته، و تجعله بين أمرين:

«لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين»

فلا هو مخيّر في مشيئته الاستقامة كمفوّض إليه أمره[1]، و لا هو مسيّر في أمره، و إنما هو بين مشيئتين: من اللّه و من نفسه: فمن نفسه: أنه يختار و يشاء الاستقامة بما جعله اللّه مختارا، و من اللّه ان وفقه للوصول إلى ما يشاء من الاستقامة، فلو لا توفيق من اللّه لم تكن مشيئة الإنسان ـ أيا كان ـ لتوصله إلى واقع الاستقامة فالتذكر بذكر القرآن، ف «اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» و «ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ» «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ».

إلى صراط مستقيم فإذا لم يكن واقع الهداية بمشيئة الرسول، و إنما له و عليه الدلالة فحسب، فأولى بمن سواه ألّا يقدروا على واقع الهداية لأنفسهم، و إنما يملكون ـ هم ـ مشيئة الاهتداء و الاستقامة فالذكر، ثم الرسول دليلهم في مسير

---

١. و يشهد له ما أخرجه ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما نزلت «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» قالوا: الأمر إلينا إن شئنا، و إن شئنا لم نستقم، فهبط جبريل على رسول اللّه (ص) فقال: كذبوا يا محمد! «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» ففرح بذلك رسول اللّه (ص).

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن القاسم بن محيمر قال: لما نزلت «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» قال أبو جهل أرى الأمر إلينا فنزلت الآية. الدر المنثور ۶ ـ ۲۲.

أقول فالآية كما حققناه تعني نفي التفويض في الأمر كما الأولى تدل على نفي الجبر، فليس إلا أمر بين أمرين.

الهداية تشريعيا، ثم اللّه من وراء القصد يهديهم إلى واقع الهداية تكـوينيا، ف «مـا تشاؤون:

(تحقق الهداية مشيئة تحقيق توصلكم إلى حق الهداية) إلا ان يشاء الله (أيضا لكم إياها تشريعيا و تكوينيا، و لأنه) رب العالمين».

إذا فتحقق الاستقامة و الهداية، بحاجة أولا إلى مشيئة من المستقيم تكوينيا، ثم مشيئة من اللّه تشريعيا للدلالة على كيفية الاستقامة و الهداية، ثم مشيئة منه تعالى تكوينيا أن يوفقه و يسهل له الوصول إلى واقع الهداية و الاستقامة فـلما تـحققت المشيئتان الإلهيتان تبعتهما مشيئة العبد الأخيرة الملامسة لواقع الهداية و الاستقامة، و كل هذه نجدها في الآيتين: «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ»: مشيئة أولى للمستقيم «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ»: مشيئة ثانية، و هي مع واقع الهداية و الاستقامة، و مشيئة تشريعية و تكوينية من اللّه تتوسطان مشيئتي العبد المستقيم ـ إذا ـ فلا جبر فـي الهداية و لا تفويض بل أمر بين الأمرين، أمر من اللّه و أمر من العبد، لذلک فلتنسب الهداية إلى اللّه ـ و أحرى له ـ و إلى العبد أيضا لاختياره، و هذه في الحسنات أن اللّه يشاء و يدبّر و يوفق:

«يا ابن آدم أنا أولى بحسناتک منک و أنت أولى بسيئاتک مني»

ذلک لأن اللّه تعالى لا يشاء السيئة لا تشريعيا و لا تكوينيا، و إنما لا يجبر العبد على فعل السيئة و لا على تركها، و له المشيئة التشريعية ألا يعصى، فإذا خالف أمر اللّه و شاء المعصية يذره اللّه تعالى في طغيانه يعمه و في غيّه يتردد، إذ لا جبر في ترک المعصية كما لا جبر في فعلها.

و بما أن المخاطبين هنا هم المستقيمون، و من أصدق مصاديقهم هم الرسل و الأئمة المعصومون، لذلک وردت عن الصادقين أنهم هم المعنيون بالآية كما

عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام قال: إن اللّه جعل قلوب الأئـمة موردا لإرادته فإذا شاء اللّه شيئا شاءوه و هو قوله: «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ»[۱]، و عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام: و إن فعل أمنائه فعله كما قال: و ما تشاؤون إلا أن يشاء اللّه[۲].

---

۱. نور الثقلين ٥: ٥١٩ ح ۳۰ القمي حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن أحمد عن أحمد بن محمد اليساري عن فلان عنه (ع).

۲. المصدر ح ۳۱ في كتاب الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عنه (ع) يذكر فيه جواب بعض الزنادقة عما اعترض به على التنزيل..

أقول: و هذا استيحاء لطيف إذ يربط مشيئة أمناء اللّه بمشيئة اللّه، و هذه هي العصمة في المشيئة تعصمهم و حتى عن أية مشيئة قبل أن يشاء اللّه، المشيئة التشريعية و التكوينية سواء، و إن كانوا يشاءون دائما الاستقامة و الهداية، و لذلک نجد اللّه يعصمهم و يهديهم لأفضل درجات الهداية، و هنا بحث فصل نوافيكم به في طيات التفسير.

سورة الانفطار ـ و آياتها تسعة عشر

[سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۱ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵)

.. إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ:

علمت نفس ـ بعد قيامة الإماتة بانفطار السماء و انتثار الكواكب و تفجّر البحار، و بعد قيامة الإحياء ببعثرة القبور ـ علمت نفس ما قدمت و أخرت؟

إن الانفطار هو قبول الفطر، و أصل الفطر الشق طولا، و ذلک قد يكون على وجه التعمير: «قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ..» (۲۱: ۵۶)، و قد يكون على وجه التدمير: «تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا» (۱۹: ۹۰) «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا» (۷۳: ۱۸).

فالأول شق إلى البناء حيث انشقت السماء عن الدخان: «ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ.. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ» كما الثاني شق إلى الغناء: «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ» و ذلك يوم تدميرها و رجعها إلى ما كانت من دخانها: «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ»، و كما شرحناه مسبقا في سورة التكوير و الإنشقاق عن كشط السماء و قشطها، أنها سوف تنمحي عن كيانها السماوي و تنحّى عنها جلدها و تنشق، فهي يومئذ واهية و وردة كالدهان و تمور مورا و تصبح كالمهل.

وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ:

هنا شبهت الكواكب بلآلئ منظومة انخرط سلكها فانتثرت و تفرقت، إنها تنتثر بعد تماسكها في أفلاكها جارية بسرعات هائلة، ممسكة في داخل مداراتها، مرفوعة في أجوائها بعمد لا ترونها: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» فثم عمد و لكن لا ترونها، أعمدة القوة الجاذبية و سواها التي نجهلها حتى اليوم، فلما ذهبت هذه القوى التي تشدها و تربطها في سماواتها و مداراتها، ذهبت ـ إذا ـ في الفضاء بددا كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها.

فهل إنها ـ و كما يزعمها السذج ـ تتناثر على أرضنا؟ كلا؛ فإن أرضنا ـ و هي من

أصغر الكواكب ـ تنتثر معها إلى أعماق الجو و تنطمس و تنمحي و ترجع ـ كأمها السماء ـ إلى حالتها الأولى «دخان» و علّها ـ و معها الكائنات كلها ـ ترجع إلى «الماء» المادة الفردة الأولى.

أجل ـ و إن الكواكب تنتثر كما النجوم تنطمس و تنكدر و تندحر:

حادثات جلل تقضي على المملكة السماوية بأمر الملك العلام.

وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ:

و كما عرفناه مسبقا في التكوير، سوف يعم البحار ـ كل البحار ـ تفجير يتلوه تسجير، فتصبح نارا هائجة ملتهبة بالتفجرات، فالحرارات التي تتحكمها فترجعها إلى ما بدأت، رجعا إلى النار و إلى المادة الفردة، و كما

جاء عن الصادق عليه السّلام: «تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيرانا»[1].

وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ:

و هذه قيامة الإحياء، تبعثر القبور و تخرج الأجساد من الأجداث: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً» (۷۰: ۴۳) «فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (۳۶: ۵۱).

---

۱. نور الثقلين ۵: ۵۱۴ ح ۶.

و لنعرف هنا ما هي القبور و بعثرتها؟ إن القبور هي مخابئ الأبدان و أجداثها، فالقبر ـ لغويا ـ مقر الميت أيا كان: جوف البر أو البحر، في جسد حيوان يأكل إنسانا، أم في جدث التراب، أم على وجه الأرض، أم أيّا من الأماكن، فإن الأبدان لا تضل عن علم اللّه كما الأرواح لا تضل، مهما ضلت عن علمنا.

و «بعثر» كلمة مركبة من «بعث أثير» و آيته أنها تشمل المعنيين:

فبإثارة القبور تبعث ما في القبور، إثارة القبور و ما في القبور، دون أن يضل شيء من الأجزاء الأصيلة لكل جسد و في كل جدث: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (٣٢: ١٠ ـ ١١) ترجعون إلى من: «لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ» (٣٤: ٣).

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ:

علمت نفس: خيّرة أم شريرة ـ دون استثناء ـ علمت علما شاملا كما الجزاء هناك كامل، علمت بعد جهل تام يوم الدنيا، و بعد علم غير تام يوم البرزخ، كما الجزاء هناك برزخي دون تمام، فالبرزخ برزخ من كافة الجهات، و منها العلم بحقيقة الأعمال كالجزاء بالأعمال.. فما هو المقدم من الأعمال و العقائد و الأقوال و

ما هو المؤخر؟

من الثابت قرآنيا أن كتاب الأعمال لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها «يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ» (٧٥: ١٤)

فالمقدّم أيّا كان و المؤخر أيا كان، إنهما سوف يحضران يوم القيامة و في موقف الحساب، دون مغادرة لشيء منهما و لا مثقال ذرة إلا أتى اللّه بها و كفى به حفيظا و حاسبا.

علمت نفس ما قدّمت: من الأعمال المنقطعة غير المستمرة خيرا أو شرا، و ما أخرت مما له استمرار يؤثر، من خير أو شر، فالثاني من الآثار و الأول مقدم و كلاهما مكتوبان يحضران يوم القيامة: «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» (٣٦: ١٢) فالأعمال و إن كانت كلها مقدمة ليوم الحساب، إلا أن البعض منها مؤخرة أيضا بعد ما قدّمت، تبقى دائبة تقدّم دوما ما دامت سنّة يعمل بها طوال زمن التكليف، سنّة حسنة أو سيئة، فللعامل المبدع المبتدئ نصيب مما عملوا بها و لا ينقص أولئك من أجورهم في الحسنات، و لا من أوزارهم في السيئات، و كما نجدها أصلا ثابتا في الآيات و في الروايات المأثورة عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من أهل بيته الكرام عليهم السلام و في

تفسير هذه الآية بالذات[١].

و: علمت نفس ما قدمت من خير و ما أخرت من شر، فإن الخير تقدّم للإنسان و الشر تؤخر، كما و يشير إليه القرآن: «وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ» (٢: ٢٢٣) «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً» (٧٨: ٤٠)

«يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى. يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» (٨٩: ٢٤)، «إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ. نَذِيراً لِلْبَشَرِ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ» (٧٤: ٢٩ ـ ٣١): تقدّم في الحياة بتقديم الصالحات، و تأخر عن الحياة تأخرا عن الصالحات و تورّطا في الطالحات، فالحري للإنسان كإنسان، و الذي يحيى يوم الحساب للحساب، حري له أن يقدم لحياته الأخرى من الصالحات، فإن الطالحات تسبّب التأخر عن الحياة السعيدة، و إن كانت الأعمال كلها ـ خيرها و شرها ـ تقدم ليوم الحساب، ف «لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ» (٥٩: ١٨).

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٢٠ عن المجمع: جاء في الحديث أن سائلا قام على عهد النبي (ص) فسأل فسكت القوم، ثم أن رجلا أعطاه فأعطاه القوم، فقال النبي (ص): من استن خيرا فله أجره و مثل أجور من اتبعه غير منقص من أجورهم، و من استن شرا فاستن فعليه وزره و مثل أوزار من اتبعه غير منقص من أوزارهم، قال: فتلا حذيفة بن اليمان «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ..».

أقول: و في الدر المنثور ٦: ٣٢٢، أخرجه الحاكم و صححه عن حذيفة عنه (ص) من قوله «من استن ـ إلى ـ و أخرت..» و هي من المتواتر معنويا.

و الآية: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ» تتحمل المعنيين، أن الإنسان سوف يعلم خيره و شره، ما قدمه و أثاره[1].

و هناک نفوس قدسية علمت حقائق أعمالها قبل موتها و قبل قيامتها، هي نفوس المعصومين، فلا تشملهم «نفس» لأنها منكرة لا تستغرق النفوس، و علها ـ أيضا ـ تشير بتنكيرها إلى النفوس العادية غير البالغة درجة العصمة، فها هو

أمير المؤمنين علي عليه السّلام يقول: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا»!

[سورة الانفطار (۸۲): آية ۶]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْكَرِيمِ (۶)

خطاب جميل جليل يهز الإنسان في كيانه الإنساني إذ يستيقظ إنسانيته، و يحرض وجدانه و شعوره، و يدخل من قلبه شغافه، و ينبّهه أنه كإنسان، لا يحق له الغرور بربه الكريم، فما الذي يغره بربه و يلهيه عن خالقه؟!

---

۱. كما أخرج الدر المنثور عن عكرمة و قتادة و مجاهد، قولهم في الآية: ما أدت إلى اللّه مما أمرها به و ما ضيعت (۶: ۳۲۲).

يقول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «غره جهله»[۱]،

و يشرحه

عليّ عليه السّلام: «أدحض مسئول حجة، و أقطع مغتر معذرة، لقد أبرح جهالة بنفسه إياه، يا أيها الإنسان ما جرأک على ذنبک و ما غرک بربک، و ما آنسک بهلكة نفسک، أما من دائک بلول، أم ليس من نومتک يقظة، أما ترحم من نفسک ما ترحم من غيرک، فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يمض جسده فتبكي رحمة له، فما صبرک على دائک، و جلدک على مصابک، و عزاک عن البكاء على نفسک و هي أعز الأنفس عليک، و كيف لا يوقظک خوف بيات نقمة، و قد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته»[۲].

أجل، و إن جهله و جهالته بربه يغره به، أن يحسب نفسه كأنه يستقل عن اللّه أم يترفع عنه أو يفسق عن طاعته.

و من الجهل غرور بعض الناس بكرم اللّه، قائلين: ـ حينما يسأل أحدهم عما قصر ـ «الله كريم»! جاهلين أو متجاهلين أنه كريم عادل، و من عدله ثواب

---

۱. الدر المنثور ۶: ۳۲۳، أخرجه عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال: بلغني أن النبي (ص) تلا هذه الآية «يا أَيُّهَا الْإِنسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْكَرِيمِ» ثم قال: جهله.

۲. نور الثقلين ۵: ۵۲۱، عن نهج البلاغة.

الصالحين و عذاب الطالحين: «نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ».. فأي فرق بين من يعصيه ناكرا كرمه، و من يعصيه جاهلا موقفه في كرمه؟ فكلاهما غرور بالرب الكريم! أجل و كما سبق

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «غره جهله»: بكرم الرب أو بمقام الكرم.

إن واقع الكرم الربوبي، الذي نلمسه و نعيشه دائبا، إنه يستتبع العلم به، و هو يقتضي العلم بموقف الكرم هنا و في الآخرة، ففي الأولى وسعت رحمته كلّ شيء، و في الآخرة يصيب بعذابه الناكبين عن صراطه المستقيم، و هو أيضا من عدله و من رحمته لمن يستحقها: «قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» (۷: ۱۵۶).

فكرمه و رحمته الواسعة يوم الدنيا يدفع العقلاء النابهين إلى طاعته و شكره، و رحمته المكتوبة يوم الآخرة للمتقين تمنعهم عن التورط في عصيانه و حرماته، و كرمه للعاصين يحرضهم على التوبة و الإنابة إليه، و ألّا يعتبروا عصيانه غنما لموقف كرمه، و لا سيما في المعاصي الكبيرة التي لا تكفّر: «.. إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (۴: ۳۱)..

فإنما الغرور بالرب، الدافع إلى التساهل في طاعة اللّه، و إلى التورط في حرمات اللّه، هذا الغرور ليس إلّا بدافع الجهل بكرمه و الجهل بمعنى كرمه و موقفه تعالى في كرمه و رحمته: «.. وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ» (٢٧: ٤٠) إذا فليس يقتضي كرمه العفو عمن كفر، فإنما يراد هنا أنه لا تضره معصية من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه، إنه غني كريم.

إن أوّل الكرم الرباني للإنسان هو إنسانيته «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم، في بنيته و روحه و مهيئاته للبلوغ إلى ذروة الكمال.

فهذا الخطاب المنبّه العتاب ينادي في الإنسان أكرم ما في كيانه: «إنسانيته» المتجلي فيها كرمه و تكريمه: «وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ.. وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (١٧: ٧٠).

فما هذا الغرور بربک الذي أغدق عليک من كرمه هذا الإغداق، و أغلق عليک أبواب الجهل و الغرور هكذا إغلاق، بما بصرک في فطرتک و عقلک و أنبيائه و بيناته! و هناک مغريات و مغرّات عدة منبثقة كلها عن الجهل و الجهالة باللّه، و أما العلماء باللّه فلا يغترون بما يغترّ به الجاهلون: من غرور الأماني: «وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ

أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» (٥٧: ١۴) و من الحياة الدنيا: «ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» (۴٥: ٣٥).. «فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» (٣١: ٣٣).. و من الافتراء باللّه: «وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» (٣: ٢۴).. افتراء الظلم: أنه كريم بالمتخلفين المتورطين في اللامبالاة، و افتراء الكذب: أنه لا يدخلهم النار بل و يجمعهم مع الأبرار..

و من تقلّب الذين كفروا في البلاد: «لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» (٣: ١٩٧).

فهذه المغيرات المغريات المغرّات من الأماني و الغرور و من الحياة الدنيا و قول الزور على اللّه و من تقلّب الذين كفروا في البلاد.. هذه و أمثالها لا تغرّ و تغري إلّا الجاهلين باللّه، و على حدّ

قول الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «غره جهله».

فالغرّة هي الجهالة و الغفلة، يقال: غررت فلانا، أي أصبت غرّته، و لا يؤتى الإنسان و يصاب إلا من غرّته و غفوته و غفلته عن اللّه، و على حد

قول الإمام الصادق عليه السّلام: «من كان ذاكرا للّه على الحقيقة فهو مطيع و من

كان غافلا عنه فهو عاص، و الطاعة علامة الهداية و المعصية علامة الضلالة و أصلها من الذكر و الغفلة[١].

فالغرور هو كلما يغر الإنسان من مال و جاه و شهوة و أماني و ضلال، و سمي الشيطان غرورا لكثرة ما يغر الإنسان..

ثم الخطاب نفسه يدلنا أن المخاطبين هم المغرورون المكذبون بالدين من سائر العصاة غير الآئبين و غير التائبين..

[سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۷ الى ۸]

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ (۷) فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (۸)

إشارة عابرة إلى الكرم المعطوف في إنسانيته، في خلقه و تسويته و عدله و تركيبه في الصورة الإنسانية الجميلة صورة و سيرة، علانية و سرا، و هو في هذه المراحل مخلوق في أحسن تقويم في جسمه و روحه.

خلق و تسوية و تعديل، كل تلو الآخر، و إلى تركيبه في صورة إنسانية بمختلف

---

١. مصباح الشريعة أحسن كتاب في المعارف و الأخلاق ينسب إلى الامام الصادق (ع).

الأشكال و الأجناس و الحالات على وحدة الصورة الإنسانية فيما به الإنسان إنسان.

و لقد كرّمنا ربنا و أكرم بنا في هذه المنازل كلها، آخذا بنا من النقص إلى الكمال و الأكمل «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ».

فما هي التسوية بعد الخلق؟ و ما هو التعديل بعد التسوية، ثم ما هو التركيب في الصورة المقصودة؟

نقول إن تسوية الإنسان هي تكملة الناحية الجسدانية و لكي تصلح لقبول الروح الإنسانية: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» (٣٢: ٧ ـ ٩) «أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا» (١٨: ٣٧) «أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى. ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى» (٧٥: ٣٧ ـ ٣٩) «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى» (٨٤: ٢) «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» (٩١: ٧ ـ ٨).

نستوحي من هذه الآيات البينات أن الخلق هو تكملة الجسم، و تسويته هي تهيئته لكي يقبل الخلق الآخر و هو الروح، فخلقه يعم مراتب التكامل الجنيني كلها:

«وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (۲۳: ۱۲ ـ ۱٤) فهذا الخلق الآخر عله تسويته بعد ما سواه جسدانيا، لقبول هذه التسوية الروحانية.

و أما عدله فعلّه تعديل قواه في الناحيتين الجسدانية و الروحية، كلا بالنسبة لزميله، أو قرينه، أو البيئة المنفصلة عنهما، سواء داخل الرحم أم خارجه، فهذه الحالات الخمس بحاجة إلى تعديل لكي يصلح الإنسان الجنين أم سواه للحياة و إدمانها:

١ ـ فما لم تتناسب قوى الإنسان و أعضائه لم تتناصر في كيانه الواحد، ٢ ـ و ما لم تتلاءم الطاقات الروحية لم يک بالإمكان أن تتوحد فتوحّد الحياة صالحة، ٣ ـ و ما لم تتوافق جنود الروح و الجسم لا تشكل إنسانا واحدا، ۴ ـ و ما لم تلائم حيوية الجنين فضاء الرحم لم تستقم الحياة هناک، ۵ ـ و ما لم تتناسب هذه الكيانات الموحدة الحياة الخارجية استحالت الحياة و إدمانها بعد الولادة.. فهذه كلها تعديلات لجزأي الإنسان بعد الخلق و التسوية.

«فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَکَ».. إنها ليست صورة ركّبنا فيها ربنا بعد الخلق و

التسوية و العدل فحسب، إذ لم يفرّعها على الثلاثة الأول، فالنص «في» لا «ففي» و علّ الصورة تشمل صورة الحياة بعد الولادة، فإن المدبّر الحكيم يفيض علينا الصور الحياتية كما نرسمها و يشاء «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى» صورة اختيارية لنا.

كما و تشمل الصور الجنينية الجسدانية و العقلية، التي يفيضها اللّه تعالى على الجنين دون اختيار من الجنين، من ذكورة و أنوثة، و جمال و قبح، و نقص و كمال و من مختلف الألوان و البنى و القوى، و من عقلية قوية و متوسطة و دانية، أو جنون و خبل و من.. كل ذلک حسب الحكمة العالية و وفق مقتضيات الوراثة جسميا و روحيا «وَ أَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ» و قد يركز الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تفسيره لآلية حول اختلاف الصور، على الوراثة[1].

---

١. الدر المنثور ۶: ۳۲۳، أخرج البخاري في تاريخه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن شاهين و ابن قانع و الطبراني و ابن مردويه من طريق موسى بن علي بن رياح عن أبيه عن جده أن النبي (ص) قال له: ما ولدک؟ قال: يا رسول اللّه (ص) ما عسى أن يولد لي، إما غلام و إما جارية، قال: فمن يشبه؟ قال: يا رسول اللّه (ص) ما عسى أن يشبه إما أباه و إما أمه، فقال النبي (ص) عندها: «مه» لا تقولن هذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر اللّه كل نسب بينها و بين آدم فركب خلقه في صورة من تلک الصور، أما قرأت هذه الآية في كتاب اللّه «فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَکَ» من نسلک ما بينک و بين آدم.

و رواه مجمع البيان عن الامام الرضا (ع) عن آبائه عن النبي (ص) باختلاف يسير.

في الدر أيضا: أخرج الحكيم الترمذي و الطبراني و ابن مردويه بسند جيد و البيهقي في الأسماء و الصفات عن مالک بن حويرث قال: قال رسول اللّه (ص): إذا أراد اللّه أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق و

←

إن الرب الكريم يركبنا في صورة من هذه و تلک، ما شاء من حالة و قوة و ما إلى ذلک، فالصورة هي البنية التي تميل بالتأليف إلى ممايلة الحكاية، و هي من «صاره» إذا ماله.. فهي تعم صور الخلق و التسوية و التعديل أولا، و صور الحياة أخيرا.

و التركيب تخليط، و الإنسان خليط منذ البداية إلى النهاية، فإن نطفته أمشاج: أخلاط «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً» (٧٦: ٢).

«ما شاءَ رَكَّبَکَ» تركيب أجزاء الجسم بعضها ببعض، و تركيبه بالروح كالعكس، و تركيب أجزاء الروح.

فكيان الإنسان هو مشيئة اللّه و كرمه، فما هذا الذي يغره بربه الكريم؟

إن خلق الإنسان في صورته الإنسانية ـ أيا كانت ـ السوية المعدلة الجميلة[1] لمما

← عصب منها، فإذا كان اليوم السابع أحضر اللّه كل عرق بينه و بين آدم، ثم قرأ «فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَکَ».

فيه أخرج الحكيم الترمذي عن عبد اللّه بن بريدة أن رجلا من الأنصار ولدت له امرأته غلاما أسود، فأخذ بيد امرأته فأتى بها رسول اللّه (ص) فقالت: و الذي بعثک بالحق لقد تزوجني بكرا و ما أقعدت مقعده أحدا، فقال رسول اللّه (ص): صدقت إن لک تسعة و تسعين عرقا و له مثل ذلک، فإذا كان حين الولد اضطربت العروق كلها ليس منها عرق إلا يسأل اللّه أن يجعل الشبه له.

١. نور الثقلين ٥: ٥٢٢، في أمالي الشيخ الطوسي باسناده إلى أبي جعفر الباقر (ع) إن النبي (ص) قال لعلي (ع) قل: ما أول نعمة أبلاک اللّه عز و جل و أنعم عليک بها؟ قال:

أن خلقني جل ثناؤه و لم أک شيئا مذكورا، قال: صدقت ـ إلى قوله ـ فما الثالثة؟ قال: أنشأني فله الحمد في أحسن صورة و أعدل تركيب، قال: صدقت.

يفرض عليه كإنسان أن يفكر فيه طويلا فيزداد شكرا لربه الكريم، فقد كـان له أن يركبه في صورة مشوهة و سيرة لئيمة و لكنه ما فعل، و كما

عن الصادق عليه السّلام: «لو شاء ركبک على غير هذه الصورة»[1].

إن دراسات علم الأعضاء و الأجزاء و الدراسات المعمقة في بيئات الأرواح، إنها تعجز أن توصل الإنسان إلى جزء من مليارات الدقائق في خلقه و تسويته و تعديله، التي ندرسها في طيات الآيات التي توحيها لنا.

[سورة الانفطار (٨٢): آية ٩]

كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩)

إن دافع الغرور ـ الأصيل ـ هو الجهالة، و أجهل الجهالة هو التكذيب بـالدين: بطاعة اللّه و الجزاء عليها، تكذيبا عقيديا أو عمليا، فقد تتخذون كرمه تعالى ذريعة إلى اللامبالاة بشأن الطاعة، و هذا تجاهل عن معنى كرمه و مداه و مورده، و هذا تكذيب بالجزاء العدل الوفاق يوم الجزاء، و من لا يفرق بين المسلمين و المجرمين

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٢٢.

ليس كريما، و إنه لئيم ظلوم: «أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ» (۳۸: ۳۶) و ذلک في معنى تركه تعالى الإنسان سدى هملا، رغم كرمه بخلقه و عنايته بهم في البداية، فكيف يتركهم سدى في النهاية: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَکَ سُدىً» (۷۵: ۳۶) «أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ» (۲۳: ۱۱۵) «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (۳۸: ۲۷).

فالتمسک بكرمه تعالى في عفوه عن المفسدين المجرمين تكذيب بالدين كل الدين: بالدين العقيدة: أنه تعالى ظلوم يلعب بخلقه، و يعبث بهم و يتركهم سدى عملا، و بالدين الجزاء: أنه يسوي بين المجرمين و المسلمين إما جهلا أو ظلما أو خلفا لوعده أو خوفا أو لؤما أو ما إلى ذلک من نكران الحق في اللّه أو نكران الإله الحق و تكذيبه في واقعه و أقواله و وعوده.

إنه ليس التكذيب بالحياة بعد الموت فقط، بالذي يغر المغرورين، إنما التكذيب بالجزاء الوفاق يوم الدين، و التكذيب بما يتطلبه الجزاء الوفاق من صفات اللّه الحسنى، أو التكذيب باللّه و وعوده، كل ذلک يغر الإنسان و كما تغره الرحمة الإلهية اللانهائية و الشفاعة و المغفرة، و أخيرا أنه تعالى ليس بحاجة إلى تعذيب

العاصين.

فالتصديق بالإله الحق و صفاته الحسنى، و بالجزاء الحق، و العرفان بحدود الشفاعة و الغفران، و التبصّر إلى المعرفة الحقة في أمور الدين، كل ذلك يصد الإنسان عن الغرور بربه الكريم.

فما يكذب القلب بالحساب العدل و متطلباته ثم يستقيم على هدى و لا خير و طاعة.

إن ناكر الحساب العدل و الجزاء الوفاق لا يندفع إلى أدب و لا طاعة، و لا يهتدي إلى نور أو كتاب منير، و لا يستيقظ فيه ضمير، حتى يعقل الدين عقل وعاية و رعاية كما هو الدين، و كما ينطق به القرآن المبين، و دراسة حدود العفو و الغفران و ظروفهما، و حدود الشفاعة و تكفير السيئات، نجدها في طيات الآيات التي توحي لها فصلا واضحا.

[سورة الانفطار (٨٢): الآيات ١٠ الى ١٢]

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (١٠) كِراماً كاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (١٢)

كما أن الرب الكريم لم يخلقكم لعبا و هملا في بدايتكم و غايتكم، كذلك لم يترككم و أعمالكم هملا و سدى عابثين، فقد بعث عليكم حافظين من الملائكة و النبيين، يحفظونكم من أمر اللّه: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ..» (١٣: ١١) حفظا صادرا من أمر اللّه، حفظا لنفسه عن دوافع الموت و الدمار، و حفظا على أعماله، رسلا من اللّه للحفاظ و الحفظ الحق:

«وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْـمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ» (۶: ۶۱): يحفظونكم و أعمالكم ثم يتوفونكم بأجسادكم و أرواحكم و أعمالكم دون تفريط و لا مثقال ذرة.

إنّ الحافظين قد يكونون لئاما جاهلين فلا يؤبه بحفظهم، و لا يرسل ربنا هكذا حافظين، و إنما يبعث كراما كاتبين عالمين لا تخفى عليهم خافية و لا يعزب عنهم عازب.

إن الأوصاف المسرودة للحافظين هنا تثير في قلوب الناس إحساس الخجل و التجمل بحضرتهم، إنهم كرام يعلمون كلّ شيء من ظاهر الإنسان و خافيه، و إنهم كاتبون فلا ينسون، إذا فالأعمال تبقى ليوم الحساب لتشهد بواقعها في موقف الحساب.

و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «.. فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم..»[١].

و على حدّ

قول حفيده الإمام الصادق عليه السّلام في شأن الملائكة الموكلين: «استعبدهم على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة و عن معصيته أشد انقباضا، و كم من عبد يهم بمعصيته فذكر مكانها فارعوى و كف فيقول: ربي يراني و حفظتي علي بذلک تشهد، و إن الله برأفته و لطفه و كلهم بعباده يذبون عنه مردة الشياطين و هو ام الأرض و آفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله إلى أن يجيء أمر الله»[٢].

«كِراماً كاتِبِينَ»: و الكتابة هي الثبت، و اللائق برسل اللّه الحافظين، و اللائق بحضرة الربوبية، و اللائق لإثبات الحجة يوم الحساب، ان يكون ثبت الأعمال كأثبت ما يمكن و أبقاه، و هو ثبوت الأعمال بأقوالها و أفعالها، بأصواتها و صورها،

---

١. الدر المنثور ۶: ٣٢٣، أخرجه البزاز عن ابن عباس.

٢. نور الثقلين ۵: ۵٢٢ في الاحتجاج للطبرسي يسأل السائل أبا عبد اللّه الصادق (ع):

ما علة الملكين الموكلين بعباده يكتبون ما عليهم و لهم و اللّه عالم السر و ما هو أخفى؟ قال:..

تسجيلها في مسجلات خواطرهم المقدسة، و مسجلات أعضاء العاملين، و مسجلة الأرض و فضائصها، و أمثالها من مسجلات عارفة عالمة أو سواها «بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحی لَها».

هذه هي كتابة الأعمال كما يشهد بها الاعتبار و تشهد بها الآيات و الروايات، لا نقش الحبر على الورق إذ لا حجة فيه، و كما

عن الإمام موسى الكاظم عليه السّلام: «.. فإذا فعلها (الحسنة) كان لسانه قلمه و ريقه مداده و أثبتها له..»[۱].

أجل، و إنه كتاب ورقه اللسان القائل، و الأعضاء العاملة، و ريقه نفس القول و العمل، و الكرام الكاتبون ـ الحفظة منهم ـ الملائكة الموكلون بالمكلفين، يحفظونه من أمر اللّه و يحفظون له و عليه أعماله بإذن اللّه.

[سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۱۳ الى ۱۹]

---

۱. نور الثقلين ۵: ۵۲۴، أصول الكافي باسناده إلى عبد اللّه بن موسى بن جعفر عن أبيه (ع) قال: سألته عن الملكين هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعله أو الحسنة، فقال (ع): ريح الكنيف و الطيب سواء. قلت: لا. قال: إن العبد إذا هم بالحسنة خرج نفسه طيب الريح، فقال صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم فإنه قد هم بالحسنة، فإذا فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده و أثبتها له، و إذا هم بالسيئة خرج نفسه منتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين: قف فإنه قد هم بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده و أثبتها عليه.

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (١٦) وَ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩).

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٣:

لا بعد الموت فحسب، بل و منذ كونهم أبرارا، فإن البرّ هو النعيم بذاته، لنفسه و لمجتمعه، مهما كان بروز نعيمه بحقيقته يوم القيامة الكبرى، فلفظ الآية «لَفِي نَعِيمٍ» يوحي ظرفا فعليا مستمرا لنعيمهم، لا «سوف ينعمون» لكي يختص نعيمهم بالمستقبل، فهم نعيم و في نعيم، حاضرا و مستقبلا و غابرا، ما داموا أبرارا.

وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ:

كما «وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» ما داموا فجارا، فهم جحيم: نار شديدة التأجج، يوم الدنيا و يوم الدين، هم وقود نيران الخلافات و العداءات و الويلات يوم الدنيا ـ و على أثره ـ هم وقود الجحيم يوم الدين، يصلون الجحيم بأفكارهم و أعمالهم و ذواتهم، فما الصلي إلا وقودا، و ليس كل أصحاب الجحيم وقودا لها:

«فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى. لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَ تَـوَلَّى» (٩٢: ١٥ ـ ١٧).

فهنا شقي و هنا أشقى، و لا يصلى النار إلا الأشقى، و إن كان يدخلها كلّ من الشقي و الأشقى، فالأشقى صلاء و وقود، و الشقي يحرق به، و قد يجنّبها بعد ما ذاق جزاءه الوفاق.

فالصلي هنا ليس دخولا في النار كما يزعم، و إنما هو إيقاد، كما الاصطلاء هو الاستيقاد: «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» (٢٨: ٢٩).

لذلک لا نری صلي الجحيم ـ حسب القرآن ـ إلّا للأشقين الكذابين[1]، و كما نرى آيات الوقود و الحصب تختص بهم: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُـهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (٣: ١٠).

فرؤوس الكفر و أسس الضلالة كما كانوا ـ هم ـ وقود النار و صليها يوم الدنيا، يعيشون حياتهم التضليل و التدجيل، كذلک هم صلي النار و وقودها يـوم الديـن

---

١. «سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ» (١١١: ٣) «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً» (٤: ٥٦) و الآيـات: ٨٨: ٤ و ٨٤: ١٢ و ٨٧: ٣٢ و ١٧: ١٨ و ٩٢: ١٥ و ٤: ١٠ و ١٤: ٢٩ و ٣٨: ٥٦ و ٥٨: ٨ و ٣٦: ٦٤ و ٥٢: ١٦ و ٦٩: ٣١ و ٧٤: ٢٦ و ٤: ١١٥ و ٤: ٣٠ و ٣٧: ١٦٣ و ٣٨: ٥٩ و ٨٣: ١٦ و ٥٦: ٩٤ و ١٩: ٧٠.

نرى في هذه الآيات كلها كيف يختص الصلي بالمكذبين و الكافرين.

جزاء وفاقا، فهم يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة و من أوزار الذين أضلوهم دون أن ينقص أولئک الأذناب من أوزارهم شيئا.

وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ:

فالوقود لا يغيب عن ذاته، و أصحاب الجحيم الذين يصلونها لا يغيبون عنها ما داموا و دامت، إلا بعد فنائهم بفنائها، كما الوقود يحرق بنفسه و يحرق ما دام موجودا ثم لا حريق و لا محروق.

و كما أنهم لم يكونوا ليغيبوا يوم الدنيا عن وقودهم ـ تصرفاتهم الجهنمية ـ كذلک يوم الدين، فما هم عنها بغائبين.

و هذه الآيات ثنائية التقسيم، تتحدث عن موقف هؤلاء الذين محضوا الإيمان محضا، أو محّضوا الكفر محضا، فإما إلى النعيم و فيه، دون أن يمسهم عذاب، و أما إلى الجحيم و فيها، دون أن تمسهم رحمة، ثم المتوسطون ـ و هم درجات ـ ليسوا في جحيم خالص و لا نعيم خالصة، مهما كانت جحيم الخجلة فنعيم العفو و الرحمة و الشفاعة، أو جحيم النار غير خالدين فيها أو خالدين غير آبدين، ثم إلى نعيم مقيم، فهم بين جحيم و نعيم، ثم إن مرجعهم لإلى النعيم، كما كانوا يوم الدنيا بين برّ و فجور ثم ماتوا مؤمنين و لو شيئا مّا، أو ماتوا فاسقين دون محض الفسق و اللامبالاة.

وَ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الدِّينِ. ثُمَّ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الدِّينِ:

«وَ ما أَدْراکَ»؟ سؤال تهويل و تجهيل و تجليل: أن حقيقة يوم الدين ليس بالأمر الهيّن الذي يدركه الإنسان إلا بوحي السماء.. فإذ أنت دريت ما يوم الدين ما كان يدريک إيّاه وحي الأرض و عقل الأرض و علمها.. إنما وحي السماء ليس إلّا، فالإنسان ـ أيّا كان ـ يجهل يوم الدنيا حقيقتها، فأحرى به أن يجهل يوم الدين[١].

و الدين هو الطاعة و لها يومان، يوم تطبيقها: يوم الدنيا، و يوم بروزها بحقيقتها في جزائها و هو يوم الدين، فيوم الدنيا هو يوم الدين تشريعيا ككل، و تكوينيا بالاختيار، و يوم الدين هو يوم الدين تكوينيا دون اختيار، و إنما جزاء الاختيار وفاقا و عدلا، أو فضلا.

«ثُمَّ ما أَدْراکَ»؟ علّ الدراية الثانية هي عين اليقين و حقه لما تقوم القيامة، كما الأولى هي علم اليقين، و في كلتا المرحلتين ليست الدراية إلا من رب العالمين، لكنما الرسول عرف يوم الدين حق المعرفة و اليقين قبل القيامة: حيث النص: «ثُمَّ ما أَدْراکَ» و لم يقل «ثم ما يدريک» أدراه إياه وحي السماء كأنه رآه و أكثر، و كأن

---

١. التعبير «ما أَدْراکَ» يختلف عن «ما يُدْرِيکَ» إن الأول سؤال عما تحقق، عن سببه، و الثاني عما بالإمكان أن يتحقق، عن سببه و كما يروى عن ابن عباس «كل ما في القرآن من قوله تعالى: ما أدراک، فقد أدراه، و كل ما فيه من قوله عز و جل: ما يدريک، فقد طوي عنه.

القيامة قامت، طالما لم يدر وقتها، فإنما علمها عند اللّه لا يجليها لوقتها إلا هو.

فهكذا سؤال يوقع في الحس عظمة الموقف و أن الأمر أعظم جدا و أهول من أن يحيط به إدراك البشر المحدود، فهو فوق كلّ تصور مألوف و كل واقع معروف.

يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ:

هنا نعرف و ندري شيئا مّا من يوم الدين، و ما يختلف به عن يوم الدنيا أنه: يبطل ملك بني الدنيا إلا من تملكه رضا اللّه فيملكها بإذنه، فيقف موقف الشفاعة بإذن اللّه «من أذن له الرحمان و رضي له قولا».

نحن نملك أسبابا يوم الدنيا بما ملّكنا اللّه إياها، و لكنها تنقطع يوم الدين: «وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ» (٢: ١٦٦).. كما نقوى شيئا ما من القوى يوم الدنيا ابتلاء و تكليفا ثم لا نملك شيئا منها يوم الدين: «وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (٢: ١٦٥).

صحيح إننا ما كنا نملك يوم الدنيا شيئا إلا مجازا و تخويلا من شأن التكليف، و لكننا نفقد المجاز أيضا يوم الدين، و لا يبقى أمر و لا ملك إلا اللّه الواحد القهار: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (٤٠: ١٦) و الملك هذا من الأمر الذي كلّه يومئذ للّه.

إنه العجز الكامل و الشلل الشامل، و انفصال بين النفوس و انشـغال عـنها، ف «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» (٨٠: ٣٧) و لو انشغلت نفس عن نـفسها، و اتجهت إلى غيرها، لم تكن لتفيده و تغنيه، إذ لا تملك هناك شيئا لنفسها فضلا عمن سواها.

و على حدّ تعبير باقر العلوم عليه السّلام إن الأمر يومئذ للّه و الأمر كله للّه، إذا كان يوم القيامة بادت الحكام فلم يبق حاكم إلا اللّه[1].

إن الأمر كله للّه يوم الدين، أمر الملك و الإحياء و الإدانة و العفو و الشفاعة و الحكم و التنفيذ و ما إلى ذلك، و إن كان كذلك يوم الدنيا، إلا أنه حررنا يومها في بعض الأمر، و خيّرنا بين الإيمان و الكفر، و لأنها دار التكليف.

سورة المطففين ـ مكية ـ و آياتها ست و ثلاثون

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٢٧ ح ٢٨ روى عمرو بن شمر عن جابر عنه (ع).

وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)

.. هذه السورة تهدّد المطففين شؤون الناس و حقوقهم، المقتسمين الحقوق بينهم و بين الناس قسمة ضيزى، كأنهم يملكونهم بأنفسهم و أموالهم، يحسبونهم قطب الرحى تدور عليهم و لصالحهم الكائنات كل الكائنات.

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ:

فالويل هو الهلاک و الخسار و البوار و الدمار، لفظة تقال في مواقف التأوه و التقبيح، لفظة الذم و السخط لمن يسبّبون الويلات النفسية و العقائدية و الاقتصادية و العملية.. و هؤلاء الذين يهددهم القرآن بالويل، هم ويل في صفاتهم و أفعالهم و أفكارهم و تصرفاتهم، فذواتهم ويل.. أينما حلت، لأنفسهم و لمجتمعهم.

و الويل من اللّه ليس دعاء و التماسا، فمن هذا الذي يلتمس منه ربنا لتحقيق غير الحاصل؟ اللهم إلا نفسه المقدسة، فهل يا ترى إنه يلتمس من نفسه؟! كلا و إنه خبر لا دعاء، يخبر عن واقعهم أنه ويل ما عاشوا تلكم التخلفات، ويل في الأولى و الآخرة.

و التطفيف ـ رغم ما يقال ـ لا يختص بالمال و لا بالشيء القليل الطفيف، فهل إن

واقعة الطف ـ تلک الحادثة الدامية الكبرى! ـ هل إنها كانت خفيفا طفيفا؟.

كلا: إنه الانتقاص بحق الآخرين و بخسهم في أشيائهم: أنفسهم و نفائسهم «وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (٧: ٨٥).. أشياءهم كل أشيائهم: الأشياء النفسية: العقلية و الإيمانية و العلمية و العرضية و أشباهها، و الأشياء المالية و كل ما يتعلق بالناس أيا كان.

و بعد كل ذلک فالآيات التالية تفسر التطفيف دون حاجة إلى مفسر سوى القرآن: «الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ».

الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ:

فالاكتيال يوحي بالاحتيال في الشراء، ثم «على» هنا بدل «من» توحي إلى الإضرار و البخس و التطفيف في هذا الاكتيال الاحتيال، احتيال في الإضرار، فلم يقل «إذا كالوا من الناس» و هو يعني أخذ الحق وافيا دون نقصان، على أن أخذ الحق في الاشتراء لا يخلف ويلا، اللهم إلا إذا جمع مع بخس الحق في البيع، و ليس هذا تطفيفا في كلتا الحالتين، و إنما في البيع فحسب، و الظاهر هنا أن كلا البيع و الاشتراء تطفيف.

إنهم يستوفون في اكتيالهم بشتى ضروب الاحتيال و الزور و الغرور، كأن لهم سلطانا على البائعين يجعلهم يستوفون كما يهوون فوق حقهم بسلطان الرئاسة و الجاه القبلي، و سلطان حاجة الناس ـ المدقعة لما في أيديهم، و احتكارهم للتجارة لحدّ يضطر الناس إلى تقبل هكذا اكتيال عليهم..

و ليس استيفاؤهم من أموال الناس فحسب، بل و من أرواحهم و مشاعرهم أيضا عن طريق العقائد الباطلة، فهم عند ما يشترون منهم ما عندهم ببخس الثمن و استيفاء المثمن، يشترون كيانهم أيضا و يملكونهم بأموالهم، فهم محتكرو النفوس و النفائس.. يملكون أصواتهم و ذاتياتهم ببخس الثمن كما يملكون أموالهم به.

وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ:

و مرة أخرى يملكونهم عند ما يبيعونهم، فلا يكيلون لهم و لا يزنون، و إنما يكيلونهم و يزنونهم: أنفسهم و أموالهم و كيانهم ككلّ، فيخسرونهم هنا كما أخسروهم هناك، ملكية معقدة مزدوجة، دون أن يبقوا لهم رمقا و لا نفسا و لا نفسا، و هذا أخطر دركات التطفيف، و قد يكون الاشتراء السليم و البيع المخسر داخلا في نطاق الآية و لكنه تطفيف طفيف لا ويل له إلا في هكذا جمع خاسر و قسمة ضيزى، أنه يستوفي حقه مشتريا و لا يوفي حق الآخرين بائعا، و لكنما الويل كل

الويل لمن يخسر في الحالتين، و لذلک نری الإسلام يرفع صوته عاليا معلنا لحرب الويل في وجه البخس الساحق الماحق علی جمهرة المحتكرين المستغلين المسيطرين علی الجماهير الفقيرة المحطمة البائسة، دون أن يخدّرهم و يصبّرهم علی الظلم و الضيم حياتهم.

فهذا سوط الإسلام و صوته يرفعه عاليا علی رؤوس الفرعونية الكافرة و القارونية الجائرة، و البلعمية المائرة، ثالوث منحوس طوال التاريخ: الاستعمار و الاستثمار و الاستحمار، و قد تجتمع في شخص واحد، ثلاثة في واحد، و واحد يحمل ثلاثة، فرعون قارون بلعم، إله واحد في أقانيم ثلاثة!. يستحمر الناس فيخدّرهم و يصبّرهم علی الظلم و الضيم، و يستعمرهم و يستثمرهم، و رمزا إلی حرب شعواء ضد هذا الثالوث يؤمر الحاج أن يرمي الجمرات الثلاث إشارة إلی وجوب ضرب الثالوث ابتداء من الشيطان الأكبر، جمرة العقبة. ثم مردته، و لكيلا يكبروا فيصبحوا كمولاهم.

و القرآن يرفع سوط الويل من هذا الثالوث المنحوس و يحرض الشعوب المحطمة لينهضوا نهضة مدمرة لإيقاف هذه النحسة عند حدها، و ليعيش الناس علی رغد الأمن و العيش، في حياة سليمة مسلمة غير مستسلمة للظلم و الضيم.

فكما الويل للمطفّفين، كذلك هو للمطفّفين الذين يحنون ظهورهم لمن يستحمرهم و يستثمرهم و يستعمرهم و يمتص دماءهم، اللهم إلا الضعفاء الذين لا يعرفون حيلة و لا يهتدون سبيلا، فعلى المؤمنين ذوي الحنكة و القوة الحفاظ عليهم و الدفاع عنهم.

فآية التطفيف لا تختص بالطفيف منه مهما كان مورد نزولها تطفيف الكيل في المبايعات، فقد «نزلت على نبي اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين قدم المدينة و هم يومئذ أسوء الناس كيلا فأحسنوا الكيل»[1] و حذّرهم الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تطفيف الكيل[2] و لكنما الآية تذكر الكيل في الاشتراء كمثال، كما توحي إليه إضافة الوزن في البيع، و دون اختصاص بكيل شيء أو وزنه، و إنما «كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ». كيل المشترين و وزنهم بما يتعلق بهم، كأنما البائعون لهم و

---

١. الدر المنثور ۶: ٣٢۴ عن ابن عباس و رواه علي بن ابراهيم القمي في تفسيره عن أبي الجارود.

٢. الدر المنثور ۶: ٣٢۴ عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه (ص): ما نقض قوم العهد إلا سلط اللّه عليهم عدوهم و لا طفقوا الكيل إلا منعوا النبات و أخذوا بالسنين.

في تفسير الرازي (ج ٣١: ٨٨ ـ ٨٩) «و قيل: كان أهل المدينة تجارا يطفقون و كانت بياعاتهم المنابذة و الملامسة و المخاطرة فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله (ص) فقرأها عليهم و قال: خمس بخمس، قيل: يا رسول الله (ص) ما خمس بخمس؟ قال: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم و ما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر و ما ظهر فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت و لا طفقوا الكمل؟؟؟ إلا منعوا النبات و أخذوا بالسنين و لا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر».

المشترون منهم هم متع لا يملكون لأنفسهم شيئا إلا قدر رحمة المطففين، يعيّشونهم كأرذل العيشة و أنذل من عيشة الحيوان، و لكي يعيشوا مترفين على مساعي هؤلاء المستضعفين المنكوبين المرضوضين، عمال لا يحق لهم الحصول على ما يحصّلون!

[سورة المطففين (۸۳): الآيات ۴ الى ۶]

أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (۴) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (۵) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۶)

.. و الظن هنا مطلق الاعتقاد الراجح، عقليا أو قلبيا، فالمعتقدات العقلية ـ غير المتعاملة مع الواقع العملي ـ هي ظنون قلبية، و إلى درجة الشك و النكران، و المتعاملة منها مع الواقع هي ظنون قلبية إلى الصعود و إلى درجة اليقين القلبي، و الظنون العقلية هي شكوك في القلب، و حق الظن أيا كان أن يردع الإنسان عن التخلف، سواء أ كان ظنا عقليا فشك قلبي، أ يقينا عقليا فظن قلبي، فأي منهما حصل ـ لمن يحترم عقله و يخاف سوء الحساب ـ إنه كاف أن يكفّه عن التطفيف و أكل أموال الناس و إيكالها، و هدر نفوس الناس و إبطالها، و استخدام سلطان الزور بحقهم، فالأعمال ليست إلا صورا واقعية عن نفسيات الإنسان، و على حدّ تعبير

الإمام الصادق عليه السّلام: «القلوب أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء»[١].

و من أعجب العجاب أن يقين الحساب قد يتمثل شكا في الواقع، و على حد تعبير الإمام الرضا عليه السّلام: «ما خلق الله يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت»[٢].

أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ:

فاللامبالاة هذه في تصرفاتهم تشهد كأنهم لا يظنون البعث لأي مرحلة من مراحل الظن، و بعضهم كأنهم يوقنون بعدم البعث! و الخطاب العتاب هذا، تنديد بمن يظن و من لا يظن، فالأولون يحق لهم بحكم ظنهم بالحساب أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا و أن يزنوها قبل أن يوزنوا، فلا يطففوا في معاملاتهم مع الناس في أموالهم و أحوالهم.

و الآخرون كان عليهم أن يعتبروا بالآيات الآفاقية، و يتذكروا بفطرهم و عقولهم أن البعث و الحساب حق لا محيد عنه.

و قد عبر عن يقين العقل هنا بالظن ـ حيث يشمله ـ توهينا لهكذا يقين، كيف لا

---

١. بحار الأنوار، باب العقل و الجهل.

٢. الخصال للصدوق بالإسناد عنه (ع).

يظهر في العمل الخارجي! عكس ما عبّر عن يقينه الصالح بالظن في قوله تعالى: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» (٢: ٤٥) فبما أن الخشوع من حالات القلب، فظن الخاشعين كذلك قلبي و ليس عقليا، هذا الظن الذين يجعلهم خاشعين للّه خاضعين، فليست الصلاة و لا سواها من تكاليف، كبيرة لهم ثقيلة..

فهذا الظن لا يظهر في العقل إلا كدرجة عالية من درجات اليقين، كيف لا و الكثير من المصدقين بعقولهم لا يخشعون و لا يصدقون بأعمالهم.

و قد أوّل الظن هنا و هناك باليقين في المروي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السّلام دون أن يكون تفسيرا لغويا و إنما جري و تطبيق: «الظن ظنان ظن شک و ظن يقين، فما كان من أمر المعاد من الظن فهو ظن يقين، و ما كان من أمر الدنيا فهو على الشک[١] و هو يعتبر الظن في الآيتين ظن اليقين[٢]. مهما كان في آية المطففين شاملا لظن الشک أيضا، فإن الإمام يبيّن هنا المصداق الخفي (ظن اليقين) دون نكران لسائر الظن.

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٢٨ عن الاحتجاج للطبرسي.

٢. المصدر عنه (ع) فيما يكون تأويله على غير تنزيله قوله: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ» أي: يوقنون أنهم مبعوثون، و مثله قوله: «أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» أي: ليس يوقنون.

ألا يظن أولئک الظانون حتى يدفعهم ظنهم إلى العدل في الناس، و لم لا يظن هؤلاء الشاكون في البعث، و دلائل العلم باهرة و شواهده ظاهرة.

ألا يظن أولئک أنهم مبعوثون ليوم عظيم؟! عظيم ما أعظمه مدى الدهر إذ يقوم الناس بأرواحهم و أجسادهم من أجداثهم، يقومون لأعظم عظيم، للّه رب العالمين، لحساب عظيم، يقوم هذا الصغير الصغير لغير النهاية، لهذا العظيم العظيم لغير النهاية، يقومون له ـ لا ـ إليه، فإن رب العالمين لم يكن بعيدا عنهم قبل قيامهم و في دنيا الحياة، مهما كانوا ـ هم ـ عنه بعيدين.

فهم يومئذ يقومون له، بعد ما كانوا قائمين في دنيا الحياة لأنفسهم إلا قليلا، فهؤلاء القلة القائمة للّه طوال الحياة، يقيمهم اللّه له ليريهم أعمالهم بالحسنى، و الكثرة القائمة لأنفسها يقيمهم اللّه ليجازيهم بما عملوا جزاء وفاقا، ف «قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ» يوم الدنيا، و لكي تقوموا له أيضا يوم الدين فيقيمكم في عليين.

يوم يقوم الناس لرب العالمين: ليروا ربوبيته العالمية حقها يوم الجزاء، فإن ربوبيته تعالى يوم الدنيا قائمة على أساس الاختبار و الإختيار و التكليف، ثم هي قائمة يوم الدين على أساس الحساب و الجزاء.

إنه يوم القيامة، لقيام الناس «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ» و قيام الإشهاد «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ»

و قيام الحساب «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ» و قيام عالم جديد بعد خراب العتيق «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ» (۲۶: ۹۰) قيامات و قيامات في قيامة واحدة، ف «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

يوم يقوم الناس ـ متجردين ـ لرب العالمين، ليس لهم يومئذ مولى سواه، و لا رب سواه، فقد ضلت الأرباب، و تقطعت الأسباب، و الأمر يومئذ للّه.

[سورة المطففين (۸۳): الآيات ۷ الى ۱۷]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (۷) وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (۸) كِتابٌ مَرْقُومٌ (۹) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۰) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۱۱)

وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (۱۶)

ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۱۷)

.. كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ:

الفجّار هم الذين يفجرون ستر العبودية و الحياء، المتجاوزون الحدود المقررة لهم، الهاتكون لها، و الفجور يقابل التقوى و هي الحفاظ على شؤون العبودية:

«وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» (۹۱: ۷ ـ ۸).

و الكتاب هنا و في أمثاله هو كتاب الأعمال و مسجلاتها الضوئية، صوتية و صورية، أن تسجّل في نفوس الفجار و في أعضائهم و في الأرض و الفضاء كما تدلنا آيات سجلات الأعمال و الأقوال، فإن الكتاب هو المكتوب أي المثبت، و الأشياء الثابتة عن المكلفين، التي تليق أن تكون حجة لهم أو عليهم يوم الدين، إنها ليست إلا صور الأعمال و أصوات الأقوال، و كما

يروى عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «إن الملک يرفع العمل للعبد يرى أن في يديه منه سرورا حتى ينتهي إلى الميقات الذي وصفه الله له فيضع العمل فيه فيناديه الحبار من فوقه:

إرم بما معک في سجين، و سجين: الأرض السابعة، فيقول الملک ما رفعت إليک إلا حقا فيقول صدقت إرم بما معک في سجين»[1].

و هذه الأعمال الشريرة الفاجرة تجعل من روح الفاجر سجينا كما أنها أيضا

---

۱. الدر المنثور ۶: ۳۲۵، أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: حدثني رسول اللّه (ص)...

سجين، و هي تدخل سجين، و على حد

قول باقر العلوم عليه السّلام: «و أما الكافر فيصعد بعمله و روحه حتى إذا بلغ السماء نادى مناد اهبطوا به إلى سجين..»[1].

و السجين مبالغة في السجن، و كتاب الفجار بأنفسهم و أعمالهم لفي سجين، سجين لا يظهر تماما يوم الدنيا، و هو يبرز تماما يوم الدين.

«كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ»: ليس كما يزعمه المطففون و المجرمون كل المجرمين أنهم متحللون عن أعمالهم و عقباتها، فلا حساب و لا جزاء، و أنهم أحرار يوم الدنيا و أحرار كذلک يوم الدين، لو كان هناک حساب أو لم يكن..

إنهم يزعمونهم أحرارا و ليسوا إلا في سجين، فأرواحهم سجون الفضائل و المعطيات الربانية، تسجنها و تدفنها، و أعمالهم سجون لهم و لمجتمعهم، هؤلاء المطففون و أمثالهم البخلاء الذين يحصرون و يسجنون كل شيء لهم و لشهواتهم، و لا يسمحون لأحد حرية إلا و يحددونها، و لا ثروة إلا و يستغلونها، و لا وجاهة إلا و يستقلونها.. فيحسبون أنفسهم كل شيء، و لا يعتبرون غيرهم إلا خداما لهم و لكي يستعمروهم و يستثمروهم و يستحمروهم..

---

[1]. نور الثقلين ٥: ٥٣٠ نقلا عن مجمع البيان.

فهؤلاء الفجار البخلاء الذين ليس كيانهم في المجتمع إلا أنهم سجون للناس و هم أحرار في استغلالهم، و يحسبونهم أنهم يحسنون صنعا.

هؤلاء هم السجين، أنفسهم، نفوسهم و أعمالهم، إنهم أولا و أخيرا سجّين و في سجّين.

وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ. كِتابٌ مَرْقُومٌ:

هنا تبرق حقيقة ـ كانت خفية ـ هي أن السجين ـ و في القيامة ـ هو كتاب مرقوم، و هو الخط الغليظ، إنه ليس كتابا مخطوطا بالمداد لكي تكون دلالته غير ظاهرة و قابلة للتأويل أو التكذيب، و إنما «كِتابٌ مَرْقُومٌ» مكتوب بخط غليظ، بقلم القدرة و النور، حيث تكتب و تسجل صور الأعمال و أصوات الأقوال في نفوس المجرمين و أعضائهم و سواها.

فلو كان الكتاب السجين مخطوطا بالمداد فما هي الحاجة لتوصيفه بالمرقوم؟

فكل كتاب من شأنه أن يحمل ـ و لا أقل ـ خطوطا!.. ثم كيف يكون كتاب الفجّار في كتاب مرقوم، فهل كتاب في كتاب؟.

فإنما السجين، و هو سجين الجحيم و من أسجن ما فيه من السجون، إنه ليس إلّا نفس النفوس و الأعمال، فإنها الكتاب المرقوم، الظاهر الذي لا يمكن إنكاره.

فكتاب الفجار، و هو الاضبارات و المسجلات لأعمالهم الفاجرة، هذا الكتاب في سجين، في كتاب مرقوم، مما يدل على أن سجين الجحيم ليس إلا أعمالهم، كتاب فجورهم، الذي كان خفيا عنهم يوم الدنيا، ثم يبرز مرقوما ظاهرا يوم الدين: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (٥٠: ٢٢).

هذا و كما يقال أن خلافك هذا لفي سجن، إشارة إلى أن السجن نتيجة الخلاف، كذلك كتاب الفجار، نفوسهم الفاجرة بأعمالهم الشريرة، إنها لفي سجين، لفي جحيم هي حقيقة تلكم الأعمال، يحرق الفاجر بما أو قده، بوقوده الذي هو نفسه و أعماله: «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (٢١: ٩٨).

لذلك نرى بعد آيات عدة يقول: «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ»، أي: لمحرقوا الجحيم، بماذا؟ بكتاب الأعمال، بالأعمال أنفسها، و بالنفس المجرمة الشريرة.

إذا فكتاب الفجّار هذا هو في نفسه الجحيم و هو السجين، و هو الكتاب المرقوم، الواضح الخط، الغليظ المحتوى.

إن كتاب الفجار ـ الخفي يوم الدنيا، غير المرقوم في أبصارهم الكليلة ـ سوف يكون في كتاب مرقوم، سوف يخرج عن الخفاء، فبصرك اليوم حديد، فالكتاب الخفي «كِتابَ الْفُجّارِ» هو في كتاب جليّ في النهاية، كما كان الجلي في الخفي في

البداية، و كلاهما سجين و في سجين، سجين يوم الدنيا و سجين يوم الدين.

أو إنه كتاب مرقوم ليوم الدنيا و الدين، مرقوم لمن رقمه مهما كان خفيا في الأولى عن أبصار الناظرين، و هذا الكتاب المرقوم لفي سجين، في حفاظ اللّه تعالى دون أن يمحى منه شيء إلى أن يشهد يوم الحساب، فمعنى الآية إذا:

إن أعمال الفجار لفي سجين إلهي، محفوظ ثابت، و السجين هو الكتاب المرقوم، ظاهر بذوات الأعمال و الأقوال.

فيا لهذا الكتاب المرقوم من جلاء و ظهور، مرقوم بخطه الذاتي إذ كتب: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٤٥: ٢٩).. يا له «لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً» (١٨: ٤٩).. فهكذا رقم أوّلا.

ثم يتحول رقمه هذا ـ الظاهر ـ إلى رقمه الملكوتي الحقيقي، تحوّل الأعمال إلى نتائجها، جزاء ذاتي بنفس الأعمال، دون أن يكون جزاء قانونيا فقط، إنما جزاء تكويني: أن تتحول الأعمال إلى نتائجها «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى» (٥٣: ٤٢) يجزى الساعي نفس سعيه، الجزاء الأوفى، جزاء وفاقا في السيئات و جزاء كريما في الحسنات.

فالإنسان نفسه كتاب، لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ:

وا حسرتاه في ذلك اليوم العصيب إذ برزت كتب الفجار بأرقامها، للمكذبين يوم الدين، أ فهل يكذبون أيضا بما عملوه يوم الدنيا حيث يظهر مرقوما يوم الدين؟

وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ:

فإنما الاعتداء و الإثم هما القائدان صاحبهما إلى التكذيب بيوم الدين، فالفطرة السليمة لا تكذّب، و العقل لا يكذب، و واقع الحياة لا يكذب، و إنما المعتدي الأثيم يكذب به، و لكيلا يرى أمامه عقبة كئودة، يكذب بالجزاء العدل الوفاق مهما صدّق بالبعث، إلا أنه بعث عبث، أو يصدق بالحساب، لكنه حساب فوضى، و مهما يكن من شيء فالمعتدي الأثيم يركز في جرمه على نكران الجزاء الوفاق، و لكي يصدقه البسطاء المتخلفون، يكذب آيات البعث و الحساب ضمن ما يكذب، راميا لها أنها من أساطير الأولين و خرافاتهم، ليس لها أصل سماوي، أو إذا كان فإنما هو من الديانات السابقة فلا جديد إذا في القرآن يفرض علينا اتباعه:

إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ:

خرافاتهم و أوهامهم المختلقة المسطورة التي تنتقّل للتّفكّه، أو الآيات التي نزلت على أنبياء اللّه من قبل، إذا فلا جديد في القرآن من حقائقه و خرافاته:

«وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (١٦: ٢٤) أنزل في قرآنه ما كان ينزله في كتاباته من قبل: «وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» (٢٥: ٥) «لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (٢٣: ٨٣)[١].

فأين «آياتُنا»؟ و أين «أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ»؟ فآيات اللّه هي بأنفسها تدل على أنها إلهية إذ لا يسطع عليها إلّا اللّه، و الأساطير الخرافية بأنفسها تدل على أنها من غير اللّه، بل و من السفهاء، و من حماقة التعبير أن يقال عن آيات اللّه أنها أساطير الأولين، و ليس هكذا حكم أحمق إلا لأن قلوبهم أصبحت مقلوبة بما كانوايكسبون، فليست هنا أية حجة و دافع لهم في هكذا تعبير إلا رين قلوبهم الناتج عن الاعتداء و الإثم المتواصلين، فبين القلوب و الأعمال تعامل مزدوج يؤثر فساد كل في الآخر، كما يؤثر صلاحه في صلاح الآخر.

إنّ فريتهم هذه على آيات اللّه البينات يدفعها عجزهم عن الإتيان بمثلها، و إن

---

١. أساطير أما جمع الجمع، أي: أسطر و أسطور و أسطار، فهو بمعنى ما سطره و كتبه الأولون، أو جمع أسطور و أسطير و هو أيضا ما يكتب، و لكنما الأسطور هو الحديث الذي لا أصل له، فالأساطير أعم مما سطره الأولون و لا أصل له أو ما له أصل قديم، و على الوجهين فرمي القرآن بأنه أساطير الأولين تجعله لا شيء، إما أنه لا جديد فيه و إن كان صحيحا، أو أنه من خرافات الأولين!.

ادعوا أنهم قادرون عليها «وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (٨: ٣١).

فلو استطاعوا لأتوا بسورة مثله و هم يحتالون كل الحيل أن يعارضوها، و هم بأمس الحاجة لعرقلة دعوة القرآن، و لكنهم لم يفعلوا و لن «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (٢: ٢٣ ـ ٢٤).

لا يقدر على ذلک لا أهل الكتاب من كتابات الوحي، و لا المشركون ـ و أحرى ـ من كتابات الأساطير.

كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ:

إنها ليست آيات اللّه هي الأساطير، و إنما هي شموس الهداية لأولي الأبصار دون عميان القلوب «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (٢٢: ٤٦)

«فإن كثرة الذنوب مفسدة للقلب»[١]

---

١. كما في الدر المنثور ٦: ٣٢٦ عن أبي الخير قال: قال رسول اللّه (ص): أربع خصال تفسد القلب، مجاراة ←

و «هي ترين كما يرين السيف و جلائه»[۱]

و هي تقلب بمواقعة الخطيئة فيصير أسفله أعلاه و أعلاه أسفله كما عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة من آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[۲].

و القلوب هنا و في سواها من آيات هي قلوب الأرواح، التي هي بيضاء بما فطرها اللّه تعالى، و هي تشتد بياضا بمواصلة الطاعات، و تسودّ بمتابعة السيئات إلى أن تصل إلى مرحلة الختم فلا ترى أبصارها نورا و إنما تعمى عن مشاهدة الحقائق «كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ» (۳۵: ۴۰).

أجل ـ إن مكاسب السوء تعمي القلوب و تجعلها مقلوبة ترى كلّ شيء عكس

← الأحمق، فإن جاريته كنت مثله و إن سكت عنه سلمت عنه، و كثرة الذنوب مفسدة للقلب، و قد قال: بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، و الخلوة بالنساء و الاستمتاع منهن و العمل برأيهن و مجالسة الموتى، قيل: و ما الموتى، قال: كل غني قد أبطره غناه.

۱. نور الثقلين ۵: ۵۳۱ عن الكافي بإسناده عن النبي (ص) قوله: تذاكروا و تلاقوا و تحدثوا فإن الحديث جلاء للقلوب، إن القلوب ترين كما يرين السيف و جلائه.

۲. و في الدر المنثور ۳۲۶ عن عبد اللّه بن عمر عن النبي (ص) في حديث: و لن يعذب اللّه أمة حتى تعذر، قالوا: و ما عذرها؟ قال: يعترفون بالذنوب و لا يتوبون و لتطمئن القلوب بما فيها من برها و فجورها كما تطمئن الشجرة بما فيها حتى لا يستطيع محسن يزداد إحسانا و لا يستطيع مسيء استعتابا، قال اللّه: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

فيه ۶: ۳۲۵ عن النبي (ص) إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه و إن عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلک الرين الذي ذكر اللّه في القرآن «كَلّٰا بَلْ رٰانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ».

الواقع، فإنها تحجبها عن النور و تحجب النور عنها و تفقدها الحساسية شيئا فشيئا حتى تتلبد و تموت.

فمن غفل عن ذكر اللّه و اتبع هواه أغفل اللّه قلبه: «وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (١٨: ٢٨) و إثم الجوارح ينحدر إلى القلوب فتصبح آثمة كما هي «وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ» (٢: ٢٨٣) و ذكرى آيات اللّه البينات ليست إلا لمن كان له قلب واع «إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ» (٥٠: ٣٧) و من ختم على قلبه بمكاسبه السوء ليس له قلب فلا يتذكر بآيات اللّه، دون المؤمن البصير «وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (٦٤: ١١).

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ:

ليس كما يزعمه المجرمون أن لهم الحسنى في الآخرة أيضا كما لهم في الدنيا على حد قولهم: «وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ» (٤١: ٥٠).

«كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ».. كما حجبوا أنفسهم يوم الدنيا عن البينات فختم اللّه على قلوبهم، كذلك يحجبهم عن ربوبيته المتمثلة في رحماته يوم

الدين، و من أعظمها جنة المعرفة و الرضوان، محجوبون عن ربهم لا عن اللّه، فإن الذات الإلهية محجوبة في الدارين و عن العارفين باللّه أيضا فضلا عن سواهم، و إنما يحجبون عن ربهم كما كانوا محجوبين عنه يوم الدنيا، رغم أنهم لا تظهر لهم الحقائق يوم الدين حقها فلا يبقى حجاب «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» (٢٢: ٢٥)، و لكنهم بعيدون عن جناب الربوبية حجاب المعرفة و الواقع.

هؤلاء هم الفجار، و أما المؤمنون فغير محجوبين عن ربهم، ف «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ» (٧٥: ٢٢ ـ ٢٣) وجوه الأبصار إلى ربوبيته، الظاهرة في نعمه، و وجوه البصائر إلى ربوبيته الباطنة في معرفته و قربه و رضاه، رغم الفجار، ف «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» (٧٥: ٢٤ ـ ٢٥) باسرة في الوجهين، كليلة في الحالتين: «وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ... وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (٣: ٧٧).

إن هناك حجبا عن ذات اللّه و ليست للّه، فالخلق كلهم محجوبون عن ذات اللّه حجاب البصر و البصيرة، سواء المؤمن و الكافر، و ليس اللّه محجوبا عن ذوات المخلوقين، فهو أقرب إليهم منهم إلى أنفسهم «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١٠: ١٦).

و إن هناک حجبا عن الرب، عن ربوبيته و معرفته، و ليست إلا من الخلق لا من الرب، سواء حجب الظلمة و حجب النور، و قد تخرق هذه الحـجب بـما يسـعى السالک في سبيل المعرفة حسب الشرع، و ما يؤيده اللّه تعالى و يجذبه إليه و على حدّ تعبير

الأمير عليه الصلاة و السلام: «و أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليک حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة»

و قد خرقت هذه الحجب كلها لمعراج الرسول الأقدس في مقام «أَوْ أَدْنى»! و الطرق إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق.

فما بقي في قلب الإنسان نور، فبقدر هذا النور ينظر إلى معدن العظمة يوم الدنيا و بالأحرى يوم الدين.

فليس حجاب الفجار هو عن الرؤية لكي يعني أن المؤمنين سوف يرون اللّه، ف «إن الله تعالى لا يوصف بمكان يحل فيه فيحجب عنه فيه عباده، و لكنه يعني أنهم عن ثواب ربهم محجوبون»[١]

ثواب الزلفي و المعرفة و الرحمة، كلّ حسب سعيه.

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٣٢ عيون الأخبار عن الامام الرضا (ع) و في التوحيد روى عن علي عليه السّلام مثله.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ. ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ:

هؤلاء المجرمون سوف يصلون الجحيم: يوقدونها بأعمالهم المرقومة، فلقد كان كتابهم سجينا و في سجين، و هذا هو وقود الجحيم، هم بأنفسهم المجرمة و أفكارهم و أعمالهم، أولئک هم وقود النار، و كما كانوا يوم الدنيا وقود النار.

فهذا جحيمهم الناتج عن أفكارهم و أعمالهم، يحرقون به، ثم مع الجحيم التأنيب مع ما شاهدوا من سوء أعمالهم و عله أمرّ من الجحيم و أدهى، يؤنبون بأمور عدة، منها «.. هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ».. كنتم تكذبون بيوم القيامة، قيامة الأموات و قيام الحساب و الجزاء الوفاق، و إن النار تصلى بالأعمال و الأفكار النارية فهي وقودها، ف «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

[سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱۸ الى ۲۴]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (۱۸) وَ ما أَدْراکَ ما عِلِّيُّونَ (۱۹) كِتابٌ مَرْقُومٌ (۲۰) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (۲۱) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (۲۲)

عَلَى الْأَرائِکِ يَنْظُرُونَ (۲۳) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (۲۴)

كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ:

كلا! ليس كما يزعمه الأشرار أن لهم عقبى الدار إن كانت لها عقبى، كما لهم دنيا الدار، فإن كتابهم لفي سجين طوال الحياتين على عكس كتاب الأبرار.

و أما عليّون فقد قيل إنه اسم أشرف الجنان كما أن سجينا اسم لأشر النيران، و قيل: إن مفرده «علي» كثير العلو، و عليون هم الأعلون المقربون.

هذا، و لكنما القرآن نفسه يفسر «عليين» ب «كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» ف «عليون» على أية حال يوحي بالعلو العال، كما سجين يوحي بالسفال، فكتاب الأبرار إذا هو عليون و في عليين، و كما أن الأبرار هم عليون، علو الذات المنحدر إلى علو الأعمال و الصفات، المسجلة في مختلف السجلات عالية رفيعة، ثم ظاهرة يوم القيامة في جنات عاليات و نعم خالدات، عكس ما كان كتاب الفجار.

فالأبرار هم عليون يدخلون بعليين الأفكار و الأعمال في عليين الجنات، فمن هم الأبرار و من هم المقرّبون الذين يشهدون كتابهم المرقوم؟

الأبرار جمع البرّ مقابل البحر، استعير منه التوسع في الخير، فالأخيار كلهم هم الأبرار، من خالق البر و الأبرار، ف «إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ» (٥٢: ٢٨) و من سفرته «كِرامٍ بَرَرَةٍ» (٨٠: ١٦) ثم سائر المتقين المقربين و من دونهم.

و آية الأبرار هنا إنما تعني المتقين غير المقربين من الخلق أجمعين، فإن

المقربين هم يشهدون كتابهم المرقوم، ثم اللّه ليس له كتاب مرقوم له أو عليه.

فالمقربون هم المصطفون من الأبرار الذين قربهم اللّه تعالى إليه زلفى:

«السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولئِکَ الْمُقَرَّبُونَ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ» (۵۶: ۱۰ ـ ۱۳) و لو كانوا هم كلّ المتقين لما كانوا قلة من الآخرين، و ثلّة من الأولين، لأن شريعة الآخرين هي الخالدة إلى يوم الدين، فليكونوا هم الثلّة و الأولون القلة، كلا ـ و إنما أصحاب اليمين من الآخرين هم الثلة، و المقربون و هم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عترته المعصومون هم القلة عددا وجاه النبيين و الوصيين السابقين «وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَکَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ» (۵۶: ۸۵ ـ ۸۸)..

فالأنبياء من المقربين و كما المسيح عليه السّلام «وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» (۳: ۴۵) و من الملائكة أيضا مقربونَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» (۴: ۱۷۲).

و من الشواهد على أن المقربين أعلى منزلة من الأبرار، أنهم: يسقون «عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ».

ثم كتاب الأبرار، المرقوم، يشهده المقربون، فإنهم شهداء الأعمال، ف «عليون

الأبرار» هو كتاب مرقوم يشهده المقربون، شهودا يوم الدنيا و شهود، يـوم الديـن، فشهادتهم في الأولى شهادة تلقّ، و في الآخرة شهادة إلقاء يوم يـقوم الأشـهاد، و الكتاب المرقوم هنا ـ كما في كتاب الأشرار ـ هو الأعمال التي ترقم بـصورها و أضوائها و على حدّ

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: صلاة على أثر صلاة لا لغو بـينهما كتاب مرقوم في عليين»[١].

الطينة العليينية و السجينية:

قد يشمل عليّون الأبرار طيناتهم كما السجين طينات الأشرار، كما في أحـاديث عدّة، و لكن هل يا ترى أن اللّه يخلق الأبرار ـ حين يـخلق ـ أبـرارا، و الأشـرار أشرارا؟ فما هذا إلا تسييرا في البر و الشر ينافي التخيير، اللهم إلا أن يعنى من الطينة الروحانية منها، الحاصلة من الأعمال الصالحة للأبرار، و الطالحة للأشـرار، عـلى توفيق من اللّه للأبرار نتيجة برهم، و ختم على قلوب الأشـرار نـتيجة شـرهم، و لذلك نرى

باقر العلوم عليه السّلام يقول: «إن الله خلقنا من أعلى عليين و خـلق قـلوب

---

١. الدر المنثور ٦: ٣٢٧ أخرج ابن مردويه عن أبي إمامة قال: قال رسول اللّه (ص):

شيعتنا مما خلقنا و خلق أبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوي إلينا لأنها خلقت مما خلقنا» ثم يقرأ الآية «كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ..»[١]، و عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «إن الله تبارك و تعالى خلقنا من نور مبتدع من نور سنخ ذلك النور في طينة من أعلى عليين» اه[٢].

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ:

و هو عليّون الجنة بعليين الأعمال، و تنكير «نعيم» هنا يوحي إلى تفخيمه، فكما هم كانوا أبرارا: متوسعين في الخير، فليكن نعيمهم واسعا، ثم و أوسع مما عملوا بفضل اللّه، جزاء فضلا فوق الوفاق، طالما كان جزاء المجرمين الجزاء الوفاق.

و كما الجحيم هي نار شديدة التأجج للفجار، فليكن النعيم رحمة كثيرة التبهج للأبرار.

عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ:

و الأرائک جمع أريكة، و هي سرير السلطان، فارسية قديمة و كما في «أوستا زرادشت» نرى «أرائک» بمعنى سرر السلاطين.

فالأبرار الذين كانوا ـ على الأكثر ـ فقراء منكوبين محجورين مهجورين يوم

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٣٣ ح ٣١ الكافي بالإسناد إلى أبي حمزة الثمالي عنه (ع).

٢. المصدر ح ٣٢ علل الشرائع بإسناده عن زيد الشحام عنه (ع).

الدنيا، لم تكن أصحاب الأرائک تعتني بشؤونهم و لا تعتبر لهم وجودا، هؤلاء سوف يجلسون في الجنة على الأرائک ينظرون: ينظرون إلى رحمات اللّه و ما وعدهم ربهم، و ينظرون إلى خدامهم و الحواجب فيها، و ينظرون كذلک إلى أصحاب النار محتقرين إياهم.

إنهم ينظرون حيث يشاءون دون غضّ و لا غضاضة من مهانة أو مشقة، و ظاهرهم يوحي عن باطنهم.

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ:

الظاهر هو عنوان الباطن، فكل نظرة إليهم تكشف عن نضرة النعيم دون أن يظهر منهم شيء بلفظة قول أو إشارة، فهم نعيم بكيانهم ككل، لا بؤس فيهم و لا عبس.

[سورة المطففين (۸۳): الآيات ۲۵ الى ۲۸]

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (۲۵) خِتامُهُ مِسْکٌ وَ فِي ذلِکَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (۲۶) وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (۲۷) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (۲۸)

خمر الدنيا و الآخرة:

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ:

يسقون من رحيق، و ما أدراک ما الرحيق، إنه الخمرة الصاخبة الخالصة من كل غش، و ليست كخمر الدنيا التي هي غش للعقل و غش للجسم، غش للفرد و غش للمجتمع، و كلها غش، و إن كان فيها نفع فإثمها أكبر من نفعها بكثير.

لنأخذ مثالا على الخمرين، إنسانين، أحدهما أبو لهب عم النبي، و ثانيهما هو النبي الأقدس، فهل يا ترى أن اشتراكهما في الاسم و في الهيكل الإنساني يجعلهما في مستوى واحد؟

كذلک البون بين خمر الدنيا التي يستر و يخمر عقل الإنسان و إنسانيته، و يستر عليه صحته، و خمر الآخرة التي تستره عما سوى اللّه و ترفعه إلى درجات من معرفة اللّه ما كان ينالها لولاها، و تصلح و تصحح جسمه، و القرآن يصف خمر الجنة بما يخرجها عن كل غول و تأثيم «وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ (٤٧: ١٥) لذة في العقل و الروح، و لذة في الجسم، و لذة في المنظر، و لذة في الطعم، و خمرة الدنيا مرة في طعمها، مرة إذ تنقص العقل و تنقضه، و مرة إذ تضر بصحته، و إن كان الجاهلون يحسبونها لذة، فلأنهم يتحللون بسكرها عن أحكام عقولهم و عما يقيّدهم في الحياة، لذة حيوانية عابرة تخلّف ذلة كيانية لهم.

«يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» (۵۲: ۲۳) و خمر الدنيا فيها كل لغو و كل تأثيم «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ» (۲: ۲۱۹) و الإثم ما يبطئ عن الخيرات، فخمر الدنيا تبطئ عن الخيرات، و خمر الآخرة تعجل له الخيرات و تفتح له أبوابها.

و لقد وصفت الرحيق بصفات عدة تميّزها عن خمر الدنيا و لحدّ عبّر عنها بالرحيق كما في سواها من آياتها الواصفة لها في الجنة، اللهم إلا واحدة تقرنها بما يخرجها عن شرها «وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» (۴۷: ۱۵).

«يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» (۳۷: ۴۵ ـ ۴۷) «بيضاء» و ليست خمر الدنيا بيضاء، «لذة» و ليست هي لذة و إنما مرة تعقّب لذة خيالية نتيجة التحلّل عن العقل «لا فِيها غَوْلٌ» و هو إهلاك الشيء من حيث لا يحسّ، و خمر الدنيا تهلك العقل و الجسم من حيث لا يحس، «وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» لا ينزعون عن عقولهم و لا يفرغون «وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ» (۵۶: ۱۸ ـ ۱۹) لا فيها صداع الرأس و لا فراغ العقل و نزفه.

فأين الخمر التي هي بيضاء لذة للشاربين لا غول فيها و لا لغو و لا تأثيم و لا

صداع و لا نزف و هي صاخبة خالصة من كل غش، أين هي من خمر الدنيا:

حمراء نقمة للشاربين، فيها كل غول و كل لغو و تأثيم، و كلها صداع و نزف و هي شائبة مغشوشة؟

نجد بينهما بونا شاسعا لحد يحق تفريقهما في الاسم أيضا، و لذلک لا تسمى خمرا إلا في آية واحدة و لتوحي أن في خمر الآخرة ما في خمر الدنيا من لذتها ـ إن كانت لها لذة ـ و زيادة فوق الوصف، دون أن تحمل إثمها و غولها و نزفها و شرها و ضرها! و هذه الخمرة الطيبة إنما يشربها من ترک خمرة الدنيا الخبيثة و كما في وصية الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلي عليه السّلام: يا علي! من ترک الخمر لغير اللّه سقاه اللّه من الرحيق المختوم، فقال علي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لغير اللّه؟ قال: نعم و اللّه صيانة لنفسه فيشكره اللّه تعالى على ذلک[1].

فالرحيق (خمر الجنة) كما أزيل عنها اسم الخمر، كذلک أوصافها بما وصفت بصفات طيبة هي «مختوم ختامه مسک و مزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون».

---

١. نور الثقلين ۵: ۵۳۴ من لا يحضره الفقيه عنه (ص) و القمي عن الصادق (ع) مثله.

«رَحِيقٍ مَخْتُومٍ»: فالرحيق المختوم، و كل طعام و شراب مختوم، إنه أصلح للشرب و التناول لسلامته عن تصرف الهواء و تدخل الجراثيم، فإنه مختوم عن التفاعلات الخارجية و تأثيراتها.

ثم هي مختومة في الخيرات كما هي مختومة عن الشرور، لا خير إلا و قد جعله اللّه فيها، و لا شر إلّا أنها مختومة عنها، رحيق مختوم عما يرهق من أضرار و مختوم فيما يرغب فيه الأبرار.

هذه الخمرة هي أشرف أصناف الخمر في الجنة، و لأنها مختومة بالمعنيين و ليست كذلک خمر النهر «وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» و أن لها مزاجا من عين المقرّبين من تسنيم.

فهذه معدّة في أوانيها مقفلة مختومة تفضّ عند الشراب، فما هو ختامها؟

خِتامُهُ مِسْکٌ:

ختم بالمسک، دون الوحل المختوم به خمر الدنيا، و ختامه: عاقبته، مسک عطر في الروح و عطر في العقل و عطر في الجسم، كما أن بدايته مسک، خلاف خمر الدنيا إذ هي عفنة بدايتها، و شريرة نتن ختامها، لا تأتي إلا بكل شرّ و رذيلة.

ففي مسک الخمرة و ختمها بالمسک، فيه إناقة و رفاهية، صورة لا يدركها البشر

إلا في حدود المعهود من الدنيا.

وَ فِي ذٰلِکَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ:

من المفروض أن يتنافس العقلاء في الختام المسک عـاجلا و آجـلا، لا فـي الشهوات العاجلة الفانية النتنة، فليتنافسوا في عليين و في النعيم المقيم، و في نضرة النعيم، و في رحيق مختوم بالمسک، و کلّ نعيم الجنة مسک.

فالتنافس هو تمنّي کل نفس مثل النفيس الذي يکون لغيره، و لا نفيس في الدنيا إلا ما يقدّم للأخرى، فإنما الأولى بئيسة تعيسة إلّا ما حوّل منها إلى مزرعة الآخرة، و في ذلک فليتنافس المتنافسون.

إن التنافس في نعيم الآخرة يرتفع بأرواح متنافسيها جميعا، بينما التنافس فـي أمر الدنيا ينحط بها جميعا، إلا أن يکون لدنيا الآخرة، فدنيا المتقين آخرة، و لأنها مزرعة الآخرة، لا يبصرون إليها فتعميهم، و إنما يبصرون بها فتبصّرهم و تقربهم إلى اللّه زلفى.

فعلى المؤمن التنافس في ذلک، تارکا تنافسات الهوى و الردى، و إنه توجيه يمد بأبصار أهل الأرض و قلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة، بينما هم يعمّرونها و يقومون بالخلافة فيها، عمران المدرسة للدراسة، لا المستنقع الآسـن و الطـويلة

العالفة لحيونة الحياة و الإخلاد إلى أرضها و سجينها.

وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ. عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ:

إن لهذا الرحيق مزاج من تسنيم: عين المقربين، و لأنه يقرب شاربيه إلى اللّه، فإنه خمرة تخمر عن العقول ظلمها، و تزيد الإنسان معرفة و سكرة باللّه.

و التسنيم ضد التسطيح، ماء بالجنة يجري فوق الغرف يتسنم عليهم من الأعالي إلى الأسافل، عين فوقانية المصدر و النبع، تنحدر مسنّمة العليين، و إنما يشرب بها المقربون، و للأبرار مزاج منها للرحيق المختوم، و إن للمتقين عيونا دون التسنيم: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ. فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ» (٥١: ١٥) «عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً» (٧۶: ۶).

و الكوثر ـ علّه ـ العين أو النهر أو الحوض الخاص بأقرب المقربين، محمد و آله الأنجبين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، عيون ثلاث لكل أهل خاص، و إن كان الكل له نصيب من العين الأعلى مزاجا في شرابه كما في رحيق الأبرار.

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ٢٩ الى ٣۶]

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ

(۳۰) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (۳۱) وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (۳۲) وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (۳۳)

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

أصل الجرم هو قطع الثمرة سواء عن نفسه أم عمن سواه أيضا، فالمجرمون هم الذين قطعوا عن فطرهم متطلباتها، و عن عقولهم حاجياتها، و عن حياتهم أهدافها اللائقة بها، ثم هم يعيشون حياة الإجرام لمجتمعهم، فهم رؤوس الضلالة طوال التاريخ: «وَ ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ» (٢٦: ٩٩) و هم أعداء النبيين:

«وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» (٢٥: ٣١) و هم قطّاع سبل الخير في البلاد: «وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» (٦: ١٢٣).

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا:

قطعوا ثمرة الهدى عن شجرة الإنسانية، و انقطعوا عن اللّه إلى سواه، هؤلاء المنقطعون عن ثمار الحياة:

كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ:

يضحكون منهم ساخرين ناقمين أن آمنوا بربهم و انقطعوا إليه «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ» (٥: ٥٩) و غريب في نوعه كيف يضحک المنقطع عن كل خير من المتصل الواصل إلى كل خير؟ هل لفقرهم؟ و ليسوا كلهم فقراء، و ليس الفقر دافعا عقليا إلى الضحک، أم لضعفهم عن رد الأذى، و ليسوا دوما و لا كلهم ضعفاء، و ليس الضعف مادة للسخرية، أم لإيمانهم؟ إذ زعموا الإيمان رجعية و انعزالية عن الحياة، و هو الحياة كلها! و إذا كان الإيمان رجعية سوداء و الإجرام تقدمية بيضاء فليحاول هؤلاء القدامى في إقناع المرتجعين دون أن يضحكوا عليهم، فما الضحک و الهزء إلا عجزا عن العلاج، و جهلا و سوء أدب، ثم «ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ» إلا رسالة شيطانية مجرمة!.

تقول الروايات «إن أكابر المشركين كأبي جهل و الوليد بن المغيرة و العاصي ابن وائل السهمي كانوا يضحكون من عمار و صهيب و بلال و غيرهم من فقراء المسلمين و يستهزئون بهم، و أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم جاء في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون و ضحكوا و تغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع فضحكنا منه، فنزلت الآية قبل أن يصل علي و أصحابه

إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم»[١].

و هكذا يكون دور الإجرام طوال التاريخ ألا يكتفي المجرمون بعملياتهم الإجرامية، بل و يحاولون بشتى الأساليب أن يجتثوا جذور الإيمان، و من أخريات الوسائل و أشنعها عادة الاستهزاء علّ المؤمنين ينضموا إلى صفوفهم و كلا، إذا كانوا مؤمنين حقّا.

وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ

مرور التنابز و التغامز، هؤلاء المجرمون الأوغاد يواصلون دورهم الإجرامي إذ يمرون على المؤمنين الأوتاد، مرورا ساخرا مائرا علّهم يرتبكون و ينكسرون، تغامزا بالعيون و الأيدي، و تنابزا بالألقاب الساخرة المرذولة قائلين: انظروا إلى هؤلاء الرجعيين كيف يتعبون أنفسهم و يحرمونها لذاتها الحاضرة لوعود كاذبة و أوهام لا أصل لها، و يخاطرون بأنفسهم طلب الثواب! وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ:

مرحين بطرين مما فعلوا بالمؤمنين، آخذين ذلك فكاهة لأهلهم لعلهم يفرحون و يمرحون، كأنهم انقلبوا عن أفلام ممرحة و مسرحيات مفرحة، راضين عن أنفسهم

---

١. التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ج ٣١ ص ١٠١ و نور الثقلين ٥: ٥٣٥ عن علي ابن ابراهيم قال: نزلت في علي بن أبي طالب (ع).

الحقيرة الرديئة، مبتهجين بما فعلوا دون أن يتلوموا أو يندموا و يشعروا بحقارة ما صنعوا، فويل لهم مما كسبت أيديهم، و ويل لهم مما يصنعون.

وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ:

هنا يوحّد المجرمون ثالوثهم بحق المؤمنين: «إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ» ضلّوا سبيل الحياة و متطلباتها فعاشوا كأنهم أموات، تركوا لذة الحياة و نضارة الحياة و حبسوا أنفسهم عن الشهوات، إن هذا إلا ضلال مبين! و لا أعجب من هذا الحمق العميق أن تحسب الهدى ضلالا و الضلال هدى، فالفجور لا يقف لحدّ، و كلمتهم هذه من أفجر ما يتصور، و لذلک لا تستحق الجواب إلّا كسخرية نزيهة عالية من هؤلاء الأغبياء الذين يتدخلون فيما ليس لهم:

وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ:

فمن هذا الذي و كّلهم للحفاظ على المؤمنين؟ فهذا فضول على فضول:

أن تسمّى الهدى ضلالا، و أن يتدخل في شؤون المؤمنين بلا رسالة ممن له أمرهم، اللهم إلا رسالة الشيطان! ثم و في الآخرة، إذا المؤمنون في الجنة و المجرمون في النار نرى معاكسة بين الفريقين:

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الْأَرائِکِ يَنْظُرُونَ:

المؤمنون يضحكون عليهم جزاء وفاقا بما كانوا هم عليهم يضحكون، كما و يضحك عليهم ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب و تضحك عليهم الجنة و النار بما كانوا يصنعون، «عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ» إلى مقاماتهم العليا و نعيمهم المقيم، تعرف في وجوههم نضرة النعيم، و ينظرون إلى دركات المجرمين، إلى وجوههم الباسرة التي رهقها قترة و ذلة.

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ:

فقد كانوا يزعمونهم حافظين على المؤمنين موكّلين، يحاولون إخراجهم من الإيمان إلى الكفر، من الرجعية السوداء إلى التقدمية البيضاء! فهل ثوّبوا؟

و من ذا الذي يثيبهم إلا الذي عاشوا عمالته: الشيطان الرجيم، فهل بإمكان الشيطان أن يثيب حزبه كما وعدهم؟: «وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (١٤: ٢٢).

فطالما المجرمون يوجعون قلوب المؤمنين المضطهدين لأنهم مؤمنون، فهم إذا بحاجة إلى بلاسم لقلوبهم المجروحة يوم الدنيا و لكي يواصلوا نضالهم، فاللّه هو

الذي يراهم كيف يتفكه بآلامهم المتفكهون، إذن فهو الذي يبلسم قلوبهم إذ يفنّد آراء المجرمين، و إذ يسخر منهم سخرية رفيعة فيها تلميح موجع، طالما لا تحسّه قلوب المجرمين المقلوبة، و لكن قلوب المؤمنين تستنيمها و تستريح إليها.

ثم هو الذي يذكرهم مشاهدهم معهم يوم القيامة، و لكي يعدّوا لها عدتهم، و لا يفشلوا فيما هم فيه من حياة إيمانية طيبة، رغم آلامها الجسدانية، فهم ليسوا ممن يعيش حياة الجسد، إلا كمزرعة و وسيلة للحياة الروحانية.

سورة الإنشقاق ـ و آياتها خمس و عشرون

[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١ الى ٢٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (١) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (٢) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ (٤)

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (٥) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (٨) وَ يَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (٩)

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (١١) وَ يَصْلى سَعِيراً (١٢) إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤)

بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (١٥) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ (١٧) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (١٩)

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّـذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٢٤) وَ

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

سورة تحمل عرضا عن البعض من مشاهد الانقلاب الكوني عند الساعة و كما سبقت بصور أخرى في سور: «النبأ ـ الانفطار ـ التكوير..»

و لكنما طابع الانقلاب هنا يظهر في مطلع الاستسلام و الذلّ لإرادة الرب، طالما كان فيما قبلها في جوّ عاصف قاصف، و لكي يتنبّه الإنسان النسيان عن غفوته و بطشه.

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ:

بما أن الشقّ هو الخرم الواقع في الشيء، فانشقاق السماء هو اخترامها و افتراقها

عن التئامها، و انشقاق السماء ـ و ليست كواكبها ـ يدلنا على أنها جرم متراكـم و ليست جوا خاليا فيها كواكبها، إنها جرم و إن كانت تختلف خفة و ثقلا، و من أثقل أثقالها كواكبها التي خلقت من تجمّع أجزائها و أجرامها، و المملكة السماوية دوما في التوسع: «وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» (٥١: ٤٧).

فانقلاب السماء يومه هو انشقاقها، كما انقلاب نجومها و كواكبها هو انطماسها و انكدارها و انتثارها دون انشقاقها، حيث القـرآن يـختص السـماء بـالانكشاط و الإنشقاق، و يختص كواكبها بالانطماس و الانكدار و الانتثار.

و على أية حال فلا مجال للانشقاق إلا في جرم مـتصل مـلتئم، و عـلى أثـر انشقاقها تنقلب عن صلابتها و توهى: «وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِـيَةٌ» (٦٩: ١٦) و هيا لحدّ الدّهان: «فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ» (٥٥: ٣٧) و كلّ شيء استرخى رباطه فقد و هي، و من رباط السماء الجاذبية العامة، فالسماء مرفوعة يوم الدنيا «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» فـإذا انـفلت ربـاط العـمد غـير المـرئي و استرخى، فهي إذا تنشق، كما الكواكب تنطمس و تنكدر.

و على أثر انشقاقها تكشط: انـخلاعا عـن جـلدها و جـلدها: «وَ إِذَا السَّـماءُ كُشِطَتْ» (٨٤: ١١) و تفرج: «وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ» (٧٧: ٨) و تفتح:

«وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» (٧٨: ٢٠) و تطوى: «يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ» (٢١: ١٠٤) يطوى طومارها، فهي يومئذ واهية تمور مورا، و وردة كالدهان، و أخيرا تنقلب إلى ما كانت: دخانا: غازا متسانخ الأجزاء: «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ» (٨٦: ٩) «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ» (٤٤: ١١).

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ:

سمعت لربها في انشقاقها لحد شكت من وقعة سماعها، سماعا تكوينيا إذ أجابت ربها في انشقاقها، كما أجابته مع زميلتها (الأرض) عند تكوينها:

«فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ..» كناية عن نهاية طوعها لربها و عدم تمنّعها عن إرادته تعالى.

«و حقت» : جعل حق الطاعة و السماع في ذاتها، المفتقرة جوهريا إلى ربـها، الذي: «بيده ناصة كل شيء» و «مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ».

أجل إنها «حقت» لا أنها «حق لها» فحقّ الطاعة ليس لها منفصلا عن كيانها، و إنما في جوهر ذاتها، فلتأذن لربها و تشكو من وقع أذنها، إذ لا تملك لنفسها إلا أن تأذن، كما الكائنات كلها «أذن» لربها، في تعميرها و تدميرها.

وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ:

مدّ التدمير في النهاية، كما مدّت مد التعمير في البداية، و بمدّها ألقيت فيها و عمّرت رواسيها و جرت أنهارها: «وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً» (١٥: ١٩) ثم بمد التدمير تلقي ما فيها و تتخلى:

وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ:

«وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها»: انقلبت ظهر بطن على أثر زلزالها و مدها العنيف و رجفتها الأولى المدمّرة.

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ:

كزميلتها السماء على سواء في الأولى و الآخرة، فكما البداية لم تكن صدفة و فوضى، أو تدخلا من غير اللّه أيا كان، كذلك النهاية ليست إلا بإرادته تعالى «فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى» (٥٣: ٢٥).

«إِذَا السَّماءُ.. يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ».. و هنا نسأل: أين جواب «إذا» ؟

هل إنه محذوف ليذهب ذهن السامع إلى أيّ مذهب ممكن فيكون أدخل في التهويل؟ أو أن آية الكدح جملة معترضة لتزوّد الإنسان بذكرى ما تتطلبه حياة الحساب، ثم بعدها آية الجواب: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ..»؟ أو إن «إذا» ظرف لدور الكدح إلى الرب و لقائه، كدحا يختص بأهوال القيامة و أحوالها، قيامة الإماتة و الإحياء؟

كلّ محتمل، و خيرها أوسطها، إذ لا يحصر كدح الإنسان بأهوال القيامة رغم الأخير، و لا يهمل «إذا» بلا جواب، رغم الأول، فالقرآن جواب عن غير سؤال، فكيف لا يجيب عما يطرحه من سؤال! يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ:

و كما الكائنات كلها من أرضها و سماواتها كادحة إلى ربها فتلاقيه.

«يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ»: الإنسان، لا الناس و لا الأناسي، خطاب شخصي مع كل إنسان إنسان، و ليدل أن الكدح للجميع لا المجموع، فكلّ كادح، و على كلّ أن يكون كادحا.

فما هو الكدح في ذاته؟ و ما هو هو إلى ربه؟ و ما هو الم؟؟؟ وقى بعد الكدح؟ هل هو الكدح بنتاجه؟ أم هو الرب المكدوح إليه؟

الكدح هو السعي و العناء، و هو دون الكدم، و حقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان أيا كان، و إن اختلف نوعه: نفسيا و جسدانيا، و إن اختلفت مراتبه حسب اختلاف الكادحين، و إن اختلفت أهدافه، فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض، و واحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكدح..

فأنت أنت يا إنسان تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحا على أية حال.

ثم الكدح أيا كان لا يقف لحده أو يفنى، إلا أن يجتازه إلى آثاره عاجلا و آجلا، شئت أم أبيت، و إلا أن يجتاز بک إلى ربک: «إِنَّ إِلى رَبِّکَ الرُّجْعى» شئت أم أبيت، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى» شئت أم أبيت، فلا محيد لک و لا محيص عن هذين المصيرين اللذين ينتظرانک بعد الكدح، في حياة الكدح و بعدها.

و إذا كنت ـ و لا بد ـ مسيّرا إلى هذا المصير، فأحسن السير تحسن المصير، كن كادحا إلى ربک عن تقصّد و إخلاص، و إلى نتائج كدحک عند ربک، لتخرج يوم العرض و الحساب عن الشغب و الإفلاس.

فكدحک أيها الإنسان كدحان: كدح نتاجه كدح و أشقى هو للحيوان، و كدح نتاجه راحة و رضوان من اللّه و هو كدح الإنسان، فكن كادحا كإنسان، تراعي في أعمالک مرضاة اللّه تكسب الدارين، و الثانية أسعد و أبقى: «وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ».

و إذا كان واقع الكدح إلى لقاء نتاجه و إلى لقاء اللّه، فالحريّ بمن يحترم عقله أن يتقصد هذين اللقائين و يعمل لهما، دون أن يتجاهلهما، كما الكثيرون من من الكادحين يتجاهلون، كأنهم موقنون ألا لقاء هنا و هناک.

«يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ كادِحٌ»: متعب نفسک «إِلى رَبِّکَ» الذي رباک كيف تكدح

تكوينيا و تشريعيا «فملاقيه»: ملاقي كدحك و ملاقي ربك، فلتكن عاقلا في كدحك لكي يكون اللقاء مشرّفا سعيدا يوم الدنيا و يوم الدين في اللقائين.

الكدح الصالح ـ نفسيا و جسدانيا ـ ينتج لقاء صالحا في الدنيا، معرفيا عن النفسي منهما، و حيويا معيشيا عن الآخر.. و ينتج ـ و بالأحرى ـ لقاء صالحا و أصلح يوم الآخرة: إذ تلاقي ربک لقاء المعرفة العالية، و لقاء الزلفى و الرضوان، نتيجة الكدح في سبيل اللّه، و تلاقي عملک كذلک: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً..» فاستعدّ ليوم اللقاء و لأيام اللقاء، و لتعمل عملا صالحا و لا تشرک بعبادة ربک أحدا.

إن الإنسان ـ كائنا من كان ـ إنما يعيش بعمله، عيشة الإنسان أم عيشة الحيوان، فليكن إنسانا كما ربّاه ربه، و ليستعد للقاء ربّه بعمله.

شريعة الكادحين:

إن شريعة القرآن و سواهن شرائع إلهية غير محرفة، إنها شريعة الكدح إلى اللّه في كافة النشاطات و المجالات، و لا ترضى لأحد حياة الأريحية، و أن يجعل كلّه على غيره، ف «ملعون ملعون من ألقى كله على الناس».

فبإمكان الإنسان أن يعيش الكدح إلى اللّه حياته في كافة الحقول: عبادية و

سياسية و اقتصادية و ثقافية و حربية، و أضرابها من حقول الحياة التي تتطلب ـ كلّ حسبها ـ أتعابا فكرية و عضلانية و سواها؛ فتصبح أعماله و أفكاره ـ كلها ـ في سبيل اللّه: يعبد اللّه للّه، و يسوس عباد اللّه سياسة صالحة للّه، و يزرع للّه، و يتجر و يعمل و يصنع للّه، و يتعلم للّه، و يحارب في سبيل اللّه، فيجعل كافة ميادين الحياة محاريب يتمثل فيها هو مطيعا لأوامر اللّه، و كما الكون أجمع محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها طوعا أو كرها ثم إليه يحشرون.

فطوبى للكادحين إلى ربهم إذ لا يدركون عناءه بما ينتظرهم من رحمة خالدة، و رضوان من اللّه أكبر.. و بؤسا و تعسا للكادحين إلى الشهوات الفانية، فإنهم سوف يدركهم كدحهم السيّئ الماكر جزاء وفاقا، و لا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله.

طالما حياة التكليف هي حياة الكدح و الأتعاب، و لكنها تنتهي بلقاء الرب ـ مشرّفا ـ لو كانت متجهة إلى الرب: «كادِحٌ إِلى رَبِّكَ» ثم في لقاء اللّه و لقاء الأعمال يوم اللقاء، إنّ فيه راحة خالصة: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» حياة راحة خالصة لا تخالط تعبا و لا شغبا.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً:

تقسيم ثنائي لمصير الكادحين من الأخيار و الأشرار، و عرض للقاء الأعمال

يوم العرض الأكبر، و قد عبّر عنه بالكتاب: الحالة الثابتة من الأعمال و النيات و الأقوال، بما استنسخها اللّه تعالى بأقلام الأمواج على صحائف الأجواء و الأعضاء و الأكناف: «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و إذا استطاع هذا الإنسان الضعيف أن يستخدم الأمواج و تحويل الصور و الأصوات على الشاشات التلفزيونية و أضرابها، فلله تعالى كتاب لأعمال الإنسان فوق هذا الكتاب: «مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها، و وجدوا ما عملوا حاضرا و لا يظلم ربک أحدا» (١٨: ۴٩).

و قد يعنى من الكتاب هنا كتاب الشريعة، يؤتاه يمين المؤمنين إذ عاشوه يمين الحياة و ركنها في الدنيا، و يؤتاه شمال المجرمين أو وراء ظهرهم كما عاشوه هكذا، صورة طبق الأصل و لا يظلمون نقيرا: «فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئک يقرءون كتابهم و لا يظلمون فتيلا» (١٧: ٧١) «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ» (۶٩: ١٩ ـ ٢٠).

و قد تدل قراءة الكتاب (١٧: ٧١) و استقراؤه (۶٩: ١٩) أنه ليس كتاب الشريعة، فإنه لا يختص بأصحاب اليمين، فليكن هو كتاب الأعمال، و معه كتاب النجاح يؤتاه أصحاب اليمين بأيمانهم علامة النجاح، أو كتاب السقوط يؤتاه أصحاب

الشمال بشمائلهم علامة السقوط، و لا ينافيه تسويف الحساب: «فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً» إذا عني منه كتاب التبشير أو الإنذار قبل الحساب، للتدليل على موقف الحساب.

«فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً»: لا يلاقي صعوبة في حسابه، فلا يحاسب على سيئاته، و لأنه ترک الكبائر: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (۴: ۳۱) و لأنه كان تائبا منيبا إلى ربه نادما عما اقترفه من اللمم: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ» (۵۳: ۳۲)، و لأنه عاش يمين الحياة بترک كبائر الإثم و الشهوات، و كان مبدؤه في الحياة أنه من أصحاب اليمين، و أولئک هم الذين يقرءون كتابهم مسرورين بما فيه، و يدعون أهل المحشر ـ كذلک ـ ليقرأوا كتابهم ابتهاجا بما فيه، و من هنا نعرف أن هذا ليس حسابا «فليس أحد يحاسب إلا هلک، و إنما ذلک عرض و على حد قول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[1]، و بما أن الكتاب فيه النجاح، و يشير إلى يسر الحساب،

---

۱. نور الثقلين ۶: ۳۲۹، أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه (ص): «ليس أحد يحاسب إلا هلک، فقلت: أليس اللّه يقول: فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا؟ قال:

ليس ذلک بالحساب و ذلک العرض، و من نوقش في الحساب هلک»

←

لذلک:

وَ يَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً:

فمن هم أهله؟ فهلل إنهم ولده و زوجه و ذووه الأقربون؟ «فيومئذ لا أنساب بينهم و لا يتساءلون» و قد يفر منهم: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ. وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ» (٨١: ٣٦)، أو هم أهلوه اليمينيون؟ أم هم و معهم كل من كانوا معه في يمين الحياة؟ أم أهله الذين أعدهم اللّه له في الجنة؟ كلّ محتمل، إلا الأول، و الآية تشملهم إلا إياه، ينقلب إلى أهله مسرورا هناک، بعد ما كان مذعورا خائفا هنا، مما يجري عليه و عليهم في سجنهم، في الحياة الدنيا، بما ذاقوا من حمقاء الطغيان.

«و الناس يومئذ على طبقات و منازل، فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا و ينقلب إلى أهله مسرورا، و منهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لم يلبسوا من أمر الدنيا بشيء، و إنما الحساب هناک على من تلبس بها هاهنا، و منهم من يحاسب على النقير و القطمير و يصير إلى عذاب السعير»[١].

→ و فيه عنها: سمعت رسول اللّه (ص) يقول في بعض صلاته: اللهم حاسبني حسابا يسيرا، فلما انصرف قلت: يا رسول اللّه (ص) ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه، إنه من نوقش في الحساب هلک.

١. نور الثقلين ٥: ٥٣٧ عن كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين حديث طويل يذكر فيه أحوال القيامة و فيه يقول..

فالذين يدخلون الجنة بغير حساب هم السابقون، و الداخلون بحساب يسيرهم أصحاب اليمين، و الذين يحاسبون على النقير و القطمير هم أصحاب الشمال، و هناک من يدخل النار بلا حساب و هم أصحاب الوراء، و لأنه لم يبقوا لأنفسهم مجال الرجاء.

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً. وَ يَصْلى سَعِيراً:

هؤلاء هم الذين جعلوا كتاب الشريعة وراءهم ظهريا، مستدبرين إياه حياتهم، و مستقبلين الشهوات حياتهم، تبنوا الحياة كحيوان، و لم يفكروا في حياتهم كإنسان، فلقد عموا عن رؤية آيات اللّه، و صمّوا عن سماع كلمات اللّه، و بذلک تؤتاهم كتبهم وراء ظهورهم فلا يقرءونها و لأنهم أعمون: «فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِکَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» (١٧: ٧٢) مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً. قالَ كَذلِکَ أَتَتْکَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِکَ الْيَوْمَ تُنْسى» (٢٠: ١٢٦)، و عل وراء الظهر إشارة ـ أيضا ـ إلى طمس وجوههم وردها على ادبارها: «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها» (٤: ٤٧) أو علهم فرق شتى: بين عمي لا يبصرون، و من ردت وجوههم

على ادبارهم، و من يجمع لهم الأمران، أو أنهم يؤتون كـتابهم بشـمالهم مـن وراء ظهورهم، كلّ محتمل تشملها الآية.

هذا ـ و إن كان البعض من أصحاب الشمال أيضا يصلون الجحيم مع أصحاب الوراء، و علهم من الذين يخرجون عن النار قبل فنائها، و أنهم كانوا هم المساعدين الأول لرءوس الضلالة: «.. وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ. وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ. يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ... خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ» (٦٩: ٢٩).

هذا التعيس البئيس الذي قضى حياته كدحا إلى الوراء، رغم كدحه إلى الأمام: إلى ربه، شاء أو أبى.. و هذا الأعمى الذي استقبل حيوانية الحياة الهابطة إلى دركات اللذات، و استدبر الحياة العليا.. هذا هو الذي يدعو بالويل و الهلاک.

«فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً»: هلاكا مثابرا: مواظبا عـلى إتـيانه، ليس صـدفة و دون سبب، فقد كان الهلاک معه، ثم برز يوم البراز.. يدعو ثبورا و أي ثبور؟

لا ثبورا واحدا و لا من نوع واحد: «دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُـبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً» (٢٥: ١٤).

إنه كان ثبورا في كيانه، لنفسه و لمجتمعه، في أعماله و أقواله، في حله و ترحاله،

في عقائده و أفكاره، و ما كان يدعو إلا سرورا، غافلا عما تقدمه نفسه، ثم هنا لک يدعو ثبورا.

«وَ يَصْلى سَعِيراً»: ثبور يدعو ثبورا، و سعير يوقد سعيرا، و لا يظلمون نقيرا.. و كل ذلک لماذا؟ و الجواب: انه ثبور حق بسرور باطل، و عقيدة باطلة و حياة عاطلة.

إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً. إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ:

مسرورا بحيونة الحياة لظنه أن لن يحور، فأخذ حريته في الثبور دون أن يقف لحد.

مسرورا بما هو فيه، غافلا لاهيا عما يعنيه، لا يحسب له حسابا، و لا يرجو لنفسه ثوابا و لا عقابا: «ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ» (٢٤: ٧٥): حياة الفرح و المرح، دون تعقل و إناقة.

«إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ»: ظن أن لن يتردد إلى ربه و إلى عمله، لن يكدح إلى ربه فلن يلاقيه بعمله و لماذا؟ هل لأن ربه كان عنه غافلا غير بصير؟

بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً إنه يتردد و يحور، و ربّه بعمله له بالمرصاد، و لأنه كان به بصيرا، بما منه و ما فيه، بظاهره و خافيه، فكيف لا يحيره إليه يوم الجزاء، هل

لعجز أو نسيان، أو ظلم و طغيان؟ أم لماذا؟ «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (١٤: ٤٢).

هنا يعبر عن البعث بالحور، لأنه ردة إلى الحياة للجزاء، و كما يدور الحائر إلى حيث كان، فما الحياة إلا دائرة نسير عليها من نقطة حياة التكليف، ثم نرجع إلى نقطة الانتهاء: حياة الجزاء، نقطتان متلازمتان كأنهما واحدة، و لأنهما يتشاركان في مبدء الحياة، يدور الإنسان فيها على محور الشخصية عبر الحوادث و الحالات و إلى المنتهى ثم لسنا بحاجة في البرهنة على حور الحياة، زيادة على واقع الكائنات، فهنا الشفق، و الليل و ما وسق، و القمر إذا اتسق: أدلة كونية تمثل لناحور الحياة و دورها.. و اللّه تعالى لا يقسم بها لفقد البرهان، و إنما هو قسم بشيء من البرهان، و ثم ينفيه موجّها إلى برهان أعمق، و تبيان أعرق، هو أدلة الفطر و العقول.

فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ. وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ. وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ:

«فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ»: الشفق هو ضوء النهار المختلط بظلام الليل عند الغروب، شفق لعنايته المختلطة بالخوف و هو الإشفاق، فهو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب، خاشع لضوء النهار، مرهوب بظلام الليل، بين الخوف و الرجاء.

«وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ»: و كما في الشفق جمع بين المتفرقين: ضوء النهار و ظلام الليل، كذلك الليل واسق: يجمع بين المتفرقات، فهو يجمع و يضم و يحمل الكثير من أشياء و أحياء و أحداث و مشاعر و عوالم خافية ساربة في الأرض، غائرة في الضمير.

«وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ»: اجتمع نوره و تبدّر و تكامل و اطّرد، كما في ليلة بدره و تمامه، فائضا على الأرض الظلماء الداعس، بنوره الحالم الجابر لهذه الظلم.

قسما بالليل و ما وسق و القمر إذا اتسق، و لا أقسم بالشفق فإنه خلط لا يبين، و إنما الليل و ما جمع، يجمع و يؤوي المتفرقات، على غفلة و غفوة منها، كذلك حياة التكليف تجمع الأعمال و الأقوال في متون المسجلات العضوية و الأرضية بفضائها، طالما المكلفون عنها غافلون، و لكنما قمر الساعة يوم يقوم الحساب، إنه سوف يتسق، يجمع نوره ليري الناس أعمالهم، طبقا بحديد البصر يوم الحساب، عن طبق في كلال البصر قبل يوم الحساب: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»، فطالما ظلام ليل التكليف يمنع عن ظهور الأعمال، و لكنه لا يمحيها، ثم القمر المتسق يبرزها يوم البروز.

فلا أقسم بالشفق، و لأنه مشتبه خليط، فلا يقسم به لإثبات حقيقة ناصعة، إنما

أقسم بما يمثّل ركوب طبق عن طبق، حال عن حال، أقسم بالليل و ما جمع، و لا بد لهذا الجمع الأليل من ظهور، و إلا فلما ذا جمع، و قد يظهر الجمع الخفي بالقمر إذا اتسق: تجمّع نوره و تبدّر، و حينئذ لا تخفى منهم خافية، و هذا طبق عن طبق.

إنک كادح إلى ربک كدحا فملاقيه.. لتركبن طبقا عن طبق، فإنما طبق اللـقاء، لقاء الرب و لقاء الأعمال، إنه ناتج عن طبق الكدح.

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ»: الطبق هو المطابقة، و هو جعل الشيء فوق آخر بقدره.

إن كل حالة لاحقة للإنسان، لهي طبق عن سابقتها و نتيجة عنها «طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» اللاحق صادر عن السابق، لا «طبق بعد طبق» دون رباط بين الطبقين، إنما «عَـنْ طَبَقٍ»، فالإنسان إنما يركب ـ طوال الحياة: حياة التكليف و حياة الحساب ـ يركب مراكب الحالات اللاحقة عن الحالات السابقة: ركوب الجزاء الصادر عن العمل.

فالحياة الدنيا طبقات بعضها عن بعض، و البرزخ طبق عن الدنيا، و الآخرة طبق عنهما[1]، تطابقا في المساعي، على قدر السعي و الساعي، بكدّه و كدحه «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى».

كل لاحقة من حياة، مطيّة لسابقتها حسب الأعمال و النيات، يخلقها الإنسان بما

---

١. نور الثقلين عن المجمع روي مرفوعا عن النبي (ص) أن قوله طبقا عن طبق معناه: حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء.

تقدمه نفسه «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً».. أحوال كأنها مطايا يركبها الكادحون، واحدة بعد واحدة، حتى تنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى مرحلة جديدة هي حياة الجزاء التمام، كالأحوال المتعاقبة الكونية:

طبق الليل و ما وسق بعد الشفق، ثم طبق القمر إذا اتسق، و حتى ينتهي إلى وضح النهار إذ يلاقون أعمالهم ظاهرة باهرة، و لا تخفى عليم خافية.

لتركبن: جميعا و مجموعا ـ جميعا لكلّ طبقه كأفراد، و مجموعا لكلّ أمة مثال ما للسابقة، نتيجة التماثل الأممي في التصرفات الجماعية، و الكثير من الروايات تشير إلى الطبقات الجماعية لأمة الإسلام، فيهم و في قادتهم الروحيين و أئمتهم الطاهرين: و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «لتركبن سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، و القذة بالقذة، لا تخطون طريقهم، و لا يخطي شبر بشبر و ذراع بذراع و باع بباع، حتى أن لو كان من دخل حجر ضبّ لدخلتموه، قالوا: اليهود و النصارى تعني يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! قال: فمن أعني؟ لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فيكون أول ما تنقضون من دينكم الإمامة و آخره

الصلاة[١].

عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إن للقائم غيبة يطول أمدها، قيل و لم ذلک يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! قال: لأن اللّه عز و جل أبى ألا يجري فيه سير الأنبياء عليهم السلام في غيباتهم، و أنه لا بد من انتهاء مدة غيباتهم، قال اللّه تعالى:

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» أي: سير من كان قبلكم»[٢].

فأمة الإسلام يركبون سنن الأمم السابقين، طبقا عن طبق، و لأن كل مستقبل ابن ماضيه «جبر التأريخ» و أنهم يحذون حذوهم مخيّرين لا مسيّرين، و أن اللّه يجمع في محيى الأمم القائم بالعدل، ما جمعه من ميّزات قادة التاريخ:

الروحيين، و ليكمّل المسيرة، و يطبّق السيرة كاملة قاهرة، يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا.

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٣٨ ـ ٥٣٩ عن تفسير علي بن ابراهيم القمي.

٢. نور الثقلين ٥٣٩ عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى حنان عن أبيه عنه (ع) و فيه عن الباقر (ع) في الآية. قال: يا زرارة! أو لم تركب هذه الأمة بعد نبيها طبقا عن طبق في أمر فلان و فلان و فلان؟» يعني الخلفاء الثلاثة الأول؟

و فيه عن أمير المؤمنين (ع) في حديث تفسيرا لآلية «أي: لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء».

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ:

هذه موحيات الإيمان كونيا و فطريا و عقليا، تواجه بصر الإنسان و بصيرته، و تتكاثر عليه أيا كان و أينما كان، و تستجيش مشاعر التقوى و تستأصل دوافع الطغوى، و تحمل الإنسان على الإيمان «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»؟ ماذا حصل هنا و هناك فلا يؤمنون «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» فإنارة العقل مكسوف بطوع الهوى.

«وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ»: لا يخضعون له غايته، رغم أن القرآن مثال عن العظمة الإلهية، فكما السجود من الخلق لزام للخالق، كذلك لكلامه.

ليس السجود المأمور به، المندّد بتركه ـ هنا ـ سجود التلاوة، إذ ليست تلاوة القرآن ـ ككلّ ـ بالتي تفرض السجود هذا، و النص «إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ» لا «آيات السجدة» و لا «هذه الآية» إضافة إلى أن الآية هذه ليست لتطلب السجود لنفسها و إلا لدار، و إنما تطلب لغيرها من القرآن كقرآن، فليس إلا القرآن كله، لا آيات السجدة بخصوصها، و لقد أجمع أصحابنا أنها ليست من آيات السجدة الواجبة، اللهم إلا استحبابا و رجحانا.

و ليست كذلك سجود الصلاة، إذ لم تأمر الآية بالصلاة، و لا القرآن كله يأمر بها.

إذا فهو غاية الخضوع للقرآن إذا قرئ، و أدنى ما يتطلبه الخضوع هو الاستماع و الإنصات: (خضوع السمع) ثم التفهم: (خضوع الفهم) ثم الإيمان الصالح: (خضوع القلب) ثم العمل الصالح: (خضوع الجوارح) و سجود اللسان و هو الترتيل في قرائته و إبلاغه و نشره: و خضوع ككل: أن يعيش الإنسان القرآن ـ حياته بكل طاقاته ـ بما فيه.

هذه الآية تندد بالكافرين كيف لا يؤمنون بالقرآن، و من جراء الإيمان لم لا يسجدون و يخضعون للقرآن، أ خروجا عن فطرة الإنسان، الخاضعة لكل جمال و كمال، فهل تجد أجمل من القرآن و أروع منه، في كل ما يتطلبه الإنسان كإنسان من كمال و جمال؟

و إذا كان الإيمان يفرض ـ لأول وهلة ـ غاية الخضوع للقرآن، و أدناها الاستماع له و الإنصات، فأحرى أن يكون واجبا على المؤمنين و قد اجتازوا المرحلة البسيطة الأولى! فما للمؤمنين لا يؤمنون؟ و إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون، إذا فلا يرحمون، تنقطع عنهم الرحمة الإلهية بتركهم أدنى مراتب الخضوع للقرآن: «وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (٧: ٢٠٤).

إنه لا يختص القرآن هنا بقرآن الصلاة جماعة، و إن نزلت الآية في شأنها، حيث

المورد لا يخصص، إنه القرآن المطلق لأنه قرآن، و إن كان فرض استماعه في الصلاة أولى، و الآية هذه تأمر باستماعه و الإنصات له إذا قرئ، و تعد بالرحمة، و تهدّد بانقطاعها لو لا الاستماع و الإنصات.

و الآية الأولى «.. لا يَسْجُدُونَ» تندّد بمن لا يخضع للقرآن إذ يقرأ، و تعتبر هكذا خضوع من حصائل الإيمان لأول وهلة منه، إذا فتارك الاستماع و الإنصات للقرآن خارج عن أولى متطلبات الإيمان، منقطع عن الرحمة الإلهية التي وعدها المؤمنون.

و هل يا ترى إن عظيما من العظماء إذا كلّمک مخاطبا، ثم لم تستمع له و لم تنصت ـ و لو كان لصالحه هو لا أنت ـ فما هي إذا حالته؟ فهلا يغضب أن هتكته و لم تحسب له حسابا؟ إذا فما ظنک برب العالمين الذي يخاطبک في قرآنه ـ لک و لصالحک أنت ـ ثم أنت تلهو عنه إلى غيره من أشغال، أو إلى كلام غيره؟ أ فلا تستحق إذا انقطاع الرحمة و التنديد الشديد: أنک لم تؤمن؟! و تقول الروايات كما تقوله الآيتان، أن فرض الاستماع المنصت لا يختص قرآنا دون قرآن، و لا حالة دون حالة، فهو عام في كافة المجالات قدر المستطاع.

فلأهمية فرض الاستماع نرى عليا عليه السّلام يسكت في صلاته لمن يقرأ في

غير صلاة، و القارئ مشرک، و الآية ـ في قصد القارئ ـ تندّد به عليه السّلام[١].

و ما يظهر منه كأنّ فرض الاستماع خاص بصلاة الجماعة الجهرية[٢] يحمل على أنه أفضل الموارد، و لأنه مورد نزول الآية، و عموم اللفظ في الآيـة لا يـنافي

---

١. نور الثقلين ٢: ١١٣ بإسناد صحيح عن معاوية بن وهب عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سألته عن الرجل يؤم القوم و أنت لا ترضى به في صلاة يجهر فيها بالقراءة؟ فقال: إذا سمعت كتاب اللّه يتلى فانصت له. فقلت: إنه يشهد علي بالشرک! قال: إن عصى اللّه فأطع اللّه. فرددت عليه فأبى أن يرخص لي. قال: فقلت له: أصلي إذا في بيتي ثـم أخرج إليه؟ فقال:

أنت و ذاک. و قال: إن عليا (ع) كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوا و هو خلفه: «وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْکَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ» فأنصت علي تعظيما للقرآن حتى فرغ من الآية. ثم عاد في قرائته. ثم عاد ابن الكوا فأنصت علي (ع) أيضا ثم قرأ. فأعاد ابن الكوا و أنصت علي (ع) ثـم قـال بـه: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّکَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ» ثم أتم السورة ثم ركع. و رواه العياشي عن أبي كهمس عن أبي عبد اللّه (ع) من قوله: قرأ ابن الكوا.

فيه عن تفسير العياشي عن زرارة قال: سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: يجب الإنصات للقرآن في الصلاة و في غيرها. و إذا قرئ عندک القرآن وجب عليک الإنصات و الاستماع.

فيه عن المجمع عن عبد اللّه بن أبي يعفور عن أبي عبد اللّه (ع) قال: قلت له: الرجل يقرأ القرآن و أنا في الصلاة هل يجب علي الإنصات و الاستماع؟ قال: نعم إذا قرء القرآن وجب عليک الإنصات و الاستماع.

٢. نور الثقلين عن الفقيه في رواية زرارة عن أبي جعفر (ع) قال: و إن كنت خلف الامام فلا تقرأ شيئا في الأولين و أنصت لقرائته. و لا تقرأن شيئا في الأخيرتين فإن اللّه عز و جل يقول للمؤمنين: و إذا قرئ القرآن ـ يـعني فـي الفريضة خلف الامام ـ فاستمعوا له و انصتوا لعلكم ترحمون. و الأخيرتان تبعا للأولين.

أقول: عدم القراءة في الأخيرتين خلاف الإجماع سواء عني بها الحمد أم التسبيحات. فالحديث مشوش متنا، و غير صريح دلالة على اختصاص وجوب الاستماع بمورد خاص. و هو الحديث الوحيد هـنا. و آخـر مـطافه ـ لو عارض القرآن ـ أن يضرب عرض الحائط.

خصوص المورد[١].

فالقرآن ـ إذا قرئ ـ يجب الاستماع إليه و الإنصات له، سواء أكان القارئ مسلما أم سواه، مكلفا أم سواه، قراءة دون واسطة أو بالوسائل، متصلة بالقارئ، أم منفصلة مسجّلة، و ما لم يصل إلى حدّ الحرج، أو المشقة غير المتحملة، أو لم يكن هناك واجب أهم منه.

كل ذلک لإطلاق الآيتين، ثم أدلة نفي العسر و الحرج، و تكافئ الدليلين في الفرضين، أم تقدم البعض على البعض ـ تأمل.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ:

يكذبون بالإيمان، و بدلالات الإيمان، و بما يتطلبه الإيمان من السجود للقرآن، يكذبون لأنهم كفروا، رغم نصوع البرهان.

وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ:

ما يخبونه من الكذب و التكذيب، و من التدغيل و التدجيل، في أوعية الضلالة: من أنفسهم الشاردة، و قلوبهم الماردة، و من شياطينهم المردة، و أجوائهم المظلمة، و أقوالهم اللئيمة، و أفعالهم المنافقة، فهم يعيشون وعي الكفر و إيعائه «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما

---

١. الدر المنثور عن ابن عباس قال: صلى النبي (ص) فقرأ خلفه قوم فنزلت «و إذا قرئ القرآن..» و في معناه روايات مستفيضة.

يُوعُونَ».

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ:

ليست لهم بشارة إلا الإنذار، فبشارتهم هي الإنذار، فالعذاب الأليم خفيف تجاه كفرهم، إذا فهو بشارة لهم حالكونه عذابا، بشارة للصالحين أن اللّه لا يسوي بينهم و هؤلاء، و بشارة للمجتمع أن الكافر سوف يذوق و بال أمره، و بشارة للكفار أنفسهم و لكي ينتهوا عن كفرهم، و بشارة لهم أخيرا إذ لم تبق لهم بشارة إلا العذاب تهكما و تنديدا، و تقحما و تبديدا.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ:

لا يمنّ عليهم، و لا يقطع عنهم، إذ آمنوا و أصلحوا، و وعوا و أوعوا، و عاشوا حياة صالحة مصلحة، اللهم اجعلنا منهم.

سورة البروج ـ مكية ـ و آياتها اثنتان و عشرون

[سورة البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٢٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (١) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ

أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (۴)

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (۷) وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۸) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۹)

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (۱۰) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (۱۱) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (۱۲) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (۱۳) وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (۱۴)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (۱۵) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (۱۶) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (۱۷) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (۱۸) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (۱۹)

وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ (۲۰) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (۲۱) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (۲۲)

قصور السماء:

وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ:

البروج هي القصور العالية المتبرجة بالزينة، سواء أكانت في المدن السماوية

التي عمّرها ربها أم عمّرها إنسانها أم غيره من العقلاء المتمدنين، و على حد تعبير

أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين و خمسين سنة»[1].

بروج في مدن السماء، أم مستقلة مبنية خارجة المدن النجومية، و الجمع المحلى باللام (البروج) يقتضي شمول البروج هذه، كل القصور السماوية، مشيّدة و سواها و كما في الأرض: «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» (۴: ۷۸) و من مدرّعة مجهّزة بالمدفعيات و القاذفات، و سواها: «وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ. وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ» (۱۵: ۸) «تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً. وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً» (۲۵: ۶۱).

فبروج السماء ـ إذا ـ قصور عالية: من محصّنة جعلها ربها في السماء حفظا عن مسترقي السمع من الشياطين، و سكنا للملإ الأعلى: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ» قصور هي حصون و مدرعات و قاذفات جوية تقذف

---

۱. في تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض الأصحاب عن الصادق (ع) أن عليا (ع) قال:..

مسترقي السمع من كل جانب: «دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ».

و من قصور بناها إنسانها في مدن السماء، و علنّا في المستقبل نتسافر و نتزاور كما القرآن يشير: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (۲۴: ۲۹): جمع الدواب المنبثة بين الأرض و السماء، الدواب العاقلة بدليل «هم» في «جمعهم» جمعا قبل القيامة الكبرى عن الانبثات، لا جمعا ليوم الجمع، و أما أيّنا أسبق في الغزو؟ إنسان الأرض إلى السماء، أم إنسان السماء إلى الأرض؟ لا ندري.

أجل ـ فإنما بروج السماء هي قصورها، و هي معناها لغويا و في القرآن، و كما العقلية الإسلامية تصدّق في تصريحات أصحاب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[۱] و قد يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنها الكواكب،

و لكنها هي الكواكب المتمدنة ذوات القصور، دون أن يكون للبروج معنيان

---

۱. الدر المنثور ۶: ۳۳۱، أخرج ابن المنذر عن الأعمش قال: كان أصحاب عبد اللّه يقولون في: و السماء ذات البروج ـ ذات القصور ـ و فيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: البروج قصور في السماء.

اثنان، و يشهد له تفسيره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم البروج المشيدة بالقصور[١].

هذه هي البروج المعنية في السماء، القصور و الكواكب ذوات القصور، المزينة المتبرّجة بألوان الزينة، المدرّعة و المزودة بالمدفعيات و القاذفات، إذا كانت إلهية أو ملائكية، و الآهلة بسكانها العمار المتمدنين إذا كانت بشرية، فهي كلها بروج على أية حال، على اختلاف ارتفاعاتها و مهيئاتها و سكانها ـ و تبرجاتها.

هذه ـ لا كافة الكواكب، إذ لا وجه لتسميتها بالبروج و لا مجازيا، حيث الكواكب لا تشبه القصور إلا في علوّها، و ليس كلّ عال قصرا، و إلا فلتكن الفواكه فوق الأشجار، و السروج فوق المنار، لتكن بروجا! فليست البروج هي الأشياء الموضوعة على المرتفعات، و إنما القصور الرفيعة المتبرجة أيا كانت، و التعبير الصالح عن الكواكب هو المصابيح: «وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ»:

قناديل منيرة علقت على متن السماء، أو مسامير من فضة وتّدت فيها، و إن كانت النجوم ـ و هي أخص من الكواكب ـ علّها هي الكواكب التي طلع فيها التمدن و منه قصورها.

---

١. و فيه أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه أن النبي (ص) سئل عن السماء ذات البروج فقال: الكواكب، و سئل عن: الذي جعل في السماء بروجا، فقال: الكواكب، قيل: بروج مشيدة، فقال: قصور.

أقول: يعني بالكواكب، التي لها قصور.

ثم و ليست البروج هنا هي البروج الاثني عشر النجومية التي قررها الفلكيون[١]، حيث القرآن لم ينزل وفق اصطلاحات علماء الفلك، و لا غيرهم من المصطلحين، و إنما نزل للناس أجمعين، بلغة العرب الفصحى، التي يعرفها كل عربي فصيح، و ليس في أخبارنا كذلك، ما يؤيد تلكم البروج[٢].

وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ:

يوم القيامة الكبرى، يوم يقوم الأشهاد، يوم العرض و الحساب و الثواب و

---

١. البروج حسب اصطلاح المنجمين هي منازل الشمس و القمر، يسير القمر في كل برج منها يومين و ثلاثا، فذلك ثمانية و عشرون منزلا، ثم يستتر ليلتين، و مسير الشمس في كل برج منها شهر، و البروج الاثني عشر هي الصور النجومية التي اعتبرها المنجمون و هي: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت، و فلك البروج دائرة ترسمها الشمس في سيرها في السماء في سنة واحدة، و تقسم الدائرة إلى اثني عشر كل واحد منها ٣٠ درجة.

٢. و في نور الثقلين ٥: ٥٤١ عن روضة الكافي باسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين (ع) إن للشمس ثلاثمائة و ستين برجا، كل برج منها مثل جزيرة من جزائر العرب، و تنزل كل يوم على برج منها..

أقول: عل هذه البروج هي قصور في فلك الشمس، هي في كواكب على مسير الشمس، أو مستقلة كل بحاله في هذا المسير.

و فيه عن كتاب الخصال عن أبان بن تغلب قال: كنت عند أبي عبد اللّه إلى أن قال في مقارنة بين نفسه المقدسة و بين علماء اليمين: إن عالم المدينة يعلم ما في للحظة الواحدة مسيرة الشمس، تقطع اثني عشر برجا و اثني عشر برا و اثني عشر عالما، فقال له اليماني: جعلت فداك ما ظننت أن أحدا يعلم هذا أو يدري ما كنهه.».

أقول: لو كانت هي البروج النجومية لم يكن علمها خاصا بعالم المدينة، الامام الصادق (ع) إذ يعرفها الفلكيون و كثير سواهم، إذا فلا تؤيد البروج النجومية ـ تفسيرا ل «السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ» لا تؤيد لا لغويا و لا قرآنيا و لا روائيا فأين يذهبون!

العقاب.

وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ:

الشهادة هي الحضور مع المشاهدة، بالبصر أو بالبصيرة، تلقيا لما يحصل كما يحصل: «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ» (۲۲: ۲۸) أو إلقاء له كذلک: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (۲۴: ۲۴).

و الشاهد الأول هنا هو اللّه تعالى، فإنه خالق الشهداء و موفّقهم لتلقيها و إلقاءها و المهيمن على ذلک كله.

ثم النبيون و الملائكة و الأرض بأجوائها و أكنافها، و الإنسان نفسه، و بأعضائه و أجزائه كما عرفناها مسبقا، و الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو شهيد الشهداء بعد اللّه تعالى بين المرسلين، يوم الدنيا و يوم الدين: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ» (۱۶: ۸۹).

فهو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتلقى الأعمال و الأقوال و النيات، بما وفق اللّه له و وفقه اللّه، يتلقاها في حياته و بعد مماته و إلى يوم الدين، ثم يلقيها يوم تقوم الأشهاد.

و الشاهد هنا يعم كافة الشهداء: «إلهيا و ملائكيا و بشريا و كونيا و عضويا، تلقيا

و إلقاء بأنواعها، فليس الإفراد و التنكير في «و شاهد» يعني فردا ما، و إنما هو لتعظيم جنس الشاهد أيا كان.

«و مشهود»: مشهود هو الأعمال تلقيا، و مشهود به هي إلقاء: شهده و شهد به، و مشهود له أو عليه هو العامل، و مشهود فيه مكان الشهادة بنوعيها، فلم يقل: «و مشهود عليه أو له أو فيه أو به» و لكي يشمل الكل إذ ألغيت المتعلقات و جرّد المشهود، عنها: «وَ مَشْهُودٍ».

ثم الشهادة ـ تلقيا و إلقاء ـ تختلف حسب اختلاف الشهود، فالشهود النفسية و العضوية و الكونية تتلقى و تلقي صور الأعمال و أصوات الأقوال، و الشهود الملائكية و البشرية يشهدون باللسان كما شهدوا بالأبصار و البصائر و حفظوا بالأذهان، و علّ الشهود الملائكية ـ إضافة إلى اللسان ـ يشهدون بما كتبوا، لو أن كتابة الأعمال تشملها، فالملائكة هم الكرام الكاتبون.

من هنا نعرف أن مختلف الروايات في تفسير «شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ» تعني المصاديق التي تشملانها:

فإذا يفسر الشاهد باللّه فلأنه خالق الشهداء و موفّقهم لتلقّيها و إلقائها، المهيمن

على ذلک كله، كما المشهود هنا أيضا يوم الدين[١].

و إذ يفسر بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المشهود بيوم القيامة، فإنما محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هنا المتلقي للشهادة يوم الدنيا، و الملقي لها يوم الدين، و هو مشهود فيه: «ذٰلِکَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ وَ ذٰلِکَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» (١١: ١٠٣)[٢].

أو أن الشاهد ابن آدم و المشهود يوم الدين، فبما أن الإنسان بأعضائه يتلقى أعماله و يلقيها يوم تقوم الأشهاد[٣].

أو أن الشاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المشهود أمير المؤمنين عليه السّلام فلأن الرسول يجاء به شهيدا على كافة المكلفين و لهم، فهو يشهد لعلي ـ فيمن يشهد لهم ـ أنه أدّى ما عليه و لم ينقص[٤].

أو أن الشاهد يوم الجمعة و عرفة و المشهود يوم القيامة، فلأن الأيام ـ بها و بأماكنها و بمن فيها ـ تشهد لنا أو علينا، في يوم القيامة[٥]، و قس عليها غيرها[٦].

---

١. عن ابن عباس.

٢. عن الامام الحسن بن علي (ع).

٣. عن مجاهد.

٤. عن الامام الصادق (ع).

٥. عن النبي (ص) و الباقر (ع).

كما و أن عليا ـ حسب القرآن ـ من شهود الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ» (۱۱: ۱۷) فقد تلاه: تبعه في رسالته، و خلفه في أمته طوال الرسالة و بعدها حتى قبض.

قسما بالسماء ذات القصور المدرّعة القاذفة للشياطين يوم الدنيا و يوم الدين: «إن الذين كفروا لا تفتح لهم أبواب السماء و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط» (۷: ۴۰).

و قسما باليوم الموعود الذي تعرض فيه الأعمال و الخلائق، و قسما بشاهد و مشهود، إذ يغرق المكلفون في جو الشهود، و إذ تلتقي السماء ذات البروج و اليوم الموعود و شاهد و مشهود.

قسما بهذه و تلك لقد حدث حادث في تاريخ الإنسان يجرح الأكباد و يقرح

---

۶. كيوم الغدير، يوم شاهد و مشهود، مصباح الشريعة عن خطبة لعلي (ع)، و أن الشاهد محمد و المشهود يوم عرفة، عن الامام الحسن (ع)

و روى أن رجلا دخل مسجد رسول اللّه (ص) فإذا رجل يحدث عن رسول اللّه (ص)، قال: فسألته عن الشاهد و المشهود، فقال: أما الشاهد فيوم الجمعة و أما المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلام كأن وجهه الدينار و هو يحدث عن رسول اللّه (ص) فقلت: أخبرني عن شاهد و مشهود، فقال: نعم، أما الشاهد فمحمد و أما المشهود فيوم القيامة، أما سمعت اللّه سبحانه يقول: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً» و قال: «ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» فسألت عن الأول فقالوا: ابن عباس، و سألت عن الثاني فقالوا: ابن عمر، و سألت عن الثالث فقالوا: الحسن بن علي (ع)، (نور الثقلين ۵: ۵۴۲ ـ ۵۴۳).

العيون: «قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ..» أ فهل تزعم أن ظلامتهم تذهب هدرا، و الكون بمن فيه و ما فيه شهود؟:

قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ:

الأخدود شقّ في الأرض مستطيل غائص، و جمعه أخاديد، و النار ذات الوقود هي التي أضرمت و أوقدت في الأخدود، لحدّ أصبح الأخدود كأنه نار ذات وقود، إيحاء بتلهّب النار في الأخدود كله، كأن لم يبق أخدود إلا الوقود[١] فنفس الأخدود ضيق، ثم قلبه نارا ضيق على ضيق و عذاب فوق العذاب.

و أصحاب الأخدود هم الجبابرة الذين أوقدوا النار في الأخدود، لا المؤمنون الذين أحرقوا فيها، لأن أصحاب الأخدود ـ حسب النص ـ قتلوا، و المؤمنون أحرقوا، و لا يعبّر عن الحرق بالقتل، و إن كان هو أيضا قتلا و لكنه بالحرف، كما المقتول بالصلب يقال عنه مصلوب، لا مقتول: «وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ».

---

١. النار ذات الوقود بدل الاشتمال عن الأخدود، جيء به كبدل الكل مبالغة في الوقود، و هنا رواية في النار لطيفة: عن الخصال عن المفضل بن عمر عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سألته عن النيران فقال «أربعة: نار تأكل و تشرب، و نار تأكل و لا تشرب، و نار تشرب و لا تأكل، و نار لا تأكل و لا تشرب. فالتي تأكل و تشرب فنار ابن آدم و جميع الحيوان، و التي تأكل و لا تشرب فنار الوقود، و التي تشرب و لا تأكل فنار الشجر، و التي لا تأكل و لا تشرب فهي نار القداحة و الحباحب» (نور الثقلين ٥: ٥٤٧).

هذا ـ و لأن الضمائر التالية كلها ترجع إلى المحرقين لا المحرقين: «إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ. وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ..».

«قتل» : إنه إخبار عن قتل أرواحهم و ضمائرهم لما أقدموا على إحراق المؤمنين، فهم قتلوا إذ قتلوا، رغم حياتهم في الجسد، قتلوا ضمائرهم قبل أن يقتلوا المؤمنين، فالضمائر الإنسانية الحية، و الأرواح الطاهرة، لا تسمح لأصحابها هكذا قساوة و ضراوة، أن يلقوا المؤمنين و المؤمنات ـ بأطفالهم و ضعفائهم ـ في النار، و هم قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوارها، و فعلة النار في هذه الأجسام الطاهرة، و هم في لذة و سعار.

أجل إنه إخبار بقتلهم و ليس دعاء، فإنه لا يليق بساحة الربوبية، إخبار عن ماضيهم يوم الدنيا، و عن مستقبلهم يوم الدين، كيف يلاقون جزاءهم الوفاق يوم التلاق.

قصة أصحاب الأخدود:

تختلف الروايات في: من هم أصحاب الأخدود؟ أنه مهرويه بن بخت نصر؟

حفر أخدودا لدانيال و أصحابه، و أوقد لهم نارا فلم يحرقوا، فاستودعهم فيه بين الأسد و السباع بألوان العذاب حتى خلصهم اللّه منه كما عن النبي صلّى اللّه عليه و

آله و سلّم[١].

أقول: إنه لا يلائم سياق الآيات الظاهرة في وقوع النقمة عليهم «وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا..» «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا..» أي: أحرقوا، فلا نصدق أنه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

أو «أنه ذو نواس ـ آخر ملوك حمير ـ تهود و اجتمعت معه حمير، ثم حمل من بقي على النصرانية بنجران أن يتهودوا فأبوا، فاتخذ لهم أخدودا و أشعل فيه النار، فمنهم من أحرق بالنار و منهم من قتل بالسيف، و مثل بهم كل مثلة، و بلغ عدد الضحايا عشرين ألفا»[٢].

أقول: و ما سوى أخدود النار لا يلائم الآيات.

و رويت روايات أخرى مختلفة في أصحاب القصة و كيفيتها، لا تهمنا تفاصيلها، فنجمل عنها كما القرآن أجمل، و لندرس فيها درس التضحية و الفداء في سبيل اللّه، و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «ما ذكرت أصحاب الأخدود إلا تعوذت بالله من جهد البلاء»[٣].

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٤٣ في كتاب كمال الدين و إتمام النعمة باسناده عنه (ص).

٢. نور الثقلين ٥٤٤ في تفسير علي بن ابراهيم القمي.

٣. الدر المنثور ٦: ٣٣٣، أخرجه عبد الحميد عن الحسن عنه (ص)، و ابن أبي شيبة عن عوف عنه (ص).

عن حفيده الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «قد كان قبلكم قوم يقتلون و يحرقون و ينشرون بالمناشير، و تضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه، من غير ترة و تروا من فعل ذلك بهم و لا أذى، بل ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، فاسألوا ربكم درجاتهم، و اصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم»[1].

إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ. وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ:

قتلوا «إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ» على الأخدود ـ لا فيه ـ على شفير النار و مشارفها، البعيدة عنها عرضا و عمقا، دون أن يتأثروا بها، إلا تفرّجا و نزهة، فالداخل في النار لا يقعد فيها، إنما يقوم و يقعد و يقفز محاولة الفرار.

«وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ»: حضور يسمعون صرخاتهم و تسبيحاتهم، و يرون ما تفعل النار بجسومهم الطاهرة، شهود: شهادة تلق مما فعلوا، و شهود ـ يوم تقوم الأشهاد ـ شهادة إلقاء بأعضائهم و أجزائهم، بألسنتهم و أسماعهم و أبصارهم، فهم شهود هنا و هناك، و هم مشهود عليهم بأعمالهم هناك في اليوم المشهود: «وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ

---

١. نور الثقلين ٥٤٧ في روضة الكافي محمد بن سالم بن أبي سلمة عن أحمد بن الريان عن أبيه عن جميل بن دراج عنه (ع).

لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ» (٤١: ٢٢).

وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ:

إن نقمة الايمان هي دور المؤمنين طوال تاريخ الإنسان، فليطلب المؤمنون أن يفرغ عليهم ربهم صبرا و يتوفاهم مسلمين: «وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ» (٧: ١٢٦) «قُلْ... هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ» (٥: ٥٩).

إن قتل المؤمن لايمانه هو أشد الكفر: «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً» (٤: ٩٣):

يقتل مؤمنا لايمانه و إن كان القاتل في زمرة المؤمنين! فكيف بالكافر!.

فيا حمقاء الطغيان! هل إن الايمان باللّه يستوجب النقمة: و النكران بالعقوبة و باللسان؟ و هو اللّه العزيز في ألوهيته فأحرى أن يؤمن به، و هو الحميد في عزته فأحرى أن يؤمن له! اللّه العزيز الحميد.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ:

يملک الكون كلّه، و يشهد عليه كلّه، و سوف يشهد قبل الشهود و معهم يوم تقوم الأشهاد، ماذا نقمتم من المؤمنين به؟ فهو شاهد يوم ذاک، و أعمالكم مشهود بها، و

أنتم مشهود عليكم، و القيامة مشهود فيها.

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ:

«فتنوا» : أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، و استعمل في إدخال الإنسان النار، و عله أيضا لهذه الغاية، قصدت أم لا.

فأصحاب الأخدود أحرقوا المؤمنين و المؤمنات بالنار نقما منهم و كراهية لهم، فلم يقصدوا تخليصهم بهذه الفتنة عما ربما يلتصق بالمؤمن من رداءة، و لكن اللّه فوقهم، حقق فيهم معنى الفتنة فصبروا عليها و ماتوا مخلصين، ذهبا خالصة عن الأخلاط، فلاقوا ربهم خلّصا عن الرداءة.

هذا ـ و على سبيل التهكم ـ يفتن الكافر أيضا على النار: «يَوْمَ هُمْ عَلَى النّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ..» (٥١: ١٣): فتنة بفتنة، تتشاركان في الحرق، و تختلفان في نتاجه صالحا و طالحا، فالفتنة، منها مفلحة كما للمؤمنين، و منها مسقطة كما للكافرين «أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ» (٩: ٤٩).

«إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ» بمختلف العذاب و عذاب الحريق، «ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ» الجزاء الوفاق: «عَذابُ جَهَنَّمَ» كمبدأ العذاب الذي ذاقه المؤمنون منهم

«وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ» بما أحرقوهم في الأخدود، جهنم بما فعلوا، و حريق بالأخدود، و لكن أين حريق من حريق؟ في شدته و مدته، في؟؟؟؟، و عدّته، في عذابه و رحمته!.

فحريق الأخدود نار أوقدها إنسانها للعبه، و حريق جهنم نار سجّرها جبارها لغضبه، ثم الأوّل تنتهي للحظات، و الآخر آباد لا يعلمها إلا اللّه، و مع حريق الأخدود رضي اللّه عن المؤمنين، و انتصار لحق الإيمان، و مع حريق الآخرة غضب اللّه و الارتكاس الهابط الذميم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ:

فالمؤمن حياته الجنة، و الكافر حياته النار، و جنة الأبرار لا تختص بدار القرار، إنهم يلتذون بما ينقم منهم في سبيل اللّه، فطالما أجسادهم تعذب في جحيم الدنيا، لكنما الأرواح تلتذ بالفداء، ثم لا تحس آلام الأجساد، ثم هم يوم القيامة ينعمون، و ذلك الفوز الكبير: الظفر بالخير مع حصول السلامة، و هذه هي النجاة الحقيقية، و النجاح الكبير في معارك الحياة.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ:

بطش رباني ما له من فواق، دون بطشهم الهزيل الصغير، بطش الضعاف المهازيل، بطش الأحمق الذليل! البطش هو تناول الشيء بصولة، منها ظالمة و منها عادلة، و بطش الرب جزاء عن صولتهم الظالمة، بصولة عادلة، و في «بَطْشَ رَبِّکَ» تطييب لنفس النبي الأقدس، و لكي لا يحسب لهؤلاء البطاشين حسابا: «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (۱۴: ۴۳).

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ:

قسما بالسماء ذات البروج. و اليوم الموعود. و شاهد و مشهود: قتل أصحاب الأخدود.. إن الذين فتنوا.. إن بطش ربک لشديد. إنه هو يبدئ و يعيد.

فهي كلها أجوبة الأقسام كلها، لأنها تصلح لها، و الصلة بينها و بينها معلومة بما سبق.

وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ:

و حتى لأمثال أصحاب الأخدود لو تابوا و آمنوا و أصلحوا، فإنه منبع الغفران و الود، بودّه يغفر، و بمغفرته يودّ، أ فلا تائب يتوب و آئب يؤوب!.

فتأخير بطش الرب ـ الشديد ـ ليس للغفلة أو الإهمال، فالظالم في قبضته بدءا و

عودا فأين يفر؟ فقد يؤخر علّ البطاشين المتخلفين يتوبون، و لأن اليوم عمل و لا حساب، و غدا حساب و لا عمل.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ:

صاحب عرش الألوهية، و لقد ذكر العرش في واحد و عشرين موضعا من القرآن، مقرونة بقرائن قاطعة لفظية و عقلية، تدل على أنه ليس عرشا يتكى عليه، و إنما هو كناية عن ملكه تعالى، و نفاذ أمره في مملكة الوجود، و استيلاء سلطانه على رعيته.

إن ألوهيته تعالى و نزاهته عن ذوات المخلوقين و صفاتهم، إنها برهان لا مرد له ـ عقليا ـ أن الذات و الصفات و الأفعال المنسوبة إليه، مجردة عما للمخلوقين، فإذ ينسب إليه العرش فهو إذا يجرد عن عروش المخلوقين المحتاجين إليها، و المتكئين عليها، فهو مجيد في ألوهيته و في عرشه «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ» و عروش الخلق ليست مجيدة: متسعة في الكرم و الجلال، و إنما ضيّقة دائرة متواضعة.

و لمجده تعالى في عرشه، هو «فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» و غيره تعالى من أصحاب العروش مغلوب على أمرهم، لا يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون، إذ ليسوا أمجادا في

ذواتهم و صفاتهم و عروشهم[١].

إنه ليس إمهاله المجرمين لعجز أو جهل أو بخل أو نسيان أو ظلم و أمثالها، و إنما إملاء و ابتلاء، و لكي يثبت أنه «فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» يفعل ـ أحيانا ـ بالمجرمين ما لا يمكن أن يفسّر بالصدفة أو العادة، و إنما القصد الخارق للعادة، و لكي ينتبه الغافلون.

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ. فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ:

فقد أغرق اللّه فرعون و جنوده في اليمّ بعد ما نجّى بني إسرائيل، و نجّى فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية: «وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ» (٢٠: ٧٨).

و قد أخذ اللّه ثمود بعذاب بئيس بعد ما أوعدهم، بما كذبوا صالحا و عقروا الناقة: «و يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب. فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. فلما جاء أمرنا نجينا صالحا و الذين آمنوا معه برحمة منا و من خزي

---

١. تجد البحث الفصل عن العرش في المواضيع الأنسب فالأنسب.

يومئذ إن ربك هو القوي العزيز. و أخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود» (١١: ٦٨).

«بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا» و أخذ الكفر شغاف قلوبهم، إنـهم «فِـي تَكْـذِيبٍ» يـعيشون التكذيب كأنهم غريقون في يمّه «وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ» لا فيهم، إذ هو بعيد عن ذواتهم بعد القرب و المعرفة، و بعد الذات و الصفة، فهو من وراءهم محيط، نافذ فيهم علمه، غالبة عليهم قدرته، قريب في بعده، و بعيد في قربه، محيط بهم و بعالمهم، لا يفلت منه أحد، و لا يغيب عنه أحد، و بيده ناصية كلّ شيء.

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ:

«بل» ليس كما يزعم أن القرآن قد ينال منه بزيادة أو نقصان، كما أن أمة القرآن ينال منهم بين الأمم، «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ»: واسع في الكرم و الجلال، كما اللّه مجيد، و لا نجد وصف المجد في القرآن إلا للقرآن بعد اللّه تعالى:

«ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ، قُرْآنٌ مَجِيدٌ»، فكما من المستحيل أن ينال من ذات اللّه و صفاته و أفعاله «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ»، و ليس مغلوبا في أمره، كذلك القرآن ـ حسب هذا النص ـ مجيد: واسع في كرمه و هدايته سعة الرحمة الإلهية، جليل عزيز لا يذل و لا يغلب، و ما أكذوبة تحريف القرآن إلا ذلا و دمارا، يتنافى و مجده، و هو

المجيد الرفيع العريق الكريم، و هل أمجد من قول اللّه ذي العرش المجيد؟

و من لطيف الأمر أن اللّه تعالى يسوّي بين مجده و مجد كتابه في الأصل و في العدد: مرتين مرتين[1].

«فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» ضمن اللّه تعالى حفظه عن التحريف و التصريف، أيا كان، بزيادة أو نقصان، أو أي تحوير و تغيير: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (١٥: ٩) تأكيدات ست في جماع من القدرة و الرحمة الربانية تؤكد حفظ القرآن عن الضياع و التحريف.

فلقد حفظ القرآن المجيد، في لوح محفوظ: صفحة لائحة ظاهرة لمن يتمجد به من المكلفين، لا في لوح عند اللّه، أو عند رسول اللّه و عترته المعصومين فحسب، فإنّ ما هنا لک ليس لائحا إلا عند أهله، و لوح القرآن مجيد واسع الكرم، فهو محفوظ في كافة الألواح، ألواح الصدور و الصحف، و ألواح الألسن الناطقة به، و لا يقدر أحد أن يغيره فإنه مضمون الحفظ بالقدرة الإلهية.

و كما اللّه عزيز: غالب ممدوح، كذلک كتابه عزيز: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

---

١. ق و القرآن المجيد (٥٠: ١) بل هو قرآن مجيد، إنه حميد مجيد (١١: ٧٣)، ذو العرش المجيد. و قد بحثنا عن صيانة القرآن عن التحريف في كتابنا (المقارنات) ص ٢٢٧ و نبحث في طيات الآيات المناسبة هنا.

حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (۴۱: ۴۲).

فالقرآن عزيز كمن أنزله، لا يغلب في الحجاج و لا من أيّ تغلّب، عـزيز فـي دوامه، عزيز في تبيانه و أحكامه، فلا يأتيه الباطل و إن أتاه المبطلون، نور لا تطفأ مصابيحه، و سراج لا يخبؤ توقّده، يذهب كل قائل بقوله ضياعا، و اللّه بقوله ثابت لا يضيع.

سورة الطارق ـ مكية ـ و آياتها سبع عشرة

[سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱ الى ۱۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ (۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (۲) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (۳) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (۴)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (۵) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (۶) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ (۷) إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (۸) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (۹)

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ (۱۰) وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (۱۱) وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (۱۲) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (۱۳) وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (۱۴)

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْداً (١٦) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧)

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ. وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ. النَّجْمُ الثَّاقِبُ:

قسما بالسماء: الأجواء الواسعة الحاملة لمواكيد الكواكب، و قسما بالطارق: النجم الثاقب، فما هو الطارق؟ و ما هو النجم الثاقب؟ و ما هو الرباط بين السماء و الطارق، و بين الحفاظ الإلهي على كل نفس؟.

الطارق هو الإنسان الذي يطرق ليلا فيدق الباب، فإن الطرق هو الدّقّ، كما المطرقة هي المدقة، و يسمى الآتي ليلا طارقا لأنه يأتي في وقت يحتاج فيه إلى الدق أو ما يقوم مقامه، للتنبيه على طروقه و الإيذان بوروده.

و النجم هو الكوكب الطالع بنوره ـ و عله بطلوع التمدن فيه أيضا ـ و الثاقب: هو النافذ بنوره و بطرقه، يثقب ظلام الليل بنوره، و يظلم الحياة على مسترقي السمع الشياطين، بوقعه: «إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ».

فالسماء حفيظة لأولادها الكواكب، و طوارقها الثواقب، حفيظة للملإ الأعلى أن يسّمّع إليهم: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ»:

المدرعات الجويّة التي تثقب بنيازكها النارية النورية سرّاق السمع.

فالنجوم الثاقبة الطارقة ليلا هي نور حياة للمهتدين، و ظلم على حياة المعتدين كما و أن آيات الوحي تثقب بأنوارها ظلمات الضلالات، و تثقب بوقعها كيان الشياطين، و من أثقب النجوم في سماء الوحي هو الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[١].

قسما بهذه النيازک النارية و الطوارق النورية، الثاقبات الحافظات للكيان السماوي، إن واقع الحفاظ لا يختصها، و إنما يعم كل نفس: بشري و ملائكي و جني و حيواني و سواها، حفظا عن الأخطار الموجهة إليها، و من أخطارها الموجهة إلى غيرها:

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ:

إن كل نفس إلا[٢] عليها حافظ إلهي، أو ملائكي و بشري بأمر اللّه، أو كوني كذلک: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (١٢: ٦٤) و هذه مقتضى ربوبيته: «وَ رَبُّکَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» (٣٤: ١١) هو حفيظ:

و «هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (٦: ٦١): حفظة يحفظونهم في

---

١. كما في نور الثقلين ٥: ٥٥٠ ح ٣ عن تفسير القمي عن الصادق (ع).

٢. تجيء «لما» بمعنى «إلا» في موضعين: أن، و القسم كقولک سألتک باللّه لما فعلت، و يحتمل أنها مخففة فاللام للتأكيد و «ما» صلة مؤكدة، و الأول أصح و الثاني مشوه.

حياتهم، صادرين من أمر اللّه: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (۱۳: ۱۱): يحفظون نفوسهم بأبدانهم طوال الحياة و بعد الممات، فلا تذهب سدى: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» و يحفظون أعمالهم و يكتبون: «وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ. كِراماً كاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ».

إن كل نفس إلا عليها حافظ، عليها دنيا و عقبى، عليها روحا و جسما، عليها أعمالا و أقوالا، و عليها دينا و دنيا، فإن نجوم الاهتداء تثقب القلوب المقلوبة المظلمة ببوارق الهداية: من عقله و فطرته: رسولان هما لزام الإنسان، و من آفاقه المحيطة به: رسالة الكون، و من رجالات الوحي: رسالة السماء، فيا قبحا لمن لا يحسب لهذه الحفظة حسابا، فينفلت من حزب الرحمان إلى حزب الشيطان، و إلى حرب الرحمان! و هذه النجوم تثقب الضالين بحيلهم فينهزمون: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» (۱۷: ۸۲).

فليست هنا لک ـ إذا ـ هيصة و فوضى، دون حراسة إلهية و لا حفيظ، إنما هو الحفاظ الدقيق المباشر و غير المباشر، و سوف يظهر يوم تقوم الأشهاد.

و لكي يعلم الإنسان أنه محفوظ بعمله ليوم تقوم الأشهاد فلا ينكر البعث و المعاد، فلينظر:

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ:

«لينظر مم خلق»؟ و لكي يعرف مصيره، فمبتدء الخلق ـ دائما ـ آية مصيره، فعبر هذا النظر سوف يعتبر أنه ما هو في ماضيه؟ و كيف يكون مصيره و مرجعه؟.

لينظر مم خلق؟ بعد ما يعلم أنه خلق: هل خلق هو نفسه؟ أم خلق مثله؟ أم خلق من غير خالق؟: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ» (٥٢: ٣٥).

ثم لينظر من أية مادة خلق؟ خلق من ماء دافق: يخرج بدفق، و رغم أنه ماءان: ـ يخرجان من بين صلب الرجل: عظام ظهره الفقارية، و من ترائب المرأة: عظام صدرها العلوية ـ رغم ذاك يعبّر هنا عنها بماء واحد، علّه بما أصبحا واحدا من أمشاج: أخلاط: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ» (٨٦: ٧):

فهما ماءان و أمشاج، أصبحا و أصبحت ماء واحدا لوحدة التشكيل و الاتجاه إذ مزجا و مشجت.

ما كانت البشرية ـ طوال تاريخها ـ لتعرف أن الجنين مخلوق من هذين الماءين، إنما المزعوم: أنه من ماء أبيه، أو الذكر من الذكر و الأنثى من الأنثى، كانوا يزعمونه هكذا حتى نزول القرآن، إذ صرح هنا و هناك أن الجنين ـ أيا كان ـ مخلوق من الماءين، و اكتشفوا علميا في منتصف القرن الأخير: أن في عظام الظهر الفقارية

يتكون ماء الرجل، و في عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة، حيث يلتقيان في قرار مكين فيصبحان ماء الجنين! فمن الماء الدافق إلى الإنسان العاقل الناطق!

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ:

الصلب ما فيه النخاع الشوكي الذي فيه مجمع الأعصاب، فلو انكسر الصلب أو اصطدم لم يقدر الإنسان على الجماع و التوليد، فمنشأ النطفة الرجـولية إنـما هـو الصلب، و إن كان المني ينحدر منه دوما إلى البيضتين: الخزانتين الاحتياطيتين، و الماء الدافق يدفق من الصلب و الترائب، و من خزينتي الاحتياط، و علها كمساعدة لنشوء الجنين.

و الترائب جمع تريبة و هي موضع القلادة من صدر المرأة، فهي ضلوع صدرها، أو مقاديم بدنها من الثديين إلى الوركين: استيحاء من جمع التريبة، فالترائب ـ إذا ـ هي مقاديمها كلها ابتداء من موضع القلادة، و سوف نوافيكم في بحث فصل عـن النطفة و تطوراتها في سورة العلق.

إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ. فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ:

إن الذي قدر على بدئه، لقادر أيضا على رجعه: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْـخَلْقَ ثُـمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (٣٠: ٢٧) إنه على رجعه: إرجاعه إلى ما كان ـ كيفما كان ـ

لقادر.

رجع أوّل: أن يرجعه اللّه إلى ما كان من ماء دافق: «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» (۲۱: ۱۰۴) «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» (۷: ۲۹): و دون رجع إلى الصلب و الترائب.

و رجع ثان إلى ما كان من الخلق الكامل: يخلق من هذا الماء كما خلق أول مرة، دون الزوائد غير الثابتة، و إنما البدن الذي عاشه طواه حياة التكليف، و كما «سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الميت يبلى جسده؟ قال: نعم، حتى لا يبقى لحم و لا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى، تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة»[1]: «ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ» (۳۱: ۲۸).

و رجع ثالث ترجع فيه روحه إلى قالبه الأصيل، الذي عمل فيه ما عمل حياته.

و رجع رابع ترجع فيه أعماله و أقواله كما صدرت، ذلك بأن اللّه كان حفيظا عليه بروحه و ببدنه الأصيل و بأعماله، دون أن تضل منها شيء و حتى عن ملك الموت: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (۳۲: ۱۱).

---

۱. بحار الأنوار ج ۷ ص ۴۳ ح ۲۱.

«يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ»: السرائر جمع السريرة و هي الطوية في النفس أو غيرها، من أسرار و أفكار، و إبلائها إظهارها، فإنه ظهور الحقيقة بعد خفائها، و بالبلاء يـظهر الخفاء، فعامة السرائر سوف تظهر كأشهاد، يوم تقوم الأشهاد:

مما أسره الإنسان في نفسه أو أبداه: «إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» (٢: ٢٨٤) فما يبديه أيضا يبقى سرا يسجّل في المسجلات الإلهية، ثـم لا يبقى سر مما أسره أو أبداه إلا و يبلى يوم تبلى السرائر، و قد يعد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمثال الصلاة و الزكاة من السرائر التي سوف تبلى[١] حال أنـها ليست من الأسرار الخافية إلا شذرا نذرا فيما يخفيه صاحبه، إلا الصوم الذي هو سر بطبعه، و قد عده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في عداد غير الأسرار كالصلاة و الزكاة.

إن السرائر المكنونة و المطوية سوف تبلى، تخرج عن ظلمات الأسرار بطوارق الأشهاد، بإرادة اللّه، و كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر، و كما ينفذ الحافظ إلى المحجوبة بالسواتر، كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة و كل ناصر:

---

١. في الدر المنثور ٦: ٣٣٦، أخرج البيهقي في شعب الايمان عن أبي الدرداء قال:

قال رسول اللّه (ص): ضمن اللّه خلقه أربعة: الصلاة و الزكاة و صوم رمضان و الغسل من الجنابة و هن السرائر التي قال اللّه «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ».

«فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ»: فلا هناك له قوة ذاتية تدافع عنه، و لا ناصر عرضي يناصره، فيا له من ضعف مضاعف حين تتكشف أسراره في نهاية المطاف، و عند انقطاع الأعمال و الآمال! وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ[1]:

إن الكائنات كلها رجعيات، ترجع إلى ما كانت، و ترجع أماناتها كما أخذت: فالسماء سوف ترجع دخانا كما كانت: «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ» و هي ترجع أماناتها إلى الأرض دوما: من أبخرة المياه الصاعدة إليها، إذ تتحول ثلوجا و مياها، ثم توزع في أكناف الأرض حقا و عدلا، هذه السماء لا تتأبى عن رجوعها لقيامتها، و لا عن رجعها أماناتها، على عظمتها و سعتها! فهل إن هذا الإنسان الصغير الصغير يتأبى عن رجعه؟ أو يقدر أن يخبئ أعماله و أفكاره في نفسه و في الأشهاد؟! وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ:

تتصدع لقيامتها، و تنصدع عن مواليدها، كأم تلد مواليدها بنطف المياه السماوية: ماء دافق يخرج من صلب السماء، و بالبذور المخبئة في ترائب الأرض، فتلد مواليد النباتات، و من ثمّ الحيوانات.

أ فلا تدل السماء برجعها، و الأرض بصدعها، و الطارق بثقبها، على إمكانية رجع

---

١. الرجع استعمل لازما و متعديا «لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ» «لئن رجعك الله إلى طائفة» و هما المقصودان هنا معا.

الإنسان شاء أم أبى، و عدل اللّه و رحمته يفرضان هذا الرجع، و لتجزى كلّ نفس بما تسعى! ثم قسما بسماء الرسالات الإلهية، التي ترجع أمانات الوحي إلى أصحابها، و قسما بأراضي القلوب المتصدعة بآيات الوحي النازلة لها:

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ:

الهزل هو كل كلام لا تحصيل فيه تشبيها بالهزال، فللقرآن تحصيل قولا و مصداقا، فهو فصل مقالة و خبرا، يفصل بين الغث و السمين و الخائن و الأمين، فهو مقالة يدل بحكمته على أنه كلام اللّه جدا، و ليس هزلا، و هو خبرا ـ و من بين أخباره ـ خبر صدق: أن الإنسان سوف يرجع لفصل القضاء، كما السماء و الأرض راجعتان، فالكائنات كلها راجعة إلى ربها، مؤدية أماناتها! فليكيدوا ـ إذن ـ كيدهم، فما ذا يؤثر كيدهم، فما كيد الكافرين إلا في ثياب:

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً. وَ أَكِيدُ كَيْداً. فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً:

كيد بكيد، جزاء وفاقا، و أين كيد من كيد؟ فهم يكيدون جهالا عجزة خونة، يظنونهم ألّا حراسة عليهم و لا حول و لا قوة! و اللّه يكيد بتسجيل أعمالهم، و إملائهم «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (٧: ١٨٣)، و بالختم على قلوبهم، و عدم تأييدهم للخير إذ تركوه عمدا، و عدم الفصل بينهم و بين شرّهم إذ اقترفوه عمدا، ثم

يفاجئهم يوم تقوم الأشهاد بالأشهاد، فما له من قوة و لا ناصر! «أَمْ يُرِيدُونَ كَـيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ» (٥٢: ٤٢).

فأنا «الله» إذ أمهلهم، ليس عن عجز و قصور، أو جهل و فتور: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَـذابٌ مُهِينٌ» (٣: ١٧٨) «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ. إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ».. أنا أمهلهم هكذا، فأنت أيضا:

«فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً»: فقد يكفيهم كيدي رغم إمهالهم، فمهّلهم مـدى حياة التكليف دون جزاء وفاق، فاليوم عمل و لا حساب، و غدا حساب و لا عمل.

و امهلهم رويدا: قليلا: أترک كفاحهم إلى حين، و حتى تؤمر به، إذ كان الأمر في مكة تركا، و لعدم الإمكانات الحربية، و في المدينة حربا، دفاعا و انتقاما.

ثم ـ و لجزاء أشدّ و أنكى ـ أمهلهم إلى القيامة الوسطى: قيام القائم المهدي عليه السّلام الذي يدمّرهم تدميرا[1].

ثم أمهلهم للقيامة الأولى: الموت، إلى العذاب ـ شيئا مّا ـ في البرزخ.

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٥٣ ح ١٩ في رواية القمي عن المعصوم في الآية: «لو قد بعث القائم (ع) فينتقم لي من الجبارين و الطواغيت من قريش و بني أمية و سائر الناس»

أقول و هذا من التفسير ببعض المصاديق.

ثم للقيامة الكبرى، إذ يلاقون فيها جزاءهم الوفاق، و لا يظلمون فتيلا.

فهنا تمهيل إلى يوم الدين، و هناك إمهال رويدا رويدا، إلى الحرب و إلى دولة القائم، و إلى نار البرزخ، ثم إلى آخر المطاف في التمهيل[١].

سورة الأعلى ـ مكية ـ و آياتها تسع عشرة

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى (٣) وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى (۴)

فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (۵) سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى (۶) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى (٧) وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (٩)

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (١٠) وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١۴)

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١۵) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (١۶) وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى

---

١. بناء على ما فسرناه يختلف التمهيل عن الإمهال دون أن يكون تكرارا، و قد يوحي إلى ذلک نفس صيغة التفعيل و هي للتكثير و هو يعني هنا المهلة الكثيرة، و صيغة الإفعال و هي للدفعة، و هي تعني المهلة القليلة.

(۱۷) إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (۱۸) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى (۱۹)

«سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى» ۱:

هنا و هناک الربّ يتبارک بذاته القدسية، و يأمر بتسبيحها و ذكرها، و قد يحلّ محلّها اسمه تعالى: «فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (۲۳: ۱۴) «تَبارَکَ اسْمُ رَبِّکَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ» (۵۵: ۷۸) «يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» (۶۲: ۱) «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ» «اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً» (۳۳: ۴۱) «وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّکَ» (۷۳: ۸).

فما هو تسبيحه؟ و ما هو تسبيح اسمه؟

التسبيح هو التنزيه عما لا يليق ـ أيا كان ـ في ذاته تعالى أو صفاته أو أفعاله، فتسبيح الذات هو تقديسها عن ذوات الممكنات، فذاته خلو من ذوات المخلوقين، كما أن ذواتهم خلو من ذاته:

«لا هو في خلقه و لا خلقه فيه، هو حلو من خلقه و خلقه خلو منه»[1]،

فلنذكر ذاته القدسية و نسبّحها و نباركها كما هو أهله و مستحقه.

ثم الاسم منه لفظي، و منه وصفي، و منه عيني، فإذا نذكره باسم لفظي ليدل عليه،

---

۱. عن الامام الرضا (ع) التوحيد للصدوق.

فلنسبّح اسمه عن أسماء المخلوقين، الدالة على النقص و الحدوث:

«وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ» (٧: ١٨٠)

«سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (٣٧: ١٥٩): فإنهم لا يصفونه و يسمونه إلا بما وصف به نفسه و سماها.

و أسماؤه الوصفية هي صفاته تعالى، ذاتية و سواها، فلنسبّحه في صفاته عن صفات المخلوقين، مهما تشابهت التعابير، فلا نعني من: أنه تعالى عليم قدير حي، ما نعنيه من مفاهيم و معاني في خلقه، بل: أنه لا يجهل و لا يعجز و لا يموت، فليس لنا إلا السلب، نعني به إيجاب سواه، رغم أننا لا نحيط به علما.

و أسماؤه العينية هي خلقه كما خلق و هدى، لا بما غيّروا بأنفسهم: فمن أسمى هذه الأسماء هم أطيب الطيبين من المعصومين المكرمين، محمد و آله الطاهرين، فإنهم من هذه الأسماء الحسنى، كما و علمهم اللّه آدم دون ملائكته:

«وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (٢: ٣٢).

عرضهم ـ لا عرضها ـ فالأسماء هنا «هؤلاء و هم» و لهم أسماء جهلها الملائكة، فما أقدسها أسماء: دلالة على القدسية الإلهية! و ما أكرمها ذوات! ثم الكائنات كلها

أسماء اللّه، الدالة عليه، بما هي مخلوقات، لا و المختلقات الزائدة الناقصة من انحرافاتها و انجرافاتها.

«اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى»: فهل في الكون أرباب عدّة هو أعلاهم؟ نقول:

أما أرباب مفوّضون مستقلون؟ فلا! و إنما الكلّ مربوبون لرب العالمين، فالقوى الروحية ـ الملائكية و البشرية ـ تربي، و لكنها بإذن اللّه، برسالة الوحي أم سواه، و القوى المادية تربي، إلا أنها بإذن اللّه، فكل القوى المربية ترجع إلى اللّه تكوينيا و تشريعيا، لا تملك لأنفسها نفعا و لا ضرّا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا، و سبحانه تعالى من ربّ أعلى، أن يكون معه أرباب متشاكون، مستقلون أو مسموح لهم، و إنما مربوبون يربون بإذنه تعالى.

و لأن التربيات كلها راجعة إلى الرب الأعلى، فليسبّح اسمه لا سواه، فلا يقرن اسمه بسواه، و كما أمر الرسول الأقدس أن نسبّحه تعالى هكذا في سجود الصلاة قائلين: سبحان ربي الأعلى[1] و كما أمرنا أن نقولها إذ نسمع الآية أو نقرؤها[2].

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٥۴، العياشي عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِيمِ» قال رسول اللّه (ص): اجعلوها في ركوعكم، و لما نزلت «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى» قال (ص): اجعلوها في سجودكم، و أخرجه أحمد و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن الجهني مثله (الدر المنثور ۶: ۳۳۸).

٢. أخرج أحمد و أبو داود و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول اللّه (ص) كان إذا قرأ سبح اسم ←

و علّ الأعلى هنا تعني ـ فيما تعنيه ـ أعلى درجات الربوبية في تربية الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمكان «ربک» لا «رب العالمين» و كما الإنسان ـ ككل ـ احتل بين الخلق أحسن الخلق: «فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» فلا خالق سواه، و إنما جمع الخالقين ـ علّه ـ يعني خالقياته تعالى، فكذلک «رَبِّکَ الْأَعْلَى»:

أعلى الربوبيات.

و نستوحي من هنا: لماذا

كان الرسول عليه السّلام يحب هذه السورة[١]؟

فحقّ له أن يحبّها و هي تتضمن تسبيح ربه الأعلى، و هي تختصه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمكانة مرموقة من التربية الإلهية هي الأعلى بين ملاء العالمين من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين! فليسبح ـ إذن ـ اسمه تعالى أيا كان، و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا اسمه، و أعظم أسمائه العينية، فلينزّه تربيته الرسالية و

← ربک الأعلى، قال: سبحان ربي الأعلى (الدر المنثور ۶: ٣٣٨).

في المجمع قال الباقر (ع) إذا قرأت «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى» فقل: سبحان ربي الأعلى، و إن كنت في الصلاة فقل فيما بينک و بين نفسک»

أقول: يعني بها غير حالة السجود.

١. نور الثقلين ۵: ٥٢٣ عن علي (ع) قال: كان رسول اللّه (ص) يحب هذه السورة.

قبلها، عما لا يليق بالرسالة العليا، و ليعرف أنه أوتي ما لم يؤت أحد من العالمين، و ليعلم مع ذلک أنه لا يملک شيئا:

«وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْکَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْکَ كَبِيراً» (۱۷: ۸۷).

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى:

سبح اسمه کرب العالمين، و من ربوبيته الخلق و التسوية و التقدير و الهداية:

«رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى» (۲۰: ۵۰) هداية عامة: من تكوينية لا عن شعور للمهتدي، أم غريزية، أم فطرية، أم فكرية عـقلانية اخـتيارية، و مـن تشريعية، ثم و تكوينية بعد تطبيق الشريعة:

«و لو ضربت في مذاهب فكرک لتبلغ غاياته ما دلتک الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة، لتدقيق تفصيل كل شيء و غامض اختلاف كل حيّ، و ما الجليل و اللطيف و الثقيل و الخفيف و القوي و الضعيف في خلقه إلا سواء (عن علي عليه السّلام).

وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى. فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى:

المرعى كلّ نابتات الأرض، التي يأكلها إنسانها و حيوانها، رطبا و يابسا، ما دام

خضرا نضرا، ثم يجعله اللّه غثاء: يطفح على المياه، أو تفرقها الرياح، أو متفرقة في بطون الأرض، «أحوى»: شديد السواد، و منه الفحوم الحجرية، التي تصنعها يد القدرة الإلهية، لمكان «جعله» و إن كان يشمل الفحوم الأخرى أيضا، فإن صنع الإنسان من صنع اللّه، لأنه بعقله و بصنعه من صنع اللّه.

و كما المرعى يفيد، كذلك غثاؤه الأحوى يفيد، يفيد فعلا حرارة مطبوعة للدفء و الطبخ، و يفيد أحيانا غذاء لذيذا: دهنا و صبغا لآلكلين، عملية شجرة الزيتون، كما اخترعوه في القرن الأخير[1].

سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى. إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى:

أقرأه: جعله قارئا بعد أن لم يكن، و بما أن الرسول كان قارئا القرآن منذ نزوله و حتى نزول آية الإقراء، فليكن الإقراء ـ هذا ـ غير الذي كان، و النص هنا: «فَلا تَنْسى» يميزه بعدم النسيان، المتفرع على هذا الإقراء الخاص، فلقد كان حتى الآن

---

١. في مجلة مصرية مؤرخة ٢٣ أغسطس ١٩٢٥ م: «نشرت (التاجليشه رونتشا) خبرا مؤداه: أن حكومة برلين و بروسيا قد منحتا شركة (ايفانج) إعانة قدرها مليونان و خمسمائة مارك ذهبا، لتنشئ بها مصنعا لاستخراج الزيت من الفحم على طريقة (برجيوس) و سينشأ هذا المصنع في (فنسلاوس) في (سيليزيا) السفلى، و يجهز بآلات تستطيع أن تصفي مائتي ألف طن من تراب الفحم سنويا.

و مخترع هذه الطريقة هو الأستاذ (برجيوس / من (هيدلبرج) اخترعها في سنة ١٩٠٣ م، و خلاصتها أنه يستصفي تراب الفحم مع الهيدروجين في جو يصل الضغط فيه إلى مائة و خمسين أو مائة درجة.

يقرأ، و كان يكرر الآيات لكي لا ينسى[1]، محاولة بشرية لحفظها، و لكنها ليست بالتي تطمئن الإنسان، فقد ينسى ـ رغم كافة المحاولات ـ و قد ينسى أنه ناس.

و العصمة ـ و لا سيما في الرسالة الأخيرة الخالدة ـ إنها لزام الرسالة: في تلقي الوحي و إلقائه و تطبيقه، و إلقاء الوحي كما أوحي، بحاجة ملمة إلى الحفظ الدائب، و دون تكلّف زائد، و ليكن كل محاولاته في تبليغ الوحي و تطبيقه.

فهذه بشارة له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم برفع عناء الحفظ، تريحه و تطمئنه على القرآن، بحفظه في قلبه و على لسانه، و كما وعد بالحفاظ عليه في أمته و إلى يوم الدين عن تحريف المبطلين، و إدغال الدجالين، و قد عرفناه مسبّقا، و كما وعده بجمعه و قرآنه كتابا مفصلا، بعد نثره في نزوله نجوما حسب الحاجات: حفظا مركزا لا تتخلله أية ريبة و شائبة.

و لقد كان القرآن ينزل على قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل

---

١. الدر المنثور ٦: ٣٣٩، أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «كان النبي (ص) إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يزمل من ثقل الوحي حتى يتكلم النبي (ص) بأوله مخافة أن يغشى عليه فينسى، فقال له جبريل: لم تفعل ذلك؟ قال:

مخافة أن أنسى، فأنزل اللّه «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ»

و فيه عنه أيضا: كان النبي (ص) يستذكر القرآن مخافة أن ينساه، فقيل له كفيناك ذلك و نزلت «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى».

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِکَ»، ثم أخذ يمزج قلبه المنير، و يدخل شغافه لحدّ أصبح قلبه قرآنا لم يبق مجال لنسيانه.

فالنازل على السمع قريب إلى النسيان، ثم بعيد عنه إذا نزل إلى القلب، ثم مستحيل إذا ضمن اللّه تعالى عدم النسيان، و هكذا استمر وحي القرآن على قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون أن ينسى و لا حرفا منه أو نقطة!.

«إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ»: سنقرئک من القرآن ما يحمل كل شيء، إلا ما شاء اللّه ثم اختصاصه بذاته المقدسة من علوم الغيب[1]، فقد استقصى اللّه في القرآن ما كان و ما يكون و ما هو كائن، و قصّه للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يستثن إلا ما شاء اللّه اختصاصه بنفسه المقدسة، فآية الإنساء ـ إذا ـ من آيات أن محمدا لم ينس ما أقرأه ربّه!.

«فَلا تَنْسى إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ»: و احتمال ثان أن يكون الاستثناء بالمشيئة عن «فَلا تَنْسى»: لا تستطيع دوافع النسيان و عوامله أن تنسيک شيئا من القرآن على وجه الإطلاق، فإن اللّه غالب على أمره، و لئن كان هناک عامل ـ و لن يكون ـ فلتكن مشيئة اللّه، و لا يعني هذا الاستثناء أن اللّه ينسيه شيئا مما أقرأه، فإنه أسوء العسرى

---

١. هذا إذا كان المستثنى منه هو الأقراء، و لأنه أصل الكلام، و حينئذ لا مجال لشطحات المبشرين، مزمرين و مطبلين أنه (ص) نسي شيئا من القرآن.

بعد إذ وعده باليسرى: «فَلا تَنْسى»!.. و إذا كان هنا موقع للنسيان، فما هو موقع التعليل؟: - «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى»؟ فهل هو إلا تأكيدا لعدم النسيان، فما النسيان إلا من ضعف الإنسان، و قد جبر بالإرادة الإلهية: «فَلا تَنْسى» أو من الجهل بعوامل النسيان ظاهره و خافيه، ف: «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى» أو بدافع الضغط على النبي في نسيان القرآن، فلما ذا - إذن - بشّره: «فَلا تَنْسى»؟

و لماذا وعده دون فصل:

وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى:

و لماذا ينسيه ما يأمره بتذكيره؟:

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى:

ليس الجواب إلا أن الاستثناء هنا من الإقراء، و إذا كان من «فَلا تَنْسى» فلما يأتي:

١ - إن الاستثناء بالمشيئة هنا قد يكون كما في شعيب عليه السّلام: «قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب و الذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين. قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها و ما يكون لنا أن نعود فيها إلا إن يشاء الله ربنا..»

(٧: ٨٩)، فهل بالإمكان ـ واقعيا أم عقليا ـ أن يشاء اللّه عود رسوله و المؤمنين في ملة الشرک، فليمكن ـ إذن ـ أن يشاء نسيان محمد قرآنه العظيم! ٢ ـ و قد يكون الاستثناء هنا لكي يعلن ربّنا أنه ليس مسيّرا في استبقاء وحي القرآن في قلب الرسول، و ألّا ينسى، و كما في القرآن كله: «وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْکَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْکَ كَبِيراً» (١٧: ٨٦) و كما ترک الوحي عليه ردما من الأيام لحد ظن صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه تعالى ودّعه أو قلاه، حتى نفاه تعالى: «ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلى». كل ذلک لكي يعلم النبي و نعلم معه، أنه لا يستقل في وحي القرآن.

و مهما يكن من شيء فلا دلالة هنا على ما يهواه المبشرون من أن محمد نسي من القرآن و هذا يتنافى و عصمته في البلاغ[1].

وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرى. فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى:

---

١. من هؤلاء الأستاذ الحداد اللبناني، إذ يقول فيما يقول: الظاهرة الأولى نسيان النبي بعض ما يوحى إليه «سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرى» فالاستثناء «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ» يفيد بأن اللّه قد يشاء أن ينسي النبي بعض ما يوحى إليه، فهل يصح أن يوحي اللّه شيئا ثم يأمر بنسيانه. هل كان النسيان مقصودا؟ آية التبديل (نحل ١٠١) و آية المحو (رعد ٤١) توحيان بأن النسيان قد يكون مقصودا من اللّه و من النبي، فكيف تنسجم العصمة في البلاغ و التبليغ مع مبدإ النسيان و واقعه» (من كتابه الكتاب و القرآن) و قد أجبنا عنه في كتابنا «المقارنات» (ص ١٩٤ ـ ٢٠٥) و سوف نبحث عن آيتي التبديل و المحو في محالها.

فهناک يسرى في تلقي الوحي: ألا يشتبه عليه وحي الرحمان بوحي الشيطان، و يسرى في تبليغه: ألا ينساه، و يسرى في تطبيقه: أن يلائم حياة الإنسان إلى يوم القيام، مهما كانت هنا و هناک عسرى في الدعوة في جهات أخرى: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» و يسره يغلب عسره، عسر مؤقت و يسر دائم!.

و اليسرى هي الحياة اليسري: أيسر الحياة، في أعسر الظروف و المجالات، و قد يسره ربه: «نيسرک» لا أنه «يسر له» مما يدل أن اللّه جعل الرسول يسرا في ذاته، يسرا في إمكانياته، مهما كانت الظروف صعبة ملتوية.

«فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى»: فبما أنک لا تنسى وحي الرسالة، و أن اللّه يسرک لليسرى، فذكر إن نفعت الذكرى: نفعت بالفعل: «لمن أراد أن يتذكر أو أراد نشورا» و لتعش الذكرى حياتک كما عاش ذكر اللّه قلبک، و أخذ كتاب اللّه شغافه، فذكّر حيثما تجد فرصة للذكر، و منفذا إلى القلوب، و وسيلة للبلاغ، و حاول كافة المحاولات في خلق مجالات للذكر علّهم يتذكرون، و لا تقل: العالم كالبيت يؤتى و لا يأتي! فهذا نفع فعلي للذكرى لمن أراد أن يتذكر، أو أنها تحثه لإرادة الذكر، و أما من لا يتذكر بها، فنفع الذكرى له ليس إلا أنها حجة عليه: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» فذكرهم لحدّ الحجة، فإن الذكرى عذر أو نذر، ثم تصبح لغوا

إذ لا نذر و لا عذر، إذا فذكرهم ثم ذرهم: «وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ... أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا..» (۶: ۷۰) و الابسال التسليم للـهلاک بسوء العمل، و ما لم تكن الذكرى لم يكن العمل سوءا.. ثم اترک الذكرى حين لا ينفع لا هدى و لا حجة، لمن ثبتت عليه: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا» (۵۳: ۲۹).

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى. وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى. ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى:

فنفع الذكرى لمن يخشى هو أن يخشى، و للأشقى أن يتجنبها عن حجة فيصلى النار الكبرى: «وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (۱۷: ۱۵).

«ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها»: فلا يحسّ عذابها و يـرتاح مـنها «وَ لا يَـحْيى»: عـائشا كالأحياء، لامسا طراوتها، متنحيا عن ضراوتها، فلا الموت يدفع عنه عذابها، و لا الحياة تجلب له متطلباتها، فهو بين الموت و الحياة: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَ هُـمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُـمْ مـا

يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِـنْ نَـصِيرٍ» (٣٥: ٣٧) تأتيهم بواعث الموت، و لا يأتيهم قضاؤه، فبالحياة هناك إنما يذوقون آلام الموت، و بالموت يحرمون آمال الحياة.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى:

إن التزكي هنا هو التطهر عن كافة التعلقات بما سوى اللّه، بالنفس و النفيس، و بالأهلين، التعلقات المادية و المعنوية، إلّا ألّا يؤصّلها، و إنما يتذرعها إلى اللّه دون أن يحسب لها حسابا إلا هذا الحساب، فلو أمكنه تحصيل مرضاة اللّه بغيرها لرفضها، و لم ينظر إليها أبدا، فهو ـ إذا ـ يعيشها ليعيش مع اللّه حياة طيبة.

قد أفلح المتزكي هكذا، فالتزكي هو الوسيلة الوحيدة لإفلاح السبيل، و نـجاح الدليل، ف «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، و من لم يخف الله أخافه الله من كل شيء» عن الإمام الرضا عليه السّلام.

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى:

فبما أن الصلاة معراج المؤمن و لقاء اللّه، فهي للتحلية و التجلية، فلا بد لها قبلها من تزكية و تخلية، ثم لا بد للصلاة من افتتاحية تعلن أن صاحبها تزكى:

و علّها تكبيرة الإحرام «الله أكبر»: أكبر من أن يوصف، فلا كبير معه حتى يكون

هو الأكبر، و إنما أكبر من أن يوصف، ثم رفع اليدين عندها إلى شحمتي الأذنين، إنه يعلن حقيقة التكبيرة: أنها جعل ما سوى اللّه وراءک ظهريا، ثم أن توجه وجهک للذي فطر السماوات و الأرض.

و من ذكر الرب ـ و أفضله ـ البسملة مفتتح الحمد، فالصلاة بلا تكبيرة و بسملة، دخول في الدار، دون استئذان و استئناس من صاحب الدار! هذا ـ و المروي عن الرسول الأقدس يوافق الآية شمولا لأصناف الزكاة و الصلاة، و على حد

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من شهد أن لا إله إلا الله و خلع الأنداد و شهد أني رسول الله، و ذكر اسم ربه فصلى: هي الصلوات الخمس و المحافظة عليها و الاهتمام بمواقيتها[۱]»

فإذ يفسرها صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ـ أيضا ـ بزكاة الفطرة و صلاتها أو الصلاة على الميت، يعني به تفسير المصداق[۲].

---

۱. الدر المنثور ۶: ۳۳۶، أخرج البزاز و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه عن النبي (ص) في قوله: قد أفلح من تزكى، قال:..

۲. المصدر عن النبي (ص) أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد و يتلو هذه الآية.

في نور الثقلين ۵: ۵۵۶ من لا يحضره الفقيه: سئل الصادق (ع) عن هذه الآية فقال: من أخرج زكاة الفطر، قيل له: و ذكر اسم ربه فصلى، قال: خرج إلى الجبانة فصلى»

أقول يحتمل الصلاة على الميت و كذلک صلاة الفطر.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا. وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى. إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى. صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى:

بل تؤثرون الحياة الدنيا على الحياة العليا، و هي تمنع العباد من سخط اللّه، و على حد

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم ثم قالوا: لا إله إلا الله ردت عليها و قال: كذبتم»[1].

ثم إن الصحف الأولى، و منها صحف إبراهيم و موسى، إنها تصدق ما في هذه

---

١. الدر المنثور ۶: ٣۴٠، أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن أنس قال: قال... و فيه أخرج عن ابن عمر أن النبي (ص) قال: لا يلقى اللّه أحد بشهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريک له إلا دخل الجنة ما لم يخلط معها غيرها ـ رددها ثلاثا ـ قال قائل من قاصية الناس:

بأبي أنت و أمي يا رسول اللّه! و ما يخلط معها غيرها؟ قال: حب الدنيا، و أثرة لها، و جمعا لها، و رضا بها، و عمل الجبارين.

فيه أخرج أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه (ص) قال: من أحب دنياه أضر بآخرته، و من أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

فيه عن عائشة عنه (ص) قال: الدنيا دار من لا دار له، و مال من لا مال له، و لها يجمع من لا عقل له، و فيه عن الحسن قال: قال رسول اللّه (ص): حب الدنيا رأس كل خطيئة.

في نور الثقلين ۵: ۵۵٧ عن علي بن الحسين (ع) «الدنيا دنياءان دنيا بلاغ و دنيا ملعونة و أمل لا يدرک و رجاء لا ينال».

السورة من أن ربوبية الرب بالنسبة لرسولنا الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هي أعلى الربوبيات بين حملة الرسالات، مسبّحة مقدسة في كتابات الوحي من قبل كما فصلناه في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية)، كما و أن عدم نسيان القرآن و تيسيره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأمر الرسالة، هما في الصحف الأولى، و ما يروى أن الآيات الأربع الأخيرة هي في الصحف الأولى، هو من باب التطبيق[۱]، فالمشار إليه هو كل ما في السورة، و كما عن نفر من أصحاب النبي و التابعين[۲].

ثم القرآن بصورة عامة، فيه نسخة ما في الصحف الأولى «أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى»، و على حد

قول علي عليه السّلام: «فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى و تصديق الذي بين يديه و تفصيل الحلال من ريب الحرام»[۳].

و لا يعني أن القرآن ترجمة لهذه الصحف، و لا سيما الموجودة منها الآن، لأنه

---

١. كما في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبي ذر قال: قلت يا رسول اللّه (ص) هل أنزل عليك شيء مما في صحف ابراهيم و موسى؟ قال: يا أبا ذر! نعم «قَدْ أَفْلَحَ... وَ أَبْقى -إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى.

٢. كابن عباس و سعيد بن المسيب و السدي و أبي العالية و قتادة و عكرمة كما في الدر المنثور ۶: ۳۴۱.

٣. نور الثقلين ۵: ۵۵۸ ح ۲۲۸ مسعدة بن صدقة عن أبي عبد اللّه (ع) عنه (ع).

يكذب شيئا كثيرا من محرفاتها و خرافاتها الدخيلة، و يصدّق بعضا تكـميلا له أو نسخا و كرمز للخلود[1].

سورة الغاشية ـ مكية ـ و آياتها ست و عشرون

[سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱ الى ۲۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (۲) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (۳) تَصْلى ناراً حامِيَةً (۴)

تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (۵) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (۶) لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (۸) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (۹)

فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۱۰) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (۱۱) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (۱۲) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (۱۳) وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (۱۴)

وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (۱۵) وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (۱۶) أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹)

---

۱. تجد تفصيل البحث عن نسبة القرآن إلى الصحف في كتابنا (المقارنات) من ص ۱۴۷ جوابا عن شطحات الحداد، و تجده أيضا في طيات الآيات المناسبة.

وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (٢٦)

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ:

الغاشية ـ جمعه غواش ـ من أوصاف الساعة، مبالغة في الغشي: الستر الشامل، و الساعة تغشى الناس حشرا: «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» (١٨: ٤٧) كما تغشاهم إماتة في قيامتها: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ» (٤٤: ١١) و تغشى الكفار منهم عذاب النار: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ» (٧: ٤١)، و في غاشية الحشر:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ:

تقسيم ثنائي للذوات الشريرة و الخيّرة، فالوجوه هنا هي الذوات، حيث الضمائر و الصفات و الأفعال الراجعة إليها، لا تناسب إلا الذوات[١]، عبّر عنها بالوجوه لا تجاهها نحو العرض و الحساب، و استقبال الساعة لهم بوجوهها كلها.

---

١. فالخشوع و صلي النار و السقي من عين آنية و صلي النار الحامية، و طعامهم، ثم الراضية، و عدم سماع اللاغية.. كل ذلك لا يناسب إلا الذوات.

ثم هذه الوجوه تشمل وجه الظاهر و الباطن، و من الباطن: وجه العقل و الصدر و القلب و السر و الخفي و الأخفى، وجوه سبعة تغشاها الساعة، فهي ـ كلها ـ خاشعة: «وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» (٤٢: ٤٥).

و الخشوع هو الضراعة سواء في الظاهر أو الباطن، ما لم يقرن بما يدل على الأول، و إن كان هو الأكثر استعمالا، إذا فغاشية الساعة تغشى الوجوه كلها فتصبح خاشعة كلها.

عامِلَةٌ ناصِبَةٌ:

عاملة عملت في دنياها لهواها، و هنا تحصد نصبها و تعبها، و عاملة تعمل يوم الغاشية، متعبة نفسها لخلاصها، و لات حين مناص، و مضى دور الخلاص، فقد مضى دور العمل و الأمل، فلا أمل و لا عمل، و هي بعملها يوم الدنيا، هنا وقود للنار تصلاها:

تَصْلى ناراً حامِيَةً:

توقد نارا قدّمها من قبل، و هي ذات حمى: «ولادة و إيلادا»: ولدت من الجواهر المحمية، من جواهر ذواتها الشريرة، و تولد حمى: حرقة حاسمة، لا تبقي و لا تذر. لوّاحة للبشر، و كما حمت يوم الدنيا في جحيم ذواتها، و أحرقت ضميرها و فطرتها،

جوّها و مجتمعها! تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ:

عين بلغت إناها لشدة غليانها، حامية آنية: «يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ» (۵۵: ۴۴) «وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ» (۴۷: ۱۵).

لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ

لا يطعمون إلا الضريع، فما هو الضريع؟ نقول: إنه من الضراعة، فطعام أهل النار يضرعهم و يذلهم و يبكيهم، بدل أن يفرحهم و يغنيهم، و من المضارعة: المشابهة، فإن طعامهم يشبه الطعام و ليس به، و لذلک لا يسمن و لا يغني من جوع، و هما الأصلان في خواص الطعام، فليس الضريع طعاما من سنخ واحد، و كما أن وصفه هنا يشهد، و كما اللغة تشهد، فإنها لا تعرف طعاما خاصا اسمه ضريع، و كذلک سائر القرآن يشهد، إذ يذكر لهم أطعمة عدة كلها ضريع بمعنييه، كالزقوم: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» (۴۴: ۴۶) و غسلين: «وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ» (۶۹: ۳۶) «وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ» (۷۳: ۱۳) غصة و غم في أرواحهم، و غصة في الحلقوم، فطعامهم كله ذا غصة ضريع، لا يسمن و لا يغني من جوع، كما أن كله غسّاق:

«إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً» (۷۸: ۲۵) يغسق و يظلم على آكله حياته، و يحبّذ إليه

مماته: يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً».

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ. لِسَعْيِها راضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ. لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً:

لم يعطف الوجوه الناعمة على الخاشعة للبون البعيد بينهما، و عدم الانعطاف بينها و بينها، فهذه ناعمة ناضرة ضاحكة مستبشرة مبيضة، و تلك خاشعة مسودة باسرة عليها غبرة ترهقها قترة[1]، فأين وجوه من وجوه! و كيف يعطف بينهما و إن في التعبير؟

هذه ناعمة: ظاهرة البهجة و السرور، من النعومة: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ» و ناعمة: متنعمة يبدو عليها النعيم، و يفيض منها الرضى:

«لِسَعْيِها راضِيَةٌ»: راضية عما سعت، مرضية لربها، فهي عاملة في دنياها، راضية في أخراها، دون نصب و تعب، خلاف العاملة الناصبة.

«فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ. لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً»: كلمة ذات لغو، فالنار فيها كل كلمة لاغية، يتلاغى أهلها فيها، و الجنة خلو عن أية لاغية، يتلاقى أهلها مع بعض و مع خزنتها بكل حنان و احترام، كلماتهم حكمة، و حركاتهم حكمة، و لأنهم دخلوها بالمعرفة و الحكمة، فليست هي إذا مكان اللهو و اللغو و الغفلة عن اللّه، و لا التحرر عن قيود

---

١. كما في الآيات ٣: ١٦ و ٧٥: ٢٤ و ٨٠: ٤٠.

العقل و الإيمان و المعرفة، رغم أنها ليست بدار التكليف، فالواجبات التي هي لزام العبودية و المعرفة، و المحرمات التي تنافيها، إنها تبقى على حالها في الجنة، و لكنها تطبّق هناک دون تكلّف و بلاء، و إنما الابتلائية منها و الامتحانية، هذه هي التي تترک فيها، إذ لا بلاء هناک و لا تكليف، ففيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين، و لكن أهلها لا يشتهون الظلم و الضيم، و لا يلتذون بالمحرمات الذاتية، لأنهم ظهروا على الحقائق كلها و ظهرت لهم، و أنها ليست دار التزاحم و اللااطمئنان: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ» (۴۴: ۵۱) «وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ» (۴۷: ۳۶) فلا أضغان تدفع إلى المنافرات، و لا تزاحم ينافي الأمن، «وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ» (۱۵: ۴۷).

فهذه هي الجنة العالية، و ليست دانية فيها الرذالات و جماع العادات و التصرفات السيئة، أن أهلها تركوا المحرمات لفترة قصيرة يوم الدنيا، و لكي يتحرروا فيها لغير النهاية! و تفصيل هذا البحث إلى محالها المختلفة في طيّات الآيات.

هذه هي اللذة الروحانية في جنة الرضوان، ثم تتلوها الجسدانية في جنة النعيم: فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ. فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ. وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ. وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ:

عين جارية: جنسها، و ليست صنفا خاصا، أو عينا واحدة، و إنما ينابيع متدفقة من تسنيم و سلسبيل، و الماء الجاري يجاوب الحسّ بالحيوية، و الروح بالانتفاض و الانقباض، و السرر المرفوعة لها جمالها و جلالها، و الأكواب جمع كوب: قدح لا عروة له، رمزا إلى سعتها، و لأن العروة تجمع القذارات تحتها، و ليست جمع الكوبة: الطبل الذي يلعب به، فليس في الجنة لغو و لا تـأثيم، و النـمارق هـي المسـاند. مصفوفة بعضها إلى بعض. و الزرابي هي البسط الفاخرة، مبثوثة منتشرة على أرض الجنة، للزينة و الراحة سواء.

فهذه هي البعض من أثاث بيت الجنة، فيها اللذة كلّها، و الراحة تمامها، و المتعة بكاملها، دون تعب و عناء، أو شغب و شقاء.

أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ:

حض النظر إلى ما حضر لعرب البادية، و ليس إلا الإبل التي يعيشها، و الأرض التي يطؤها، و الجبال التي يراها، و السماء التي فـوقه، قـطعا للأعـذار، و تـقريبا للأنظار، فلا أحد إلا و يعيش براهين على وجود اللّه تعالى، لا يستطيع التحلل عنها، حتى عرب البادية الذين يعيشون أنفسهم بآبالهم، و هي كل ما يملكون حياتهم، و من الغريب أنها أكمل الحيوان و أنفعه و أجمعه لصالح المعيشة و الراحة:

فهي ركوبهم بأحمالهم، و منها شرابهم و إدامهم، و من أوبارها و جلودها ثيابهم و فرشهم: كمواد أولية للحياة، ثم إن لها خصائص تخصها بين الحيوان:

فهي على عظم منافعها قليلة التكاليف، صابرة على الجوع و العطش و الكدح، تأكل ما لا يأكله سائر الحيوان، و هي على قوتها و ضخامتها ذلول يقودها الصغير فتنقاد له، و تنهض بحملها و هي باركة، بخلاف سائر الحمولة، و بإمكانها الصبر على الجوع و العطش لمدة أسبوع، و أن تمشي يوميا خمسين فرسخا، تمشي في الرمضاء، و في الثلوج المغطية للطريق و لا تضل الطريق، حتى و في الليلة الظلماء، و لا تنسى الطريق الذي مشته لمرة واحدة، و عنقه كسلّم يمد ركابها و هي قائمة، ففيها جماع ما في مختلف الحيوان، و زيادات تخصها، فلا عجب أن تعد في عداد الأرض و الجبال و السماوات، من آيات اللّه البينات، التي تدل على وجوده و قدرته و حكمته، و أن وراء الكون إرادة و تصميما، دون صدفة و لا فوضى.

فليست الإبل آية لأصحاب الإبل فحسب، و كما القرآن لا يختصهم بها، بل هي آية لهم و لمن سواهم أن ينظروا إليه كيف خلقت؟ هذه الكيفية العجيبة الفريدة بين سائر الحيوان، ما يحق لها أن تفرد بمؤلف ضخم، علّنا نعرف البعض من عظمة هذه الخلقة العجيبة.

وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ:

و أولى الناس بالنظر إلى السماء هم سكان الصحراء، كيف رفعت بلا عمد؟

و كيف انفصل دخانها عن مادتها الأولية المضطرمة؟ و كيف اقتسمت إلى السبع؟

و كيف نثرت فيها النجوم بلا عدد و لا عمد، و كيف و كيف، مما يتطلب سماء واسعة من البحث و التنقير، ليعرفنا على أوسع مما نعرف من حكمة الخبير البصير.

«وَ إِلَى الْجِبالِ» مختلف الجبال «كَيْفَ نُصِبَتْ»؟ مما سقطت عليها من على السماء، و ما تدفقت عليها نتيجة البركانات، و ما تجمدت عليها إثر الأمواج الناتجة عن دوران الأرض و اصطكاكها بالفضاء المجاور البارد، و كما

سئل علي عليه السّلام «مم خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج»

و علها تعم الأمواج الجوية السماوية، و الجوفية، و كذلك السطحية الأرضية، فالأمواج ـ إذا ـ تشمل كل صنوف الجبال:

فمن الجبال ما هي في دور الطفولة كجبال (الأنديس) بأوروبا، و لا تزال ترتفع و تنمو كأنها حيوان، و كجبال (الألب)، و منها ما بلغ أشدّه كجبال (البرنيس) بأوروبا، و منها ما شاخت و هرمت كجبل (المقطم) بمصر، و جبال (الفوزجيش) و منها ما أخذت سبيلها إلى الفناء، كجبال (وايلس) بأوروبا، و منها و منها.. و كل هذه لا تخلو

عن أنها خلقت من الأمواج، أمواج البراكين و الفيضانات، و أمواج الدوران الأرضي، و أمواج الأمطار السماوية، من المواد الحجرية و من الأحجار، و من الأمواج البحرية، و كما يقول العلم الحديث: إن الجبال تخلق أولا في البحر، و كما يرى في بعض الجبال مواقع و محار و أنواع الصدف و عظام السمك، مما يدل أنها خلقت في البحار، ثم يبست أو انتقلت مياهها فبرزت.

«وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»: جعلت سطحا يمشى عليها و يسكن فيها و لم تكن مسطحة قبله، إذ كانت محترقة ملتوية شموسا لا تذل لراكب، و لا تحن لعائش، «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها..».

و من الناس من يخيّل إليه أن سطح الأرض ينافي و كرويتها، و إن هو إلا نظرة سطحية قاصرة، حيث السطح هنا مقابل الشماس غير الذلول، و المنقبض أكنافه غير الباسط، فهل يا ترى إنه السطح مقابل الحجم؟ ـ مهما كان الحجم كرويا أم سواه ـ فكيف بالإمكان أن يجعل الحجم ـ هكذا ـ سطحا؟ كلا، إنه السطح عن الانكماش و الانقباض، انقباضا حراريا و من حيث الميعان، و انقباضا يعني عدم التسوية و الصلوح للسكن، فقد سطحها بعد انقباضها، و ذللها بعد شماسها: «فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ».

فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ. إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ:

فذكّر بالآيات الآفاقية و الأنفسية، و بالآيات القرآنية التي تضمها و زيادة، فذكّر، فليست حياتک الرسالية إلا تذكيرا، و بالتبشير و الإنذار، ليست لک سيطرة تشريعية تسن الأحكام، و لا تكوينية تهدي من تحب، أو تجبرهم على الهدى، ف «نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» (۵۰: ۴۵) و إنما الجبار المصيطر هو: «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ» (۵۹: ۲۳) «وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» (۶: ۱۰۷)، فلا أنت مصيطر جبار، و لا وكيل عن المصيطر الجبار، إنما أنت رسول، و ليس لک إكراه الناس على الإيمان، فليس الإيمان بالذي يكره عليه، و لا أنت قادر عليه:

«أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (۱۰: ۹۹) فأولا و أخيرا، «لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ» (۲: ۲۷۲) و إنما عليک ذكراهم: «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ» (۱۳: ۴۰): لا تملک من أمر قلوبهم شيئا حتى تقهرها على الإيمان، فإنما القلوب بين أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء.

فذكّر و داوم في ذكراک «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ» فإنه لا تنفعه الذكرى، فذكر إن

نفعت الذكرى و «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ. إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ» و ليست إلا سيطرة الجهاد و الدفاع: (العذاب الأصغر) لا العذاب الأكبر: «فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ»: بعد ما يعذبهم بك، و بالقائم المهدي من ذريتك، و بمن معكما و بينكما من المناضلين، يعذبهم بكم العذاب الأصغر، ثم يعذبهم في البرزخ العذاب الأوسط.

إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ:

فليس إياب الخلق إلّا إليه، و لا حسابهم إلّا عليه، و أنت المذكر، لست إلا إياه، و على حد قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[١] و غيره يؤوّل أو يضرب عرض الحائط[٢].

---

١. الدر المنثور ٦: ٣٤٣، أخرج الأعلام عن جابر قال: قال رسول اللّه (ص): أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه. فإذا قالوها عصموا مني دمائهم و أموالهم إلا بحقها، و حسابهم على اللّه. ثم قرأ: «فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ».

عن علي (ع) جوابا عن كيفية الحساب: كيف يحاسب اللّه الخلق على كثرتهم؟ قال:

كما يرزقهم على كثرتهم، قيل: فكيف يحاسبهم و لا يرونه؟ قال: كما يرزقهم و لا يرونه. (نهج البلاغة).

٢. في زيارة الجامعة عن الامام الجواد (ع) «و إياب الخلق إليكم و حسابهم عليكم»

و في معناها روايات عدة كالمروي

عن الامام موسى الكاظم (ع) أنه قال: يا سماعة إلينا إياب هذا الخلق، و علينا حسابهم، فما كان لهم من ذنب بينهم و بين اللّه عز و جل حتمنا على اللّه عز و جل في تركه لنا، فأجابنا إلى ذلك، و ما كان بينهم و بين الناس استوهبناه منهم فأجابا إلى ذلك و عوضهم اللّه عز و جل.

عن الامام الصادق (ع): إذا كان يوم القيامة و كلنا اللّه بحساب شيعتنا فما كان للّه سألنا اللّه أن يهبه فهو لهم، و ما كان

←

سورة الفجر ـ مكية ـ و آياتها ثلاثون

[سورة الفجر (۸۹): الآيات ۱ الى ۳۰]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْفَجْرِ (۱) وَ لَيالٍ عَشْرٍ (۲) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (۴)

هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (۵) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (۶) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ

(۷) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (۸) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (۹)

وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (۱۰) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (۱۱) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (۱۲)

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (۱۳) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (۱۴)

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (۱۵) وَ أَمَّا إِذا ما

ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (۱۶) كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (۱۷) وَ لا

تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (۱۸) وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (۱۹)

→ لنا فهو لهم ثم قرأ الآية: «إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ» (نور الثقلين ۵: ۵۶۸ ـ ۵۶۹).

أقول: آخر المطاف في تأويل أمثال هذه الأحاديث أنها تعني إثبات الشفاعة لهم (ع) فهناك إيابان و حسابان: أصل و فرع، فالأصل للّه، و الفرع لهم بإذنه، كما فصلناه في أبواب الشفاعة، و أما القول «حتمنا على الله» فتأويله رده، تأمل.

وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى (٢٣) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (٢٤)

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَ لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبادِي (٢٩) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

وَ الْفَجْرِ. وَ لَيالٍ عَشْرٍ. وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ. وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ:

الفجر هو الشق الواسع، سواء في الخير أو الشر، و منه الفجور فإنه شق واسع لستر العفاف، و من شقّه الخيّر شقّ ظلام الليل واسعا يتبين كخيط أبيض من الخيط الأسود، ثم يتوسع إلى انمحاء ظلم الليل تماما، فالفجر ـ إذا ـ ساعة تنفس الحياة في يسر و عافية: «وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» (٨١: ١٧) ففرح و ابتسامة، كأن تفتحه ابتهال بدلال! فما هو الفجر هنا؟ إنّه هو كلّ فجر من كل ليلة، و فجر شمس الرسالة

???????????????????????????

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣٠٧

?????????????????????????????????

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣٠٨

المغرب) و شفعها الصلوات الشفع (الرباعيات) و صلاة الشفع (ركعتا الليل)[١].

و الوتر بين الأيام ثالث أيام التشريق، و الشفع الأوّلان:

«فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى»[٢] (٢: ٢٠٣).

و الوتر بين الأوصياء الأوفياء هو علي عليه السّلام، و الشفع الحسنان ـ عليهما السلام ـ[٣].

«وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ»: إذا يسري في الظلمة ابتعادا عن النور، ثم يسرى إلى النـور بعدا عن الظلمة، و نهاية المطاف هو النور، فإن للحق دولة و للباطل جولة.

---

١. الدر المنثور ۶: ۳۴۶ عن عمران بن حصين أن النبي (ص) سئل عن الشفع و الوتر فقال: هي الصلاة بعضها شفع و بعضها وتر.

٢. الدر المنثور ۶: ۳۴۶ أخرجه ابن جرير عن جابر أن رسول اللّه (ص) قال:.

أقول: و قد وردت روايات أخرى في تأويل الشفع و الوتر كلها من باب التطبيق، تشملها الآية الكريمة.

٣. رواه القمي في تفسيره.

فالمراد بسرى الليل دوران فلكه، و سيران نجومه حتى يبلغ غايته، و يسبق في قاصيته، و يستخلف النهار موضعه، و علّ الليل هنا هو من الليالي العشر، كليلة العاشور، و ليلة القدر، و ليلة النحر[١]، فإنها تسري، و تنتج آخر المطاف نهار الضياء اللامع.

هَلْ فِي ذٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ:

«لِذِي حِجْرٍ»: ذي عقل[٢] يحجره عما ينافي العقل، و هو يحجر ما يعقله العقل، هل في ذلک ـ الأقسام الشاملة للكائنات كلها ـ قسم للعقلاء؟

أجل! و تمام القسم!.

فلقد أقسم اللّه هنا بالمختلفات: بالفجر، فمنه صادق و منه كاذب[٣]، و بالليالي العشر: الظاهرة في الظلام، الباطنة في النور، فهي على ظلمها خير من الفجر الكاذب، و بالشفع و الوتر: حقه و باطله، و بالليل إذا يسر: يسري لكي يزداد ظلما، ثم يستقبل الفجر فوضح النهار: هل في ذلک قسم لذي حجر؟.

---

١. البرهان ٤: ٤٥٧ عن الباقر (ع) أنه ليلة الجمع و هو النحر، إذ يجتمع فيه المفيضون من عرفات في المزدلفة، ثم إلى منى للنحر.

٢. نور الثقلين ٥: ٥٧١ عن الباقر (ع).

٣. الكاذب هو المستطيل طولا كذنب السرطان، و الصادق هو المستطير عرضا في أفق السماء، فهو مبدأ النور و مبدأ أحكام شرعية.

قسما بهذه و تلك.. إن ربک لبـالمرصاد، فكـن ذا حـجر تـحجر مـا يـنفعک لحشرک، و تهجر ما يضرک[1].

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعادٍ. إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ:

فمن هم عاد؟ و ما هي إرم ذات العماد؟

إن عادا ـ هنا ـ هم عاد الأولى، قوم هود عليه السّلام: «وَ أَنَّهُ أَهْلَکَ عاداً الْأُولى» (٥٣: ٥٠)، و لا نعرف عن الثانية شيئا، ثم أصلهم هو عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح، و قد أنذرهم أخوهم هود بالأحقاف: بلاد الرمال:

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١٠

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١١

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١٢

«فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذابٍ»: و هذه من مكشوفات الاستعارة، يعني بـها العذاب المؤلم، و النكال المرمض الممرض المرضض، حيث السوط سبب للعقوبات

---

١. ألم تر ـ إلى ـ عذاب: جملة معترضة يستعرض ماضي العصيان من عاد و فرعون و ثمود، أكبر حمقاء الطغيان.

الواقعة، فإذا صبّ عليهم كان أمض و أوقع.

أو أن السوط هنا مصدر يعني أوقع عذاب يخالط الجسوم بالدماء و اللحوم، فيسوطها سوطا إذا حرّک ما فيها و خلطه.

فحين يذكر السوط نذكر لذع العذاب، و بالصب فيضه و غمره، اجتماع الألم اللاذع، و الغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فهذا سوط العذاب، فكيف بنفس العذاب الذي يرقبهم يوم يقوم الأشهاد:

«إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ»: «إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً. لِلطَّاغِينَ مَآباً» و ربک يرصدهم عليها، و قد ينالهم يوم الدنيا سوط منها، يرقبهم يرصدهم و لا يخفى عليه منهم شيء في الأرض و لا في السماء، ف «لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ»

«و لئن أمهل الله الظالم فلن يفوت أخذه و هو له بالمرصاد، على مجاز طريقه، و بموضع الشيحا من ساغ ريقه» (علي عليه السّلام).

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ:

تنديد بما يخيّل إلى جهال الناس أن السعة في الحياة إنعام و إكرام، و ضيقها مهانة

و ابتلاء، فلو بسط اللّه له في الرزق ظنه إكراما باستحقاق، مهما كـان بـعيدا عـن طاعته، رغم أنه بلاء ـ و من أشد البلاء ـ و ليس جزاء: «وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» (٤٢: ٢٧) و لو قدر عليه رزقه لظنه بلاء و ابتلاء و مهانة، مهما كان في طاعته، و هو أخف البلاء، و الحياة الدنيا كلها بلاء، ما يلائم طبع الإنسان و ما ينافره، و هذا باب من التضليل يضل فيه الكثير ممن لا يعرفون اللّه، و لأن الدنيا دار عمل و لا حساب، و الآخرة دار حساب و لا عمل، فكم من مطيع للّه يضيّق عليه لكي لا يطغى، و ليبل ببلاء أخف و أدنى، فنراه يترك الطاعة إلى المعصية إذ يحسبه مهانا في طاعة اللّه! و كم من عاص موسّع عليه بلي به كبلاء شديد، يظنه مكرما في مـعصية اللّـه، فـيزداد عصيانا و طغيانا، رغم أنه إمهال و إملال: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (٣: ١٧٨) «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (٧: ١٨٣).

لذلک ترى المؤمنين ـ على الأكثر ـ يبلون ببلاء أخف: ضيق المعيشة، و الكفار بما هو أصعب: سعة الرزق، و نرى من يسقط في بـلاء السـعة، أكـثر بكـثير مـن الساقطين ببلاء الضيق: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (٢١: ٣٥) و

إن بلاء الشر خير من بلاء الخير ـ ما تحسبه خيرا ـ من السعة، و ما تظنه شرا: من الضيق! هنا نلمس لطافة التعبير في ابتلاء الإكرام بالنعمة، و ابتلاء غير الإكرام بالضيق، أنه ليس في قياس الواقع، إنما كما يظنه الإنسان، و لذلک يفنّد كلا التصورين أخيرا:

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١٣

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١٤

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١٥

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١٦

إنها آية متشابهة ترد إلى محكماتها ک: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (٤٢: ١١) «أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» (٢٠: ١١٠): ما تصرح أن لا انتقال له مكانا و لا زمانا و لا حيطة و لا علما و لا قدرة، فإنها من صفات المخلوقين.

ثم هي تفسّر بنفسها لمن هو أعمق في النظر، و على حد

قول الإمام الرضا عليه السّلام: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله»

و أما عالمه فلا يشتبه:

فإن الفعل ـ أيّ فعل ـ من أقرب القرائن للمعني من فاعله، كما الفاعل ـ أي فاعل ـ قرينة على المعني من فعله، فإذا نسب المجيء إلى من يطير أو يمشي، فهو المعني منه، و إذا نسب إلى ما لا يطير أو يمشي قطعا للمسافات، فالمعني كما يناسبه، ك «جاءت فكرة صديقي إلي و ذهبت فكرتي إليه»: فهذا انتقال غير مكاني، و فيما إذا نسب إلى المجرد عن هذا و ذاك، لتجرد ذاته، و عدم انتقال ـ أو تكامل ـ صفاته، إذا يجرّد مجيئه عما يناسب المخلوقين إلى ما يناسب ساحة الربوبية، كمجيء أمره بالحساب و الجزاء، فلقد كان هذا الأمر شأنيا موعودا يوم الدنيا، ثم يتحقق يوم الجزاء، و هذا هو مجيء الرب، لا بذاته، و لا بعلمه و قدرته، إنما بربوبيته، فهو ربّ يوم الجزاء، كما كان ربا يوم الدنيا، إلا أن ربوبيته يوم الجزاء هي الجزاء، و في يوم الدنيا هي التدبير و التكليف، فانتقال شأن الربوبية من وعد الجزاء إلى واقع الجزاء، يعبّر عنه بمجيء الرب..

و كما الآيات توحي: «فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ» (٤٠: ٧٨) لْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ» (١٦: ٣٣)، فإتيان

الرب الاله بأمره هو المعني هنا و هناک، و إتيانه بذاته ليس إلا اقتراح المشركين و انتظارهم: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ» (٧: ١٥٨):

و هكذا يكون دائما دور الصفات و الأفعال المنسوبة إلى اللّه تعالى، أن لزامها تجريدها عما للمخلوقين من أفعال و صفات، تسبيحا لذاته و أفعاله و صفاته عما للمخلوقين: «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

«وَ جاءَ رَبُّكَ» بأمره «وَ الْمَلَكُ» حاملين أمره لتحقيقه «صَفًّا صَفًّا»:

جنود مصطفون مصطفّون «عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ».

وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى:

هل إن مجيء جهنم هو بروزها؟: «وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ» (٢٦: ٩١) «.. لِمَنْ يَرى» (٧٩: ٣٦) و لأنهم كانوا في غفلة منها و غطاء: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».. أو أنه مجيء عذابها:

«وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ» (٨١: ١٠) بعد أن لم تكن مسعرة؟ أو أنه مجيئها من

مكان إلى مكان؟ كلّ محتمل، و الكل أجمل، رعاية الجمع بين شاهد القرآن و السنة[١].

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١٨

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣١٩

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تفسير، ج ٣٠، ص: ٣٢٠

فهذا الخطاب ـ إذا ـ مستمر طول الحياة و عند الموت و في القيامة، لكلّ أهله، و كلّ في وقته.. يخاطب المؤمن على طول الخط: في الدنيا لكي يستزيد في رجوعه إلى اللّه، و عند الموت و القيامة ليجزي بما قدّم، و يخاطب الكافر يوم الدنيا ما بقي

---

١. فمن القرآن الآيتان، و من السنة ما

عن أبي سعد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية تغير وجه رسول اللّه (ص) و عرف حتى اشتد على أصحابه ما رأوا من حاله، و انطلق بعضهم إلى علي بن أبي طالب فقالوا: يا علي! لقد حدث أمر قد رأيناه في نبي اللّه، فجاء علي (ع) فاحتضنه من خلفه و قبل بين عاتقيه، ثم قال: يا نبي اللّه بأبي أنت و أمي ما الذي حدث اليوم؟ قال:

جاء جبرائيل فأقرأني: «وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» قال: فقلت: يجاء بها؟ قال: يجيء بها سبعون ألف يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثم أتعرض لجهنم فتقول: مالي و لك يا محمد! فقد حرم اللّه لحمك علي، فلا يبقى أحد إلا قال: نفسي نفسي، و ان محمدا يقول: أمتي أمتي (الدر المنثور ٦: ٣٠٦، أخرجه ابن مردويه عن الخدري عنه (ص).

له أجل للإصلاح، ثم ينقطع عنه هذا الخطاب إلى خطاب آخر،: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ..».

سورة البلد ـ مكية ـ و آياتها عشرون

[سورة البلد (۹۰): الآيات ۱ الى ۲۰]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (۱) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (۲) وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ (۴)

أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (۵) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (۶) أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (۷) أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (۸) وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ (۹)

وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (۱۰) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (۱۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (۱۲) فَكُّ رَقَبَةٍ (۱۳) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (۱۴)

يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (۱۵) أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (۱۶) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (۱۷) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۱۸) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (۱۹)

عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ. وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ[١]:

هذا البلد هو مكة المكرمة، البلد الحرام الآمن، حسب الشرع و التكوين الإلهي، أكثر من سواه، و رغم مكانته الروحية لا يقسم اللّه به هنا، و علّه فقد حرمته بما استحل أهلوه حرمة الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

«وَ أَنْتَ حِلٌّ»: حلال ـ بهذا البلد[٢]، و إنما حرمته لأنه البلد الحرام الآمن، مطاف الموحدين، و محرم الرسالة القدسية المحمدية، فإذا أصبح مطاف المشركين، و مزار الأوثان، و الرسول حلال فيه: ماله و دمه، أرضه و عرضه، إذا لا أقسم به و لا أحترمه، في حين أقسم به لأنه بلد أمين: «وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (٩٥: ٣) أقسم و لا أقسم من جهتين، دون تنافر بينهما و لا تناحر.

أو: لا أقسم به، تعظيما له فوق العادة، لا لأنه البيت الحرام، إنما لأنك حلّ: حال

---

١. لا أقسم هنا كما في أشباهه، لنفي القسم، و عدم إعادة (لا) في والد و ما ولد ـ و هو قسم ـ فيه دلالة زائدة على نفي القسم.

٢. عن الصادق (ع) في تفسير الآية: «و أنت حلال منتهک الحرمة، مستباح العرض لا تحترم، فلا يبقى للبلد حرمته حيث هتكت.

أقول: و في معناه روايات متضافرة تفسر الحل بالحلال، و لا أقسم، بنفي القسم.

ـ بهذا البلد[١]. فقد كان المشركون يحترمون البيت لحدّ اللاقسم ـ احتراما ـ أو القسم كذلک، ثم يهتكون حرمتک، و أنت الأصل في حرمته، فأنا لا أقسم احتراما لهذا البلد لأنک حلّ: حال ـ بهذا البلد، و لا أقسم هتكا له لأنک حلّ: حلال فيه مهتوک. فأنت أنت الحرمة كل الحرمة لهذا البيت، و كثير هؤلاء الجهال الذين يحترمون الزمان و لا يحترمون صاحب الزمان، و يكرمون المكان و لا يكرمون من به كرامة المكان!.

صحيح أن مكة لها حرمتها فوق البلاد كلها، لكنها ليست إلا لأن يعبد فيها ربها و يكرم رسوله، و تحل مقامة فيها رسالته، و أما إذا كانت مهتوكا فيها حرمة اللّه و رسوله، فهل يا ترى تبقى حرمته، لأحجار وضعت فيها فوق بعض، و أوثان علّقت عليها، و مكاء و تصدية و أمثالها من فضائح!.

أو: و أنت حلّ: حرّ ـ بهذا البلد، تفعل فيه ما تشاء بالمشركين، الذين استحلوا حرمته و حرمتک، و قد تكون الثلاثة مرادة[٢] و ما أجمعها و ألطفها كما هو دأب القرآن، و يعني من حلّه عليه السّلام حريته بما يفعل بالمشركين بعد فتح مكة، فلا

---

١. يبعد معنى الحال للحل ـ لو عني بخصوصه ـ فان الحال هو النازل في مكان، و الرسول ما نزل مكة، و إنما كانت مولده و موطنه، و ان الحلول يعبر عنه بما هو أخصر، ک (و أنت في هذا البلد).

٢. و على الثالث: فالواو استئنافية، بخلاف الأولين إذ كانت فيهما حالية، و هنا روايات مستفيضة تؤيد الثالث.

أقسم به: لا أحترمه، و أنت خارج عن عقدك الماضية، حرّ فيما تريد بأهله[١].

وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ:

لا أقسم بهذا البلد، و إنما أقسم بمن به حرمة البلد: «والِدٍ وَ ما وَلَدَ»:

آدم و من ولدهم من النبيين[٢]، ابراهيم و ولده المعصومين، محمد و ولده الطيبين من صلبه: فاطمة و الأئمة الأحد عشر، من الحسن عليه السّلام إلى القائم عليه السّلام، أو من هو وليد عقله الرسالي: علي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كما قال: ولّدني رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بمناسبة الحال، و أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو مجمع معاني الوالد الروحي، و ولده مجامع فضائل الولادة الروحانية، قد يكونان هما المعنيان من:

«والِدٍ وَ ما وَلَدَ» و يجري في غيرهما من المعصومين جريا على ضوئهما، فقسما بمحمد و عترته الطاهرين المكابدين الكادحين:

---

١. كما عن سعيد بن جبريل قال: لما فتح النبي (ص) الكعبة أخذ أبو برزة الأسلمي سعيد بن عبد اللّه بن خطل فضرب عنقه و هو متعلق بأستار الكعبة. فأنزل اللّه: «لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ.
وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ» و هو أحد الأربعة الذين لم يؤمنهم النبي (ص)، و روي مثله في معنى الحل عن مجاهد و أبي صالح و قتادة و عطية و الحسن و الضحاك و عطاء و ابن زيد و ابن عباس.

٢. رواه في مجمع البيان عن الصادق (ع).

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ:

«كبد»: مشقة، فالإنسان مخلوق في كبد و كدح و كدّ[١] و هو لزامه حتى الموت، فإذا رأيت كبدا في هذا البلد، ما لم يره أحد في تاريخ الرسالات، فلك الراحة إذ كان في سبيل الطاعة. دون المكابدين الكادحين الذين يعيشون حياتهم كبدا على كبد، و كدّا على كدّ: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (١٨: ١٠٤).

هؤلاء هم! و أما أنت فمهما بلغ بک الكبد، و مهما تكبدت اتعابا: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً»، و لا يبدل كبدک يسرا ما لم تقتحم العقبة و العقبات عبر الرسالات»، على حدّ

قول الإمام الحسن عليه السّلام: لا أعلم خليقة يكابد من الأمر ما يكابد من الأمر ما يكابد من الإنسان، يكابد مضايق الدنيا و الآخرة[٢]،

إن انفصال النطفة من الصلب و الترائب يخلف كبدا للزوجين رغم اللذة حاله، ثم

---

١. الكبد معروفة، و الكبد و الكباد توجعها، و الكبد أصابتها.

٢. تفسير البرهان ٤: ٤٦٣ نقلا عن الزمخشري في ربيع الأبرار، و في الدر المنثور ٦: ٣٥٣، أخرجه ابن المبارک في الزهد، و عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عنه (ع) إلى قوله: «الإنسان».

الخلية الأولى لا تستقر في الرحم إلا بمكابدتها لخلق ظروف ملائمة لحياتها و غذائها، و لا تزال تمارس كبدها في منازلها حتى تنتهي إلى المخرج فتذوق من المخاض ما تذوقه أمها، و قد تصل لحد الاختناق في مخرجها من مكابد الرحم إلى مكابد الدنيا، ثم الكبد لزام الولد بينه و بين الموت، و بعده الراحة لمن كابد في سبيل اللّه، و العاهة لمن كابد في سبيل اللهو.

و الكبد هو العظم ـ أيضا ـ فكبد كل شيء عظم وسطه و غلظه، فالإنسان ـ إذا ـ مخلوق وسط الخلق و كبده عظيما غليظا، فهو مجبول على شعور العظمة و الكبرياء[1]، كما هو مخلوق في كبد المشقة، كبد على كبد، فكلما كانت العظمة أكثر فالمكابدة على قياسها أكثر.

هذا ـ و مع أنه مخلوق من ضعف: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ» (٣٠: ٥٤): من مني يمنى حالة الضعف، و على ضعف: «وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً» (٤: ٢٨)، فهو حكيم الخلق و عظيمه بين الخلق، و هو ضعيف تجاه التقادير الإلهية، مهما كان

---

١. و من هذا الكبد انتصاب قامته بخلاف سائر الحيوان، كما

عن حماد بن عثمان قال: قلت لأبي عبد اللّه (ع): إنا نرى الدواب في بطون أمهاتها أيديها الرقعتين مثل الكي فمن أي شيء ذلك؟ فقال: ذلك موضع منخريه في بطن أمه، و ابن آدم منتصب في بطن أمه، و ذلك قول اللّه عز و جل: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ» و ما سوى ابن آدم فرأسه في دبره و يداه بين يديه (نور الثقلين ٥: ٥٨٠).

عظيم الخلق! و قد ينسى الإنسان أو يتناسى كبد المشقة و الضعف، و يعيش كـبد العظمة و الترف، فيضل عن واقعه، فيحسب أن لن يقدر عليه أحـد، و أنـه يـتغلب المقادير بما له اللّبد:

أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ. يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً، أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ:

و اللّبد هو المال الكثير الذي قد تراكب بعضه على بعض، من لبد الأسد، و كما تتلبد طرائق الشعر و سبائخ القطن، أو بمعنى اللزام الدائب، كأنه من كثرته لا يزول.

فقد يتمنع من الإيمان، و لأنه أهلك ماله اللّبد في الصدّ عن الإيمان، و على حدّ ما يروى عن علي عليه السّلام بشأن عمرو بن عبدود[1]، أو مؤمن يمنّ على اللّه أنه أنفق مالا غزيرا في سبيله، و الإنفاق الحق بلا حساب هو من العقبات التي عـلى المؤمن اقتحامها و لكي يعقّب راحة طويلة.

أ يحسب هذا المتفاخر المتكاثر: «أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ» إذ أعطى ما أعطى و منع ما منع، و صدّ ما صدّ، بلى إن ربه كان به خبيرا، بصيرا به و قادرا عليه.

---

١. نور الثقلين عن الباقر (ع) في: «أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً» قال: هو عمرو بن عبدود حين عرض عليه علي بن أبي طالب (ع) الإسلام يوم الخندق، و قال: فأين ما أنفقت فيكم مالا لبدا، و كان أنفق مالا في الصد عن سبيل اللّه، فقتله علي (ع): «أ يحسب أن لم يره أحد ـ قال:

في فساد كان في نفسه..»».

أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ. وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ:

عينان، علّهما البصر و البصيرة، فبعين البصر يبصر الآفاق فيحوّل نتائجها إلى منظار البصيرة، أو هما عينان ظاهران، و آخران سواهما: عين العقل و الفطرة، و هذا قياس الشفتين، و بهذه الأجهزة الأنيقة: «هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ»: نجدي التقوى و الطغوى، الخير و الشر[1]: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» و النجد هو المرتفع العالي، فإلهام الفجور و التقوى ليس بالأمر المخفي، و إنما كالنار على المنار، و الشمس في رايعة النهار، فكأنه تعالى بفرط البيان لهما قد رفعهما و نصبهما للناظرين، لمن له عينان يبصر بهما و يتبصّر.

فهذه هي الهداية التامة: الاهتداء إلى الخير لنطلبه، و إلى الشر لنخالفه، و هذا السلب و الإيجاب للوصول إلى نجد الصواب، بحاجة ملمة إلى اقتحام العقبة:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ:

العقبة هي المرقى الصعب الملتوي من الجبال، القمم التي عليها النجدان، فلا بد للإنسان المخلوق في كبد، أن يكابد في اقتحام العقبة: رميا بنفسه فيها مهما كانت

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٨١ و الدر المنثور ٦: ٣٥٣ عن رسول اللّه (ص) أنه قال: أيها الناس هما نجدان، نجد الخير و نجد الشر، فما جعل نجد الشر أحد إليكم من نجد الخير، و الدر المنثور عن علي (ع) مثله، و الكافي عن الصادق (ع) مثله.

شديدة مخيفة، فإن أمامها أخوف و أشدّ، و هي بعد اقتحامها حياة سليمة قاضية على كل كبد و إلى الأبد، و القمة العليا من هذه العقبة، هي فكّ رقبة: أن تفك رقبتک من حبائل الشيطان، ثم تربطها بحبل الرحمان، معتصما به حياتک: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا».

فاقتحم بنفسک و نفسک هذه العقبة القمّة، لكي تسهل لک سائر العقبات، و تهون عليک تبعات دنيا الحياة... تفک رقبتک عن أسر الهوى التي ألهمک اللّه إياها في نجد البشر، ثم تواصل في سبيلک إلى الهدى التي ألهمتها في نجد الخير، و من الخير أن تحاول في فک رقاب الآخرين أيضا، فتعيش الفكّ لنفسک و من سواک، و لتخلق جوّا حرّا عن أسر الشيطان.

أجل: و إن فک رقبة عما سوى اللّه و عمن سواه، هو العقبة، أو أنه اقتحامها، فكّ بالاقتحام، أو فک هو الاقتحام.

فک رقبة، لا عتقها، فعتقها عمل فردي لا يطيقه إلا الأقلون، و الفک أعم من الفردي و الجماعي، فالذي يقتحم العقبة بغية هذا الفک، إذ رآه كافيا لنفسه و سواه فهو، و إلا كان عليه لزام أن يضم إليه الآخرين، و إلى طاقاته طاقات الآخرين، لتحقيق الفک أخيرا، و فک الرقاب هكذا، و من أيسرها عتق الرقيق، ينتج عن فكها

عن النار في دار القرار[١].. عقبة لو تخطاها لوصل، و لو تخلفها فشل، فالإنسان أمام العقبة، بين مقتحم و اصل، و نائم فاشل، و أين و اصل من فاشل؟ و أين مـجاهد مكابد من متساهل قاعد، ألا فخففوا عن عقبة الآخرة باقتحام عقبة الدنيا، و على حد تعبير

الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن أمامكم عقبة كئودا لا يجوزها المثقلون، فأنا أريد أن أتخفف لتلك العقبة»[٢]

و ليست العقبات هنا إلا في طريق السالكين، و عليها يكون بهر الأنفاس، و شدة الضغاط و المراس، ثم العقبات في العقبى هي للواقفين عن الحراك، و السالكين سبل الهلاك، الذين لم يقتحموا العقبة هناك.

أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ:

«أَوْ إِطْعامٌ»: قد تكون «أو» هنا للجمع، في المعنى الجامع للرقبة، المسبق، و هي

---

١. نور الثقلين عن أبان بن تغلب عن أبي عبد اللّه (ع) قال: قلت له جعلت فداك قوله: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ» قال: من أكرمه اللّه بولايتنا فقد جاز العقبة، و نحن تلك العقبة التي من اقتحمها نجا، قال: فسكت (ع) فقال لي: فهلا أفيدك حرفا خيرا لك من الدنيا و ما فيها؟

قلت: بلى جعلت فداك، قال: قوله «فَكُّ رَقَبَةٍ» ثم قال: الناس كلهم عبيد النار غيرك و أصحابك، فإن اللّه فك رقابهم من النار بولايتنا أهل البيت.

٢. الدر المنثور ٦: ٣٥٥ عن أبي الدرداء سمعت رسول اللّه (ص) يقول:..

ـ في نفس الوقت ـ للتخير المتدرج: أن غير القادر على فک رقبة يطعم، فيحسب له حساب الفک[۱].

و المسبغة هي شدة الحاجة و الرغبة إلى الطعام، فإن السغب هو الجوع مع التعب فإطعام اليتيم ذي المقربة: القرابة، و المسكين: الذي أسكنه العدم، ذا متربة: أسكنه على التراب، هذا الإطعام هو من العقبة الواجب اقتحامها للوصول إلى نجد الخير.

ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ:

صبرا عن الشر على نجده، و صبرا على الخير في اقتحام عقبته، تواصيا به كعمل جماعي ـ لا فردي ـ به و بالمرحمة: مرحمة الخير على نجده، و هاتان الطاقتان مع الإيمان، هي التي يتطلبه اقتحام العقبة، و محاولة دائبة في تقدم، و لكي يصل السالک إلى قمة الخير..

أُولئِکَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ:

الذين عاشوا من الحياة يمينها.

---

۱. نور الثقلين عن الإمام الرضا (ع) في الآية: علم اللّه عز و جل أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنة.

أقول: لحديث السابق دليلنا على الأول، و هذا يدل على الثاني، و الجمع أجمل فيما يتحمل، أو أن «أو» هنا للجمع جمعا بينهما ـ تأمل.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ:

مؤصدة تقصدهم و تأصدهم.

سورة الشمس - مكية - و آياتها خمس عشر

[سورة الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها (١) وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها (٢) وَ النَّهارِ إِذا جَلاَّها (٣) وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (٤)

وَ السَّماءِ وَ ما بَناها (٥) وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها (٦) وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (٧) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (٩)

وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (١٢) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (١٤)

وَ لا يَخافُ عُقْباها (١٥)

أقسام ثمانية، ابتداء بمشاهد الكون، الآفاقية: سماوية و أرضية، و انتهاء بنفس الإنسان و الذي سواها، تتقدم على حقيقة ناصعة هي المقصود بالأقسام: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» إيحاء بأن الإنسان نسخة كاملة عن كتاب التكوين، بإمكانه أن يعتبر في نفسه بما يشاهده في الآفاق، «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

قسما بالشمس: عامة، و حين تضحى: ترتفع عن أفقها، و هي أروق ما تكون في هذه الفترة و أحلى، و بالقمر إذا تلاها: في طلوعه بعد غروبها، تلوّا في الإشراق منذ هلاله إلى تبدّره و قبيل انمحائه، أم في اكتساب النور، حالا دائبة لا تختص بحال دون حال، فهو يتلو الشمس بنور طفيف شفيف صاف.

و قسما بالنهار إذا جلّى الشمس كما الشمس تجليه، حين تصل إلى وسطه فلا تخفى على الناظرين.. و بالليل إذا يغشى الشمس بنهارها، و السماء و القدرة الخلاقة البانية، التي بنتها، و الأرض و ما حركها و أزالها عن مقرها، و نفس إنسانية و سواها من أمثالها، و ما سوّاها، فألهمها: - أبلعها و أدغم فيها و عرّفها - فجورها و تقواها.

و هل يا ترى إن هذه الكونيات لا تعني - في الأقسام بها - إلا ظواهرها؟

أجل إنها تعنيها و ما يناسب النفس المسوّاة و إلهام فجورها و تقواها، و على حدّ تأويل الإمام الصادق عليه السّلام إذ سئل عن «وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها» قال: الشمس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم به أوضح الناس عز و جل للناس دينهم «وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها»:

أمير المؤمنين عليه السّلام تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نفثه رسول اللّه بالعلم نفثا «وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها» ذلك أئمة الجور الذين استبدوا بالأمر دون آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جلسوا مجلسا كان آل الرسول أولى به منهم فغشوا دين اللّه بالظلم و الجور فحكى اللّه فعلهم فقال: و الليل إذا يغشاها «وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها»: الإمام من ذرية فاطمة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسأل عن دين رسول اللّه فيجليه لمن سأله فحكى اللّه عز و جل قوله فقال: «النَّهارِ إِذا جَلَّاها»[1].

أقول: و من هنا يظهر الوجه في اختلاف الماضي «إِذا جَلَّاها» عن المضارع «إِذا يَغْشاها»: فإن ضحى الشمس المحمدي غشيّ في مستقبل عتيد، و يستمر: بالليالي الظلماء من دويلات الجور، و إلى أن يسفر صبح الدولة المحمدية من جديد في زمن

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٨٥ عن روضة الكافي جماعة عن سهل عن محمد عن أبيه عن أبي محمد عنه (ع)، و رواه القمي عن سليمان الديلمي عن أبي بصير عنه (ع) مثله.

القائم المهدي عليه السّلام فإن نهار دولته سوف يجلى شمس الرسالة المحمدية بعد غروبها، و يجعلها أكثر مما كان و أوسع مما كان «أين محيى معالم الدين و أهله. أين قاصم شوكة المعتدين. أين هادم أبنية الشرك و النفاق!».

قسما بهذه الآيات الكونية، و المحاولات الإيمانية و اللاإيمانية، و بالسماء معدن الرحمة، و الأرض قابلها: كسماء الوحي و أراضي القلوب الواعية، و قسما بالنفس و الذي سواها، كنموذج شامل كامل عن كائنات الوجود كلها، الجامع فيها ظلم الليل المغشّي، و نور النهار المجلّي ـ قسما بهذه و تلك و هؤلاء:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها:

و المعني من النفس الملهم فجورها و تقواها ـ هنا بين معانيها ـ هو الروح ككلّ، دون الجسم: «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ» (٤: ١) و لا الأمارة بالسوء:

«إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» (١٢: ٥٣) و لا اللوامة: «وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» (٧٥: ٢) و لا المطمئنة: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» (٨٩: ٢٧) و هي كلها من شؤون الروح، كما القلب و الصدر و العقل و اللب و أمثالها، هي أيضا من شؤونها، فقد ألهمت النفس الروح فجورها: «النفس الأمارة» و تقواها (اللوامة و المطمئنة ـ العقل).

فهنا النفس بين تزكية و تدسيس، ففلاح أو خيبة، و رغم أن فجورها أقرب إليها من تقواها، و كما توحي إليه آيتها: «فُجُورَها وَ تَقْواها»: قربا جسدانيا حيوانيا، و لكنما العقل ـ و هو الحيوية الإنسانية ـ إنه أقرب إليها كإنسان، و إن معركة العقل و النفس لهي من العقبات التي لزام الإنسان أن يجتازها فائزا عاقلا، لا فاشلا جاهلا.

و واقع الفلاح و الإصلاح ليس إلا بتزكيتها، مستجيرا باللّه، و على

قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها و مولاها، و زكها أنت خير من زكاها»[1].

و المزكي الأول للنفس هو المحاول لأن يتزكى، ثم اللّه يؤيده في تزكيها:

مَنْ زَكَّاها»: زكى نفسه، فزكاها ربه، و كذلك التدسيس على سواء، و هو من اللّه الختم و سلب التوفيق، و كما عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[2].

و التزكية هي الإنماء، و التدسيس هو الإدغال و إدخال شيء في شيء بضرب الاحتيال، فتزويد النفس بتقواها هو تزكيتها، و إدغالها هو تدسيسها، و كلاهما من

---

١. الدر المنثور ۶: ٣۵۶ عن ابن عباس و زيد بن أرقم و أنس و أبو هريرة قالوا: كان رسول اللّه (ص) إذا تلا هذه الآية «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» يقول:..

٢. الدر المنثور ۶: ٣۵٧ عن ابن عباس سمعت رسول اللّه (ص) يقول: قد أفلح من زكاها:

أفلحت نفس زكاها اللّه، و خابت نفس خيبها اللّه من كل خير.

أقول: فالضمير في «زكاها و دساها» راجع إلى النفس و إلى اللّه، من زكاها هو ـ من زكاها اللّه.

الإنسان، ثم من اللّه كما يناسب عدله و فضله.

و ليؤخذ مثالا لتدسيس النفس قصة ثمود، في تكذيبها و طغواها و الدمدمة الإلهية التي دمرتهم.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها. إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها. فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَ لا يَخافُ عُقْباها:

طغوى في قولهم «فكذبوه» و عمليا «فَعَقَرُوها» و الخيبة التي لحقتهم من هذه الطغوى هي الدمدمة الربانية: «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها..» (١١: ٦٨) «إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فكانوا كهشيم المحتضر» (٥٤: ٣١) و هذه هي الدمدمة، فجرس اللفظ يوحي بجرس المعنى الواقع.

إن عاقر الناقة كان واحدا هو المنبعث فيهم: «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها» و صاحبهم الذي نادوه لهذه الجريمة: «فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ» (٥٤: ٢٩): أخذ عنهم سيفهم و نحر، فرغم أنه وحده كان العاقر الناحر، ينسب العقر إليهم أجمع.

«فَعَقَرُوها» «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» (٧: ٧٧) «فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» (١١: ٦٥) «فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» (٢٦: ١٥٧).

فلما ذا ينسب العقر إليهم و هم منه براء؟ لأنهم نادوه، و أعطوه سيفهم، و بعثوه للجريمة، فأشركهم اللّه فيها و عذبهم بها، و صاحبهم أشدهم عذابا و أنكى، و هو «أشقى الأولين: أحيمر ثمود، رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة»[1]، كما أن ابن ملجم أشقى الآخرين على حد قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[2].

سورة الليل ـ مكية ـ و آياتها واحد و عشرون

[سورة الليل (٩٢): الآيات ١ الى ٢١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى (١) وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى (٢) وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى (٥) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (٧) وَ أَمَّا مَنْ

---

١. كما في الدر المنثور ٦: ٣٥٧ عن النبي (ص).

٢. نور الثقلين ٥: ٥٨٧ قال رسول اللّه (ص) لعلي (ع): من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة، قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت: لا أعلم يا رسول اللّه! قال: الذي يضربك على هذه، و أشار إلى يافوخه.

بَخِلَ وَ اسْتَغْنى (٨) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى (٩)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (١٠) وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (١٢) وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (١٤)

لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (١٦) وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (١٩)

إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (٢٠) وَ لَسَوْفَ يَرْضى (٢١)

أقسام بشتى الخلق، و خالقه، الناحي منحى واحدا هو الصلاح و الإصلاح، لتدل الخلق على وجوب تخلقهم بأخلاق اللّه، و اتجاههم ـ في مساعيهم الشتات ـ جهة الصلاح و الإصلاح، و لكنما النفوس ـ على شتاتها ـ ليست لتلتقي في سعيها على ملتقى واحد، و إنما هي صفان يتجهان، إما إلى الخير أو إلى الشر، ففي شتات السعي، و شتات المناهج و الغايات و الاتجاهات، ليس إلا النجدين، خيرا و شرا، نفعا و ضرا.

و على الإنسان النابه البصير أن يدرس في شتات سعيه، من كائنات الوجود، و يوحّد هدفه و اتجاهه إلى الوجهة الموحدة لها، هي السعي إلى مرضاة اللّه.

فلندرس من الليل ـ إذا يغشى النهار و الأفق، و يخفي ما فيه ـ ندرس درسه الصالح من إخفاء العيوب، و غشي النهار لصالح الراحة، لا من غاسقة إذا وقب، و استغل ظلامه للشرور.

و لندرس من النهار إذا تجلى: أسفر عن ظلم الليل ـ ندرس درسه الصالح من المحاولة في تجلي الفطرة بصفائها، فتجلي صاحبها في شتات المجالات الحيوية جلواتها الإنسانية.

و لندرس من ربنا الخالق الذكر و الأنثى، الهادف وحدة الحياة الإنسية من هذين المختلفين المتناحرين حسب البنى و الطاقات الجسدانية و العقلية.

لندرس دروس الإعطاء و الاتقاء و التصديق بالعقيدة الحسنى و الحياة الحسنى، و لكي نتيسر لليسرى، و لا نكون ممن بخل و استغنى و كذب بـالحسنى فـنيسّر للعسرى.

«فَأَمَّا مَنْ أَعْطى»: نفسه و نفيسه «وَ اتَّقى»: في هذا العطاء ما يجب إنسـانيا أن يتقى «وَ صَدَّقَ»: بالعقيدة و الحياة «بِالْحُسْنى»: أحسـن مـراحـل الحـياة، و هـي الأخرى. «فَسَنُيَسِّرُهُ»: ذاته و كيانه بأعماله و أحواله «لِلْيُسْرى»:

الحياة الطيبة اليسرى: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ

حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (١٦: ٩٧) ثم و لا أ تختص اليسرى بالحياة الأخرى، فهي تشمل الآخرة و الأولى، و مهما كانت في لأولى مشوبة، فهي في الأخرى خالصة: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (٧: ٣٢).

«وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ»: العطاء، «وَ اسْتَغْنى»: عن الاتقاء، و أخذ حريته في حيونة الحياة «وَ كَذَّبَ» بالحياة و العقيدة «بِالْحُسْنى، فَسَنُيَسِّرُهُ»: ذاته بماله «لِلْعُسْرى»: حياة قصيرة عسرة ضنک هنا، ثم حياة دائبة عسيرة ضنک هناک:

«وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً..» (٢٠: ١٢٤). «وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ» في تحسين الحياة هنا و هناک «إِذا تَرَدَّى»: سقط من عل في شيطنة الحياة هنا، و عند العرض و الحساب هناک، فليس المال بمنجّيه من تبعات الأحوال و الأعمال، اللهم إلا الإعطاء و الاتقاء و التصديق بالحسنى.

إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى:

فرض فرضه اللّه على نفسه: «كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» الرحمة و الهدى بوجهها النجدين «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ»: هدى في العقول و الفطر، و هدى بكائنات العالم، و

هدى بالنبيين و الكتب، و هي كلها هدى الدلالة، ثم هدى التوفيق لمن آمن و اهتدى: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً» (١٨: ١٣).

وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى:

فلا يحسبن الذين كفروا أن لهم الأولى يفعلون فيها ما يشاءون، ف «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً» (١٧: ١٨).. و إنما تختلف عن الأخرى أنها حياة التكليف و الابتلاء، و الأخرى حياة الجزاء.

«فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى. لا يَصْلاها»: لا يوقدها «إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» فله صليها و إيقادها، و للشقي وردها و الاتقاد بها، فإنهما ليسا على سواء، فالمتبوع هو الجحيم بذاته، و التابع يحرق بجحيمه.

وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى:

لا يقرب إليها عذابا لأنه الأتقى: «الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ»: ماله، و ما ـ له «يتزكى» فحياته كلها إيتاء و عطاء في سبيل اللّه، فحق له أن يجنبها، و لكنما التقي غير الأتقى، الذي اقترف ما ينافي التقوى أحيانا، إنه قد يمسه العذاب تخليصا له عن الدرن، عذاب الدنيا، ثم البرزخ، ثم القيامة، ثم مصيره إلى الجنة، فعذاب غير الأتقى

درجات، بقدر ما خالف التقى.

إذا، فالآيات هنا تقسيم ثنائي إلى من محّض الإيمان محضا: «الأتقى» و من محض الكفر محضا: «الأشقى» و بينهما درجات بين الجنة و النار، و مصيرهم الجنة أخيرا، و على حدّ

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شرد البعير على أهله».

هذا الأتقى يؤتي ماله دون ابتغاء جزاء ممن آتاه، أو شكور، فليس لأحد عنده من يد أو نعمة يجزى بها: «وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى» فليس عطاؤه و إيتاؤه ابتغاء شيء من مال الدنيا و منالها: «إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى».

ثم اللّه هو الذي يرضيه بما يجزيه: «وَ لَسَوْفَ يَرْضى»: يرضى بواقع الرضا يوم الجزاء، بعد ما كان راضيا عن ربه أمل الواقع يوم الدنيا.

سورة الضحى ـ مكية ـ و آياتها احدى عشر

[سورة الضحى (۹۳): الآيات ۱ الى ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الضُّحى (١) وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى (٢) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى (٣) وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (٤)

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (٥) أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (٦) وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى (٧) وَ وَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩)

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

تقول الروايات أن الوحي انحبس عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ردحا من الأيام، فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه و قلاه، و قالت خديجة أم المؤمنين: لعل ربك قد تركك! يقوله المشركون هزءا، و المؤمنون ترحما، و لقد أغتم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غما شديدا و كان حقا له إذ يراه بعيدا عن زاده الوحيد و روحه الأليفة الأنيسة في وعثاء السفر و لأواء التكذيب و التأنيب، و عن ريّه في هذه الهاجرة المحرقة، و الأذى المنصبّ على الدعوة، فقد انقطع عنه ينبوع الماء: الحياة الرسالية القدسية، منزعجا بين العدو و الحبيب، فما ذا يصنع إذا؟

كان في حالته تلك المزرية المضرعة، إذ بدر الوحي الحبيب بعد انمحائه و انقطاعه، مسليا خاطره الشريف أن الوحي لم ينقطع بدافع الودع أو القلى، و إنما

لحكمة، كما في الليل إذا سجى، فقسما بوجهي الزمان: ضحى النهار:

وسطه و رائعته، و سجى الليل: غسقه و منحدره، «ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلى»
فكما الضحى رحمة، كذلک الليل إذا سجى، كلّ من جهة، مهما خفيت حكمة الظلمة على الهائمين للضحى.

صحيح أن ضحى الوحي هي الحكمة كلها، و هي الحياة الرسالية كلها، و هي الزاد و المبدأ و المعاد، و لكنها بحاجة في استمراريتها ـ و لكي يثبت الشاكون على حقها ـ بحاجة إلى زاد الليل إذا سجى، فسجى الوحي و انقطاعه لفترة، زاد لضحى الوحي و اتصاله، فناكر الوحي يتنبه أنه ليس منک و لا من شيطان، و إلا فلما ذا ينقطع، أ رحمة منه و منک في التضليل؟ و المؤمن بالوحي ينتبه أنک ـ لا تزال ـ بحاجة إلى ربک، دون استغناء عنه و لا لحظة، فلو شاء لقطع عنک رحمته: «وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْکَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْکَ كَبِيراً» فاعتبار أنه كتب على نفسه الرحمة، و لا سيما لک خاصة، فليس يقطع عنک وحيه، لا قطع وداع بانقضاء دوره، فلا ينتهي إلا بانقضاء عمرک، و لا قطع القلى ـ و بالأحرى ـ بانقطاع صلوحک للوحي و أنت حي، ففيه إزراء بالموحي و الموحى إليه: بالموحي كيف لم يعرف نبيّه إذا ابتعثه و انتجبه، فلم

يعرف أنه لا يصلح لحمل الرسالة الأخيرة حتى النفس الأخير، و بـالموحى إليـه، كيف ينقطع عنه قبل انقطاع حياته، رغم أن وحيه حياته، فبه يحيى و عليه يموت، أو كيف يعزل عن منصب الرسالة؟ الجرم أو خطيئة اقترفها، فجاء الجـواب الحـاسم للصديق و العدو: «ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلى» و إنما ترک الوحي بغير وداع و لا قلى، و إنه لحكمة عالية: هي الحجة على الناكرين النافرين، و انتباه و تثبيت للنبي و المؤمنين، ف «ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى»: ليس الوحي عن هوى نفسه و لا هوى عقله و لا هوى سواه، إلا ربه، و إلا فلما ذا ينقطع؟

و تضليل الهوى ـ أيا كان ـ ليس لينقطع! قد انقطع عنه الوحي ردحا من الأيام[1]، و لأن اليهود سألوه عن الروح و ذي القرنين و أصحاب الكهف

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سأخبركم غدا،

و لم يقل إن شاء اللّه فاحتبس عنه الوحي، و ليدل اليهود أنه لا يقول من عنده، و ليدله أنه ليس بيده شيء حتى وعد الجواب، فكيف بوحي الجـواب، و إنـما هـو رسول، و إذا يعد فبإذن اللّه و مشيئة اللّه: «وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِکَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّکَ إِذا نَسِيتَ» (١٨: ٢۴).

---

١. اختلفت الروايات انه يومان ١ و ٣ ـ ۴ ـ ١٢ ـ ١۵ ـ ٢۵ ـ ۴٠ يوما.

وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى:

إيناس ثان لقلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المقروح: إن الحياة الآخرة خير لک من الأولى، لک و لمن نحا نحوک و دخل حزبک، و أين آخرتک من أولاک؟:

فأنت في الأولى في بلاء و ابتلاء و عيشة منغصة مشوبة بألوان المتاعب و المصائب، و إن كنت في راحة ضميرک أنک أديت الرسالة، و أنت في الآخرة في رحمة و راحة خالصة.

ثم إن لک عطاء من ربک قدر رضاک هنا و هناک: فهنا سوف يوحى لک خاتمة الوحي الذي لم يوح إلى أحد، و الذي سوف لن يوح إلى أحد، و هناک: في البرزخ و المعاد سوف يعطيک ربک ما يرضيک، و ينسيک أتعابک في سبيل مرضاته، فيتوّجک تاج الكرامة بين المكرمين و فوقهم، تاج الشهادة و الشفاعة:

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى:

فهل إن الرسول ما كان راضيا عن ربه حتى يرضيه بعطائه رضى العبيد؟

نقول: إنه كانت حياته الرضا عن اللّه، و لكنه لما أحتبس عنه الوحي ظنّه عن تقصير منه أو قصور، فسخط على نفسه، ثم بعطاء الوحي بعد انقطاعه رضي، و ثم

بهذه الكرامة الوحيدة له من ربه زاد من ربه رضى، فإن اللّه يعطي من يعطيه كما يرضى هو، لا المعطى له، و هنا الرسول يختص بهذه المكرمة الربانية، أن أصبح عطاء اللّه له كما يرضاه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تخصيصا له عن جميع الصالحين!، و هنا تمتاز آخرته عن سواه ميزة أخرى: «فترضى» كما أوحى إليه: «خَيْرٌ لَكَ» خيرية خاصة لک دون من سواک! و قد روي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنها الشفاعة[1]،

و لا ريب أنها من رضاه و من أعلاه و أولاه، شفقة على أمته الذين تؤهل لهم، لا المسمون بها و ليسوا منها.

أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى. وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى. وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى.

فالذي آواک بعد يتمک، و هداک بعد ضلالک، و أغناک بعد عيلولتک، هو الذي يجدد لک عهد الوحي بعد انقطاعه ـ و أحرى ـ و يعطيک فترضى، فما هو يتمه و ضلاله و عيلولته؟.

---

١. الدر المنثور ۶: ۳۶۱ عن حريب بن شريح عن الباقر (ع) ان أرجى آية في كتاب اللّه «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى» و هي «الشفاعة»

و فيه ايضا عن جابر بن عبد اللّه قال: دخل رسول اللّه (ص) على فاطمة و هي تطحن بالرحى و عليها كساء من حملة الإبل فلما نظر إليها قال:

يا فاطمة! تعجلي فتجرعي مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غدا، فأنزل اللّه «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى».

لقد كان النبي يتيما بكل معانيه: منقطعا عن أبويه، إذ توفي والده قبل ولادته، و توفيت أمه بعد ستة أشهر، فآواه اللّه إلى جده عبد المطلب و إلى عمه أبي طـالب فكفلاه خير كفالة، و كان يتيما: منقطعا عن النبوة و الرسالة فآواه إليهما، ثم يتيما عن الوحي إذ انقطع عنه فآواه، و يتيما: منفردا بين الناس فآوى الناس إليه، فلقد أزال عنه يتمه أيا كان.

«وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى»: ليس هو الضلال عن الدين: «ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى» إذ إنه ولد ديّنا مؤيدا من عند اللّه مهما اختلفت درجاته قبل النبوة و بعدها، أجل ـ ليس ضلالا عن اصل الهدى، و على حد

قول أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة: «و لقد قرن الله به صلى الله عليه و آله و سلم من لدن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره».

و للضلال هناك معان عدة، أضلها ضلاله عن الدين، فلا يصدّق عـليه حـيث القرآن و العقل لا يصدقانه عليه، و إليكم منها معان:

١ ـ وجدك ضالا عن وحي الإسلام و نبوته، فهداك اليه، ضلالا عن الهدايـة الفعلية بوحي القرآن، لا عن كل هداية و أبسطها: «ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ

لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (٢٩: ٤٨) «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ» (١١: ٤٩) وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» (۴: ١١٣)

«وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا» (٤٢: ٥٢).

أجل: إنک كنت ضالا عن هذا الهدى، لا عن كل هدى، فلقد كنت أهدى الناس قبل وحي القرآن، بما كان يسلک بک روح الأمين محاسن أخلاق العالم ليلک و نهارک.

٢ ـ وجدک ضالة الناس، و كما الحكمة ضالة المؤمن، فما كانوا يعرفونک، فهداهم إليک بما أرسلک برسالة الإسلام.

٣ ـ وجدک ضالا: فريدا في الناس، كما الشجرة في الفلاة تسمى ضالة، و لقد كانت أرض الجزيرة قاحلة لا ماء فيها و لا كلأ، بلا شجرة إنسانية تحمل ثمار العلم و الإيمان، و أنت الشجرة الطيبة الضالة في هذه المغارة، فهدى الناس إليک[1].

۴ ـ وجدک ضالا عن المعرفة حينما ولدت فهداک اللّه بالغزير منها، ثم بعد ما فطمت أيدک بأعظم ملائكته، إلى أن ابتعثک رسولا إلى العالمين، و هنا وجوه

---

١. كما في البرهان ۴: ۴٧٣ عن الامام الرضا (ع) في مجلس المأمون، و في نور الثقلين ۵: ۵٩۶ عن الإمامين الصادق و الرضا (ع) كما يأتي.

أخرى[۱].

هذا ـ رغم جماعة من المبشرين و المستشرقين الضالين الذين يحاولون ليثبتوا الضلال عن الدين ـ قبل الرسالة ـ على الرسول الصادق الأمين.

شريعة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبل الإسلام: و هنا الجدير بالبحث أن يعطف إلى شرعة الرسول قبل وحي القرآن: هل كان متحللا عن أية شريعة، يعبد ربه بلا شرعة و منهاج؟ أم دون أية عبادة كذلک؟ أم كان متعبدا بشرعة تخصه؟ أم مهديّا إلى شريعة الإنجيل المحكّمة قبل شريعة القرآن؟ أم شريعة موسى أم إبراهيم أم نوح؟ أم ماذا؟.

الوجه الذي نعقله و بالإمكان أن نقبله، هو انه كان متعبدا بشرعة صالحة لزمنه، غير محرفة ـ أيا كان ـ لأن اللّه اصطفاه أخيرا لخاتمة الرسالات «وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ

---

۱. و لقد ضل عن الطريق مرات عدة فهداه اللّه إلى نجده كما يقول: ضللت عن جدي عبد المطلب و أنا صبي ضائع كاد الجوع يقتلني فهداني اللّه، و كان يقول جدي: يا رب رد ولدي محمدا أردده ربي و اصطنع عندي يدا، فما زال يردد هذا البيت حتى أتاه ابو جهل على ناقة و بين يديه محمد (ص) و هو يقول: ما ادري ماذا نرى من ابنک! فقال عبد المطلب و لم؟ قال: اني أنخت الناقة و أركبته من خلفي فأبت الناقة ان تقوم، فلما أركبته أمامي قامت الناقة كأن الناقة تقول: يا أحمق هو الامام فكيف يكون خلف المقتدي، قال ابن عباس: رده اللّه الى جده بيد عدوه كما فعل بموسى عليه السّلام.

و خرج مع غلام خديجة ميسرة، فأخذ الغلام بزمام بعيره حتى ضل عن الطريق، فهداه اللّه بجبرائيل ان جاء بصورة آدمي فهداه إلى القافلة.

و ابو طالب خرج به إلى الشام فضل عن الطريق فهداه اللّه إلى القافلة.

الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ» (٣٨: ٤٧) «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» (٣: ٣٣) فليكن ـ إذا ـ خير الناس أجمع قبل رسالته، فهل يا ترى كيف يصطفى هكذا و هو متحلل عن الشرائع كلها، أو متعبد بشريعة منسوخة زمنه؟ فلتكن شرعته هي شرعة التوراة الصحيحة حسب الإنجيل الصحيح الحاكم زمنه، و هذا لا يتيسر إلا بتأييد اللّه بإيحاء ملك الوحي، إذ لم يكن يكتب أو يتلو كتابا قبل وحي القرآن، و لم يدرس عند أحد من علماء الكتاب كما القرآن يصرح، و لم يكونوا صالحين لذلک، و ليس نقصا للرسول أن يتبع قبل رسالته شرعة غيره من المرسلين، إذ الشرائع كلها للّه، و ليس الرسل إلا وسائط البلاغ، إضافة إلى إمكانية وحي الإنجيل اليه فذا كما أوحي إلى المسيح، نبيان أوحي إليهما سواء.

و وجه آخر عله أسلم، أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يسترشد بملك الوحي الذي قرن اللّه به من لدن كان فطيما يسلک به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم، ما يحمل وظائفه الخاصة به، و لا تنافيه الآية: «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ» (٤٢: ٥٢) إذ يعني به الإيمان الموحى إليه برسالة القرآن، و الكتاب كل كتاب، فما كان يدري ما القرآن و الإيمان القرآني قبل نزوله، على أنه كان مؤمنا قبله بالواجب عليه حينه بإيحاءات ملک الوحي، فما كان يدري ما

الإيمان ـ مطلق الإيمان ـ لو لا الإيحاء، حيث الشرعة الموحاة إليه ما كانت تنال إلا بالوحي، دون المحاولات البشرية، و لا سيما في الفترة الفوضى التي مضت على كتابات الوحي، فما كان محمد كبشر، ليدري ما الكتاب و لا الإيمان، إلى أن أوحي إليه بالإيمان، و ثم أوحي إليه الكتاب القرآن: «وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٤٢: ٥٢).

إذا فالرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان نبيا، قبل رسالته بوحي القرآن، نبيا لنفسه، إن بوحي الإنجيل، أم وحي آخر يخصه دون سواه، و كما

يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين»

فنبوته قبل ولادته هي الميثاق الذي أخذ له على النبيين أجمع: «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» و هي منذ ولادته إلى بعثته، نبوته الواقعية الشخصية، و من بعثته رسالته العالمية و إلى يوم الدين، و هنا أخبار تعمه و أخرى تخصه بتأييد إلهي منذ ولادته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[1] مما يوحي إلى نبوته الخاصة قبل رسالته.

---

١. منها اخبار مستنقيضة انهم مؤيدون من بداية أمرهم، و صحيحة الأحول القائلة: نحو ما كان رأي رسول اللّه (ص) من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرائيل من عند اللّه بالرسالة، و المستفيضة القائلة: ان اللّه لم يعط نبيا فضيلة و لا كرامة و لا هجرة إلا و قد أعطاه نبينا.

وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى»: عائلا من حيث المال و الحال[١]، و من ذويه الأقربين و من الناس أجمعين، فأغناه اللّه و كفاه عبء هذه العيلولة.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ:

آوه كما آويتک، و لا تقهره كما لم تقهر.

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ:

كما سألتني فما نهرتک، و قد أعطيتک ما لم أعط أحدا من العالمين.

وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ:

تحديثا باللسان، و بالجوارح و الجنان، و بالأعمال، فعش حديثا لنعمة ربک، كما عاشتک نعمته.

نعمة ربک، لا (نعمة) إذ يعنى منها نعمة الرسالة القدسية، فسواها بالنسبة له لا يحسب له حساب[٢]، ثم كضابطة عامة على كل منعم عليه أن يظهرها و يتظاهر بها موحيا أنها من اللّه، تمجيدا له لا لنفسه، و كما عن الصادقين (ع)[٣]، فالخيرات كل

---

١. نور الثقلين ٥: ٥٩٥ عن تفسير العياشي عن الامام الرضا (ع) في قوله: ألم يجدک يتيما فآوى، قال: فردا لا مثيل لک في المخلوقين فآوى الناس إليک، و وجدک ضالا: اى ضالا لا يعرفون فضلک فهداهم إليک، و وجدک عائلا: تعول أقواما بالعلم فأغناهم اللّه بک، و روى القمي عن الامام الصادق (ع) مثله.

٢. المصدر في محاسن البرقي عن الامام الحسن (ع) في الآية قال: امره ان يحدث بما أنعم اللّه عليه من دينه.

٣. كما في نور الثقلين ٥: ٦٠١ عن الصادق (ع) قال إذا أنعم اللّه على عبده بنعمة فظهرت عليه سمي حبيب اللّه،

الخيرات، عقلية و علمية و معرفية و إيمانية، أو ـ و مادية، يجب إظهارها كما يحب اللّه، إظهارا لمكرمته تعالى، لا تكاثرا و تفاخرا و إزراء للفاقدين لها، فإن بذلها كما يمكن، من إظهارها، و صرفها فيما يجب كذلك، و هكذا يؤول ما يؤثر عن تعريفات المعصومين (ع) بأنفسهم، فإنها من تحديث نعمة اللّه، و لينتفع بها عباد اللّه.

سورة الانشراح ـ مكية ـ و آياتها ثمان

[سورة الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ (١) وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَکَ (٣) وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ (٤)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٦) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَ إِلى رَبِّکَ فَارْغَبْ (٨)

استفهامات تقريرية تقرر للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نعما عدة، إيجابية و سلبية، و عند الفراغ عن مهمة الرسالة يطلب اللّه منه أن يستمر بها فيمن ينصبه

← محدث بنعمة اللّه و إذا أنعم اللّه على عبده بنعمة فلم تظهر عليه سمي بغيض اللّه مكذب بنعمة اللّه.

مقامه، ثم يرغب إلى ربه مؤديا ما عليه.

أَلَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ:

فقد شرح اللّه صدره ـ لأول ما شرح ـ بملازمة أعظم ملک من ملائکته، ثم بوحي القرآن، ثم بمکافحة المعارضين[1]، فإن الشرح هو الانفتاح و مقابله الضيق، و الصدر هو صدر الروح، و هو الوسيط بين العقل و القلب، يأخذ من العقل و ينقل إلى القلب، و هو في الصدر: «الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» فانشراح العقل و تفتّحه يفضي إلى انشراح الصدر و القلب، و کذلک ضيقه و عماه إلى ضيقها و عماها: «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لکِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (۲۲: ۴۶) و قد يعبر عن ضيق الصدر أيضا بالانشراح: تفتّحا للکفر:

«وَ لکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ» (۱۶: ۱۰۶).

فصدر الرسول الأقدس ـ و هو صدر الصدور ـ کان أشرح الصدور بين حملة

---

۱. کما تشير إليه الآيات: «کِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْکَ فَلا يَکُنْ فِي صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِکْرى لِلْمُؤْمِنِينَ» (۷: ۲) «فَلَعَلَّکَ تارِکٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْکَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ کَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَکٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى کُلِّ شَيْءٍ وَکِيلٌ» (۱۱: ۱۲) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ يَضِيقُ صَدْرُکَ بِما يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ کُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» ۱۵: ۹۸).

الرسالات الإلهية، تلقّى الوحي أكثر ما يمكن، و لاقى و عانى في سبيل البلاغ أشد ما يمكن، و هو منشرح الصدر: يستقبل الصعوبات في وعثاء السفر بكل رحابة صدر دون أن يقف لحد.

وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ:

و هذه نعمة أخرى في سلبيتها، و كونها نعمة تتلو انشراح صدره، يوحي إلى المعني من وزره، أنه: ما كان يعانيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الأمور المستصعبة، و المواقف المخطرة في أداء الرسالة، و تبليغ النذارة، و ما كان يلاقيه من مضار قومه، و يتلقاه من مرامي ايدي معشرة، و كل ذلك حرج في صدره و ثقل على ظهره، فقرره اللّه تعالى أن أزال عنه تلك المخاوف كلها، و حط عن ظهره تلك الأعباء بأسرها، فنجاه من أعدائه، و فضله على أكفائه و قدم ذكره على كل ذكر، و قدره على كل قدر، حتى أمن بعد الخيفة، و اطمأن بعد القلقة، «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

أجل: و إن ظهر الرسالة المحمدية كانت ـ لو خليت و طبعها ـ منقضة:

مقعقعة العظام من حملها، مرضوضة من ثقلها، حتى وضع اللّه ذلك الوزر، بوزير من نفسه القدسية: من صدره المنشرح، و بصيرته النافذة، و صموده القويم، و عقله

المستقيم... و بوزير هو كنفسه: علي أمير المؤمنين عليه السّلام الذي عرّفه عشرات المرات: أنه وزيره و أخوه و نفسه و مثيله[١].

هذا هو الوزر الموضوع عنه، لا ما يظنه الجاهلون أو المعاندون، أنه الذنب العظيم، زعما أنه المعني منه لغويا و ليس به، إنما الوزر ما يثقل و يتعب، ظهر الروح أو الجسم، فإن كان بحساب الآخرة كان عصيانا، و إن بحساب الدنيا كان طاعة، فإن مرضاة اللّه تبتغى بالأتعاب و الحرمانات يوم الدنيا، وزرا في الدنيا و راحة في الآخرة، عكس سخط اللّه.

ثم الامتنان هنا يشهد، و تأخر الوزر عن شرح الصدر يشهد، ثم اللّه شهيد مع هؤلاء الشهداء و قبلها: أن وزره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنما هو وزر الرسالة القدسية، بحملها و حملها و أعبائها و بلاغها!.

فلو كان ذنبا لم يمتن به عليه، و لو كان غفرا لذنبه لقال: و غفرنا عنك وزرك، و لكان مقدما على انشراح صدره، فإنه لا ينشرح إلا بعد انمحاء الذنوب، تحلية بعد تخلية.

ثم في وزر الرسالة، ليس وضعه عزله عنها، فهذا إهانة و ليس مكرمة، و كذلك

---

١. راجع كتابنا (علي و الحاكمون) باب الوزارة و أمثالها.

عزله عن بعضها، إذا فهو تخفيف حمل الرسالة بوزير من نفسه و وزير كنفسه[١].

و قد رفع اللّه ذكره بهذا الوزير لحدّ اعتبره شاهدا منه: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ» (١١: ١٧) و رفع ذكره مع اللّه من على الآمذن أوقات الصلاة[٢] و رفعه قبل مولده و مبعثه في كتابات النبيين من قبل، فأصبح رفيع الذكر حياته و قبلها و بعدها، و يا له من ذكر لزاما لذكر اللّه! و كما

عن الرسول عن اللّه: «إذا ذكرت ذكرت معي»[٣].

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً:

و على حدّ

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لن يغلب عسر يسرين[٤]،

و هنا تعريف العسرين يوحي أنهما واحد، حيث الثاني يشير إلى الأول، كما أن تنكير يسرين دليل أنهما اثنان، إذ لا إشارة حيث لا عهد مسبقا:

فمع عسر الرسالة في وزرها يسران هما: انشراح صدره و وضع وزره، و إذا

---

١. نور الثقلين ٥: ٦٠٣ عن بصائر الدرجات عن الصادق (ع) في الآية قال: ولاية أمير المؤمنين (ع).

٢. الاحتجاج عن الامام الحسين (ع) في حديث: فلا تتم الشهادة إلا أن يقال: اشهد أن لا إله إلا اللّه و اشهد ان محمدا رسول اللّه ينادى على المنار، فلا يرفع صوت بذكر اللّه عز و جل إلا رفع بذكر محمد (ص) معه.

٣. الدر المنثور ٦: ٣٦٤ ـ ابو سعيد الخدري عنه (ص) عن جبرائيل ان ربك يقول:

٤. رويت عنه مستفيضة كما في الدر المنثور و الطبري و البرهان و نور الثقلين على سواء.

اعتبرا واحدا فثانيها يسر الحشر و أولاه وضع الوزر و شرح الصدر، يجمعهما ارتياح ضمير الرسول أن بلّغ ما عليه، و هكذا يكون دائما عسر المؤمن مكافحا بيسرين في الدنيا و في الدارين، و ما عند اللّه خير و أبقى.

و المعية هنا «مَعَ الْعُسْرِ»: توحي بواقع اليسرين حال عسرهما، أما يسر الدنيا فارتياح ضمير المعسر في اللّه، و يتبعه واقع يسره فيها، و أما يسر الآخرة فهو أيضا واقع مهما كان خفيّا، و لكنه يظهر يوم الجزاء.

و إذا أردت مكافأة بهذه المكرمات، فإنها ليست إلا أن تستمر بها لما بعدك، كما كنت تعيشها حياتك أيها الرسول! فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ:

فما الفراغ هنا؟ و ماذا ينصب بعد الفراغ؟

ليس الفراغ هنا عن الصلاة، لكي يكون نصبه نصبا في الدعاء، و رغم أن الدعاء ليس فيها تعب و نصب! فالفاء المفرّعة توحي إلى أصل سابق، و ليس إلّا شرح الصدر و وضع الوزر و رفع الذكر، التي تجمعها الرسالة المحمدية بعسرها و يسريها، فليس الفراغ إذا إلا عن بلاغ الرسالة، و ما هو إلا عند حضور الموت، فليس النصب إلا نصبا لاستمرارية الرسالة، و لكي يرغب إلى ربه مؤديا مبلّغا ما عليه: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ

مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ» (٥: ٦٧).

هنا في محاولة استمرار الرسالة عند الفراغ عنها نصب و نصب كلاهما يناسبان «فانصب» و خلاف ما يزعم، ليس في الدعاء نصب و لا نصب، و لا سيما للرسول الذي زاده الدعاء، فلم يؤمر هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هنا بالدعاء، فإنه كان يعيش حياته الدعاء، دون اختصاص بالفراغ عن الرسالة، و لقد كان في نصب علي عند وصية الخلافة نصب بالغ إذ تبع الكلمة اللاذعة المشهورة ممن احتالوا الخلافة لأنفسهم فقالوا: «دعوه فإن الرجل ليهجر» ما تدمي العيون و تحرق الأكباد! ثم «فانصب» لغويا ـ على الصحيح او الأصح ـ أمر بالنصب لا بالنصب، و إلا كان «فانصب»، و في المنجد: نصب ـ نصبا الشيء: رفعه و أقامه، و الأمير فلانا: ولّاه منصبا.

و المروي عن أئمة أهل البيت مستفيضا صريح في النصب و إن كان النصب أيضا يشمله، و من النصب أيضا هو جعل النصيب أو تولية المنصب و هما يناسبان نصب الخلافة الإسلامية فإنها نصيب للرسول، يستمر به بعد مماته كما كان قبله، و كما عن الصادقين (ع) تفسيرا لآلية: فإذا فرغت من نبوتک فانصب عليا و إلى ربک

فارغب في ذلک[١]

و هو الوجه الوحيد الموافق لمقام الآيات و اللغة.

تذييل:

روى أصحابنا أن سورتي الضحى و الانشراح سورة واحدة تقرءان معا في الركعة، أقول: و هذه الوحدة تخص الصلاة حكميا و إلا فهما سورتان في غير الصلاة للفصل بالبسملة بينهما.

سورة التين ـ مكية ـ و آياتها ثمان

[سورة التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (١) وَ طُورِ سِينِينَ (٢) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)

---

١. تفسير القمي بالإسناد الى أبي عبد اللّه الصادق (ع) و روى في الكافي عنه (ع) مثله، و مثله عن ابن شهر آشوب عن الباقر (ع)، و عن أبي حاتم الرازي ان جعفر بن محمد (ع) قرأ «فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ» قال: إذا فرغت من إكمال الشريعة فأنصب عليا لهم إماما، أقول:

و ما روي شاذا انه النصب في الدعاء لا يلائم المقام و اللغة كما سبق، و اما ما روي انه نصب الخلافة بعد حجة الوداع يلائم الفراغ من الرسالة، و إنما عن الحج و لم يسبق له ذكر.

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (٨)

مما لا بد منه هو تناسق الإطار في أقسام القرآن مع الحقيقة التي تعرض فيها، و هنا نجد تناسقا دقيقا أنيقا بينهما، فلكي يثبت أن الإنسان مخلوق بجزأيه:

الجسم و الروح، في أحسن تقويم، يقسم بالتين و الزيتون كأمل الفواكه، لعرض الكمال الجسماني للإنسان، و بطور سينين و هذا البلد الأمين، كأفضل البلاد الموحى فيها على أعظم رجالات الوحي، لعرض الكمال و الاستعداد الروحي للإنسان، و لكي يثبت سفال الإنسان لو تخلف، عن المقام العال، يشير إلى سفال الفاكهتين بعد انهضامهما، و سفال البلدين لو تخلفا عما أوحي فيهما، فليس العلو العال للإنسان، لزاما له لأنه خلق في أحسن تقويم، و إنما هو بحاجة إلى تقدمة زاد الإيمان و العمل الصالح، و لكي يفلح و يمضي سليما في هذه العقبات و العرقلات التي تتربص به دوائر الضلال و السفال.

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ:

هما الفاكهتان المعروفتان مع ما يحملان من رمز الكمال فيهما، و في البلاد التي تنبتهما، فالتين شجرة عطوفة أليفة تفي قبل الوعد، بخلاف الخلاف التي تعد و

تخلف، إذ تورق و لا تثمر، و كذلك ذوات الأثمار التي تعد ثم توفي، فالتين شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى، و هي تهتم بغيرها في ثمرها، قبل أن تهتم بنفسها في ورقها، تثمر ثم تورق، تحقيقا لقول اللّه تعالى «وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ».. و ثمرها طعام لطيف خفيف الهضم، يلين الطبع و يخرج مترشحا، و يقلل البلغم، و هو للمعدة كالبلسم، و يطهر الكليتين، و يزيل رمل المثانة، و يسمن البدن، و يفتح مسام الكبد و الطحال، و على حد تعبير الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. إذ أهدي إليه طبق من تين:

«كلوا، فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت: هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير، و تنفع من النقرس»

و عن حفيده الرضا عليه السّلام: «التين يزيل نكهة الفم و يطول الشعر و هو أمان من الفالج».

و الزيتون فاكهة من وجه و إدام من آخر و دواء من ثالث وضوء من رابع، و من عجيب أمرها أنها لا تحتاج إلى تربية في أغلب البلاد، و من عظيم أمرها ذكرها في القرآن مرات عدة: «وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ» (٢٣: ٢٠).

فكما أن هاتين الفاكهتين من أقوم الفواكه و أتمها، كذلك بدن الإنسان فإنه خلق في أحسن تقويم.

وَ طُورِ سِينِينَ:

(طور) مذكور في القرآن تسع مرات، تارة كمعجزة إرهابية إذ رفعت: (٢: ٦٣)، و أخرى كمنزل الوحي على موسى عليه السّلام: (١٩: ٥٢)، و ثالثة كموعد لبني إسرائيل، و رابعة قسما بها و كتاب مسطور: (٥٢: ١) و علّه توراة موسى عليه السّلام مما يدل على بالغ الأهمية لهذا المكان المنيف، فهو هنا يحمل إشارة إلى منزل من أهم منازل الوحي و أكرمها.. و الأصل العبراني في سينين هو سيني، عرّب بإضافة النون هنا، و بالألف الممدود تارة أخرى: «طُورِ سَيْناءَ».

وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ:

إن كون السورة مكية، تجعل «هذا» إشارة إلى مكة المكرمة، و كذلك وصفها بالأمين، فلا أمين تكوينيا و تشريعيا كمكة المكرمة، و كما في دعاء إبراهيم: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» و بما أنها منزل الوحي الأخير على الرسول البشير النذير، فهي ـ إذا ـ أم القرى، طول التاريخ و عرضه، فرسولها إمام

الرسل، و رسالتها خاتمة الرسالات، و هي أول بيت وضع للناس، و إن كان آخرها وحيا «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً، وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» (٣: ٩٧).

فكما أن هذين البلدين أهم منازل الوحي و مصادر الرسالات، كذلك روح الإنسان فقد خلقت في أحسن تقويم روحاني، فالإنسان بجزيه مخلوق في أحسن تقويم.

و من لطيف الأمر أن التين و الزيتون ـ بما هما الفاكهتان ـ يحملان إشارة لطيفة إلى بلادهما التي هي أصول بلاد الوحي، و كما

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن الزيتون بيت المقدس»،

و هو منزل الوحي على كبار رجال الوحي، و أن التين إشارة إلى المدينة المنورة[1] مما يدل على كمال التناسق بين جزءي الإنسان، كما بين الفاكهتين و بلادها المقدسة، فعلى الإنسان إتباع قواه الجسدانية للروحانية، و لكي يتكامل خلقه في أحسن تقويم: ينمو جسمه على ضوء روحه، و روحه على كاهل جسمه:

---

١. نور الثقلين ٥: ٦٠٦ الامام موسى بن جعفر عنه (ص) ان اللّه اختار من البلدان اربعة.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ:

و ليس معنى أحسن تقويم أنه فاق الخلق كله، و إنما: ليس في الخلق أقوم منه، و منه من هو مثله في القوام: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (١٧:) ٧٠) فمن هذا القليل الذي يشبه الإنسان في القوام؟ أنا لا أدري! و عله من إنسان السماء الذي تشير إليه بعض الآيات[١]، أم هو و سواه ممن لا نعرف! إن الأصل في خلق الإنسان ـ إلهيا ـ هو أحسن تقويم، لو داوم في المشي على قوامه كما هداه اللّه تعالى في التكوين و التشريع: تكوينه الفطري و العقلي، و تشريعه الإلهي الواصب غير الخليط، و فيما إذا سلك سبيل التخلف فجزاؤه أن يردّ إلى أسفل سافلين، لحدّ لا أسفل منه في الخلق، رغم أنه ما كان أقوم منه في الخلق! إذا فهو هو النازل من العلوّ العال إلى أسفل السفال، و ليس إلا بفعاله هو، و اللّه يتركه ـ إذا ـ ثم يعبر عن تركه له أنه ردّه إلى أسفل سافلين.

ان جانب الخير في الإنسان أقوى من جانب الشر إذ خلق في أحسن تقويم، فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق أكرم الملائكة جبرائيل، إذ وقف وسط الطريق، و ارتفع محمد (ص) الإنسان إلى المقام الأسنى.

---

١. «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (٤٢: ٢٩) و آيات و روايات اخرى أمثالها سوف نوافيها عند مناسباتها الأوفى.

بينما هذا الإنسان يرد إلى أسفل سافلين، حين ينتكس و يـرتكس إلى الدرک الذي لا يتنزل إليه مخلوق قط: «أَسْفَلَ سافِلِينَ».

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ:

الذين واصلوا في سبيل الاستكمال على ضوء التقويم الأحسـن، مشـيا عـلى الفطرة التي فطر الناس عليها، و على دلالات الرسالات الإلهية: إيمانا باللّه و بها، و عملا صالحا فيها، فلهم أجر غير ممنون: غير مقطوع و لا منقوص و لا مكدّر و لا محسوب، أجر في دنيا الحياة بما يصلحها الايمان و عمل الصالحات، و أجر في في أخراها، و ما عند اللّه خير و أبقى. «فَما يُكَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّينِ. أَ لَيْسَ اللَّـهُ بِـأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ»: فما هذا الذي يدفعک إلى تكذيب الدين: طاعة للّه يوم الدنيا و جزاء عليها يوم الجزاء، أبعد توفر البراهين الدافعة إلى الدين؟! أبعد إدراک القيم الإنسانية، «أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ»: حكما عدلا كأعدل و أفضل ما يمكن، و من عدله الجزاء الوفاق للظالمين، و منه و من فضله رحمة بلا حساب للذين عدلوا!.

سورة العلق ـ مكية ـ و آياتها تسع عشر

[سورة العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴)

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (۵) كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (۶) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (٧) إِنَّ إِلى رَبِّکَ الرُّجْعى (٨) أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (٩)

عَبْداً إِذا صَلَّى (١٠) أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (١٢) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (١٣) أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (١۴)

كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (١۵) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (١۶) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (١٩)

ناصية الآيات الخمس الأول تشهد، و معها الروايات، و المفسرون أجمع يشهدون: أنها أوّل ما نزلت من القرآن على الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هي تحمل معنى البسملة بوجوب قراءتها قبل القرآن، فلا تنافيها الروايات القائلة أن الحمد هي الأولى، إذ أمر فيها بقراءة البسملة قبل الحمد كما قبل السور كلها، و الحمد بما تحمل بحمل القرآن توحي أنها الأولى، و أما المدثر فليس إلا بعد

تدثّر الرسول إثر نزول أوّل الوحي المباغت، فليست هي ـ إذا ـ إلا أوّل المفصل.

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ:

و قد يوحي «اقرأ» أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن قارئا قبله، فتأمره الآية أن يقرء القرآن مبتدئا بالبسملة، ف «بِاسْمِ رَبِّكَ» يشير إلى «بِسْمِ اللَّهِ» و «الَّذِي خَلَقَ»:

الرحمان، فإنه الرحمة العامة المدلول عليها بالخلق، فلا أعمّ منه، و «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ.. عَلَّمَ بِالْقَلَمِ»: هو الرحيم، فإنه الرحمة الرحيمية الخاصة:

خلق الإنسان و تعليمه ما لم يعلم، فما كان الرسول يتلو من قبله من كتاب، فأخذ يتلوه هنا «اقرأ» و ما كان يعلم «وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»

فأخذ يتعلمه هنا:

«عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ».

و تنقل الروايات عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله ـ إذ أمره ملك الوحي بالقراءة ـ:

«ما أنا بقارئ، يقولها ثلاثا فيضمه إلى صدره إيناسا بالوحي، فقال أخيرا:

ما أقرء؟ قال: اقرأ باسم ربك..»

و لم يبين هنا ماذا يقرء، إلا أصل قراءة الوحي باسم اللّه[١] ما يدل أيضا على أنه بداية الوحي، فقرء بإقراء اللّه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.. و إلى سائر القرآن، و اعتبارا أن البسملة من القرآن فليستعذ باللّه قبلها «فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ» (١٦: ٩٨) مهما كان الأمر بها سابقا أم لا حقا.

إن الإنسان بجزئيه: النفسي و الجسدي، ليس كيانه ـ و كسائر الكائنات ـ إلا تعلقا باللّه، لا يستقل عنه و لا آنا. و ليس انفصاله عن هذه العلقة إلا انفصاله عن الوجود، فهو في خلقه و علمه و كل معطياته علق باللّه، و هو يعيش علقا منذ خلق و في كل مراحل الحياة، و خلقه أيضا من علق:

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ:

علق لا علقة، فإنها الحالة الثانية للجنين، الناشئة عن العلق: جنس الدودات الصغيرة العالقة و جمعها، و هو منيّ يمنى، فهذا المني علق مجموعه، إذ يعلق بما يلحقه من ثوب أو بدن أو جدار الرحم، و علق جميعه، إذ هو بحر لجّي من ملايين

---

١. لما قال (ص): «ما ان بقارئى»

دل على انه ما كان ليقرء لا بالوحي و لا بغير الوحي. فكيف يقرأ و ماذا يقرأ؟ فلما ضمه ملك الوحي الى صدره ثلاثا. أجابه اقرأ بالوحي: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..»: أقرأ باسم اللّه الذي رباک

النطف: الدودات العلقية، العالقة بعضها ببعض، و العالقة كلها بجدار الرحم، و ليست الجرثومة الأولى هي العلقة: الحالة الثانية للجنين، و لا العلق: مجموعة الدودات، و إنما واحدة من العلق، إن كانت واحدة، و أكثر إن كانت أكثر، لذلک «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ»: بعض من البحر المنوي السابحة فيه ملايين العلقات: الدودات المنوية، لا كله، و هذا البعض هو النطفة من مني يمنى: «أَ لَمْ يَکُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى، ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى» (٧٥: ٣٨).

فهنا علق، و هنا واحدة من العلق هي النطفة، و هنا علقة خلقت من هذه النطفة، فالعلقة: النقطة الدموية العالقة، هي الحالة الثانية الجنينية، و الثالثة المنوية، و من المضحک المبکي تفسير العلق بالعلقة، خلاف اللغة، و خلاف ترتيب الخلقة، و خلاف كافة الآيات المستعرضة لخلق الجنين، المبتدأة بالمني و النطفة و المثنية بالعلقة[1]! و لم يكن هكذا تفسير إلا لقصور العلم مسبقا عن أن المني يحمل ملايين الدودات، يخلق من كل واحدة جنين واحد، لا من المني كله.

---

١. كالآيات (٧٥: ٣٧) (٨٠: ١٩) (١٨: ٣٧) (٢٣: ٥) (٣٥: ١١) (٤٠: ٦٧) (٣٥: ١١).

ليوحي إليک.. بحول الله و قوة الله اقرأ: أصل القراءة الوحي فأنه باسم ربک الموحي إليک، و كل قراءة هي بالوحي فعليک ان تبدء فيها بالبسملة ـ ف «كل امر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»

و اي بال فوق بال الوحي؟

و لقد بدر الوحي من الرسول الأمي لأول ما بدر، بهذه المعجزة العلمية، التـي اكتشف أخيرا شيء منها قليل، و بجنبه الكثير الكثير، مما على الإنسان أن ينظر فيه: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ»؟.

فلقد كان أصل الوحي عليه معجزة، تحمل معجزة علمية خالدة، و الرسول كيانه الرسالي معجزة، فكيان الرسالة المحمدية مجذور مكعب من المعجزات!.

إن النطفة الأمشاج هي المجموعة من نطفة الذكر و الأنثى، تتزاوجان فتصبحان واحدة، فكيف الزواج؟ و كيف النطفتان قبل الزواج و بعده؟ لقد أمرنا نحن أن ننظر كيف خلقنا، فنظرنا و وجدنا طرفا من الخلقة العجيبة الطريفة، ما يزدادنا معرفة بالذي خلق. خلق الإنسان من علق[1].

---

١. لقد كشف العلم طرفا من هذه المعجزة الأولى للقرآن، و الخلق العجيب الطريف لمنزل القرآن، و لوحظ بالعيون المسلحة ان كيف النطفتان؟ و كيف تتزاوجان؟..

الجينات: بيضات دافقة من ترائب الأنثى، كل منها كبيضة الدجاجة، إلا ان قطرها يتراوح بين جزء أو جزئين من عشرة اجزاء من الميليمترات (١٠ /١ أو ١٠ /٢) و وزنها جزء من مليون جزء من الغرام، و فيها مح (Cytoplame) و في المح الحويصلة الجرثومية (Nuelede) التي يبلغ قطرها جزء من ثلاثة آلاف جزء من القيراط، فيها تكمن النطفة الجرثومية (Noyau) التي يبلغ قطرها (٣٠٠٠ /١) من القيراط.

هذه البيضة تتكون في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الألبوميني، فإذا نمت هذه الحويصلة، و ازداد السائل الذي في باطنها، يتمدد غشاءها و يرق ثم ينفجر و تخرج البيضة منها و من المبيض كله، فإلى اين تذهب هذه البيضة الصغيرة العزيزة العذراء وحدها في هذا الظلام؟.

←

اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ:

← إنها على موعد مع العشير الذي تحلم به دون معرفة مسبقة بينهما، يتسارعان إلى بعض و يتلاقيان في الطريق، ثم يسيران متعانقين متراوحين إلى بيت الزوجية، المهيأ لهما، فهل لنا أن نعرف هذا العشير ايضا كما عرفنا العشيرة، و قبل أن نعرف زواجهما؟.

انها الكروموزومات، قطر كل منها لا يزيد عن ستين جزء من ألف ميلي‌متر (١٠٠٠ / ٦٠) فهو أصغر من خطيبه بكثير، و له عقبات في هذا الزواج: انها أصغر من عشيقتها بكثير، انها بين ملايين الخطاب الآخرين: الدودات المنوية الكروموزومية، و الملتقى ايضا بوق مظلم مظلم ـ ضيق ضيق ـ رفيع رفيع، قطره كشعرة يختبئ وراء الرحم، و يمتد فيه إلى المبيض، إذا فكيف بالإمكان الزواج مع هذه العقبات؟:

ليس هناك إلا الخلق العجيب لكل واحدة منها، حيث خلق اللّه لها رأسا مكوراله عنق لولبي و ذنب طويل يضرب به الماء و يتبلط، و جعل هذا الذيل معقودا بأنشوطة لينفك عنه إذ دخل إلى البيضة!.

فكر واحد من هؤلاء الذكور الكروموزومية كان اسرع و أقوى في هذا السباق، سبق مناوئيه إلى جدار البيضة العذراء، فيضرب برأسه الجدار بغية دخول الدار، من باب الجاذبية (Coneduttuaction) فإذا دخل أغلقت العذراء بابها، و قطعت جذبها و أحصنت فرجها، وصدت الملائين الآخرين من الخطاب الآخرين ليموتوا حزنا، أو يحيوا خداما لزميلهم السابق، و لكي يخلق جنينا كاملا!.

فهكذا تتكون النطفة الأمشاج في بداية مشجها، ثم هناك أمشاج أخرى نبحث عنها في آية الأمشاج، و إليكم منها اشارة:

ان الرحم ـ البيت الزوجي ـ مضياف كريم، يستعد كل شهر لاستقبال العروسين و ايواءهما و إطعامهما، فتنفتح خلايا غشاءه المخاطي، و تتسع الشعيرات الدموية، و تنشط الغدد، فإذا تم الزواج استقبل لزوجين على الرحب و السعة، و ان تعرقل الزواج بسبب من الأسباب تميز غيظا و تمزق أسفا و بكى على البيضة الميتة دما غزيرا. ان الزواج بعد لا يكاد يتم حتى يبدأ العمل المشترك في بناء الإنسان الجديد، فيمشج الشريكان، كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط: (الكروموزومات)، و ما فيها من الخلق المخلقة: (الجينات) التي خطتها و خلقتها يد القدرة الإلهية بأقلام الإرث المنحدر عبر الأجيال، من الجدود و الآباء الى الأبناء و أبناء الأبناء:

و أقل الأمشاج ثلاثة: مشج النطفتين قبل الزواج، و مشجهما بالزواج في البوق، و مشج الشريكين كل ما عنده، فالنطفة على وحدتها أمشاج، كما الماء الدافق من الصلب و الترائب واحد، و سوف نأتي بتفاصيل لخلق الإنسان في طيات الآيات المناسبة.

إن نعمة العلم بعد الخلق تحتل المنزلة الأولى بين النعم، و كما أنه تعالى أحسن الخالقين في خلق الإنسان، كذلك هو الأكرم في تعليمه، و كما أن الإنسان علق بربه في كيان الخلق، كذلك في انسانيته القائمة على العلم، فكافة علوم الإنسان من اللّه، من العلوم الغريزية: الفطرية و العقلية، و من الاكتسابية الناشئة عنهما، النامية بهما، و من علوم الوحي، فائقة الفطرة و العقل، المتحللة عن الاكتساب المعتاد، و هي أعلاها، الخاصة برجالات الوحي، و لكي يعلّموا الناس ما لم يكونوا يعلمون: «كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» (٢: ١٥١).

و قيّد العلم بالقلم، لأنه لا يقيّد إلا به، و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قيدوا العلم بالكتابة»

و إنما هذا القيد في غير الوحي، فإنه يقيّد في صفحات قلوب أصحابه دون حاجة إلى قيد القلم: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى» فاللّه الذي علم الإنسان ما لم يعلم، و ما لم يكن يعلم، هو الذي يأمرك بقراءة الوحي، و يعلمك ما لم تكن تعلم: «وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ».

و تأريخ الحضارات يشهد أن كافة التقدمات العلمية الحضارية مستوحاة من

وحي السماء برجالاته الذين بيّضوا وجه التاريخ بتعاليمهم النيرة[١].

و هل العلم دون قيد العمل يكفي الإنسان كرما؟ فكيف لم يقيّد به هنا، الجواب: «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» و «إن العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل»[٢]، و إن العلم من اللّه و العمل من الإنسان، و إن كان هو أيضا بتوفيق اللّه.

و القلم ـ أي قلم ـ قلم الحبر، أو الحديد الكاتب على الحجر و مثله، أو قلم الأمواج المستخدمة لمسجلات الصوت و الصور، إنه مما يقيّد العلم كأحسن و أءمن ما يكون، إلا قلم الوحي على قلوب النبيين، فإنه في غنى عن الوسائل العادية و المحاولات البشرية، فكما الوحي معجزه، كذلك قلمه الذي يقيّده، و الأقلام كلها تخطئ إلا قلم الوحي!.

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى. إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى:

كلا: إنه لا ينتبه هذا الإنسان أنه علق خلق من علق، و إن ربه علّمه، فهو متعلق الذات و الكمالات بربه، و لكنه ينسى فيطغى أن رأى نفسه مستغنيا عن ربه و ليس به!.

إن رؤية الاستغناء هي الدافعة للطغوى: أن يحسب الإنسان نفسه مستغنيا عن

---

١. راجع كتابنا (تاريخ الفكر و الحضارة).

٢. عن علي عليه السّلام و كما في روايات كثيرة، تعني العلم الحقيقي.

ربه فيطغى عليه و يعصيه، و مستغنيا عن الخلق فيظلمهم، فلا الغنى و لا الاستغناء، ليس واقعا يعيشه أي إنسان، و إنما الخطأ في الرؤية، أن يـراه كـذلک و ليس بـه: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» خطأ عامدا يندد به بأشده، كيف لا ينتبه أنه فقير إلى اللّه كما كان بداية أمره! و أن رجوعه إلى ربه، لا يستطيع الفرار عن رجعاه، مهما كان مبتداه!.

هذه الرؤية الخاطئة قد تجعل الإنسان طاغيا على اللّه و عباده في حملة واحدة، كالذي ينهى عبدا إذا صلى:

أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى. عَبْداً إِذا صَلَّى. أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى:

أبو جهل الطاغية يرى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يصلي عند البيت و يقول لحزبه: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلک لأطأن على رقبته، فقيل له: ها هو ذلک يصلي، فانطلق ليطأ على رقبته فما فجئهم إلا و هو ينكص على عقبيه و يقي بيديه، فقالوا: ما لک يا أبا الحكم! قال: إن بيني و بينه خندقا من نار و هولا و أجنحة، و قال نبي؟؟؟؟ اللّـه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و الذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا، فأنزل اللّه سبحانه «أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى..».

إنه ليس المحرم هو النهي عن الصلاة الصحيحة فحسب، بل الباطلة أيضا.

و كما أن عليا عليه السّلام ما نهى عنها سنادا إلى هذه الآية[١].

أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى. أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى:

«أ رأيت» الأولى، و هذه الثالثة، خطابان للنبي (ص) تسديدا له صمودا على تقواه و هداه، و الوسطى للذي كذب و تولى تنديدا به كيف ينهى عن الهدى و التقوى:

ألم يعلم بأن اللّه يرى! «كلا» فلو رأى و درى لم يفعل فعلته الرديئة السافلة.

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ. ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نادِيَهُ. سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ.

السفع هو الأخذ بسفعة الفرس، أي سواد ناصيته، كناية عن تحديده على ما يرام، و لقد سفع اللّه ناصية هذا الكذاب الأشر، و وسم خرطومه يوم أحد إذ قتل، و هنا إذ منعه عن وطئ رقبة الرسول (ص) حين يصلى، معجزة حاضرة حاذرة، و آية ترهب حزبه الخاطئين، أن اللّه تعالى ليس بمهمل للمؤمنين، و سوف يسفعه و يسم على

---

١. نور الثقلين ٥: ٦١٠؛ خرج علي (ع) في يوم عيد فرأى أناسا يصلون فقال: أيها الناس قد شهدنا نبي اللـه (ص) في مثل هذا اليوم، فلم يكن أحد يصلي قبل العيد، فقال رجل:

يا أمير المؤمنين! ألا تنهى أن يصلوا قبل خروج الامام! فقال: لا أريد أن أنهى عبدا إذا صلى، و لكنا نحدثهم بما شهدنا من النبي (ص) أو كما قال.

خرطومه: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» يوم البرزخ و القيامة «فَلْيَدْعُ نادِيَهُ» هناک، كما هدد بها الرسول هنا[١]، «سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ»: الملائكة الغلاظ الشداد التسعة عشر: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ».

كَلَّا لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ:

ف «اقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجدا»[٢]

هنا يسجد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا في سجوده:

«أعوذ بالله، برضاک من سخطک، و بما فاتک من عقوبتک، و أعوذ بک منک، حتى لا أحصي ثناء عليک. أنت كما أثنيت على نفسک»[٣].

فهذه من آيات السجدة الواجبة، و الباقية هي: آية النجم «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا» (٥٣: ٦٢) و فصلت «لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» (٤١: ٣٧) و السجدة: «إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً» (٣٢: ١٥).

---

١. تقول الروايات أن أبا جهل هدد النبي قائلا: «لقد علمت ما بها أكثر ناديا مني» فنزلت الآية.

٢. نور الثقلين ٥: ٦١١ عن عبد اللّه بن مسعود أن رسول اللّه (ص) قال:..

٣. نور الثقلين ٥: ٦١٢ من غوالي اللئالي روي في الحديث أنه لما نزل قوله تعالى: و اسجد و اقترب. سجد النبي (ص) فقال في سجوده:..

تسمى المجموعة العزائم الأربع، فتجب السجدة عند تلاوتها: قراءة و سماعا و استماعا، لإطلاق الآيات، و تعارض الروايات في السماع إيجابا و نفيا يعالج بردها إلى القرآن فالأخذ بالأول لموافقة الآيات، و لأن الناهية و غير الموجبة توافق سائر المذاهب و تخالف الآيات بخلاف الآمرة كالآيات، سواء[1]. و إذا كنت في صلاة فريضة فسمعت آية السجدة أو استمعت، أو أومأت لها إيماء و لا تسجد لأنها تنقض الصلاة، و لأنک سوف تسجد في الصلاة، و هي واجبة سابقة على وجوب السجدة و سببها، و الحق لما تقدم كما هو لمن تقدم.

و بقية الآيات الآمرة بالسجود تحمل على الاستحباب، و لأنها تضم قرائن تصرفها عن الوجوب[2].

---

١. الكافي و التهذيب عن أبي بصير قال قال: إذا قرئ شيء من العزائم الأربع فسمعتها فاسجد (الوسائل ب ٤٢ من قراءة القرآن)

و فيه عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (ع) قال سألته عن الرجل يكون في صلاة في جماعة فيقرء إنسان السجدة كيف يصنع؟ قال: يؤمي برأسه. قال: و سألته عن الرجل يكون في صلاته فيقرء آخر السجدة، قال: يسجد إذا سمع من العزائم الأربع ثم يقوم فيتم صلاته إلا أن يكون في فريضة فيومئ برأسه إيماء.

٢. كاية النمل: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (٢٧: ٢٥) فإنها تنديد بتاركي السجدة للّه إطلاقا، و آية الحج: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ» (٢٢: ٧٧) فإضافة الركوع و العبادة تجعلها آمرة بالعبادات المفروضة المعروفة بغير الآية و أشباهها، فلا تشمل سجدة التلاوة، و آية الرعد و النحل: «وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً» (١٣: ١٥) (١٦: ٤٩) و آية الحج: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ ←

سورة القدر ـ مكية ـ و آياتها خمس

[سورة القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤)

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

... آيات خمس تبرز أهمية وحي القرآن، و القلب الذي أنزل عليه، و الليلة التي أنزل فيها، و استمرارية واقع القدر بإلهامات مستمرة على قلوب الطاهرين من آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المكرمين، تضم الحقائق من كل أمر.

لذلک تقول الروايات إنها نسبة أهل بيت العصمة المحمدية، إلى يوم القيامة، كما عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله عن اللّه تعالى أنه قال:

← يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» (٢٢: ١٨) هذه الآيات انما تحكي سجود الكائنات لربها، دون أمر حاضر زائد على ما يرام من العبادة و الصلاة، دون الآيات الأربع الماضية، فإنها آمرة بالسجدة.

«اقرأ «إِنَّا أَنْزَلْناهُ» فإنها نسبتك و نسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة»[١].

نسبة روحية قدسية كما و أن سورة الإخلاص نسبة رب العالمين.

في هذه السورة ندرس: ما هو النازل في ليلة القدر؟ و ما هي ليلة القدر؟

و متى هي؟ و ما هي خيرتها من ألف شهر؟ و من هو الروح المتنزل مع الملائكة فيها؟ و على من تتنزل؟ و بماذا تتنزل؟ و ما هو السلام فيها حتى مطلع الفجر؟.

إِنَّا أَنْزَلْناهُ:

هل هو نزول روح النبوة ـ القدسية ـ على الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

أم وحي القرآن النازل عليه بتمامه طوال الدعوة؟ أم بعض القرآن و علّه هذه السورة نفسها؟ أم القرآن كله بصورة محكمة غير مفصلة، متحللا عن هذه التعابير اللفظية و الأمثال، و التكررات و الإخبارات عن المستقبل؟

لا نحتمل أنه بعض القرآن المفصّل، و لا بعض المحكم، لمكان «ه» لا «بعضه» : و على كونه بعضه لا نحتمل أنه نفس السورة، لمكان «ه» لا «ها» و لأنه إخبار عما سبق: «أنزلناه» لا عن الحال: «ننزله» ف «أَنْزَلْناهُ» يحيل أن يكون النازل هو

---

١. نور الثقلين ج ٥ ص ٦١٦ ح ٢١ و مثله الأحاديث في نفس المصدر كالتالي: ح ٩٥ ـ ٩٧ و ٩٩ و ١٠١ ـ ١٠٣ و ١٠٨ و ١١٠.

سورة القدر نفسها، لذكورة الضمير و مضيّ الفعل.

إضافة إلى أن نزول البعض من القرآن ـ أيا كان ـ في ليلة القدر، أنه من توضيح الواضحات، إذ إن أبعاض القرآن منتشرة نزولا على أبعاض زمن الرسالة، و من أحراها ليلة القدر، و إن نزول البعض منه فيها لا تكسبها فضيلة خاصة، إذ الأبعاض كلها قرآن، و كلها تكسب زمنها فضلا دون اختصاص ببعض دون بعض.

و لا نحتمل أيضا أنه القرآن المفصل، النازل طوال الرسالة نجوما متفرقة، فكثير من آياته لا تتحمل نزولها دفعة واحدة، بداية البعثة، كالمخبرة عما تحقق متأخرا عن ليلة القدر بصيغة الماضي: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُکَ فِي زَوْجِها» (٥٨: ١) و أمثالها.

و الآيات الناهية عن استعجاله بالقرآن قبل أن يقضى إليه وحيه:

«وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْکَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» (٢٠: ١١٤) «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ» (٧٥: ١٦).

و لو كان القرآن المفصل نازلا عليه جمله واحدة ليلة القدر، لم يكن في قراءته قبل نزوله التدريجي استعجال، و إنما حكاية عما أوحي إليه، و نفس ما أوحي إليه، إضافة إلى تصريحات أخرى: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً

واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا» (٢٥: ٣٢).

و أخيرا لا نحتمل أنه روح النبوة القدسية، لأنها نزلت عليه منذ بداية الوحي فهل يا ترى إن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم تكن له روح النبوة، بينه و بين ليلة القدر الأولى من سني رسالته، زهاء خمسين يوما أو يزيد[١]؟

فنحن هنا بين واقعين: واقع نزول القرآن في ليلة مباركة: «حم. وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» (٤٤: ٣٦) و هي ليلة القدر: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» و هي من رمضان:

«شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» (٢: ١٨٥).

و واقع نزوله نجوما متفرقة طول البعثة خلال ٢٣ سنة كما هو الواضح.

و لا بد أن يختلف النزولان مع بعض، فهل هو نزوله المفصل مرتين؟ كلا! للدليل المسبق، سواء أكان نزولا على قلب الرسول في هاتين المرتين، أم في المرة الأولى إلى بيت المعمور في السماء الدنيا دفعة واحدة، و في الثانية على قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نجوما متفرقة[٢]، و هذه أسطورة لا يقبلها العقل و الدين و لا

---

١. من ٢٧ رجب إلى ليلة القدر المردة بين ما يأتي.

٢. في الكافي عن أبي عبد اللّه الصادق (ع) قال: نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم

←

آي القرآن المبين، إضافة إلى الدليل المسبق من لزوم الكذب، إلا أن يعنى منه قلب الرسول (ص)، فأي بيت هو أعمر من قلبه المنير، و هو أيضا في السماء الدنيا، مع الخلق المكلفين ضرورة كونه في المرسل إليهم، و إن كان كيانه فوق العالمين: بالأفق الأعلى.

ثم القرآن ليس طرأ يصعد أو ينزل إلى بيت في السماء! فليكن الرسول هو المعني بالبيت المعمور، إذ عمر بقلبه المنير بوحي اللطيف الخبير.

أقول: لا سبيل إلى شيء من ذلك، و إنما هو نزوله جملة واحدة بصورة محكمة دون تفاصيل، في ليلة القدر على قلبه المنير، ثم نجوما متفرقة طوال البعثة.

و القرآن يشير إلى هاتين المرتين في آيات و يصرح في أخرى: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (١١: ١) ف «ثم» هنا، تفصل بين القرآن المفصل و المحكم غير المفصل، أن المفصل يتطلب نزوله زمنا بعيدا، و هو مجموعة زمن الدعوة، و لكن المحكم لا يتطلب إلا وقتا قصيرا يناسب أن يكون ليلة القدر.

→ نزل في طول عشرين سنة (نور الثقلين ج ۵ ص ۶۲۴ ج ۵٣).

و هذه الرواية واحدة شاذة لا سبيل فيها إلا التأويل المسبق في المتن، و سندها: حفص بن غياث، عامي لم يوثق و كذلک الراوي عنه محمد بن سليمان.

و لو كانت صحيحة مستفيضة أيضا لم تكن تثبت بيتا جسمانيا من حجر و مدر نزل فيه القرآن ليلة القدر إذ المعنى لا ينزل على الجسم، إلا جسما فيه معنى ـ بحسابه ـ كقلب النبي الأقدس (ص).

و لقد كان الرسول خبيرا بالآيات قبل أن يقضى إليه وحيها: «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» و من المحال الاستعجال فيما لم يسبق منه للرسول بال، و لقد كان يحرك به لسانه ليعجل به، أ تحريكا دون أن يعلم منه شيئا!: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ» (٧٥: ١٦: ١٩). فقد نهي عن الاستعجال في لفظا القرآن لينضم وحي اللفظ إلى وحي المعنى فيصبح القرآن وحيا مزدوجا، و ليكون تفصيل وحي المعنى أيضا بالوحي، كما نرى في آيات تصرح: أن تفصيل الكتاب كمحكمه، من اللّه «ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (٤١: ٢).

و لقد سبق محكم القرآن أم الكتاب، و في هذه المرحلة المسبقة لم يكن كتابا و لا قرآنا، و إنما علم اللّه المحكم دون أن يعلمه أحد: «يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ» (١٣: ٣٩): أصل الكتاب، و عند ذاک لم يكن قرآنا يقرء: و لا عربيا: واضحا، و إنما اللّه جعله قرآنا عربيا: «إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» (٤٣: ٢) ـ ٣) عليّ من أن تناله الأفهام، حكيم من أن تتطرق اليه الأوهام.

و بعد هذه الحكمة البعيدة المدى قبل نزوله، أنزله اللّه بصورة محكمة هي تفصيل

ام الكتاب، أنزله على رسوله ليلة القدر جملة واحدة، ثم فصله له طوال البعثة نجوما متفرقة، و لم يكن الرسول ليعلم قبله لا مفصله و لا محكمه: «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُکَ» (١١: ٤٩) «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ..» (٤٢: ٥٢) «وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْکَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَکَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» (٤: ١٣).

و هذه مراحل ثلاث للقرآن: ١ ـ القرآن المحكم لدى اللّه، ٢ ـ القرآن المحكم لدى الرسول، ٣ ـ القرآن المفصل لدى الرسول فلدى الناس: «هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ».

إِنَّا أَنْزَلْناهُ:

نستوحي من هذه التأكيدات الثلاث منزلة القرآن العالية، ف «إن» يؤكد النزول، إذ لو لم يكن يتنزل القرآن عما عند اللّه من العلو و الحكمة العالية، لم يكن الرسول ليفهمه فضلا عمن سواه، فليس النزول هنا من مكان عال، و إنما من مكانة عالية هي مرحلة ام الكتاب.

و ضمير الجمع «نا» يؤكد لنا: أن هذا القرآن مجموعة الرحمات الإلهية الممكن نزولها على الإنسان، فجمعية الصفات هنا ـ لا الذات ـ تدلنا على أن نزول القرآن

تصاحبه كافة الإفاضات من كافة الصفات الإلهية في أمرين:

حمل القرآن لما يمكن حمله من العلوم و التوجيهات الإلهية أولا و أخيرا، و وضوح آياته و نصوعها لآخر درجات الإمكان، فلا أوضح منه بيانا، كما لا أعمق منه برهانا و تبيانا.

و أخيرا ـ إضافة إلى الأدلة المسبقة ـ نستوحي من إنزال القرآن هنا نزوله الدفعي، كما التنزيل هو التدريجي ـ تتبع موارد استعمالها.

ثم لماذا أشير هنا بالضمير «أنزلناه» دون تصريح بالقرآن؟ اعتبارا بأن القرآن المحكم ضمير مستتر، و أنه لا يحق أن يعنى بالضمير المجهول، إلا الوحي الأخير، فكما ان «هو» في الأشخاص لا يعني إلا الهوية المطلقة الإلهية، لأنه «هو» على الإطلاق، كذلك «هو» في النازل من وحي السماء لا يحق إلا للهوية المطلقة الكتابية، فكتاب اللّه إله الكتب لأنه أنزله بعلمه.

و استنتاج ثان و هو أن النازل ليلة القدر لم يكن هذا القرآن المفصل حتى يصح القول: إنا أنزلنا هذا القرآن، و إنما روحه المجمل، و محكمه المجهول عنا، الغائب عن عقولنا، و لذلك كله يستحق ضمير الغائب المطلق «هو» تأمل.

فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ:

فما هو القدر؟ و كم هي ليلة القدر؟ و ما هي؟ و هل هي تتكرر طوال الزمن؟ أم إنها ليلة مضت دون تكرار؟ أم تكررت زمن الرسول ثم انقطعت؟.

بحوث قيمة ذات قدر حول ليلة القدر، علنا ندرسها معمقة، على أسهل تعبير و كما هي دأبنا في هذا التفسير:

ف «القدر» : علّه المنزلة و المقام، اعتبارا بما حصل في ليلته و ما يحصل، فليس الزمان ذا قدر و منزلة ذاتيا، اللهم إلا بما يحل فيه من عظائم الأحداث الجليلة، و لهذا الحدث العظيم: حدث نزول القرآن الكريم، حدث الوحي و الرسالة الأخيرة، إن له منزلة لا أعظم منها و لا يساويها أيّ من أحداث التاريخ.. إن منزلتها تفوق كل المنزلات طوال الزمن، إذ لم يأت بما أتته كل الزمن.

إن هذه الليلة المباركة تفوق عظمتها الإدراك البشري، و إدراك الرسول أيضا كبشر، و إنما هو يدركها كرسول: «وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»: ألف شهر يقام فيها في سبيل اللّه، و ألف شهر يعارض فيها شريعة اللّه، خير من التاريخ بأسره، من شرّه إذ تكافحه، و من خيره إذ تفوقه.

و «القدر» عله ـ أيضا ـ التقدير: تقدير قيم الإنسان، و تدبير حياة الإنسان لأعمق أبعاد التاريخ، تقدير ما أشمله، من تفريق كل أمر حكيم:

«.. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» (۴۴: ۳) و هذا مما يستمر طوال الرسالات و الرسالة الإسلامية حتى آخر زمن التكليف، و تقدير يخص زمن الرسول، بنزول القرآن الحاوي لكل الأقدار و كل ما تتطلبه الحياة كل الحياة.

و نجد تفاسير أخرى لمعنى القدر في المروي عن أهل بيت الرسالة المحمدية، من: أنها ليلة قدرت فيها السماوات و الأرض، و قدرت ولاية أمير المؤمنين عليه السّلام فيها[1] إيحاء إلى نوعي التقدير تكوينا و تشريعا، باعتبار أن ولاية علي عليه السّلام تضم كافة الولايات التشريعية لأنها تمثل الولاية القدسية المحمدية التي هي خاتمة الولايات و جامعة النبوات.

و أنها ليلة تقدير الأرزاق و الآجال كما عن جعفر بن محمد عليه السّلام[2] و هي من فروع تقدير السماوات و الأرض، و قد يعم تقديرهما تقدير ما هو كائن إلى يوم القيامة كل ليلة قدر بسنتها بما فيه المقامات الروحية كما عن الرسول الأقدس

---

١. كما في معاني الأخبار عن المفضل قال ذكر أبو عبد اللّه (ع) «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» قال: ما أبين فضلها على المشهود قال قلت: و أي شيء فضلها؟ قال: نزلت ولاية أمير المؤمنين (ع) فيها، قلت: في ليلة القدر التي نرتجيها في شهر رمضان؟ قال نعم هي ليلة قدرت فيها السماوات و الأرض، و قدرت ولاية أمير المؤمنين (ع) فيها (نور الثقلين ج ٥ ص ٦١٧ ح ٢٣).

٢. المصدر ص ٦١٨ ح ٢٩.

(ص)[١] و الإمام الرضا عليه السّلام»[٢].

لَيْلَةِ الْقَدْرِ:

إنها ليلة واحدة في السنة لمكان تاء الوحدة «ليلة» لا «الليل» حتى يفيد الجنس الملائم لأكثر من ليلة، و لا «ليال» حتى ينص على العدد.. إنما «ليلة».

هذا ـ و لكننا ماذا نصنع بواقع اختلاف الآفاق، و عله حوالي يوم أو يومين في الكرة الأرضية، إضافة إلى اختلاف الليل و النهار في وقتيهما أيضا حسب اختلاف الآفاق، فنهار النصف من الكرة ليل في النصف الآخر، و حسب طوال الليل أو النهار إلى قرابة ستة أشهر، فما هو المناط في ليلة القدر من هذه الآفاق؟

قد يقال: إن لكل أفق ليلة قدر يخصه، فهي ليال حسب مجموعة الآفاق رغم كونها ليلة حسب كل أفق، و يشكل أن الآية لا تتحدث عن كل أفق قبال الآفاق، و إنما عن كافة الآفاق، حيث المعنيين بالآيات كافة سكنة الأرض.

---

١. المصدر عن معاني الأخبار عن أمير المؤمنين على (ع) قال قال رسول اللّه (ص) يا علي أ تدري ما معنى ليلة القدر؟ فقلت: لا يا رسول اللّه (ص)! فقال إن اللّه تبارك و تعالى قدر فيها ما هو كائن إلى يوم القيامة فكان فيما قدر عز و جل ولايتك و ولاية الأئمة من ولدك إلى يوم القيامة (المصدر ص ٢٩٦ ح ٨٠ عن معاني الأخبار).

٢. نور الثقلين عن عيون الأخبار في مجلس الرضا (ع) مع سليمان المروزي ـ قال سليمان للرضا (ع): ألا تخبرني عن «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» في أي شيء نزلت؟ قال يا سليمان ليلة القدر يقدر اللّه عز و جل فيها ما يكون من السنة إلى السنة، من حياة أو موت أو خير أو شر أو رزق. و في ح ٨٤ عن الباقر (ع) مثله.

و من جهة أخرى، إن تنزل الملائكة و الروح فيها ليس إلا مرة في ليلة واحدة فما هي بين ليالي الآفاق؟.

نقول: بما أن ليلة القدر واحدة، و تنزّل الملائكة و الروح ليس إلا فيها على قلب الرسول محمد (ص) أو على قلب محمدي للإمام المعصوم، من هنا و هناك نستوحي أن المناط في القدر هو الأفق الذي فيه الإمام، ثم يقاس عليه سائر الآفاق ليلا أو نهارا، و لا تبقى إذا إلا مشكلة اختصاص ليلة القدر ببعض الآفاق و حرمان الأخر منها، و الحلّ أن التردد فيها بين ليال عدة كما يأتي، هذا التردد يكسب كل أهالي المعمورة، ليلة القدر.

لنفرض أن ليلة القدر هي التاسعة عشرة من رمضان، و هي في أفق الإمام ليلة الإحدى و العشرين منه، أو بالعكس، فهي واحدة رغم اختلاف الأفق:

تسعة عشرة و إحدى و عشرين.

و فيما إذا كانت لا تقارن ليلة القدر في أفق الإمام ليلة في أفق آخر، كأن يكون نهارا قران ليلة القدر، فلأهالي أفق النهار أجرهم إذا كانوا في طاعة اللّه، رغم جهلهم بها، و بالإمكان أن الإمام يتنقّل كل سنة إلى مختلف الآفاق ليكسب الكلّ فضيلة القدر.

و أخيرا لا دليل على استيعاب ليلة القدر كلّ سكنة الأرض.

وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ:

إن لهذه الليلة المباركة فضلا سابقا: هو نزول القرآن فيها، و يكفيها قدرا أن تفوق ليالي التاريخ، و لها فضل لاحق، هو تنزّل الملائكة و الروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، و أخيرا: «سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ».

فيا لها من كرامة منقطعة النظير لم تسبق في التاريخ و لا تلحقه أيضا.

هنا ندرس ألف شهر، التي ليلة القدر خير منها: إن ليلة القدر هي ليلة واحدة من السنة، لا من شهر، فلما ذا لا تقول: خير من أربع و ثمانين سنة؟

الجواب: لزوم التهافت حينذاك، لأن لكل سنة من هذه السنين ليلة قدر، فكيف تفضّل ليلة القدر على نفسها بمضاعفات، و لما قال: خير من ألف شهر، عرفنا أنها الشهور التي ليست فيها ليلة القدر، فلا يعني من المفضّل عليه ألف شهر على التوالي، إنما مقداره على حساب الأيام و هي ثلاثون ألف يوم، أو ستون ألفا بانضمام النهار، و هناك روايات متضافرة عن الرسول (ص) و أهل بيته الكرام تصرح بما توحيه الآية.

و هل إن الألف هنا حدّ لا يزيد و لا ينقص، أم إنه رمز للكثرة اللانهائية، بما أن

حدث هذه الليلة العظيمة يربو على كافة الأحداث العظيمة في الأزمان كلها، مــن خيرها و من شرها؟

قد لا نستطيع أن نتأكد من أحدهما، إذ إن رمز هذه الكثرة الكثيرة لا بد أن يكون أكثر من الألف بكثير، فلتكن الألف حدا ثابتا.

و إن ليلة القدر لا تقف خيريتها على ألف شهر، فما هو الألف بين آلاف السنين من تاريخ الرسالات الإلهية، و ما هو بين آلاف السنين من الدعايات المضادة!

و الحل أن الألف هنا ألف عام و خاص يكافح التاريخ بأكمله، بخيره و شره، فهي الألف: الكثرة الكثيرة من الزمن التي حدثت فيها خيرات التاريخ بأجمعها، فحدث هذه الليلة المباركة يربو عليها بأسرها.

و هي أيضا الألف التي حكم فـيها بـنو أمـية ضـد الإسـلام بكـل الطـاقات و الإمكانيات، فما استطاعوا أن يزيلوا الأثر الهام الثابت في ليلة القدر: شريعة القرآن و دعوته.

إن زمن الحكم الأموي هو أشرّ الأزمنة التي مرت على التاريخ الإسلامي، و التي تستقبل الإسلام إلى يوم القيامة، و إذا كانت الطغمة الحاكمة الأمـوية لا تسـتطيع القضاء على ليلة القدر، على القرآن النازل فيه، و على نبي القرآن و دعوته، فأحرى

ألا تستطيع الطغم الحاكمة الأخرى أن تمس من كرامتها، إلا جولات دعائية و ادعائية، فإن للحق دولة و للباطل جولة «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ».

إن قوة الدعوة القرآنية أكثر بكثير من القوات المضادة، طالما الكفر يكرس كافة طاقاته و إمكانياته، لكنه لا يملك شيئا مما يملكه الحق من براهين و من دوافع الخلود و سناد الخلود.

و رواياتنا متضافرة بين الفريقين في خيريّة هذه الليلة بالمعنيين عن النبي الأقدس (ص) و أئمة أهل بيته الكرام (ع)[1].

---

١. ففي المعني الأول:

أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن عروة قال ذكر رسول الله (ص) يوما أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاما لم يعصوه طرفة عين فذكر أيوب و زكريا و حزقل بن العجرز و يوشع بن نون. فعجب رسول الله (ص) من ذلک فأتاه جبريل فقال يا محمد عجبت أمتک من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة فقد أنزل الله خيرا من ذلک فقرء عليه سورة القدر قائلا. هذا أفضل مما عجبت أنت و أمتک فسر بذلک رسول اللّه (ص) و الناس معه» (الدر المنثور ج ص ٣٨١). و من طريق أصحابنا مثله كما في نور الثقلين ح ١۶ و ۴۵ عنه (ص أقول: و هكذا كل أحداث التاريخ ـ الجليلة الخيرة ـ فليلة القدر خير منها، و الألف هنا إشارة إلى حده لبيان بعض المصاديق كما في الحديث، و اشارة إلى زمن الخير كله دون حد.

و في المعنى الثاني

أخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال رأى رسول الله (ص) بني أمية على منبره فساءه ذلک فأوحى اللّه إليه: انما هو ملک بصيبونه و نزلت: إنا أنزلناه.. و أخرجه أيضا عن ابن المسيب مثله، و أخرجه الترمذي و ابن

←

تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ:

.. الملائكة ـ كل الملائكة ـ دون استثناء، لمكان «ال» الاستغراق، فإن الجمع المحلى باللام يفيد الاستغراق.

و الروح هو عظيم الملائكة و زعيمهم و ليس منهم بدليل المقابلة، و تخصيصه بالذكر من بين العموم بحاجة إلى دليل، و قد يتأيد و يؤيده نظرات أهل الوحي و العصمة المحمدية (ع)[1].

و هذا هو الروح القائم مع الملائكة يوم القيامة أيضا: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (٧٨: ٣٨) «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ

← جرير و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن يوسف بن مازن الرواسي عن الامام الحسن (ع) مثله بزيادات منها: من ألف شهر يملكها بنو أمية يا محمد!

قال القاسم فعددناها فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما و لا تنقص يوما (المصدر) و في المستفيض من طريق أصحابنا مع تفاصيل أخرى كما في ح ٤٢ و ٤٣ عن الامام الصادق (ع) عنه (ص) و ح ٤٤ عن علي (ع) عنه (ص) و ح ٤٥ عنه (ص) و ح ٤٦ عن الامام الحسن المجتبي (ع) عنه (ص).

١. أبو بصير قال قلت للإمام جعفر الصادق (ع): جعلت فداك الروح ليس هو جبرائيل؟

قال: الروح أعظم من جبرائيل، ان جبرائيل من الملائكة، و إن الروح هو خلق أعظم من الملائكة، أليس يقول اللّه تبارک و تعالى: تنزل الملائكة و الروح؟ (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٣٨ ح ١٠٤).

و عن الامام الباقر (ع) مثله كما في ح ١١٠ ـ المصدر، و عن الصادق (ع) مثله كما في تفسير البرهان ح ٤ ص ٤٨١ ح ١ و يلمح إليه ح ١٠٨ ج ٥ نور الثقلين ص ٦٣٩. و فيه: يستوجب الامام زيادة الروح ليلة القدر، و يلوح أن الروح هذه روح قدسية منفصلة عن الملائكة و سائر المعصومين، و هي تفاض عليهم بإذن ربهم ليالي القدر.

الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (٧٠: ٤).

و اعتبار أن الروح هو ما به الحياة، نستوحي أن الروح هذا من به حياة ملائكية الملائكة، على أنهم أيضا أرواح، و فيهم من سمي روحا ـ لا مطلقا ـ و إنما: «بِرُوحِ الْقُدُسِ» (٢: ٨٧) و ٢٥٣ و ٥: ١١٠) و «رُوحٌ مِنْهُ» (٤: ١٧١) و «بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» (٤٠: ١٥) و ١٦: ٢) و «الرُّوحُ الْأَمِينُ» (۶: ١٩٣) و «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» (٤٢: ٥٢).

هذه هي الأرواح المذكورة في القرآن، بين ما هو روح القدس النازل على النبيين، و ما هو الوحي النازل عليهم، و من هو ملك الوحي: جبرائيل أم أعوانه.

و لم يذكر الروح دون قيد في القرآن إلا ثلاثا فيمن قوبل به الملائكة، و هو روح الملائكة و زعيمهم، و إلا مرة واحدة كذلك في الروح القدسية المحمدية:

«وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (١٧: ٨٥).

من هنا و هناك نستوحي الوفاق بين الروحين، النازل و المنزل عليه، فالروح النازل هو روح الملائكة، و المنزل عليه هو روح النبيين، الروح القدسية المحمدية، روح محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في وحي القرآن ليله، و في نزول كل أمر طوال البعثة، و أرواح محمدية بعد ارتحاله إلى جوار رحمة ربه، أرواح المعصومين

من عترته، الحاملين روحه القدسية و عصمته الإلهية.

و نستوحي استمرارية ليلة القدر من قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ» دون «تنزل» فالفعل مضارع يدل على استمرارية نزول الملائكة و الروح، إذا فليلة القدر بهذا الاعتبار مستمرة طوال الزمن و منذ البعثة، و إن كانت باعتبار نزول القرآن ليلة واحدة بداية البعثة، أو كانت ثلاثة و عشرين ليلة طوال البعثة بالاعتبارين، لكـنها مستمرة بنزول الملائكة و الروح، و على حد تعبير

الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هي إلى يوم القيامة[١].

فهل تتنزل الملائكة و الروح من كلّ أمر على بقاع الأرض، كلا، إنما على قلب

---

١. في مجمع البيان: جاءت الرواية عن أبي ذر قال قلت يا رسول اللّه (ص)؟ ليلة القدر هي شيء يكون على عهد الأنبياء ينزل فيها فإذا قبضوا رفعت؟ قال (ص): لا بل هي إلى يوم القيامة (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٢٠).

أخرج أبو داود و الطبراني عن ابن عمر قال سئل رسول اللّه (ص) و أنا أسمع عن ليلة القدر فقال: هي في كل رمضان، و مثله ما أخرجه محمد بن نصر عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن ليلة القدر أ هي شيء كان فذهب أم هي في كل عام فقال: بل هي لامة محمد ما بقي منهم اثنان.

(الدر المنثور ج ٦ ص ٣٧١).

و ما رواه أبو جعفر الجواد (ع) «أن أمير المؤمنين علي (ع) قال لابن عباس أن ليلة القدر في كل سنة و أنه ينزل في تلك الليلة أمر السنة، و لذلك الأمر ولاة بعد رسول الله (ص) فقال ابن عباس: من هم؟ قال: أنا و أحد عشر من صلبي» و عن أبي جعفر الباقر (ع) مثله (ح ٤٠)

و عن الامام الصادق (ع) في استنكار رفعها: لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن (ح ٤١).

أقول: لأن الأمور النازلة ليلة القدر هي شروح لما أجمل في القرآن.

و في أحاديث عدة أنها منذ بداية الخلق إلى يوم القيامة، و تعني بداية خلقة المكلفين أو لعله أعم ـ تأمل.

واع، قلب محمد أو قلب محمدي لا سواه، قلب واع ممّا يتنزل عليه من كل أمر، لا القلوب المقلوبة، أو غير المستعدة لهكذا نزول هامّ في كل سنة.

إنها القلوب الطاهرة من أهل بيت العصمة المحمدية، محمد أم سواه، ممن رعاهم و رباهم بالوحي، من علي أمير المؤمنين عليه السّلام إلى المهدي القائم محمد بن الحسن العسكري عليهم أزكى التحية و السلام[١].

و بهذه المنزلة السامية تصبح سورة القدر حاكية عن منزلة أهل بيت العصمة المحمدية، و هي نسبتهم الروحانية ما أعلاها.

.. بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ:

من كل أمر: بعضا من كل الأوامر و الأمور، لا كلّها، فمن الأمور و الأوامر ما هي مختصة باللّه تعالى، و منها ما يتنزل على الناس أجمع، و منها ما لا يتنزّل إلا على

---

١. الكافي عن الإمام الصادق (ع) قال: كان علي (ع) كثيرا ما يقول: اجتمع التيمي و العدي عند رسول اللّه (ص) و هو يقرأ «إِنَّا أَنْزَلْناهُ» بتخشع و بكاء، فيقولان: ما أشد دقتك لهذه السورة؟ فيقول رسول اللّه (ص) لما رأت عيني و وعى قلبي، و لما يرى قلب هذا من بعدي، فيقولان: ما الذي رأيت؟ قال فيكتب لهما في التراب: تنزل الملائكة و الروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ـ قال: ثم يقول: هل بقي شيء بعد قوله عز و جل «كُلِّ أَمْرٍ» فيقولان: لا ـ فيقول: هل تعلمان من المنزل إليه بذلك؟ فيقولان: أنت يا رسول اللّه (ص) فيقول: نعم، هل تكون ليلة القدر من بعدي؟ فيقولان: نعم ـ قال: فيقول: فهل ينزل ذلك الأمر فيها؟ فيقولان نعم ـ قال: فيقول: إلى من؟ فيقولان: لا ندري ـ فيأخذ براسي و يقول: إن لم تدريا فادريا، هو هذا من بعدي ـ قال: فإن كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول اللّه (ص) من شدة ما يداخلهما من الرعب» (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٣٣ ح ٩٠).

المعصومين الطاهرين، قادة العباد و ساسة البلاد و أركان الإيمان و أمناء الرحمان.

فالنازل على العباد ليس إلّا من بعض أمر، لا من كل أمر، و اللّه تعالى عنده و له كل أمر، تكوينيا و تشريعيا، علميا و تنفيذيا.

ثم ينزل على أمنائه المصطفين المخلصين، من كل أمر، فما هو الأمر؟ و ما هو كل أمر؟.

هنا ندرس الأمر بكيانه و نزوله من «حم»: «حم. وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» (۴۴: ۱ ـ ۸).

فليلة القدر هي ليلة الفرق و الفصل لكل أمر حكيم، حكيم عـند اللّـه العـزيز الحكيم، و كما كان القرآن في ام الكتاب لدى اللّه عليّا حكيما: «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» ثم فصّله ليلة القدر، و أنزله على قلب الرسول البشير النذير، أنزله من علوّه الإلهي، و فصّله من حكمته الإلهية، و لكي يدركه الرسول، ثم فصّله تفصيلا ثانيا طوال البعثة كما شرحناه مسبّقا.

هذا تفريق أول للرسول، ثم تفريق ثان بالنسبة للأقدار و الأقضية الإلهية طوال

السنة، يفرقها اللّه تعالى لرسوله: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

و يشاركه في التفريق الثاني الأئمة من أهل بيته المعصومين، كلّ في زمنه، لمكان الاستمرارية المستفادة لهذه الليلة المباركة من: «تنزل» «فِيها يُفْرَقُ» لا «تنزل» أو «فرق».

ثم «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» لا يخص أمور و أوامر الكرة الأرضية، و إنما الكونية تماما: «رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» فهذه الربوبية الشاملة توحي أن هذه الرحمة أيضا شاملة: «رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ» تشمل الكون أجمع، فإن محمدا و الخلفاء المعصومين المحمديين هم خلفاء اللّه في الكون أجمع، و الكرة الأرضية على صغرها هي المركز الرئيسي للتشريعات و الأحكام و معرفة الأقضية و الأقدار الإلهية[1].

---

١. عن الإمام الصادق (ع) قال: قال علي (ع) في صبيحة أول ليلة القدر التي كانت بعد رسول الله (ص): «سلوني فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم بما يكون إلى ثلاثمائة و ستين يوما من الذر فما دونها و ما فوقها، ثم لا خبرتكم بشيء من ذلك لا بتكلف و لا برأي و لا بادعاء في علم إلا من علم الله تبارك و تعالى و تعليمه، و الله لا يسألني أهل التوراة و لا أهل الإنجيل و لا أهل الزبور و لا أهل الفرقان إلا فرقت بين أهل كل كتاب بحكم ما في كتابهم»

و عنه (ع) أنه سئل: أ رأيت ما تعلمونه في ليلة القدر هل تمضي السنة و بقي منه شيء لم تتكلموا به؟ قال: لا و الذي نفسي بيده لو أنه فيما علمنا في تلك الليلة أن أنصتوا لإعدائكم فنصتنا فالنصت أشد من الكلام.

من حديث له عليه السلام قال فيه: ينزل فيها ما يكون من السنة إلى السنة من موت أو مولود، قيل له: إلى من؟ قال:

←

و ليس معنى القضاء و القدر و الإنشاء ليلة القدر، خروج الأمور عن خيرة الإنسان، و إنما قدر و قضاء و إبرام على ضوء المساعي التي يقدمها الإنسان، فرب خير يؤخّر، أو يبدّل إلى شر، لتأخر الإنسان عن معداته أو تركه لها إلى أضداده.

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ:

و مما توحيه سورة القدر أن الأمور المقدرة فيها ليست إلا الخيّرة لا الشريرة، و إنما حوادث الشر هي حصائل فشل الإنسان في التماسه الخير و مزيد الخير ليلة القدر، ثم توانيه في السعي نحو الخير، أو تركه إياه: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى».

هنا نعرف مدى علوم المعصومين من أهل بيت الرسالة المحمدية صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنهم يعرفون من الغيب كما يعلّمهم اللّه تعالى، لا كل الغيب: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ» (٧٢: ٢٧): من رسول و ممن يحذو حذو الرسول في الارتضاء الإلهي، و هم الذين يحملون العصمة الرسالية و إن لم يكونوا رسلا.

متى هي ليلة القدر؟

← إلى من عسى أن يكون؟ أن الناس في تلك الليلة في صلاة و دعاء و مسألة و صاحب هذا الأمر في شغل نزول الملائكة إليه بأمور السنة من غروب الشمس إلى طلوعها، من كل أمر سلام هي له إلى أن يطلع الفجر» (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٤١ ح ١١١-١١٣).

إنها مجهولة في القرآن و الحديث، و إنما المعلوم أنها من رمضان، فأين هي من رمضان؟

قد وردت روايات تفوق المائة من طرق أصحابنا حول سورة القدر، و تحاول عشرات منها تعيين موقع ليلة القدر بين ليال عشر[۱]: و أغلب الظن حسب أغلب الروايات أنها بين الثلاث «۱۹ ـ ۲۱ ـ ۲۳» و الأغلب بينها الأخيرتان، ثم الأغلب بينهما ۲۳.

و من البديهي أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من عترته كانوا على علم واضح منها، فكيف يجهل ليلة القدر من تتنزل الملائكة و الروح فيها على قلبه المنير؟ إلا أنهم كانوا يجملون عن تعيينها لمصالح عدة كما تجدها في الروايات.

و هنا روايات مختلقة أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نسيها فـأمر أن يطلبوها في العشر الأواخر، و ليضرب بها عرض الحائط لاختلافها عن واقع علم

---

۱. في تفسير نور الثقلين روايتان أنها الليلة الأولى و هي ح ۲۸ و ۵۴ ثلاثة عشر أنـها ۲۳ و هـي ح ۲۲، ۳۲، ۴۹، ۵۳، ۶۱، ۶۵، ۶۹، ۷۹، ۷۱، ۷۹ و واحدة أنها «۲۱» و هي ۷۷ و اثنتان أنها ۲۷ و هي ۷۳، ۷۴. هذه هي المعينة. ثم هنا روايات مشككة بين ليال. فبين ۲۱، ۲۳ ست روايات هي ۳۳، ۵۷، ۵۸، ۸۸، ۶۰ و بين ۱۹، ۲۱ و ۲۳ سبع روايات هي ۶۱، ۶۲، ۶۴، ۶۶، ۶۷، ۷۲، ۵۷. و روايات ثلاث انها بين ۲۱، ۲۳، ۲۵، ۲۷ و هي ۷۶، ۷۸، ۸۴. و هنا روايات انها في العشر الأواخر و هي ۴۰، ۵۱، ۵۲، ۵۶ (نور الثقلين ج ۵).

و في الدر المنثور عن النبي (ص) إضافة الليلة ۹ و ۱۱، ۲۹، ۳۰ أيضا (ج ۶ ص ۳۷۲).

فالليالي المعدودة من القدر هي «۱ ـ ۹ ـ ۱۱ ـ ۱۹ ـ ۲۱ ـ ۲۳ ـ ۲۵ ـ ۲۷ ـ ۲۹ ـ ۳۰» و هي ثلث ليالي الشهر.

الرسول و عن الأحاديث المستفيضة المصرحة أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من عترته كانوا يعلمونها[١].

و قد نستوحيها متى هي؟ من علائمها على حد تعبير الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[٢].

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ:

---

١. أخرج ابن أبي شيبة عن القلتان بن عاصم قال: قال رسول اللّه (ص) إني رأيت ليلة القدر ثم نسيتها فاطلبوها في العشر الأواخر و ترا.

و أفضح منها ما

أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود قال سئل رسول اللّه (ص) عن ليلة القدر قال قد كنت علمتها ثم اختلست مني (الدر المنثور ج ۶).

و هذا الأخير يتنافى و الآيات التي تدل على عصمته و أنه ليس للشيطان عليه سبيل، فمن هذا الذي اختلس ليلة القدر عن النبي الأقدس، أهو اللّه و حاشاه، أم هو الشيطان «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فكيف بالرسول (ص).

و كما

عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: يا أبا هذيل! إنا لا يخفى علينا ليلة القدر، إن الملائكة يطوفون بنا فيها. (نور الثقلين ج ٥ ص ۶٣٩ ح ١٠٥).

٢. كما عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول اللّه (ص) عن ليلة القدر، فقال: في رمضان في العشر الأواخر فانها في ليلة و تر: إحدى و عشرين أو ثلاث و عشرين أو خمس و عشرين أو سبع و عشرين أو تسع و عشرين أو آخر ليلة من رمضان، من قامها إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، و من إماراتها أنها ليلة بلجة صافية ساكنة ساجية لا حارة و لا باردة كأن فيها قمرا ساطعا و لا يحل لنجم أن يرمي به تلك الليلة حتى الصباح، و من إماراتها أن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها، مستوية كأنها القمر ليلة البدر، و حرم اللّه على الشيطان أن يخرج معها يومئذ (الدر المنثور ۶: ٣٧٢).

إنها لا تنفي السلام عن سائر الليالي، لواقع السلام فيها بعضا، و إنما تخصّ السلام التام بهذه الليلة المباركة، كرامة تخصّها بين ليالي السنة ـ فما هي؟

إنها ـ على حد تعبير

زين العابدين علي بن الحسين عليه السّلام: «سلام دائم البركة إلى طلوع الفجر على ما يشاء من عباده بما أحكم من قضائه»[1]،

و على حد تعبير جده الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها و لا يستطيع فيها أن ينال أحدا بخبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد و لا ينفذ فيه سحر ساحر»[2].

و يتأيد هكذا سلام شامل بما نستوحيه من آية السلام: سلام هي، لا: هي سلام، فإن تقديم الخبر «سلام» يفيد حصر المبتدأ «هي: ليلة القدر» في السلام، فهذه الليلة محصورة بالسلام دون سواها التي فيها سلام و لا سلام.

فليلة القدر سلام إذ أنزل فيها القرآن الحامل للإسلام التام الكافل للسلام الأبد، و سلام إذ تتنزل فيه الملائكة و الروح من السماء إلى الأرض فتندحر الشياطين بوفود الملائكة، و سلام إذ تتنزل ملائكة السلام بكل أمر، بكل خير عاجل و آجل، و سلام

---

١. نور الثقلين ج ٥ ص ٦٤١ ح ١١٤ عن الصحيفة السجادية في دعائه (ع) إذا دخل شهر رمضان.

٢. المصدر ص ٦١٥ ح ١٥.

لكل دعاء فيها إذ يسلم من الرد لو لا أنه تأتي بالبوار و الدمار، و سلام لكل من في الأرض عفويا و إن لم يكونوا من أهل السلام و الإسلام.. و إلى أن يطلع الفجر.

سورة البينة ـ مدنية ـ و آياتها ثمان

[سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (٢) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤)

وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

أهل الكتاب هم ـ على الأكثر ـ أتباع التوراة و الإنجيل، حسب اصطلاح القرآن، و قد قرنوا هنا و في آيات عدة أخرى، قرنوا بالمشركين، مما يبرهن لنا المعني من المشركين حسب القرآن: أنهم هم الوثنيون، لا كل المنحرفين عن خالص التوحيد.

فأهل الكتاب مهما كان انحرافهم في عقيدة التوحيد من تجسيم و حلول و تثنية و تثليث ـ إنهم على انحرافاتهم الجارفة ـ لا يردفون في صف المشركين الوثنيين، و لا تشملهم أحكامهم الخاصة، مهما كانوا يضاهئونهم بعض الشيء في عقائدهم و طقوسهم ما لم تصل إلى عبادة الأصنام من دون اللّه.

نرى آيات بينات كهذه تؤكد لنا هذه الحقيقة، بقرنها أهل الكتاب بالمشركين، بل الإلهيين من غير الكتابيين أيضا، كالصابئين و المجوس: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٢: ٦٢) «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (٢٢: ١٧).

و إذا لا يعد الصابئون و المجوس ـ الذين لا يعرف لهم كتاب ـ لا يعدون من المشركين، فأحرى باليهود و النصارى ألّا يعدوا منهم، طالما كانت لهم عقائد

مضاهية للمشركين، و أن القرآن يندد بهم لهذا الانجراف الطائش في إشراكهم:

«يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

فعلينا أن نفرق بين الإشراک في العبادة من الذين يعبدون أوثانا و أصناما و طواغيت من دون اللّه، و هم المشركون النجس: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا» (٩: ٢٨).

و بين الإشراک في الطاعة كاليهود و النصارى الذين «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» (٩: ٢١).

و بين الإشراک في نية العبادة كالرئاء فيها: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (١٢: ١٠٦): «قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (١٨: ١٠).

و بين الإشراک في ذات الإله كمن يثلث اللّه و يعتقده في ثلاثة أقانيم أو يثنيه في أقنومين.. و بين الإشراک في الخالقية و سواها من شؤون الألوهية ـ الخاصة.

و القرآن لا يعني من المشركين النجس إلا الفريق الأوّل و هم الوثنيون الذين لا يعبدون اللّه، و إنما يعبدون من يزعمونهم شفعاء أو مختصين عند اللّه.

و من «إنما» في الآية: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» نستوحي أنهم الذين ليست

عندهم إلا نجاسة العقيدة و العمل، دون مبدأ إلهي يربطهم.

فالآية تحصر كيان المشركين ـ ككل ـ في النجس، دون أن تحصر النجس فيهم، مما يوحي بالمعنيّ منهم أنهم هم الوثنيون فحسب، إذ إن غيرهم من المنحرفين في عقيدة الإله لا يحصر كيانهم ككل في النجس، فلأهل الكتاب مبادئ صالحة، مزيجة بأخرى غير صالحة من تجسيم و تثنية و تثليث، و كما عند البعض من فلاسفة الإسلام كالمعتنقين عقيدة وحدة الوجود، فكما ليسوا هم من المشركين النجس، فكذلك أهل الكتاب ـ على ضلالهم ـ سواء.

و النجس في المشركين يجسم نجاسة أرواحهم، فيجعلها ماهيتهم و كيانهم، فهم بكليتهم و بحقيقتهم نجس، يستقذره الحس تباعا للروح، و يتطهر منه المتطهرون، و إنه النجس المعنوي لا الحسي، و لكنها سرت إلى الجسم أيضا كسياسة إسلامية، لكيلا يعاشرهم المسلمون، نجاسة سياسية حيادية نشأت عن نجاسة المبدأ الذي يعتنقونه، و هو تأليه غير اللّه.

إن القمة التي يهمها القرآن هي قمة التجرد للّه و الخلوص لدينه، و قمة المفاصلة على أساس العقيدة مع كل أواصر القربى و كل لذائذ الحياة، و هذه القمة ليست بالتي تتعايش منهج الجاهلية الرافضة لمبدأ الإله الحق، مهما تساير الإلهيين الذين يؤمنون

باللّه ـ كيفما كانت تخلفاتهم عن خالص التوحيد ـ تسايرهم علهم يؤمنون: «قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (٣: ٦٤).

و بعد كل ذلک فآية المائدة ـ و هي آخر ما نزلت من السور ـ إنها توحي لنا بطهارة أهل الكتاب: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» (٥: ٥).

و لا يعنى من طعام أهل الكتاب إلا الذي يصنعونه أو يطبخونه و يلمسونه بأيديهم كالعادة، إلا المحرمات المنصوص عليها في القرآن كالميتة و الدم و لحم الخنزير و الخمر و أمثالها.

و الطعام ـ حسب اللغة[١] و القرآن و الحديث ـ لا يخص البر و أمثاله كما زعم، إنه كل ما يطعم و حتى الماء كما القرآن يصرّح: «.. قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا» (٢: ٢٤٩): لم يطعمه: الماء.

---

١. لسان العرب «الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل، و قال ابن الأثير: الطعام عام في كل ما يقتات من الحنطة و الشعير و غير ذلک.

كما و يصرح بشمول الطعام لكل مأكول: «.. لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِـدٍ» (٢: ٦١): و لو كان هو البركان واحدا، فالقيد بالواحد إذا زائـد! «وَ لا طَـعامٌ إِلَّـا مِـنْ غِسْلِينٍ» (٦٩: ٣٦): فيشمل كلّ مشروب أيضا فطعامهم و شرابهم حلّ، و كذا صيد البحر: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ» (٥: ٩٦).. فلو صاده كتابي و طبخه كان حلا كما هو حل من المسلم.

و إذ نرى روايات، كأنها تخص الطعام بالبر و الحبوب، فهي لا تعني إلا إخراج اللحوم ـ كما

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السّلام: عني بطعامهم ها هنا الحبوب و الفاكهة، غير الذبائح التي يذبحونها فإنهم لا يذكرون اسم اللّه خالصا على ذبائحهم، ثم قال عليه السّلام: و اللّه ما استحلوا ذبائحكم فكيف تستحلون ذبائحهم[١].

ثم إن تطهير طعام أهل الكتاب و تحليله، لو عني به البر و أمثاله من اليابس، فهو تحليل للحلال و تطهير للطاهر، و ما من أحد يظن أن الطعام اليابس الطاهر ينجس بمجرد أنه للكتابي، أو يلمسه بيده، فليعن الطعام الذي تمسه يـده بـرطوبة أو هـو مرطوب.

---

١. نور الثقلين ج ١ ص ٤٩٢.

هذا و كما السنة القطعية متضافرة على طهارة أهل الكتاب، الذاتية[١] بمعنى أنه لو لم تكن عليه نجاسة عرضية بالفعل، و لم تسبقه النجاسة، غير المتأكّد من تطهيرها، كان محكوما بالطهارة، فإذا علمنا أن كتابيا تنجس و تطهر، و لم نعلم تاريخ المتقدم منهما، و المتأخر، حكمنا بطهارته لتعارض استصحابي الطهارة و النجاسة و الرجوع إلى قاعدة الطهارة، و كذلك إذا علمنا طهارته و شككنا في زواله، ثم يختلف عن طهارة المسلم فيما إذا تأكدنا من نجاسته و شككنا أنه طهّر أم لا، فالكتابي إذا محكوم بالنجاسة قطعا، و لكنما المسلم يحكم بطهارته لو غاب زمنا تؤتى فيه فرض الصلاة، أو أية عبادة مشروطة بالطهارة، و التفصيل إلى المفصلات، و كما شرحناه في كتابنا «الفقه على ضوء القرآن».

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ:

فمنهم من كفر بالرسالة المحمدية فعدّ في عداد الكافرين، و منهم من آمن فهم المؤمنون، و لم يكن ليبرز الكفر و الإيمان بينهم حتى تأتيهم البينة، و لم يتمكنوا من

---

١. كصحيحة إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا (ع) الجارية النصرانية تخدمك و أنت تعلم أنها نصرانية لا تتوضأ و لا تغتسل من جنابة، قال (ع): لا بأس، تغسل يديها (وسائل الشيعة ج ٢ ص ١٠٢ ح ١١)..

فلقد كان الدافع لهذا السؤال أنها لا تتوضأ و لا تغتسل، لا إنها نصرانية، فجاء: إنها تغسل يديها، و الروايات المانعة عن مؤاكلتهم توحي إلى لزوم تجنبهم ما أمكن لا أنهم نجسون كسائر النجس.

التحلل عن كفرهم حتى أتتهم البينة فتمكنوا، و لكنهم تمنّعوا ـ على مكنتهم ـ عن الإيمان.

إن انفكاكهم عن ضلالهم ـ علميا أو واقعيا ـ لم يكن يتحقق إلا على ضوء البينة: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً»: مطهرة من وحي الشيطان، و من الدس و التحريف، رغم كتبهم التي أصيبت بشتى ألوان الاختلاف و الاختلاق، فلم يكن أهل الكتاب ليميزوا وحي الرحمان عن وحي الشيطان في كتبهم، و لا المشركون بعقولهم المدخولة، و أما إذا أتتهم البينة: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً»، فكان عليهم الانفكاك عن كفرهم، ففريق منهم انفكوا فأصبحوا مسلمين، و فريق تجمدوا على واقع ضلالهم عمليا، رغم ظهور الحق لهم على ضوء الصحف المطهرة.

و بما أن الانفكاك هو الانفصال عن اتصال شديد، اتصالهم الشديد بضلالهم القديم، فقد كان من الواجب أن تأتيهم بينة قوية ناصعة، لكي يتحللوا عما اتصلوا به، بينة بإمكانها البين فيما بينهم، و بإمكانهم التبين بها بعد ما لم يكونوا ليتبينوا:

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً، فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ:

إن الرسول محمدا كان بيّنة من اللّه يحمل في دعوته آيات بينات: «نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ» و إنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أقوى ما أتت الإنسان ـ

عبر تاريخ الرسالات الإلهية ـ من البينات، أقواها متنا و أبقاها زمنا بقرآنه المبين و تبيانه الحكيم.

فلقد كان قرآن محمد و محمد القرآن معجزتين خالدتين عبر الزمن، الضاربتين في أعماق التاريخ، لا ترجعان إلى الوراء على تقدم العلم، و إنما تزيدان نورا و ظهورا و بهورا كلما تظاهر العلم و ازدهر.

فكما كان القرآن بينة ما في الصحف الأولى و زيادة خالدة: «أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى» (٢٠: ١٣٣) كذلك رسول القرآن كان بينة الرسل، و على بينة القرآن: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ» (١١: ١٧).

فلم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين منفكين عن ضلالهم الذي عاشوه منذ زمن بعيد، إلا بهذه الرسالة السامية الجديدة، التي تحمل كافة معجزات الرسالات و توجيهات الرسالات و زيادات خالدات تعيش مع الزمن و تشرق على قلوب و أفكار الإنسان ما أشرقت الشمس على هذه المعمورة.

لقد عاشت الخرافات أفكارهم، و شربت مياه قلوبهم، و تصدرت في صدورهم، أن زعموا الباطل حقا و الحق باطلا، فهم أهل الكتاب، و هم بعيدون عن وحي

السماء، بعد ما بين الأرض و السماء، منحطين خابطين إلى وحي الأرض قربهم إلى الأرض.

«يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً»: يتلو ـ دون أن يكتفي بالقراءة، فالتلاوة هي المتابعة: «وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها. وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها» (٩١: ٢ ـ ٣) فكما القمر قمر ما دام يتلو الشمس، كذلک الرسول هو شمس هداية السماء ما دام يتلو القرآن و يتبعه قراءة و إقراء، تفكيرا و اعتناقا، تطبيقا و نشرا، و أن تكون حياته حياة التبعية لوحي القرآن أيا كان، و أن يصبح هو قرآنا ناطقا عاملا موجها هاديا إلى اللّه بإذنه و سراجا منيرا ما دام فيهم، ثم يبقى قرآنه صورة عن هذه الحتمية، سندا بعده و إلى يوم الدين، منارا يقاس عليه الغث و السمين، و مدارا كتابيا لكل كتاب، وداع إلى كتاب.

«صُحُفاً مُطَهَّرَةً»: جمع الصحيفة، و هي المبسوط من الشيء دون خفاء و خباء..

«مطهرة» : هي خالصة الوحي، دون شوب بوحي الأرض، مطهرة عن التهافت و الاختلاف و الاختلاق، و عن كل ريبة.

و القرآن هو الصحف المطهرة، إذ إنه يحمل الوحي الصادق النازل على النبيين من قبل، و فيه زيادات هي خاتمة الوحي، أجل إنه الكتب كلها و زيادة، كما محمد هو الرسل كلهم و زيادة.

إنه بينة ما في الصحف الأولى: «أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى» (٢٠: ١٣٣) بلى أتتهم في الوحي الأخير.

أو إن الصحف المطهرة هي صحائف القرآن، حاملة كل منها كتبا:

مكتوبات، قيمة.

«قيمة» : إذ لا تنسخ، خلاف البعض مما في الصحف الأولى، قيّمة تحمل كل القيم الحيوية للإنسان، و قيمة لأنها الأصل في التشريع يقاس إليه ما سواه.

و هذه الصحف المطهرة ـ مهما كانت ـ فهي لم تكن في قرطاس، إنما في لوح قلبه المنير: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (٢٣: ١٩٤).

فقبل أن توحى إليه لم تكن صحفا قطّ: «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ» (١١: ٤٩) و قبل أن يتلوها عليهم ما كانت صحفا للناس، إنما له إذ أوحيت إليه، ثم بتلاوته لهم أصبحت صحفا لهم كما كانت له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و دليلا كتابيا على أن الصحف ليست في قرطاس، و إنما القرطاس ظرف ضئيل من ظروفه التي تحمله: «وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» (٨١: ١٠): صحف الأعمال تنشر، و ليست هي إلا انعكاسات الأعمال و الأقوال الموجيّة: مَنْ شاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ

مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرامٍ بَرَرَةٍ» (۸۰: ۱۶)

و معلوم أن الوحي لم ينزل على رسل السماء (الملائكة) و رسل الأرض (النبيين) لم ينزل عليهم في قرطاس: «وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» (۶: ۷).

فهذه الصحف المطهرة ـ و هي بينة ـ قد تلاها محمد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو أيضا بينة.

هذه ليست بالتي تسمح بالتفرق، و إنما لزامها الوحدة المتماسكة حول الحق الناصع منها.

و لكن أهل الكتاب، رغم أنهم لم يكونوا ليتفرقوا قبل هذه البينة، فقد كانوا مجتمعين في الضلالة، رغم ذاك، أخذوا يتفرقون بعد ما جاءتهم البينة.

وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ:

تفرقوا في البينة و عن البينة، تفرقا عامدا، ففريق آمن و فريق كفر:

«وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (۲۷: ۱۴).

و هكذا تكون طبيعة الإنسان و سجيته الطائشة المتخلفة: «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٢: ٢١٣)[١].

ليس واقع الاختلاف و فكرته من الدّين الحق، و إنما ممن يدّعون أنهم ديّنون، ثم يختلقون مواد الخلاف تحت ستار الدين، و قد عدّ اللّه تعالى الوحدة في الدين من رحماته الهامة التي يهدفها على ضوء الوحي و خيرة الإنسان دون تسيير «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (١١: ١١٨). خلقهم للرحمة، و من أبرزها الوحدة في الدين، خلقهم لها و وجههم إليها بالوحي المتواصل، ناهيا عن الاختلاف: «وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ» (٣: ١٠٥).

و إن أهم ما اختلف فيه أهل الكتاب لهو قصة الإله، في كيانه و صفاته و أفعاله، و في عبادته، فمن مجسّم و مثلّث و مثنّ، و مشبه له بخلقه أسخف تشبيه.. و إلى أن أصبح السيد المسيح عند الكثير من المسيحيين، أصبح موضوع الإيمان، و إله الآب فرعه، يذكر في عداد الأقانيم، و لكنه على الهامش في كيان الألوهية، فتراهم

---

١. راجع كتابنا (المقارنات) من ص ١١٥.

يقولون: إلهنا و ربنا المسيح، ديّاننا و منقذنا و...

رغم أنهم كأهل الكتاب نهوا عن هذا و ذاك:

وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِکَ دِينُ الْقَيِّمَةِ:

عبادة اللّه وحده دون أن يعبد سواه أو يعبد معه سواه، عبادة خالصة تنتج طاعة خالصة: «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»: الطاعة، لا أن يعبدوا اللّه ثم يطيعوا سواه، كما اتخذ اليهود و النصارى أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللّه، أربابا في الطاعة، لا في عقيدة الألوهية و العبادة، فما قيمة عبادة لا طاعة فيها و كما يتقولون: أعطوا ما للّه للّه و ما لقيصر لقيصر! فمن هو قيصر و من فوقه بجنب اللّه حتى يحسب له حساب في جنبه.

فكما الإشراک في عبادة اللّه كفر، كذلک الإشراک في طاعته، و من أهم ما يرام في عبادة اللّه، هو طاعته فيما يأمر و ينهى، و ليس الإله المعبود غير المطاع إلا كجماد! إنما هي عبادته و طاعته، و من أبرز عباداته إقام الصلاة، و من أبرز طاعاته إيتاء الزكاة: «وَ ذِلکَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»: دين الكتب القيمة، وحي السماء الخالص عن دنس الأرض و خرافاتها، فلقد أجمعت كتب الوحي القيّمة على هذه الأركان

الأربعة الدينية، مهما اختلفت في البعض من صورها، أو البعض مما سواها:

١ ـ عبادة اللّه خالصة، ٢ ـ طاعته خالصة.. حنيفا: معرضا عمن سوى اللّه في العبادة و الطاعة، ٣ ـ إقام الصلاة، ۴ ـ إيتاء الزكاة.. «وَ ذٰلِکَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»: ذلک طاعة الكتب القيمة.

لا أن يشرک باللّه في عبادته و طاعته، و يصلّي لغير اللّه كما المسيحيون أحيانا يصلون للمسيح، و يطيعون أحبارهم كأنهم أرباب، و أشرّ منهم اليهود.

و لا أن تدفع الأموال في متاجرات القساوسة، إذ يشترون الذنوب بالأموال لكي يغفروها هم[١]! «وَ ذٰلِکَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»: لا ينسخ و لن ينسخ على مر الزمن و طوال رسالات السماء، مهما اختلفت في أشكالها، فالجذور واحدة[٢].

إن الكافر جحيم في الدنيا و جحيم في الآخرة، كما المؤمن جنة في الدنيا و جنة في الآخرة، و خلود كلّ من الفريقين إنما هو حسب خلوده في الكفر أو الإيمان، عقائديا و عمليا، جزاء وفاقا:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولٰئِکَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ:

---

١. راجع كتابنا (عقائدنا) قسم غفران الذنوب عندنا، و صكوک الغفران المسيحي.

٢. راجع كتابنا (المقارنات) ص ١١٥.

فهل يا ترى كيف يسوى بين الكتابي و المشرك في خلود النار؟ نقول لا تسوية هنا، رغم المشاركة في أصل الخلود، إذ الخلود هو البقاء مدة طويلة، فكلّ من الكتابي و المشرك يبقى في النار مدة طويلة حسب استحقاقه، قليلا أو كثيرا، فإنه ليس الخلود كما يزعم: هو البقاء الأبدي الفلسفي اللانهائي، و لو كان لم يكن لقيد الأبد في خلود المؤمنين من معنى، و هنا الأبدية في خلود المؤمنين توحي لنا أن الخلود منه أبدي و منه غيره، و رغم أن المشركين يخلدون في النار آبدين، لم يذكر لهم الأبد هنا رعاية لشركائهم في العذاب: أهل الكتاب، إذ لا يخلدون أبديا، و ليس من العدل تخليدهم كالمشركين.

ثم الخلود الأبدي أيضا لا يعني إلا خلودا أطول من غيره، لا الخلود اللانهائي فلسفيا، فإنه خلاف العقل و العدل و النقل، قرآنيا و في السنة، و مما يوهن صلابة الخلود ـ في زعم اللانهاية ـ أن الخلود لغويا ليس إلا المقام مدة طويلة، و لا يعني الأبد لخلود النار إلا أبد الحياة و مدى الحياة، و إن كان الأبد في الجنة لا نهائيا، إذ إن اللانهاية في الرحمة من فضل اللّه، و هي في العذاب ظلم، و النهاية في العذاب لزام عدله[1].

---

١. راجع كتابنا (عقائدنا) المخلدون في النار ص ٣٠٦ ـ ٣٢٢ و الآية لابثين فيها أحقابا من سورة النبأ في هذا الجزء.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ:

هناک شر البرية و هنا خير البرية، و هنا لک المتوسطون بين الفريقين على درجاتهم، فلا أن أشرارهم يخلّدون في النار، و لا أن أخيارهم يدخلون الجنة بغير حساب، و من خير البرية ـ و على حد قول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ـ هو نفسه و عينه و خليفته في أمته علي أمير المؤمنين عليه السّلام[1].

جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ

---

١. الدر المنثور ج ۶ ص ٣٧٩ ـ أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه قال كنا عند النبي (ص) فأقبل علي (ع) فقال النبي (ص) و الذي نفسي بيده إن هذا و شيعته لهم الفائزون يوم القيامة و نزلت «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» فكان أصحاب النبي (ص) إذ أقبل علي (ع) قالوا: جاء خير البرية، و أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس و ابن مردويه عن علي (ع)، و أخرجه ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري مرفوعا، و في كتاب شواهد التنزيل للحاكم أبي القاسم الحسكاني قال أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ بالإسناد المرفوع إلى يزيد بن شراحيل عن علي (ع) مثله.

أقول: و هذا من قبيل الجري و التطبيق في المختلف فيه بين المسلمين، إذ من الضروري أن الرسول (ص) هو خير البرية قبل علي (ع) كما

في اعتقادات الإمامية للصدوق قال النبي (ص) أنا أفضل من جبرائيل و مكائيل و إسرافيل و من جميع المقربين و أنا خير البرية من ولد آدم (نور الثقلين ج ۵ ص ۶۴۵ ح ١۵).

و ثم بعد الرسول من رباهم بالوحي، من خلفائه المعصومين، كما

في أصول الكافي عن طاهر قال كنت عند أبي جعفر (ع) فأقبل جعفر (ع) فقال أبو جعفر (ع) هذا خير البرية، أو «أخير».

فكل واحد من القادة المعصومين هو خير البرية في زمنه كما هو الواجب للمصطفين الأخيار، و كذلک أشياع القادة الخيرة هم خير الأشياع.

اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِکَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ:

جنات عدن ـ أي: استقرار و مقام دون خروج عنها: خلودا أبديا في الجنة للذين آمنوا و عملوا الصالحات ـ كل الصالحات ـ و خلودا لكفرة أهل الكتاب و المشركين، أبديا لآلخرين و غير أبدي للأولين، و أبدية الخلود في النار لا تعني إلا البقاء مدى الحياة، فسوف تموت النار و تخمد، و يموت معها من فيها، قبل أن يخرج منها من يستحق الخروج إلى الجنة.

«رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»: لأنهم سلموا لأمره «وَ رَضُوا عَنْهُ» يوم الدنيا و يوم الآخرة، إذ يرون فضله الدائم فوق التصور و الحسبان «ذٰلِکَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» فالخشية هي خوف مع إعظام في القلوب، كما الخشوع هو هو في القلب، فالخشية تعمّ الإنسان قلبا و قالبا، تعم كيان الإنسان ككل، و النتيجة هي الإيمان عقائديا و عمليا.

هذه هي سورة البينة دون زيادة و لا نقصان، و الزيادات الواردة في بعض الروايات مختلقات تشهد بذواتها، أو أنها تفسيرات لآياتها[1] كما في مصحف الإمام

---

١. كما في أصول الكافي بالإسناد إلى محمد ابن أبي نصر قال رفع إلي أبو الحسن (ع) مصحفا و قال: لا تنظر فيه، ففتحته و قرأت فيه «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا» فوجدت فيها اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم و أسماء آباءهم فبعث إلي أن ابعث إلي بالمصحف (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٤٢ ح ٤).

امير المؤمنين عليه السّلام أو أنها مقحمات[1].

سورة الزلزال ـ مكية ـ و آياتها ثمان

[سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

---

١. كما في الدر المنثور ج: ۶ ص ۳۷۸ عن أبي بن كعب أن رسول اللّه (ص) قال: إن اللّه أمرني أن اقرأ عليك القرآن: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب، فقرأ فيها: و لو أن ابن سأل واديا من مال فأعطيه لسأل ثانيا، و لو سأل ثانيا، فأعطيه لسأل ثالثا و لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب و يتوب اللّه على من تاب و إن ذات الدين عند اللّه الحنفية غير المشركة و لا اليهودية و لا النصرانية و من يفعل ذلك فلن يكفر.

في نقل آخر عنه أنه (ص) قرأ بعد «ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ» إن الدين عند اللّه.

و في ثالث

عنه أنه (ص) قرأ السورة هكذا: ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من اللّه يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة أي ذات اليهودية و النصرانية أن أقوم الدين الحنفية مسلمة غير مشركة و من يعمل صالحا فلن يكفره و ما أختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة إن الذين كفروا أو صدوا عن سبيل اللّه و فارقوا الكتاب لما جاءهم أولئك عند اللّه شر البرية ما كان الناس إلا أمة واحدة ثم أرسل اللّه النبيين مبشرين و منذرين يأمرون الناس يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يعبدون اللّه وحده و أولئك عند اللّه هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي اللّه عنهم و رضوا عنه ذلك لمن خشي ربه.

أقول: لو كانت هذة الزيادات تفسيرات لآليات فهي غالطة، و لو كانت من ضمن الآيات فأغلط، فهل إن الكتب القيمة هي ذات اليهودية و النصرانية، و هل إن الدين الحنفية هو المسلمة غير المشركة، و بعد ملاحظة بسيطة في هذه الجمل المقحمة و آيات البينة تجد أنها شطحات و خيالات يهودية نصرانية تهدف إلى تشويه سمعة القرآن ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار!.

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (١) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (٢) وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (٤)

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها:

الزلزال الخاص بها في آخر المطاف، بعد زلازل موضعية تعيشها قبل موتها، و بعد الرجفات التي تعيشها طوال حياتها، حفاظا على كيانها الأرضي بين زملائها.

أرضنا هذه راجفة: محكومة بحركات عدة أنهاها العلماء حتى الآن إلى أربع عشرة حركة، رجفة تعيّشها و من عليها، عامرة معمّرة، ثم تأخذها رجفة تدمّرها و تميت من عليها: «رجفة الإماتة» ثم رجفة الإحياء: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (٧٩: ٧).

إن رجفة الأرض ـ الدائبة ـ ظاهرة حسب القرآن، حتى عدّت الراجفة من أسمائها، فهي راجفة دوما، و تتبعها رجعة رادفة يوم احتضارها.

و آية الزلزال تتحدث عن رجفة الإماتة و التدمير التي تتلوها رجفة الإحياء، و

أنها في زلزالها تمدّ مدا: «وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ» (۸۴: ۳ ـ ۴) و تشقّق عن حملها سراعا: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ» (۵۰: ۴۴) و تحمل على أكتاف الزلزال مع جبالها إلى قبرها: «وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً» (۶۹: ۱۳)..

و إلى حيث لو رأيتها ما عرفتها: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (۱۴: ۴۸).

إثر هذه الزلزلة و الرجفة و الدكة و الإنشقاق، سوف تخرج الأرض أثقالها:

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها:

أثقالها: أحمالها التي اختبت في جوفها، من إنسانها و حيوانها، و من جواهرها و ثرواتها.

«أثقالها»: أثقالها معنويا كإنسانها الذي فضّل على كثير ممن خلق تفضيلا، و ماديا كالجواهر المرغوبة لإنسانها، و لقد دفنت الأرض كلا الثقلين ليوم تقوم الأشهاد، فإلى عرصات التساؤلات.. إنها دفنت الطالب و المطلوب و «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ» و الثقل المطلوب سوف يشهد للطالب و عليه، و يشهد الطالب بالمطلوب، له أو عليه، و كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «تـقيء الأرض أفـلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب و الفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، و يجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، و يجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا فلا يأخذون منه شيئا»[١].

تخرج الأرض أثقالها: أماناتها، و كما تحدّث أخبارها الناتجة عن تلكم الأثقال:

فيا للأرض من حافظة أماناتها إلى حين زلزالها، تـؤديها سـالمة سـليمة، دون تدجيل و تدغيل، دون زيادة و لا نقصان و لا تضليل! وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها:

.. هذه الإنسانية التي رأت ـ طول تـاريخها ـ الزلازل و البـراكـين، و شـهدت زعزعات و رجفات، هذه الإنسانية ـ و هي تعيش أخريات الأنفاس من حياتها ـ هذه تقول: ما لها؟.. كأنها ـ أو أنها ـ صرخة جماهيرية تزامل صرخات الزلزال، و إنه سؤال المشدود المبهوت من زلزالها هـذا، الذي لم يـعهده طـوال حـياته و حـياة الأرض.

إنه سؤال الدهشة في يوم عصيب: «يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ

---

١. الدر المنثور ج ٦ ص ٣٨٠.

اللَّهِ شَدِيدٌ» (۲۲: ۲).

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها:

.. هذه الإذاعة تذيع أخبارها كاملة، و تؤدي أماناتها شاملة، متى؟

يوم دمارها بزلزالها، و بعد ما أخرجت أثقالها، فإن أخبارها ليست إلا عن أثقالها.

فهل يا ترى إن الأرض سوف تصبح حيوانة أو إنسانة تحدث؟ تحدث بما أحدثه إنسانها في حياة التكليف؟ أم سوف تصبح جبالها كألسنة لها حداد، و هي بحول اللّه و قوته تحدث أخبارها.. و كما يتقوّلها القوالون غير المفكرين! كلا! فما ذا يعنى بهكذا أخبار أجنبية عن كيان الأرض، المضغوط بها عليها، فهل إن فيها حجة على أصحاب الأخبار الذين عملوها و أحدثوها؟

كلا! فإنهم

«تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها فيقولون ما علمنا شيئا منها فتشهد عليهم الملائكة فيقولون يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئا»[1]

---

١. رواه القمي في تفسيره عن الصادق (ع) و تتمة الحديث كالتالي: «.. و هو قول الله: يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم، فعند ذلك يختم الله ألسنتهم و ينطق جوارحهم فيشهد السمع ←

ثم يأتي اللّه بشهود العيان، صور الأعمال و أصوات الأقوال المسجلة في الأرض و في الأعضاء، و عند ذلك يبكتون، أجل و إن الأرض تحدث أخبارها بما شهدتها و سجلتها:

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها:

رمز لها في عمق كيانها أن تسجل ما يحدث عليها و ما يقال، من أعمال و أقوال، ثم تذيع ما سجلته مع سائر الإشهاد يوم يقوم الإشهاد، و إنه ليس وحي النبوة و لا وحي الإلهام، و لا وحي الغريزة، و إنما وحي في تكوينها، و رمز في كيانها الذي يجهله من سوى اللّه و الراسخين في العلم.

فيا للأرض من مسجلة سرية حافظة لما يحصل عليها، ثم لا تتحدث عنها إلا عند قيامتها، تسجل و تحدث خلاف سائر المسجلات و الأسطوانات... فإنها تسجل طوال حياتها دون أن تحدث جهارا حالها، ثم تحدث بما سجلت عند احتضارها و

← بما سمع مما حرم الله، و يشهد البصر بما نظر إلى ما حرم الله، و تشهد اليدان بما أخذتا، و تشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله، و يشهد الفرج بما ارتكب مما حرم الله، ثم انطق الله ألسنتهم فيقولون لجلودهم لم شهدتم علينا فيقولون أنطقنا الله الذي انطق كل شيء و هو خلقكم أول مرة و إليه ترجعون و ما كنتم تستترون من الله أن يشهد عليكم سمعكم و لا أبصاركم و لا جلودكم و لكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون».

أقول: و شهادة الأعضاء هي بروز الصور و الأصوات التي تلقتها، فهي مسجلات إلهية كما الأرض مسجلة، ثم يصدق النبيون و الملائكة الذين يشهدون، وفق الأرض و الأعضاء، شهود أربعة تحيط بالمجرمين إحاطة كاملة.

موتها، مؤدية أماناتها بكاملها!.

فهل إن بالإمكان أن تبقى صور الأعمال و أصوات الأقوال و حالات الأفكار ليوم تشخص فيه الأبصار؟.. أجل و كما صرحت به آيات بينات من الذكر الحكيم، في هذه السورة و سواها، و صدقها العلم.

كان الناس لا يصدقون، قبل صناعة التلفزيون و الراديو و المسجلة و أشباهها، من المسجلات للصور و الأصوات، كانوا لا يصدقون هامة انعكاس الأعمال يوم القيامة، فكان الكافر و الشاك ينكر و يستهزأ، و كان المؤمن يتحير و يؤوّل، لكنما العلم خدم هذه الملحمة الغيبية القرآنية بجنب أمثالها، و على حد تعبير الصحابي الكبير ابن عباس «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن» فلقد فسر الزمن هامة انعكاس الأعمال المصرح بها في آيات عدة:

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ:

أجل: ليروا أعمالهم، لا جزاء الأعمال فحسب، بل الأعمال نفسها أيضا، عذابا فوق العذاب.

إن المؤمن يوم الدنيا في غفلة واحدة عن عملية مسجلتنا الأرضية، إلا من هداه

اللّه على ضوء التصريحات القرآنية، و الكافر في غفلتين، غفلة الجهل و غفلة الكفر «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (٥٠: ٢٠ ـ ٢٢).

كنت في غفلة عن الشهيد، و منه الشهيد الأرضي الذي شهد أعمالك و سجلها ثم يحدثك أخبارها، «وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهٰذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» (١٨: ٤٨)، «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (٣: ٣٠).

فالأعمال كلها يوم القيامة حاضرة محضرة، يحضرها اللّه تعالى بما سجلها في الأرض و في أعضاء الإنسان ذاته، و في ذات الإنسان، إن اللّه هو الذي يستنسخ الأعمال كما تصدر، دون زيادة و لا نقصان، و نسخة الأعمال هي الكتاب الذي سوف ينطق علينا بالحق: «وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٤٥: ٢٨ ـ ٢٩): «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ

الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (١٧: ١٥ ـ ١٦).

فكما الإنسان ـ نفسه و بأعضائه ـ هو من شهود الأعمال له أو عليه، كذلك الأرض بجرمها و جوّها تسجّل أعماله و أقواله هنا، ثم تحدثها هناك: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها».

فكما رباك ربک و أعدّک للوحي تلقيا و تحديثا، كذلک أوحى للأرض ـ إذ خلقها ـ أن تسجّل الأعمال فتحدثها.

إننا سوف نسمع أقوالنا كما قلناها، و نرى أعمالنا كما عملناها، كأننا عملناها الساعة، و على حد تعبير

باقر العلوم عليه السّلام: «خيره و شره معه حيث كان لا يستطيع فراقه حتى يعطى كتابه بما عمل»[1]،

فخير الإنسان و شره لزامه في ذاته: «معه» و في المكان الذي عمله: «حيث كان» لا يستطيع فراقه.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام: «يذكر العبد جميع ما عمل و ما كتب عليه

---

١. تفسير العياشي.

حتى كأنه فعله تلك الساعة»[۱].

و بخصوص تحديث الأرض

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: أ تدرون ما أخـبارها؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: أخبارها أن تشهد على كل عبد و أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا و كذا يوم كذا و كذا فهذه أخبارها[۲].

يعني من قولها: ما سجلتها، و يا ويلنا من هذا التسجيل الشامل لزمن الأعمال و مكانها، و لكي نشهد ما عملناه و قلناه شهود عيان فلا نجرؤ على الإنكار.

إن الأرض سوف تؤدي رسالتها بالوحي، وحي التكوين، و سوف تصبح شاشة قوية: «لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها، وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً».

---

۱. تفسير العياشي.

۲. الدر المنثور ج ۶ ص ۳۸۰ أخرجه أحمد و عبد بن حميد و الترمذي و صححه و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قرأ رسول اللّه (ص) هذه الآية: يومئذ تحدث أخبارها، قال: أ تدرون ما أخبارها؟...

أخرج بن مردويه و البيهقي في شعب الايمان عن أنس بن مالک أن رسول اللّه (ص) قال: إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل ما عمل على ظهرها و قرأ: يومئذ تحدث أخبارها.

أخرج الطبراني عن ربيعة الجرشي أن رسول اللّه (ص) قال: تحفظوا من الأرض فإنها أمكم و إنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرا إلا و هي مخبرة به.

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ:

يصدرون ـ هم ـ بعد صدور أعمالهم، و بعد أن حصّل ما في الصدور، يصدرون فيفاجئون بشهود المشهد العظيم، «لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ» نفس الأعمال كبداية للعذاب تخجيلا مما عملوا على رؤوس الأشهاد، و إفحاما بواقع الأعمال، و لكي لا يجدوا سبيلا للإنكار، ثم عذاب ثان يستمر، هو ظهور حقيقة هذه الأعمال، فجزاء الأعمال إنما هي الأعمال لا سواها: «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فالأعمال رؤيتها و ذواتها، هي عذاب فوق العذاب.

يصدر الناس أشتاتا حسب شتات الأعمال، ليروا أعمالهم، كأن رؤيتها أخطر من جزائها، أمرّ و أدهى مما يمرّ عليه ساعتها، و إنهم ـ على أشتاتهم ـ ذاهبون على غفوة و غفلة مما عملوا، و علهم نسوها أو تناسوها، ذاهبون إلى شاشة عرض الأعمال، و الشاشة هي الأرض كلها.. و من أعماله ما يهرب من ذكراها، فكيف بمواجهتها على رؤوس الأشهاد، إنه يشيح بوجه عنها لبشاعتها يوم العرض، حين تتمثل له في أمرّ نوبة من نوبات الندم و لذع الضمير، ولات حين مناص.

فهل إنهم سوف يرون عظائم الأعمال دون صغائرها، و هل إن رؤية الكبائر تنوب و تكفي عن رؤية الصغائر؟ كلا:

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ:

اللهم إلا الخير الحابط غير الثابت، و إلا الشر الممحو الساقط على التفاصيل التي نجدها في الذكر الحكيم:

فمن السيئات ما تنمحي بترک الكبائر و فعل الحسنات: «.. إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (۴: ۳۱) «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِکَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ» (۱۱: ۱۱۴).

و منها ما تنمحي بالتوبة و الشفاعة على شرائطهما المفصلة في محالها[١].

و منها ما تنمحي بمصائب الحياة و نوازلها، و كما عن الرسول الأقدس صلى اللّه عليه و آله و سلّم[٢].

---

١. راجع «عقائدنا» ص ٢٢٥، و يأتي البحث عنها في طيات الآيات المناسبة إن شاء اللّه.

٢. في الدر المنثور ج ۶ ص ٣٨١ أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال: لما أنزلت هذه الآية «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ..» إلخ. قلت: يا رسول اللّه (ص)! إني لراء عملي؟

قال: نعم. قلت: تلک الكبار الكبار؟ قال: نعم. قلت: الصغار الصغار؟ قال: نعم. قلت:

وا ثكل أمي! قال: أبشر يا أبا سعيد فإن الحسنة بعشر أمثالها يعني إلى سبعمائة ضعف، و اللّه يضاعف لمن يشاء، و السيئة بمثلها أو يعفو اللّه، و لن ينجو أحد منكم بعمله. قلت: و لا أنت يا نبي اللّه! قال: و لا أنا! إلا أن يتغمد في اللّه منه بالرحمة.

فيه عنه (ص).. أ رأيت ما رأيت مما تكره؟ فهو من مثاقيل الشر، و يدخر لک مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة، و تصديق ذلک في كتاب اللّه: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ».

ثم ترى منها ما تبقّى، و الويل لما تبقّى، فمثقال ذرة منها لا تخفى إلا ظاهرة في شاشة المحشر و ساحته.

و قد نحتمل أن صور الأعمال كلها تبقى، ما يعفى عنه أو يحبط، و ما لا يحبط أو يعفى عنه، فخير الكافر يبقى ـ على حبطه ـ يبقى ليراه فيزداد تحسّرا أنه لم ينفعه يوم الشقة، و شر المؤمن يبقى ـ على عفوه ـ ليراه فيزداد سرورا بفضل اللّه و عفوه كما عن باقر العلوم عليه السّلام[1]، و لكنها رؤية لا تفضحه.

سوف يرى هناك ما لا يكاد يراه هنا، فالذرة المادية هنا لا ترى بأعظم المجاهر، و إنما هي رؤيا علمية في ضمير العلماء، لم يروها حسيا حتى الآن، و سوف يراها كل الناس دون مجاهر، و إنما بحديد البصر «.. فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» يرون كلا بما يناسبه و يسانخه: رؤية البصيرة و البصر و السمع.. يرى الخير ثقيلا و الشر خفيفا، و تعبير المثقال للشر لا يثقل الشرّ في الميزان إلا في التعبير.

و قد يكون المثقال هنا و هناك إشارة إلى مدى تأثير الخير و الشر في دنيا

---

١. تفسير علي بن إبراهيم عن أبي جعفر الباقر (ع) في قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ» يقول: إن كان من أهل النار و قد كان عمل في الدنيا مثقال ذرة خيرا، يره يوم القيامة حسرة، أنه عمله لغير اللّه. «وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» يقول: إن كان من أهل الجنة رأى ذلك الشر يوم القيامة ثم غفر له (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٥١ ح ١٨).

الحياة، فكما الخير يرى بنفسه، كذلك بآثاره التي خلّفها خلفه، كما الشر أيضا يرى هكذا، ثم الجزاء على الخير و الشر سوف يكون جزاء وفاقا لثقلها: قدر التـأثير و مداه، كما تدل عليه آيات و روايات عدة[١].

سورة العاديات ـ مكية ـ و آياتها إحدى عشر

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (٥) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (٩)

وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً:

---

١. قد فصلنا البحث عن ذلك في الآيات المناسبة التي تخصه.

جمع العادية من العدو[1]: المشي السريع، و منها الأفراس المسرعة في المشي، «ضبحا» و هو صوت أنفاس الفرس تشبيها له بالضباح و هو صوت الثعلب.

و العاديات: قسما بالمسرعات في سبيل اللّه، قسما بالمناضلات في معركة الشرف و الكرامة، سواء أ كانت أفراسا أم إبلا، أم دبابات و طائرات مقاتلة، أم أية مسرعات تضبح في عدوها.

إنه قسم بالطاقات الجبارة التي منحها اللّه الإنسان، و هيأها له ليدافع عن نفسه و نفيسه و أنفس نفيسه: شريعة اللّه و أرضها و عرضها.

تبدأ السورة بمشهد القوات العاديات الضابحات ـ أية قوات ـ خيلا أم إبلا ـ كما تناسب زمن نزولها ـ و دبابات و طائرات و أشباهها، لأن شريعة الجهاد لا تخص زمن الخيل و الإبل.

العاديات الضابحات، الموريات قدحا بعدوها، قدحا بريا أم بحريا أم جويا، قدحا يقدح العدو و يكبته الخسار، و يوري عليه بالنار التي يوريها عليه و على كيانه.

يأخذ القرآن هنا مثالا: العاديات زمن نزوله، ثم يصفها بما يصف، دون أن تختص

---

١. في المفردات للراغب العدو التجاوز و منافاة الالتئام و هو تارة بالقلب فهو العداوة و المعاداة، و أخرى بالمشي فهو العدو، و ثالثة في الإخلال بالعدالة فهو العدوان و العدو، و رابعة بإجزاء المقر فهو العدواء أي مكان ذو عداء.

بالخيل و الإبل، إذ إنه كتاب الزمن:

فَالْمُورِياتِ قَدْحاً:

الإيراء إخراج النار بالعدو الضابح أم سواه، نتيجة سرعة الحراك، سرعة في الجو توري من اصطكاكها الجوي قدحا، و سرعة الدبابات المورية بصدامها عبر سيرها الأرضي، و سرعة السفن كذلك في الماء.

«فَالْمُورِياتِ» إن الإيراء هذا نتيجة سرعة العدو هجوما على العدو «قَدْحاً»:

صكا بصدام السير لسرعته.

فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً:

تغير في الصباح الباكر لتفاجئ العدو الغادر، نعم صبحا لتصبح غالبة على حين غفلة و غفوة من العدو.

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً:

على أثر الإيراء و الإغارة أثرن نقعا: غبارا شديدا في الصباح، نقعا من غبار الأرض، و نقعا على عقول و أفكار المغبّرين الأعداء، و نقعا على حياتهم العنيدة.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً:

وسطن جمع الأعداء، و هكذا يجب أن تكون الحرب، أن يهاجموا الأعداء في

عقر دورهم و مآمنهم ليوقعوا المهابة فيهم و يخسروهم معنوياتهم في البـدايـة، و يخسروهم أنفسهم في النهاية، فما قلة المؤمنين بالتي تخسرهم ما دامـوا مـؤمنين صامدين، يرهبون عدو اللّه و عدوهم، و هكذا أمروا أن يكونوا على اهبة و عـدّة إرهابية: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ».

هذه هي خطوات المعركة الناجحة على ما يألفه أعداء القرآن.

قسما بهذه الطاقات و الخطوات المجيدة في معارك الشرف و الكرامة:

إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ:

تنديد بكند الإنسان الفاشل في حرب الأعداء، الراجع منهزما عن خط النار بكل عار و بوار نتيجة خوفه و جبنه عن الكفار.

فقد نزلت السورة في حرب ذات السلاسل لما بعث النبي (ص) عليّا إلى ذات السلاسل فأوقع بهم، و ذلک بعد أن بعث عليهم مرارا عدة غيره من الصحابة ـ بمن فيهم عمر و أبو بكر ـ فرجعوا إلى رسول اللّه (ص) فاشلين، و لما نزلت السـورة خرج رسول اللّه (ص) إلى الناس فصلى بهم الغداة و قرأ فيها:

«وَ الْعادِياتِ» فلما فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم نعرفها،

فقال رسول اللّه (ص) نعم إن عليّا ظفر بأعداء اللّه و بشرني جبرائيل في هذه الليلة فقدم علي عليه السّلام بعد أيام بالغنائم و الأسرى.

إنه قسم بالمناضلين الصامدين الصادقين أن من سواهم من الخاملين الفاشلين لربهم كنودون: كفورون بنعمه التي منحها إياهم، لا يستعملون القوة ـ التي حباهم ربهم ـ في سبيله.

قسم بنعمة اللّه لواقع الكفران، و إن فيها تنديدا بالذين يعرفون نـعمة اللّـه ثـم ينكرونها و يفشلون في التذرّع بها إلى مرضاة اللّه، لفشلهم في الإيمان الصادق.

هنا نرى بقية الآيات في «الْعادِياتِ» تستعرض كفران الإنسان و هيمانه في حب نفسه، حب الشهوات و الحيوانات، حب الذات كحيوان، تاركا حبه له كـإنسان! و ليست هذه دعاية ضد الإنسان، فإنه هنا شهيد على نفسه:

إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ:

يشهد على كفرانه في ضميره، لو بقي له ضمير، و يشهد في أقواله و أفعاله، شاء أم أبى، و سوف يشهد يوم يقوم الأشهاد مع الأشهاد على نفسه، شهادة صـوتية و صورية، بما سجلها ربه تعالى في أعضائه، تشهد الألسنة بما سجل اللّه فـيها مـن أقوالها، و الأسماع بما سجل فيها من مسموعاتها، و الأبصار بما سجل فـيها مـن

مرئياته و مبصراتها، و الجلود بما سجل فيها من أعمال بظاهر الجسد.

وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ:

لحب الخير، لا الصالح، إنما الذي يراه خيرا في حيونة الحياة، ملائما في تلك الحياة اللئيمة المشؤومة، دون ما يصلح الإيمان، و ما هوا بدافع الإيمان.

هذه فطرة الإنسان و طبيعته ما لم يخالط قلبه الإيمان، فيغير من تصوراته و قيمه و اهتماماته، و يحيل كنوده، اعترافا بفضل اللّه، شكرانا بالكفران.

إنه يظل مرتكسا في حمأة الأرض سجينا، في سجن اللذات، ما لم يتحرر عن حب الذات، إلى حب خالق الذوات و اللذات.

فيا للإنسان من غفلة غمرت عقله، و من غفوة سترت لبّه:

أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ. وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ. إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ:

إذا بعثر ما في القبور من أجسادهم الجهنمية «ما» لا «من» لأنهم خرجوا عن كونهم إنسانا إلى حيوان، فلا يحق لهم التعبير بما يخص ذوي العقول:

«من»..

فهناك بعثرة القبور: «وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» و بعثرة ما في القبور: بدن الإنسان

الكنود، ثم تحصيل و إحصاء و تحضير لما في صدورهم، من الأسرار الشريرة التي ضنت بها، و من الأهداف الشهوانية التي أظهرتها و تجاهرت بها، فـالصدور هـي مخابئ الأفكار، و حصالة التصاميم المتحللة عن ثفالاتها، ثم هي مخابئ القلوب: «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ».

حصّل ما في الصدور واقعيا و شهودا عليها لتضطرهم إلى الإقرار: «أَ فَلا يَعْلَمُ» وقتئذ: «إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ» خبرة إدانة و جزاء، كما كان خبيرا يوم الدنـيا، خبرة علم و اطلاع.

يومئذ يصبح الإنسان خبيرا أن ربه به لخبير، يعلمه خبيرا بعد ما كان يجهل أو يتجاهل بخبرة الربوبية، إذا لم يكن ليحافظ على كرامة الربوبية، فلقد كان يعمل كأنه لا ربّ، و كان حرا كأنه ليس عبدا، ثم يوم القيامة سوف تظهر له ربوبية الرب علميا و واقعيا و إدانة و جزاء وفاقا.

سورة القارعة ـ مكية ـ و آياتها عشر

[سورة القارعة (١٠١): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْقارِعَةُ (١) مَا الْقارِعَةُ (٢) وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (٤)

وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (٧) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (٩)

وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ (١٠) نارٌ حامِيَةٌ (١١)

سورة تقرأها فتقرعک بقارعة القيامة، و لكي تعد لها ما استطعت من أثقال الموازين فتخف قارعتها عنک، و تصبح بها في عيشة راضية.

الْقارِعَةُ:

إنها قارعة في الأولى، و اخرى في الحياة الأخرى: «وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ» (١٣: ٣١).

قارعة يوم الدنيا تتلوها قارعة ـ ما أعظمها ـ في الآخرة: «حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ» بالقارعة الأخيرة الهائلة.

إنها قوارع تتبع ما صنعوا، في أولاهم يسيرا، و في أخراهم كثيرا:

«كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادُ بِالْقارِعَةِ» (۶۹: ۴) و القارعة مبالغة في القرع، و هو ضرب شيء على شيء، و الآخرة هي يوم التضارب و التداق، يتضارب الكون و يضطرب: بقرع الأنجم و الكواكب بعضها ببعض لحد الانتثار: «وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ»: فينتصر في هذه المعركة الشاملة أمر اللّه، إن اللّه غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون، و كان أمر اللّه مفعولا.

إنها تقرع إنسانها بما قدمت نفسه من قوارع الأفكار و الأعمال، رغم أنها ما كانت تقرع صاحبها يومها إلا يسيرا، لكنها تقرعه يوم الآخرة كثيرا، جزاء وفاقا.

و القارعة اسم من أسماء القيامة الكبرى تشير إلى سمته، كأضرابها من أسمائه التي تشير: كلّ إلى سمة و حالة خاصة[1].

مَا الْقارِعَةُ؟:

كسؤال يصوّر رهبة الموقف، لحد كأنه خفي على الرسول الأقدس صلّى اللّه

---

۱. منها اسماء مفردة ك: الواقعة ـ الصاخة، و منها مركبة إضافية: ك: اليوم الموعود ـ اليوم الآخر ـ يوم عظيم ـ يوم كبير ـ يوم الجمع ـ يوم أليم ـ يوم عصيب ـ يوم مشهود ـ يوم الحساب ـ يوم الدين ـ يوم يلقونه ـ يوم الحسرة ـ يوم الآزفة ـ يوم الفتح ـ يوم التناد ـ يوم الفصل ـ يوم محيط ـ يوم الخلود ـ. و منها مركبة بيانية ك: يوم تبلى السرائر ـ يوم لا بيع فيه و لا خلة. يوم ينفخ في الصور. يوم تشخص فيه الأبصار. يوم تبدل الأرض غير الأرض و السماوات. يوم يقوم الأشهاد. يوم ترجف الراجفة. يوم لا بيع فيه و لا خلة و لا شفاعة. يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه. يوم توفي كل نفس ما عملت. يوم تدعو كل أناس بإمامهم. يوم نسير الجبال و ترى الأرض بارزة.
و يوم القيامة يومان: يوم الإماتة و يوم الإحياء. و الآيات تبحث عن اليومين و تعبر عنهما جميعا بيوم القيامة.

عليه و آله و سلّم:

«وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ؟».

إن القارعة توحي بقرع و لطم شديدين، تقرعان الكون قلبا و قالبا، القلوب المقلوبة التي تذرعتها الشياطين لقرع الحياة و قلبها إلى غير ما تعنيه، و القوالب كلها مقروعة في هذه الدكة العظيمة الشاملة.. و إنما تسلم القلوب السليمة، الثقيلة الموازين، الشديدة الرباط باللّه العظيم.

وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ:

ليس لها مثيل في دنيا الحياة حتى يدركها في عقباها، و إنما هو الوحي، وحي السماء: يدريک ما هي القارعة.

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ:

إنها إجابة عن سؤالها بما يحصل فيها، لا بماهيتها، فإنها فوق التحمل يوم الدنيا و لو في تصورها.. يوم يكون الناس: من هيبته و شدة وطأته و قارعته، كالفراش المبثوث: الجراد المنتشر: «خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ» (٥۴: ٧). و الجراد المنتشر هي الفراش المبثوث، تنبث و تنتشر و تنفرش بعضها بعضا، و تركب بعضها بعضا، دون أن تتجه لجهة واحدة، لهول القارعة، و لأنهم

كانوا يوم الدنيا في اتجاهات شتى، فكل إنسان يعمل على شاكلته، و يرجـع إلى شاكلته، شاء أم أبى.

إن الفراش المبثوث مثل لغاية الضعف و الحمق و اللاهدف، و هكذا يصير مصير الإنسان الذي عاش حياته كالفراش المبثوث، إلا من ثقلت موازينه، فهذا هو مصير أقوى إنسان في الكون، ثم ماذا يكون مصير سائر الكون، لنـأخذ هـنا مـثالا مـن الجبال:

وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ:

«يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ. وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ» (٧٠: ٨ ـ ٩)..

فيا لها من وقعة قارعة و دكة مفرغة تهزم الجبال فتهزم في هذه المعركة الدامية، فهذه سماؤه كالمهل: حمراء كالمطلوم المجروح، و هذه جباله كالعهن المنفوش:

الصوف ذو ألوان، نشر بندف، فنداف القارعة هكذا يندف و ينفش الجبال.

فيا له من مشهد تطير له القلوب، و ترجف منه الأوصال، وي كأن كل شيء في الكون يطير حول الإنسان هباء، فما ذا إذا حال الإنسان في الختام:

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ:

الموازين جمع ميزان و هو ما يوزن به و ما يوزن أيضا، و لا يعنى به هنا وزن

الجسد، و إنما ما به الإنسان إنسان، من موازين العقل و الإيمان و أعمال الإيمان، و على حد تعبير

الإمام الصادق (ع) «الموازين هي موازين الإنسانية».

و الميزان هو آلة الوزن و القياس، ما يوزن به الشيء و يقاس، فإن كان ذلك الشيء جسما فالميزان الجسماني على اختلاف حالات الأجسام فاختلاف موازينها، فلا يوزن ما يسوى غراما بما يوزن به أطنان، و لا يوزن النور بما يوزن به سائر الأجسام غير النورانية، و كما لا توزن الدوائر و القسي أو الحرارة و البرودة أو الأعمدة و الخطوط أو الشعر و الفلسفة، لا توزن هذه و أمثالها بالقبّان و غيره من موازين الأثقال المادية.

ثم الروحانيات و الصفات و العقول و الأرواح، إنها أحرى أن توزن بالمثل العليا من أمثالها، و في هذا الباب ليس الثقل إلا للصالحات دون الطالحات.

فالصالحات هي ثقل الميزان، و السيئات هي خفتها، إذ ليس للسيئات ثقل، فإنما الوزن هو الحق و الموازين هي القسط: «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْـحَقُّ» (٧: ٩) لا: الوزن حق، مع أنه حق، إنما: الوزن هو الحق، فالحق هو الميزان و الميزان هو الحق، دون

أن يكون وزن أو ميزان للباطل[1] فلا يقام للكافر ميزان لحبط أعماله: «أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (١٨: ١٠٥) و كما عن الإمام زين العابدين عليه السّلام سنادا إلى القرآن[2].

فالقسط و الحق هما الميزان، و هما ثقل الميزان: «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ» (٢١: ٤٧).

فإفراد القسط هنا لجمع الموازين يوحي لنا أن مجموعة الموازين تتحد في أنها القسط، دون أن يكون للظلم ميزان و لا وزن حتى توزن به السيئات، إنما هو ميزان واحد هو الحق و القسط و العدل، و كما الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام يصرح بسناد الآيات و يحذو حذو حفيده الإمام الصادق عليه السّلام.

و إذا كان القسط و الحق و العدل هي الميزان: فأحرى أن يكون الرسول الأقدس

---

١. نور الثقلين ج ٢ ص ٥ ح ١٣ عن مصباح الشريعة قال الصادق (ع) في كلام طويل: فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فأنظر في قصد معناك و غور دعواك و عيرهما بقسطاس من اللّه عز و جل كأنك في القيامة ـ قال اللّه تعالى «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» فإذا اعتدل معناك بدعواك ثبت لك الصدق.

٢. كما في التوحيد عن علي (ع) و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات و أما قوله تبارك و تعالى «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً» فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة، يدين اللّه تبارك و تعالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين.

صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خلفاؤه المعصومون هم الموازين، كما النبيون و أوصياؤهم موازين، و على حد تعبير

الإمام الصادق عليه السّلام: إن الموازين هم الأنبياء و الأوصياء[1].

فلا الموازين تكون مادية، و لا ما يوزن فيه الموازين، إنما هي القيم و المثل العليا للإنسان ـ أيا كان.

و إنها ـ رغم اختلافها صوريا ـ تتحد في كونها حقا و قسطا، تظهر في مظاهر عدة حسب عديد الأعمال و الأقوال و مراتب الإيمان و الأحوال، فالحق الذي يوزن به الإيمان هو حق الإيمان، و ما توزن به الصلاة هو حق الصلاة و أمثالها لأمثاله.

«فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ»: عيشة كأنها الرضا كلها، دون أن يحملها شيء سواها، فهي هي الرضا بعينها: رضى العبد و رضوان من اللّه، رضوان مزدوج.

ثم ما هو مصير الحابطين أعمالا، الخابطين أحوالا، الأخسرين أعمالا، الذين رضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها!:

وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ. وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ. نارٌ حامِيَةٌ:

---

١. بحار الأنوار ج ٧ باب الميزان ص ٢٤٨ ح ۶.

هؤلاء هم الذين لا وزن لهم إطلاقا، بين ما لم يعملوا من الصالحات و ما لم يؤمنوا بها، و بين ما حبطت من أعمالهم الصالحة أحيانا، لكفرهم: «أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (١٨: ١٠٥).

أعمالهم حابطة قياسا إلى الآخرة، و لو كانت مثابا عليها يوم الدنيا و هم فيها لا يبخسون: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (١١: ١٥ ـ ١٦).

هنا و هناك تتحدث الآيات عمن محّض الإيمان محضا، و من محض الكفر محضا، دون من «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٩: ١٠٢).

«فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ»[١] كما كانت الهاوية أمه: ملجأه و مرجعه، مصدره و مورده، أعماله و

---

١. الدر المنثور (ج ۶ ص ٣٨٥) أخرج الحاكم عن الحسن قال: قال رسول اللّه (ص): إذا مات العبد تلقى روحه أرواح المؤمنين فيقولون له: ما فعل فلان؟ فإذا قال: مات ـ قالوا: ذهب إلى أمه الهاوية. فبئست الأم. و بئست المربية.

أفكاره، كانت كلها هاوية: نارا حامية: تحرق ما تبلعه[1]، فسوف تكون يوم الآخر هاوية كما كانت، صورة طبق الأصل، فيا لها من أثقال إنسانية! تكافح قارعة الآخرة فينتصر إنسانها في هذه المعركة الدامية.. لا نعني إنسان الجسد فإنه يموت و يبعثر، ثم يحيى فيجازى، إنما إنسان الروح، فهو الذي سوف ينتصر بموازينه، فعيشته راضية، رغم من سواه من أهل المعركة، معركة القارعة، المعركة القارحة، فإنها تقرع قوما و تقرع من آخرين.

سورة التكاثر ـ مكية ـ و آياتها ثمان

[سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

---

١. و فيه أخرج أبو يعلي قال كان رسول اللّه (ص) إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائبا دعا له و إن كان شاهدا زاره، و إن كان مريضا عاده، ففقد رجلا من الأنصار في اليوم الثالث فسأل عنه فقالوا: تركناه مثل الفرخ لا يدخل في رأسه شيء إلا خرج من دبره، قال عودوا أخاكم، فخرجنا مع رسول اللّه (ص) نعوده فلما دخلنا عليه قال رسول اللّه (ص): كيف تجدك؟ قال: لا يدخل في رأسي شيء إلا خرج من دبري قال: و مم ذاك؟ قال: يا رسول اللّه (ص)! مررت بك و أنت تصلي المغرب فصليت معك و أنت تقرأ هذه السورة «الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ إلى آخرها: نارٌ حامِيَةٌ» فقلت اللهم ما كان من ذنب أنت معذبي في الآخرة فعجل لي عقوبته في الدنيا فنزل بي ما ترى، قال رسول اللّه (ص): بئس ما قلت، ألا سألت اللّه أن يؤتيك في الدنيا حسنة و يقيك النار، فأمره النبي (ص) فدعا بذلك و دعا له النبي (ص) فقام كأنما نشط من عقال.

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)

كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

تأنيب شديد بالمتكاثرين الذين اخلدوا إلى الأرض و اتبعوا أهواءهم، أولئك الذين حسبوا الحياة كلها شهوات، هؤلاء الأخسرون أفكارا و أعمالا، المتكاثرون في حياتهم حتى جرهم تكاثرهم إلى المقابر!

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ:

اللهو من اصول المحرمات في كافة الشرائع الإلهية المقدسة، سواء أ كان دافع التكاثر بالأموال و الأولاد و النساء، أم بالقمار و الموسيقى و أضرابها، و كما يعد القرآن أمثالها من اللهو تنديدا بها و منعا عنها[1].

---

١. «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (٢٣: ٩) «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» (٢٤: ٣٧) «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (٤٥: ٣) «وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ» (٦: ٣٢) «وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» (٦: ٧٠) «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ

←

فمن الأشغال و الأعمال ما تخص اللهو دون أن تأتي بصالح للحياة، كالقمار و الرقص و الموسيقى، فإنها تخسر الحياة و لا تربحها، تخسرها معنويا و ماديا، فهي محرمة إطلاقا.

و منها ما تختلف حسب اختلاف الأهداف و النيات، كالأموال و الأولاد و التجارة، و الحياة الدنيا كلها: فهي هي الدنيا و أموالها و أولادها، بين الجنة و النار، كما يهدفها الهادفون و يقصدها القاصدون.

«أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ..» فالحياة الدنيا بطبعها كلها لعب و لهو و تفاخر و تكاثر: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ» (٥٧: ٢٠).

إن الإنسان بطبعه يحب الاستكثار و الاستئثار من الدنيا و بها «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ

← عَذابٌ مُهِينٌ وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (٣١: ٦ - ٧) «وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» (٦٠: ١١).

هذه و أمثالها تنهي عن اللهو: و هو كل ما ينهي عن الله: عن ذكره و عبادته، و عن القيام بواجبات الحياة السليمة، و عما يعني الإنسان كإنسان، و يهمه في تجميل الحياة و تجليلها، و يرفعه و يخلصه عن دركات الحياة، عن حيونية في الحياة و شيطنته.

الْمُسَوَّمَةِ» و لكن عليه أن يجب التي تقربه إلى اللّه زلفي، و تجعل حياته الدنيا حياتا عليا، ثم لا يفتخر بالكثرة الخيرة أيضا إذ ليس له حول و لا قوة إلا باللّه.

و أما إذا جهل أمر الكثرة هنا و هناك، فاختصها بالكثرة الكاسرة لكيان الإنسان، ثم تفاخر بها تفاخرا بدافع الكبرياء، فهو إذا مسامح عن إنسانيته.

و التكاثر له درجات عدة و منها ما لا تقف لحد: تكاثر يتعدى الحياة و الأحياء إلى الأموات، فإذا تساوى المتكاثرون، أو اختلفوا أيضا، أخذوا في زيارة القبور: نحن أكثر رجالا و أولادا منكم بين أصحاب القبور، و إن كنا حاليا على سواء، أو أنتم أكثر منا، مفتخرين بمصارع الآباء و قبور الهلكى، رغم أنهم من الهلكى في حياتهم.

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ:

مقابر تزور مقابر اخرى[1] تفاخرا بأجساد طغاة البشرية! و على حد تفسير إمام

---

١. و ليس المعنى من زيارة المقابر هو الموت ـ رغم ما قيل ـ لأن المخاطبين كانوا بعد أحياء، فقد خوطبوا خطاب تنديد و تنبيه، و لأن الموت ليس زيارة للمقابر، إنما هو دخول القبر لمن يدفن في القبر، و ليس كل ميت يدفن، و لأنه لم يقل مقابركم، و مما يؤيد هذا المعنى أن السورة نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف بن قصي و بني سهم بن عمر، تكاثروا وعدوا اشرافهم فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوهم و قالوا:

هذا قبر فلان و هذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم لأنهم كانوا أكثر عددا في الجاهلية ـ عن مقاتل و الكلبي.

المتقين أمير المؤمنين علي عليه السّلام بعد تلاوته آية التكاثر:

«يا له مراما ما أبعده، و زورا ما أغفله، و خطرا ما أفظعه، لقد استخلوا منهم أي مدكر، و تناوشوهم من مكان بعيد، أ فبمصارع آبائهم يفخرون، أم بعديد الهلكى يتكاثرون، يرتجعون منهم أجسادا خوت، و حركات سكنت، و لأن يكونون عبرا أحق من أن يكونوا مفتخرا، و لأن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة، لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة، و ضربوا منهم في غمرة جهالة، و لو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية، و الربوع الخالية، لقالت: ذهبوا في الأرض ضلالا، و ذهبتم في أعقابهم جهالا، تطوءون في هامهم، و تستثبتون في أجسادهم، و ترتعون فيما لفظوا، و تسكنون فيما خربوا.

و إنما الأيام بينكم و بينهم بواك و نوائح عليكم، أولئك سلف غايتكم و فراط مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم العز و حلبات الفخر ملوكا و سوقا، سلكوا في بطون البرزخ سبيلا، سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم و شربت من دمائهم فأصبحوا في فجوات قبورهم جمادا لا ينمون و ضمارا لا يوجدون، لا يفزعهم ورود الأهوال، و لا يحزنهم تنكر الأحوال، و لا يحفلون بالرواجف و لا يأذنون للقواصف غيبا، لا ينتظرون و شهودا لا يحضرون، و انما كانوا جميعا فتشتتوا و آلافا

فافترقوا، و ما عن طول عهدهم و لا بعد محلهم، عميت أخبارهم و صمت ديارهم، و لكنهم سقوا كأسا بدلتهم بالنطق خرسا و بالسمع صمما و بالحركات سكونا، فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات، جيران يتآنسون».

هذا هو التكاثر الذي يندد به اللّه و يخشى منه رسول اللّه على حد قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما أخشى عليكم الفقر، و لكن أخشى عليكم التكاثر»[1].

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ:

«لو قد دخلتم قبوركم»، إذ يرتفع الحجاب و غشاوة الجهل المعمّد بالانخلاع عن ستار الدنيا و حياتها.

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ:

«لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم»[2] علما هو أرقى، علمان متتابعان يفوق

---

١. الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن زيد بن اسلم عن أبيه قال قرأ رسول اللّه (ص) ألهاكم متكاثر، و أخرجه ابن مردويه عن عياض بن غنم عنه (ص) مثله.

٢. هنا في الآية: كلا سوف تعلمون إلخ.. وجوه أقواها ما ذكرناه، و يؤيده العلوي (ع): سوف تعلمون في القبر ثم سوف تعلمون في الحشر (نور الثقلين ج ٥ ح ٧) و مثله النبوي (نفس المصدر) و في الدر المنثور ج ٦ ص ٣٨٧ في روايتين عنه (ص) مثله.

و احتمال ثان أن العلم الأول في الدنيا و الثاني بعد الموت، و يبعده أن كل المخاطبين هنا ليسوا من الذين سوف ←

بعضهما البعض، بعد الجهل المتمادي ـ العامد ـ يوم الدنيا: كلا سوف تعلمون: عند سكرات الموت و هو بداية العلم، و في الكرّة: يوم قيام القائم (ع)، بعد الموت، ثم كلا سوف تعلمون، في المحشر.

يا ويلاه! فهل إلى تحصيل هذا العلم يوم الدنيا من سبيل، لنموت قبل أن نموت كما أمرنا: «موتوا قبل أن تموتوا»: و لنرى الجحيم قبل أن ندخلها فنتحرّز عن أسبابها؟ فهل من سبيل؟

أجل ـ لو أن حاول الملتهون بالتكاثر أن يعلموا علم اليقين، فتحللوا عن هذه الغشاوات الحائلة بينهم و بين درک الحقيقة: حقيقة الحياة، و حقيقة الموت.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ:

«عِلْمَ الْيَقِينِ»: من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: يقين العلم، العلم الذي

→ يعلمون و ينتهبون، اللهم إلا في سكرات الموت حين لا يفيدهم العلم، و يقربه المروي عن الصادق (ع) قال يعني مرة في الكرة و مرة في يوم القيامة (البرهان ج ۴ ص ۵۰۱ ح ۳)

أقول الكرة هنا هي الرجعة في دولة الامام المهدى (ع) و ليست للكل، و قد يقال بما أن المخاطبين هنا هم الكفرة الذين محضوا الكفر محضا، فهم كلهم حسب الروايات يرجعون، ثم أقول: لا مانع من كون المرة الأولى للعلم شاملة للكرة و لسكرات الموت و ما بعد الموت، و بذلک يجمع بين الروايات، إلا أن العلم بعد الكرة ـ إذا ـ تحصيل للحاصل قبل الكره بعد الموت، إذا فما العلم هنا إلا عند الموت و بعده.

و احتمال ثالث أن الأول عند الموت و الثاني في سؤال القبر و يبعده انهما على سواء، فخط الموت و خطته واحدة، لا تفاضل في الانتباه عنده و بعده.

يطمئن الإنسان و يخرجه عن زلزال العقيدة و شكوكها، و هو أولى مراتب اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين.

و أصل اليقين هو سكون الفهم مع ثبات الحكم و هو خلاف الظن، فلو أن المتكاثرين الملتهين علموا الحقيقة علم اليقين، لكانوا يرون الجحيم في علمهم، رؤية علمية دون ارتياب، فكانوا إذ ذاک يرونهم في الجحيم، و يرون آمالهم و أعمالهم و أموالهم و أصحاب القبور الذين تكاثروا و تفاخروا بهم، كانوا يرونهم كلهم في الجحيم.

هذا لو كانت الرؤية صادقة بما علموا و لم يعملوا، و لو علموا علم اليقين و عملوا، لكانوا يرون أنفسهم في الجنة، و يرون من تفاخروا بهم في الجحيم.

«لَوْ تَعْلَمُونَ»: محال أن تعلموا: استحالة بالاختيار، دون تسيير و إجبار، و إذ لم تعلموا يوم الدنيا فسوف تعلمون بعده.

ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ:

إذ دخلتموها و وجدتم أنفسكم في يقين الجحيم نفسه، فقد كان لكم أن تروها علم اليقين لكي تتحرزوا عنها فلا ترونها عين اليقين.

ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ:

النعيم الذي تجاهلتموه حتى وردتم موردكم في الجحيم، فترك النـعيم جـحيم أينما كان، و لا سيما النعيم الذي يهم الإنسان في شريعة اللّه.

إنه النعيم الذي أخلدكم التحلل و التغافل عنه في التكاثر: من نعيم العقل الذي عقلتموه و حبستموه في أسر الشهوات، و نعيم الحياة التي أخلدتموها فى الحيونات: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ» (۴۶: ۲۰).

و من نعيم النبيين، فنعمة الرسالة هي أهم النعم التي يسأل عنها: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» (۵: ۱۰۹).

فهذه الثلاث هي أصول النعم الروحانية التي يسأل عنها.

«ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ» سؤال تقريع و تبكيت «يَوْمَئِذٍ» يوم إذ رأيتم الجحيم عين اليقين: «عَنِ النَّعِيمِ» لماذا ضيعتموه؟

هذه هي النعم التي يسأل عنها و كما رواتها الأئمة من أهل بيت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، دون النعم المادية، و كما قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ثلاث لا يحاسب بهن العبد:

«ظل خص يستظل به، و كسر يشد بها صلبه، و ثوب يواري به عورته»[١].

سورة العصر ـ مكية ـ و آياتها ثلاث

[سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)

إن اللّه يحلف: «وَ الْعَصْرِ» فهل كما نحلف و عند فقدان الدليل؟ و اللّه خالق المدلول و الدليل؟ كلا فإنما يأتي بصيغة الحلف ليوجهنا إلى مهمة فيما يحلف به، هي برهان ساطع للإثبات: عقليا أو علميا أو اعتباريا، أو أيا من صنوف البراهين المناسبة لإثبات المطلوب، بصورة مجردة عن صيغ البراهين المصطلحة، لكي لا يهابها غير المثقفين، فيأنسوا بها، و كأنها من محاوراتهم السوقية.

---

١. الدر المنثور ج ۶ ص ٣٩١، و هذه الرواية هي الوحيدة في الدر المنثور، و يعارضها عديد من الروايات فيه، تعزي إليه (ص) أن النعيم هو الكسر و الظل و النعل، دون أن تذكر أو تشير إلى النعم الأصيلة للإنسان، التي يرويها أئمة أهل البيت عن الرسول الأقدس (ص) و كما نرى أن القرآن لا يمن على المؤمنين إلا بنعمة الرسالة و أمثالها.

فقد يحلف بالدليل: «يس. وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» حلفا بحكمة القرآن لفظيا و علميا و تقنينيا و.. لتدل هذه الحكمة على نبوة من انزل عليه، لكي يصلح للخطاب: «يس» : أيها السامع للوحي، ثم على رسالته على صراط مستقيم، فيا لها من برهان ما أتقنه!

و قد يحلف بموجبات المدلول أو دوافعه أو روافعه أو... طالما الدليل واضح بمجرد التنبيه، أو أنه بحاجة إلى تأمل و تعمّل، و مجموعة الأقسام في القرآن أربعون قسما، بين ما هو قسم بالأجرام العلوية أو السفلية، و ما هو قسم بالأدلة العقلية أو الحسية، و لينظر الإنسان في واقع البراهين، و ليدرس العلل و المعاليل.

و هنا لإثبات خسر الإنسان يحلف بما يعم الدافع و الرافع، و السورة تبحث عن واقع الخسر للإنسان و دوافعه و روافعه، فيعالج خسره بدعائم أربع.

وَ الْعَصْرِ:

«و العصر» علّه الزمان، أو نوائبه بعصرها، و شياطين الجن و الإنس فإنهم يعصرون الإنسان، ليخسروه ماء الحياة و يدفعوه إلى الخسران، و النفس الأمارة بالسوء فإنها تعصر و تحصر العقل حتى تخسره، و كل دوافع الخسران فإنها عصر و قسر على الإنسان لتغرقه في الخسر.

فدوافع الخسر هذه، المحسوسة منها و المعقولة، تبرهن على واقع الخسر، فإنها تخسر الإنسان في حياته، و معطياتها، و لا بد للمبتلى أن يعرف ابتلاءه، بأصله و نوعه، ليفكر و يحاول في علاجه، فكثير من الخاسرين في الحياة يـحسبون أنـهم يحسنون صنعا، و هم الأخسرون أعمالا، و عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله هنا: «و العصر و نوائب الدهر»، و عن علي عليه السّلام قوله: «و العصر و نوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر و إنه لفيه إلى آخر الدهر»[1].

و علّه حلف برافع الخسران أيضا، كما هو حلف بدافـعه، دلالة عـلى البـلاء و علاجه جملة واحدة:

كعصر النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عصر طلوع الإسلام من أفق الجزيرة إلى الآفاق، و قد يؤيده إقسام اللّه بعمر النبي تارة و ببلده أخرى، فأحرى له أن يقسم بعصره المشعشع المجيد.

و ظهورا تاما و تحقيقا عاما للرسالة المقدسة المحمدية: عصر القائم محمد بن الحسن المهدي عليه السّلام[2]، عصر الكفاع التربوي بكامله، ضد عناصر الخسران و

---

١. الدر المنثور ج ۶ ص ٣٩٢.

٢. نور الثقلين ج ۵ ص ۶۶۶ ح ۵ عن الامام الصادق (ع).

أواصره[١].

قسما بدوافع الخسران و روافعه أن واقع الخسر لا ينكر، و يجب أن يتحذّر.

إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ:

تأكيدات ثلاث تستغرق الإنسان في يمّ متلاطم من الخسر[٢]، تحت ضغوط نفسية و خارجية، لا تسمح و تفسح له المجال أن يمشي على صراط مستقيم.

إن الإنسان ـ أيا كان ـ هو بطبعه، تحت ضغوط دوافع الخسران، إنه لفي خسر: غريق تضطرب به أمواج الحياة، و تضطرب به إلى أعماق بعيدة من خسران الحياة و معطياة الحياة: يخسر نفسه و حياته، يخسر عقله و ماله و ولده، يخسر كل وسائل التقدم في حياة الإنسان، متذرعا بها إلى حياة الحيوان، و إلى أسفل سافلين.. و إذا كان الإنسان في واقع الخسر، فهل يعاقب إذا على خسره، أو هل من مفر و منجى؟ و من هم الناجون؟ الجواب:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ:

«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا»: فمن خسر الحياة، الاضطراب في الحياة، و الإخلاد إلى

---

١. و اعتبارا بلام الجنس في «العصر» و عدم ظهور عهد يخصه بعهد خاص من هذه العصور فقاعدة البلاغة تحتم تعميمه لكل عصر.

٢. تأكيدات مستفادة من «إن» و «ل» في لفي و «في» الدالة على أنه غريق الخسر.

الأرض، و أعمق ما يؤمن الإنسان و يطمئنه، هو أن يؤمن باللّه، يأمن اليه و يؤمن نفسه بردعها عن غوغائيات الحياة، بالإيمان بخالق الحياة.

إن الإيمان باللّه هو اتصال الكائن العاقل، الفاني الصغير الصغير، المحدود المحدود، بمبدإ الكون، المطلق الأزلي اللامحدود، و إنه انطلاقة قيمة من حدود الذات الصغيرة اللاشيء، إلى رحابة الكون الكبير، الكائن الأزلي القدير، الذي خلق كل شيء و قدّره تقديرا.

إنه يرفع الإنسان عن عبودية مثله و ما هو دونه، عن أرباب متفرقين، إلى عبادة الواحد القهار، فالأرباب المتشاكسون تخرج العابد عن الاطمئنان إلى تناقض في الحياة و تخلّف و اختلاف، و الإله الواحد يطمئن الإنسان «أَلا بِذِكْرِ اللّٰـهِ تَـطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

و إنه يقيّم الإنسان و يقوّمه على منهج ذاتي يرضاه اللّه تعالى، فلا يكون الخير عنده فلتة عارضة مندفعا عما يهدفه لنفسه، و إنما عن دافع واحد أصيل هو مرضاة اللّه تعالى.

و أخيرا ـ لا آخرا ـ الإيمان ينبوع غزير للأفكار و الأعمال الصالحة، فهي نتاج الإيمان الصحيح الفائض، و الإيمان الفاضي عن العمل الصالح ليس إلا صورة

الإيمان، و كلما تم الإيمان واقعا كثرت الصالحات الفائضة عنه، و كلما قل قلت.

«وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ».. نرى العمل الصالح قرين الإيمان في الآيات التي تتعرض لأحدهما، و يعني من الصالح ما يصلح و يصالح مع الإيمان، «وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» لا «الخيرات» إذ الخير يختلف حسب الأنظار و الأفكار، و لكن صلاح العمل مع الإيمان أمر واقعي لا يختلف، و صالح العمل هو الذي يعمل بدافع الإيمان، فقد يكون العمل خيرا و ليس صالحا، كمن ينفق لمن يرجو خيره و جزاءه، فإنه خير ليس بدافع الإيمان، فليس صالحا، و لكن الصالح كله خير.

«وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ»: كل الصالحات، لمكان الجنس أو الاستغراق المستفاد من «ال» لا بعضها دون بعض، فإنهم خارجون عن الخسر قدر ما عملوا، و داخلون فيه قدر ما تركوا: «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٩: ١٠٢).

«و عملوا» لا «أملوا»: صالحات لهم دون أن يعملوا، أو أملوا صالحات غيرهم أن تنفعهم: و أن ليس للإنسان إلا ما سعى!.

أجل: «وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» الأعمال الصادرة بدافع الإيمان باللّه و بأمر اللّه، لا المتحللة عن الدافع الإلهي، أو المتخلفة عن أمر اللّه، فإنها و إن كانت من الخيرات لم

تكن من الصالحات.

ذلک، و هل يكفي الإيمان و العمل الصالح الفردي، كفاحا ضد الخسران الجماعي، و التخلف الجماعي، الذي يقسر الإنسان إلى الخسر، شاء أم لم يشأ، كلا و ألف كلا.

إن الجماعة المسلمة، بعد تحكيم العلاقات الفردية العقيدية و العملية، إنها بحاجة إلى تطبيق واجبات جماعية، يحافظ فيها على كرامة المجتمع، و يدافع بها عن ظلامة الجو و التيار الفاسد، الطيار بكل عار و بوار.

إنها بحاجة ضرورية حيوية إلى التواصي بالحق و التواصي بالصبر:

وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ:

التواصي، لا الوصية، فليست الوصية بالحق و الصبر خاصة بجماعة دون آخرين، إنها على كل المسلمين متقابلة، كل يوصي أخاه بالحق و الصبر، و لكي يصبح المجتمع الإسلامي مجتمع التواصي بكل حق صالح، و بكل صبر صالح، كل حسب إمكانيته، و على حد

قول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ألا كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته».

«وَ تَواصَوْا» كل يوصي غيره كما يوصيه غيره، بالحق و الصبر، و كل يقبل الوصية من غيره كما يرجو القبول من غيره، و لكي يخلقوا جوا طاهرا نزيها عن كافة التخلفات و الرذالات.

و التواصي ـ أيا كان ـ بصورة جماعية مرهبة ناصحة ناصعة، تفرض الحق، كلما كان تاركوا الحق و الصبر أقوى و أطغى، فليكن الموصّون بها أكثر كفاحا و أقوى.

و التواصي يشمل تعليم الشريعة و تعلّمها، و الأمر بتطبيقها: تعليم الجاهل و حمل العارف.

«بالحق» : أشمل تعبير يعم كل خير صالح دون استثناء، و من بالغ اهتمام القرآن بدراسة الحق و تطبيقه، نجده يذكره «٢٥٣» مرة في مختلف المجالات و المناسبات، و الحق هو الثابت، فهو: اللّه تعالى و توحيده و عبادته، و هو: أنبياؤه و رسله، و هو: كتبه و مواعيده، و هو: أحكامه و شرائعه، و هو: القيامة الكبرى، و هو: كلما يتوجب الإعتقاد به و درسه و تطبيقه و نشره، أو ما هو مندوب له.

هذا ـ و كما القرآن يشهد: «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ»، و أفعاله حق: «.. ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ»، و القيامة: «و يستنبؤوك أحق هو قل أي و ربي

إنه لحق».

و التواصي بالحق يعم التواصي بدراسة الحق و اعتناقه و تطبيقه و تأسيس حكم الحق و الدولة الحقة الإلهية لتضمين كلما يحق للحق.

إن التواصي بالحق ضرورة، حيث النهوض بالحق عسير، و معارضوه كثير، و المعوقات عنه كثيرة، هوى النفس، منطق المصلحة، تصورات البيئة، طغيان الطغاة.

و جوّ التواصي يطمئن الموصين أن معهم غيرهم مهما كثر الطغاة، فهم يتضاعفون قوة و يأملون النجاح في المعركة.

«وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ».. إن الصبر هو زاد الطريق في دعوة الحق، فإنه طريق شاق طويل، حافل بالعقبات و الأشواك، مفروش بالدماء و الأشلاء، بالإيذاء و الابتلاء.

إن سلوك هذه السبيل يتطلب الصبر و التصابر، الصبر على أمور كثيرة:

على شهوات النفس و رغائبها، و أطماعها و مطامحها، و ضعفها و نقصها، و عجلتها و ملالها من قريب.

و الصبر على شهوات الناس و نقصهم و ضعفهم و جهلهم و سوء تصورهم و تصرفهم، و انحراف طبائعهم و أثرتهم و غرورهم و التوائهم و استعجالهم للثمار.

و الصبر على تنفّج الباطل، و وقاحة الطغيان، و انتفاش الشر، و غلبة الشهوة، و

تصعير الغرور و الخيلاء.

و الصبر على قلة الناصر و ضعف المعين، و طول الطريق و غور المعين، و وساوس الشياطين في ساعات الكرب و الضيق.

و الصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، و ما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة: من الألم و الغيظ، و الحنق و الضيق، و ضعف الثقة ـ أحيانا ـ في الخير، و قلة الرجاء ـ أحيانا ـ في الفطرة البشرية، و الملل و السأم و اليأس و القنوط.

و الصبر بعد ذلک كله على ضبط النفس في ساعة القدرة و الإنتصار و الغلبة، و استقبال الرخاء في تواضع و شكر.. و البقاء في السراء و الضراء، على صلة أصيلة باللّه، و استسلام لقدر اللّه، ورد الأمر كله إلى اللّه، في طمأنينة و ثقة و خشوع.

لهذه الضرورة نجد القرآن يذكر الصبر «١١٨» مرة، بمختلف ضروبه.

و هنا لک سوف نرى خروجا تاما عن الخسر كله، و انتصارا عاما على معارضي الحق كلهم: لو دعمنا صرح الاجتماع الإسلامي السامي، على قواعده الأربع:

الإيمان و العمل الصالح و التواصي بالحق و التواصي بالصبر.

فعلى قدر الدعم الموفر لهذه القواعد سوف يكون تحلل الإنسان عن الخسران، و على قدر التحلل عن دعمها، سوف يكون الخسران «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما

سَعى».

هذا ـ و من بالغ أهمية هذه السورة نرى بالغ اهتمام أصحاب الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في تعاهدهم و تواصيهم بها، أن: «كان الرجلان من أصحابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة «الْعَصْرِ» ثم يسلم أحدهما على الآخر»[1].

سورة الهمزة ـ مكية ـ و آياتها تسع

[سورة الهمزة (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤)

وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)

---

١. الدر المنثور ج ۶ ص ٣٩٢، أخرجه الطبراني في الأوسط و البيهقي في شعب الايمان عن أبي مليكة الداري و كانت له صحبة قال: كان..

«ويل» : إنها ويلات عقائدية و أخلاقية و أعمالية، ويلات فردية و جماعية، تنتجها التخلفات المختلفة عن شريعة اللّه: شريعة الحياة، إنها حسب القرآن (٢٧) ويلا، نجد أكثرها للمكذبين بيوم الدين، فإنه الذي يدفع لأسباب الويل.

«ويل» لفظة تقال في مواقف التقبيح و التأوه و الاضطراب و الغضب، لفظة الدم و السّخط، و هي كلمة كل مكروب يتولول فيدعو بالويل، و أصله: وي لفلان، و كما أن «ويس» كلمة استصغار، و «ويح» ترحم. و من قال: «ويل» واد في جهنم، لا يقصد أنه كذلک لغويا، و إنما هو المصير الأخير لمن هو في حقه و إن كانت كل حياته ويلات.

فهؤلاء الذين يقول عنهم القرآن: «ويل» إنهم ويل في ذواتهم و صفاتهم و حركاتهم، ويل في كافة مجالات حياتهم، ويل لأنفسهم و لمجتمعهم، و وبال دائب على الاجتماع الذي يعيشونه..

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ:

صيغتا مبالغة تدلان على كثرة و مواصلة مدلولهما، و هما يشتركان في معنى الكسر و الهزء و التعييب، إلا أن الهمز في الغيبة، و اللمز في الحضور.

«لِكُلِّ هُمَزَةٍ»: غيّاب بما يسيء الناس بما هو فيهم أم ليس فيهم، و سواء أكان

مشاء بنميم أم ساكتا، و كلّ ذلک في الغياب: «وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِـنْ هَـمَزاتِ الشَّياطِينِ. وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ» (۲۳: ۱۰۱): إذ قوبل الهمز بالحضور، فهو مقابل الحضور: «وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ» (۶۸: ۱۱) إذا المشي بالنميم يناسب الغيبة لا الحضور.

«لمزة»: عيّاب ساخر في الوجه: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُکَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ» (۹: ۵۸): «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (۹: ۸۱): فيسخرون تفسير ل: يلمزون.. فم العـيابون فـي الوجه، الساخرون المنتقصون.

و على حد قول الرسول و الأئمة من آل الرسول عليهم أفضل الصلاة و السلام:

إنه ليس لسان الإنسان، لسان الذي يسعى في هدر الأعراض و لدغ الأرواح و الأشباح، و يكرّس حياته في تعييب الناس، كأن صاحبه البريء فقط، إنـه لسـان العقرب[1] و الأفعى ـ و شر من الأفعى، إذ إن الأفعى تقتل الإنسان في الجسد، و لكن

---

۱. نور الثقلين: ج ۵ ص ۶۶۷ ح ۳، في كتاب الخصال عن أبي عبد اللّه عن أبـيه عـن جـده عـليهم السّلام قـال: المسوخ من بني آدم ثلاثة عشر ـ إلى أن قال ـ و أما العقرب فكان رجلا همازا لمازا فمسخه اللّه عـقربا، و فـيه بالإسناد عن رسول اللّه (ص): و أما العقرب فكان رجلا لداغا لا يسلم من لسانه.

أفعى الهمزة و اللمزة تقتل الأرواح و تخلق جو اللااطمئنان، جوا قذرا مزريا كأنه جوّ الجحيم، فهو الويل يوم الدنيا و هو الويل يوم الدين.

إنها صورة لئيمة من الأم صور الحياة، و القرآن يكره هذه الصورة الهابطة بحكم ترفعه الأخلاقي، و ينهى عن الهمز و اللمز في مواضع شتى، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع و التقبيح و التهديد، علّه يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية خطرة من بعض المشركين و جاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وجاه المؤمنين، فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد، و التهديد الرعيب.. إلا أنه يعمم المورد و سواه:

«لكل» : ويل للكلّ ـ طول التاريخ و عرضه ـ كلّ حسب همزه و لمزه.

.. فويلهم في دنياهم، و ويلهم في عقباهم، إذ يعلقون في النار، الويل، و على حدّ تعبير الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[1].

و قد ذكر اللّه الهمازين أنهم الآكلون لحوم إخوانهم: «وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ» (٤٩: ١٢)[2].

---

١. الدر المنثور عن النبي (ص) في حديث المعراج.. ثم مررت على نساء و رجال معلقين بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الهمازون و الهمازات، ذلك بأن اللّه قال: ويل لكل همزة لمزة (ج ٦ ص ٣٩٢).

٢. و كما عن الرسول (ص): رأيت ليلة الاسراء قوما يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه و يقال: كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم، فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء، فقال: الهمازون من أمتك اللمازون (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٧ ح ٥) عن عوالي الآلي.

و ذكر اللمازين بقوله: «لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ» (٤٩: ١١).

و ندد بالهمازين اللمازين أشد تنديد، لأنهما يخربان الديار و لا يأتيان إلا بكل عار و دمار.

الَّذِي جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ:

ذلک كيانه في روحه الخبيثة: أنه همزة لمزة، و هذا كيانه في سواها:

هدفه تجميع المال و عدّه، كأنه الذي يجمع شمله و يعدّه في عداد بني الإنسان، و يخلده فيما يهواه! فهو يلمز المؤمنين و يهمزهم إذ لم يجمعوا مالا، و يعيبهم و ينقصهم كأنما المال هو الإنسان، أو أنه حياة الإنسان كإنسان، أو أنه يحييه خالدا إلى الأرض ما دامت: «.. وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (٧: ١٧٦) ف «يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً» (٢٥: ٦٩): مهانا هناک كما أهان المؤمنين هنا، جزاء وفاقا.

«جَمَعَ مالًا»[1]: منكرا دون تعريف: «مالا» لا «المال» فمن المال ما هو معروف و

---

١. نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٨ ج ٧ في كتاب الخصال عن محمد بن إسماعيل بن بزيع قال: سمعت الرضا (ع) يقول: لا يجتمع المال إلا بخمس خصال: بخل شديد، و أمل طويل، و حرص غالب، و قطيعة رحم، ←

منه ما هو غير معروف، فالذي يحصله ليصرف في حاجيات الإنسان، تحصيلا و صرفا مشروعين، فهو «المال» معروف عند إنسان المعرفة و الحقيقة، و لأنه ذريعة الآخرة.

و أما الذي يشذ عن شريعة اللّه تحصيلا و صرفا، فهو «مال» منكّر و منكر لا يعتنى به و لا يعبأ، و ليست مذمة المال ذاتية، إنما هي إذا كان المال وبالا يخلّف ويلات، في دنيا الحياة و عقباها.

«و عدده»: ثم وبال فوق وبال، على من يحسب الوسيلة غاية و الذريعة نهاية، فالمال ليس إلا وسيلة من وسائل الحياة، فإذا ادّخر و ضخّم و عدّد، أصبح وبالا فوق الوبال، إذا حصّل من غير الحلال، ثم لم و يصرف في سبيل الحلال، ثم جمّد على عيون الفقراء العزّل الذين امتصت دماؤهم في سبيل تحصيل هذه الأموال، أو أنفق في غير حلّه.

يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ:

← و إيثار الدنيا على الآخرة.

فيه عن كتاب التوحيد عن الصادق (ع) إنه قال: إن كان الحسنات حقا فالجمع لماذا؟

و إن كان الخلف من اللّه عز و جل حقا فالبخل لماذا؟.

ماله أخلده، أو، ماله[1]: يحسب أن كيانه الإنساني الشاذ الشارد عن صراط الحياة، يحسب أن ذلك أخلده، رغم أن لا خلود في دنيا الحياة، و لا ينكره حتى الحيوان، إلا أن السبيل التي اتخذها في الحياة، إنها هي سبيل من يزعم الخلود، فهو يتذرع بماله و ماله إلى هذا الخلود المزعوم، و لو كان في الدنيا خلود، لم تكن له حيلة تزيد عما يحتال، فبحساب ما يعمل نعتبره: يحسب أن ماله أخلده! و لكنه:

«كلا» : ليس كما يزعمه في أقوال و أفعال و أحوال، في مال و في منال، ليست هذه بالتي تخلده في دنيا الحياة، و إنما تخلده في عقباها: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»:

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ:

تهديد شديد يصوّر صورة مشهد من مشاهد القيامة، صورة طبق الأصل، فكما كان هذا الهمزة اللمزة، الذي كان يدأب على الهزء بالناس، و على اغتيابهم و تعييبهم، في أنفسهم و أعراضهم، و كان يدأب في تحطيم الكيان الإنساني معنويا و ماديا، و كان ينبذ أناسا مؤمنين كأنهم ليسوا أناسا... فسوف يكون من المنبوذين المحطمين المرذولين المصغرين: في الحطمة: النار الكثيرة الشديدة الحطم، لا تبقي

---

١. «ماله» «ما» هنا إما جزء الكلمة المفردة «مال» أو موصول، صلته «له» . و الثاني أعم و هو أتم، إذ يشمل المال و الحال و كل ما للإنسان من طاقات الحياة، ذكر منها المال المعدد لأنه أهم ما يهمه الإنسان الحيوان.

و لا تذر.

و إنها ليست نارا تحرق و تحطم الجسد فحسب، أو تبتدئ بالجسد، و إنما تطّلع على الأفئدة:

وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ. نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ:

إنها ليست نارا تعرف، إنما نار خاصة متميزة متغيظة، نار اللّه التي أوقدها بقدرته، فقد تمتاز عن نار غير اللّه، أوقدها اللّه إظهارا و تجسيدا لما أوقده الهمزة اللمزة، و إنها تطّلع على الأفئدة التي اطّلعت منها نيران الهمز و اللمز، تحرق بما أحرقت به.

إنها نار تحرق روح الإنسان و جسمه، قلب الإنسان و قالبه، كما أحرق صاحبها قلوب الناس و قوالبهم، و ضيّع عليهم جو الطمأنينة: المعيشية الاقتصادية، و المعنوية الآمنة.

هنا ـ و قبل أن تقوم القيامة، يجبر اللّه كسر المؤمنين المنبوذين، بما يعد النابذين غير المؤمنين، فيطمئنهم في دنيا الحياة، قبل الاطمئنان الأبدي في عقباها، بما يبشرهم و ينذر أعداءهم الألداء.

ثم يختم ذكرى هذا المشهد الرهيب بميّزة أخرى للحطمة:

إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ:

مؤصدة: مطبقة لا مخرج لهم منها و لا منجى، سجن دائب كما كانوا سجونا للمؤمنين يوم الدنيا.

«فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ»: في أسطوانات طويلة جدا، و علّها أيضا من جنس النار، أو من الأشعة غير المرئية التي تستهزئ بالمحطّين: «كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها».. و قد يشهد بذلک العلم:

أشعة رونتجن

لقد ثارت مناقشة في الصحف الصادرة عام ١٩٢٥ حول هذه الأشعة، و ذلک أن أحد الأطباء قال: إن أشعة «رونتجن» ـ التي هي ذات عمل جبار في النوع الإنساني ـ ترى في إشراقها كالأعمدة، فقال بعضهم: لعل الآية:

«فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ» تشير إلى هذه الأشعة، و خالفهم آخرون، و أخيرا انتصر الأولون.

إن أشعة رونتجن هي كالعمد، يرى بها الأطباء ما خفي في الجسم، فيعرفون بواطنه، و علها ـ هي أو مثلها ـ سوف تكون عمدا ممددة، و إن كانت الحطمة غير معروفة عندنا: «وَ ما أَدْراکَ مَا الْحُطَمَةُ» و لم يقل: «و ما أدراک ما العمد الممددة».

علّ هذه الأشعة هي العمد الممددة، تمدد في أعماق الأجسام إلى الأفئدة فتزجها

في سجن الحطمة، فلا تسمح لها بالخروج.

و مها يكن من شيء فالعمد هي من النار، سواء من نار الحطمة أم سواها، فسواها من إنباءات الغيب المكشوفة بالعلم، و الحطمة مجهولة حتى الآن، و عل العلم يكشف عن مثالها في الدنيا، «فكل ما في الدنيا مثال لما في الآخرة».

إذا فالهمزة اللمزة سوف يكون مجذور المكعب الناري، هو نار: «وَقُودُهَا النَّاسُ..» و في نار: «نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ» و في سجن الأعمدة النورية النارية، و علّها أشعة «رونتجن» أو مثلها.

سورة الفيل ـ مكية ـ و آياتها خمس

[سورة الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (١) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

إن قصة الفيل بلغت من الشهرة و التواتر التاريخي إلى حد الضرورة غير المنكورة، و حتى عند المشركين الجاهليين الذين لا يدينون بالدين الإلهي، و قد أرّخوا بها و ذكرها الجاهليون في أشعارهم، و أرّخ بها المسلمون ميلاد الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الروايات الحاكية للقصة مهما كانت مختلفة التفاصيل، و لكنها ناحية منحى قصة واحدة في لبّها و هي كيد أصحاب الفيل لهدم الكعبة المكرمة، و أنهم فور و صولهم إلى مشارف مكة المكرمة و قبل أن يقدموها و يقدموا على ما نووا، استهدفوا بقنابل من سجيل من قاذفات طير أبابيل، فجعلهم كعصف مأكول، و إنها حادثة عظيمة الشهرة ـ بالغة الأهمية ـ في حياة الجزيرة. و على حياة الكرة الأرضية، عريقة الدلالة على مدى رعاية اللّه لأول بيت وضعه للناس ببكة مباركا و هدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم.

هذه البقعة المباركة التي اصطفاها اللّه تعالى لتكون الملتقى للإشراق الأخير من وحي السماء، و النقطة الحاسمة التي تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة اللادينية في العالمين، و إقرار الهدى و النور على طول الزمن و عرضه.

«ألم تر»: ألم تعلم علم المعرفة، لحدّ كأنه علم العيان، استفهام إنكاري إقراري،

ينكر أن يجهل هذه القصة أيّ من سكان الجزيرة و سواهم، لأنها كانت كالنار على المنار، و كالشمس في رايعة النهار، فلم يكن أحد من الناس يجهلها، فأولى بالرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ألا يجهلها..

و يقرّ من وراء هذا الإنكار من يجب أن يتذكره، من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد.. يقرّ خارقة إلهية تدل دلالة باهرة ظاهرة «أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ» (١٢: ٥٢) «وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ» (٨: ١٨) «وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» (٦١: ٨)[١].

أ فبالإمكان أن نؤوّل قاذفات الطير الأبابيل: أنها كانت من صدف التاريخ، أو من اصطناعات إنسان التاريخ، و كما يتقوله الجاهلون: إن الكون أجمع نتيجة الصدف؟..

لا ننكر أن اللّه تعالى لم يكتب على نفسه مواصلة هذه الخارقات، المنفصلة عن

---

١. نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٩ ح ٨ عن روضة الواعظين، قال علي بن الحسين (ع): كان أبو طالب يضرب عن رسول اللّه (ص) بسيفه ـ إلى أن قال ـ: فقال أبو طالب يا بن أخ! إلى الناس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصة؟ قال: لا بل إلى الناس كافة، الأبيض و الأسود و العربي و العجمي، و الذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض و الأسود و من على رؤوس الجبال و من في لجج البحار، و لأدعون ألسنة فارس و الروم، فحيرت قريش و استكبرت و قالت:

أما تسمع إلى ابن أخيك و ما يقول، و اللّه لو سمعت بهذا فارس و الروم لاختطفتنا من أرضنا و لقلعت الكعبة حجرا حجرا، فأنزل اللّه تبارك و تعالى: «وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ» و أنزل في قولهم: لقلعت الكعبة حجرا حجرا: «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ».

إثبات النبوات، إلا أن أمثال هذه من الشقشقات قد تظهر لكي لا تهدر آيات اللّه البينات سدى، و لتكون حجة اللّه هي البالغة و كلمة اللّه هي العليا، و كلمة الذين كفروا هي السفلى.

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ:

«ربک» الذي اختصک بكرامة منقطعة النظير، بما أنک «أول النبيين ميثاقا و آخرهم مبعثا» كذلک يختص أول بيت وضع للناس، برحمته و وقايته الخاصة، و إنک أشرف من البيت و ممن بات فيه متعبدا لربک أو يبيت، فإذ يحفظ ربک هذا البيت عن أصحاب الفيل، فبأن يحفظک عن كل كيد و تضليل أولى و أحرى!.

«بِأَصْحابِ الْفِيلِ» و ما أصحاب الفيل؟.. لا يذكر هنا أسماءهم و لا اسم قائدهم في هذه المعركة الكافرة، مهانة له و لهم: إنهم لم تكن لهم مكانة تتطلب ذكرهم بأسمائهم، إلا أنهم أصحاب الفيل، معتمدين في عملتهم الوحشية اللاإنسانية على قوة الفيل.

لقد كان للفيل على أصحابه شرف عظيم من ناحيتين:

١ ـ القوة الخارقة، و قد كانت للحرب قديما و يحمل على ظهره من ثلاثة آلاف رطل إلى أربعة آلاف، و على خرطومه وحده ألف رطل، و يجر ما لا يكاد يقله ستة

أفراس، و يسير في اليوم مائة ميل.

٢ ـ إنه حيوان سليم الطبع مؤالف مؤانس فليس من طبعه الأذى و إنما يستعمل قوته في الدفاع عن نفسه.

فهذا الفيل لم يستعمل قوته في خراب البيت رغم أصحابه، إنه برك دون مكة لا يدخلها، رغم ما جهد أصحابه في حمله على اقتحامها فبدل أن يفلحوا أفلجوا.. فلما ذا الكيد في هدم البيت و ممن؟

إن ملك الحبشة (أبرهة ابن الصباح الأشرم)[1] المسيحي ـ جد النجاشي الذي كان على عهد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ آمن المسلمين المهاجرين إلى بلاده، و آمن بالرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ـ أبرهة هذا يبني كعبة باليمن لها قباب من ذهب و زخرفات مغرية ـ كعادة الكنسيين في كنائسهم ـ بناها حسدا على الكعبة المشرفة و على الطائفين حولها، و لكي يزورها أهالي بلاده كما تزار الكعبة، و لكي يجلب أنظار زوار البيت الحرام أيضا إلى بيته بدعايات و مغريات.. إلا أنه خاب سعيه إذ رأى أن العرب ـ يمنيين و سواهم ـ ليسوا بتاركي الكعبة المقدسة إلى الكعبة المزورة، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم و

---

١. مجمع البيان: أجمعت الرواة على أن الملك الذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم.

إسماعيل صاحبي هذا البيت العتيق، و كان موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب.

عندئذ عزم «أبرهة» على هدم الكعبة المشرفة ليصرف الناس عنها ـ واقعيا ـ إلى كعبته المختلقة، و قاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة، و في مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم، فتسامع العرب به و بما قصد، و عزّ عليهم أن تهدم كعبتهم ـ بيت عزهم ـ فوقف في طريقه من وقف، يحاربوه ليصدفوه عن قصده، فما انصدف، إنه حاربهم بمن فيهم الأذواء و الأشراف اليمنيون و النفيل الخثعمي في قبيلتين، فهزمهم و أسرهم و استمر في طريقه، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف قائلين له: إن البيت الذي تقصده ليس عندنا، إنما هو في مكة، ذلک، و ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للّات، و بعثوا معه من يدله على الكعبة المشرفة.

.. و إلى أن وصل إلى مشارف مكة المكرمة، بركت الفيلة دون مكة لا تدخلها، رغم حملهم لها على اقتحامها.. ثم كان ما كان من قذائف الطير الأبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول[1].

ثم نقف هنا وقفة الحائرين من موقف جد النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و

---

۱. هذه نماذج مما أجمعت عليه روايات القصة، رفضا لما اختلقت فيها.

سلّم عبد المطلب، إذ يسرق إبله أصحاب الفيل فيقصد صاحب الحبشة يطلب إبله، دون التماس منه أن ينصرف من هدم البيت، و يجيب عن سؤاله: هذا رئيس قوم و زعيمهم، جئت إلى بيته الذي يعبده لأهدمه و هو يسألني اطلاق إبله؟ أما لو سألني الإمساک عن هدمه لفعلت! يجيبه: «أنا رب الإبل و لهذا البيت رب يمنعه»[1]

«لست برب البيت الذي قصدت لهدمه و أنا رب سرحي الذي أخذه أصحابک، فجئت أسألک فيما أنا ربه و للبيت رب هو أمنع له من الخلق كلهم و أولى به منهم»[2].

فيا لهذه المنعة الطيبة من حياد على ثبات و استقرار و طمأنينة من حفاظ رب البيت على بيته العتيق.

و كما نراه

«يجمع أهل مكة يدعو فأرسل الله طيرا أبابيل»[3].

فيا لجدّ الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من موقف مشرّف حيال هذا التصميم الكافر من أصحاب الفيل، و يا لمولد الرسول الألمعي صلّى اللّه عليه و

---

١. نور الثقلين ج ۵ ص ۶۷۰ ح ۹ في أصول الكافي.

٢. نور الثقلين ۵: ۶۷۲ عن أمالي الطوسي عن الصادق (ع) عن أبيه عن جده (ع) في حديث طويل.

٣. قرب الاسناد بإسناده إلى موسى بن جعفر (ع).

آله و سلّم من كرامة يحافظ به اللّه تعالى على كرامة البيت، إذ ولد في عام الفيل[1].

أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ:

يعبر عن عزمهم القاطع بالكيد، إذ كان القصد من هدم الكعبة و بناء كعبة مزورة، صرف الناس عن بيت اللّه إلى بيت اللهو، و هذان الكيدان أصبحا في تضليل، إذ لم يصلوا إلى بغيتهم في كيدهم: لا إيجابا: في بناء كعبة حبشية، إذ لم يستجب لهم العرب ـ و لا سلبيا: في هدم الكعبة المكرمة، إذ ضلت أجسادهم الجهنمية تحت التراب بعد إذ قذفت بقاذفات السماء، بدل أن تظل مع أرواحهم ناجحة في كيدهم، رابحة في ميدهم، فأصبحوا من الأخسرين أعمالا، فضلّت أجسادهم في هذه الحرب الكافرة، كما ضلت أرواحهم.

وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ:

هذا آخر المطاف و أضله في تضليلهم، فقد سخر اللّه منهم و أهانهم في تضليلهم هذا مرتين: إذ أرسل عليهم جنودا صغارا: «طَيْراً أَبابِيلَ» مع أسلحة صغار، صغار

---

١. كما أجمع عليه الرواة كما

في الدر المنثور ٦: ٣٩٦: أخرج البيهقي عن محمد بن جبير ابن مطعم قال: ولد رسول اللّه (ص) عام الفيل، و كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة، و بني البيت على رأس خمس و عشرين سنة من الفيل، و تنبأ رسول اللّه (ص) على رأس أربعين من الفيل.

على صغار، تسحق الكبار الكبار: إذ تدمّر أصحاب الفيل، و تجعل كيدهم في تضليل، أجل أصحاب الفيل لا الفيل، إذ لم يقدم الفيل على ما قدموا، فقد نجا الفيل و ضلّوا.

و مرة ثانية إهلاكهم عن آخرهم، إذ ضل كيدهم معهم، و أصبحت قصة الفيل عبرة لأولي الألباب، رغم ما نواه أصحابه: أن تكون ثورة على الحق و تشجيعا للثائرين خلاف الحق.

«أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ».. إنها كانت رسل اللّه لأمر مقصود، لا رسل الصدفة لأمر غير مقصود، أرسلهم اللّه طيرا أبابيل: و على حد تفسير أبي عبيدة:

«جماعة في تفرقه» و لعلها جماعة من حيث الجمع، و تفرقة من حيث الأجناس[1].

نكّرت الطير الأبابيل كما نكّر أصحاب الفيل، و أين تنكير من تنكير، فلأصحاب الفيل منه النكير إهانة، و للطير الأبابيل تنكير التعظيم كرامة، و ليدل على أن لا اختصاص بهذه الطير جنودا إلهية، فالكائنات كلها جنود اللّه.

تقتل واحدة من هذه الطير ثلاثة من أصحاب الفيل، و يا لهم و لكيدهم من

---

١. هل للأبابيل واحد؟ قولان: أحدهما أنه «أبيل» قاله الراغب في غريب القرآن، ثانيهما أن لا واحد له كما قاله الأخفش و الفراء، و قيل إنه: إبالة، أبول، إيبالة، عن أبي جعفر الرواسي و الكسائي و الفراء.

تضليل:

تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ:

هؤلاء الرماة القاذفات، فما هو المقذوف به؟ إنها حجارة من سجيل.

و «سجيل» معرّب عن «سنک کل» الفارسية، أي حجارة الطين، فمن الأحجار ما هو حجر خالص، و من الطين ما هو طين خالص، و من الحجارة ما هي حجارة الطين، و هي القنابل التي رمتها الطير الأبابيل.

نجد القرآن يذكر ـ فيما يذكر ـ من ألوان عذاب المجرمين دنيويا: «حِجارَةً مِنْ طِينٍ»: «قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُسْرِفِينَ» (۵۱: ۳۴) «فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (۱۱: ۸۳).

فهذه حجارة ماهيتها أنها حجر الطين، حجر خلق من تحجّر الطين، و هي منضودة: بعضها على بعض ـ و مسومة: معلمة.. للمجرمين.

فهنا و هناک قاذفات، مقاذيف، قد يكون المقذاف الكوكب الذي يرمى منه إلى شياطين الجن إذ يسترقون السمع، أو شياطين الإنس إذ يسعون فسادا في الأرض.

فالأولى تسمى شهبا، و الثانية أحجارا سماوية، و من الأولى: «وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ. وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. إِلّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ» (١٥: ١٨)، و من الثانية: «اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ (٨: ٣٢)[١].

و هنا القاذفات الحيوانية تأخذ قواذفها من جو السماء، من السجيل المنبث المتساقط من الكواكب، ثم تقذف بأمر اللّه، كما قذفت أصحاب الفيل، و كيف قذفت؟.

كل طائر كان في منقاره حجر و في رجليه حجران، و إذا رمت بذلك مضت و طلعت اخرى، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقه، و لا عظم إلا أوهاه و ثقبه، و ثاب أبرهة راجعا و قد أصابته بعض الحجارة، فجعل كلما قدم أرضا انقطع له فيها إرب، حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلا باده، فلما قدمها تصدع صدره و انشق بطنه فهلك و لم يصب من الأشعرين و خثعم أحد، قذائف لا تهدر، و لا تخطئ العدوّ إلى المؤمن، و لأنها كانت بأمر اللّه و بعين اللّه، دون القذائف البشرية الهادرة أحيانا و المخطئة اخرى.

---

١. الأحجار الساقطة من الكواكب لو وصلت إلى الأرض تسمى أحجارا، و لو احترقت في السماء تسمى شهبا و نيازك نارية، و سوف نفصل البحث عنهما في محالهما.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ:

كأوراق الزرع الذي أكله الأكّال، كالدود يأكله و يفسده، و الحيوان يأكله و يمزقه.

فهذه صراحة في الآيات لا مرية فيها، أن ذلک الدمار لأصحاب الفيل كان من قاذفات الطير الأبابيل بحجارة من سجيل، فلا يصغى إلى تأويلات المتضايقين من خوارق العادات، الذين يكرسون كافة طاقاتهم لتأويل أمثال هذه الآيات إلى غير تأويلها.

هكذا فليكن الحفاظ الرباني على بيته العتيق، أنه يمنع أهل الكتاب الحبش أن يحطموا بيته الحرام، حتى حين إذ يدنسه الشرک، و المشركون هم سدنته، و ليبق هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين، مصونا من كيد الكائدين، كما كان عتيقا منذ خلق و عمر، لم تسيطر عليها أيدي الأرض، و ليحافظ على حريتها و انعتاقها حتى تثبت فيها العقيدة الجديدة حرة مطلقة.

و إننا نستبشر بهذا الحادث العظيم، ذي الدلالة البعيدة العميقة، نستبشر إزاء ما نعيشه من أطماع توسعية ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة، من الصليبية، و الصهيونية العالميتين.

سورة قريش ـ مكية ـ و آياتها أربع

[سورة قريش (۱۰۶): الآيات ۱ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (۱) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ (۲) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (۳) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (۴)

علها ذات صلة بسورة الفيل بتعلق «لِإِيلافِ» بها: ألم تر كيف فعل ربك...

لإيلاف قريش، فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، ثم هذه الصلة لا تمنع صلة المجرور «لِإِيلافِ» بما في السورة نفسها: لإيلاف قريش فليعبدوا.

و أخيرا يصح القول بجمع الصلات الثلاث لصحتها و تماميتها أجمع: فإيلاف قريش كما هو أهداف الحفاظ على البيت، بيت عزهم و سيادتهم، كذلک هو سبب يدفعهم أن يعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، إذ جذب و اجتلب إليهم ثمرات كل شيء، و آمنهم من خوف، خوف أصحاب الفيل، و خوفهم فيما بينهم.

و لا يعني إيلاف قريش اختصاص هذه العناية الإلهية بهم، أو اختصاص شريعة القرآن بهم، و إنما يعني أنهم منطلق الدعوة و ركيزتها الأولى و بدايتها، و أول

المطاف في التبشير و الإنذار المحمدي: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ» «وَ أْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها».

فالواجب الإلهي و الواجب الطبيعي في كل رسالة إلهية هو البداية بالأقربين، و لأن إيمانهم يهيئ الجو لإيمان الآخرين.

فلو ترک الرسول إنذار قومه في البدء، و لو كذبوه و أنكروه، لأصبح هذا التكذيب و النكران برهانا لغيرهم من الناكرين: أن لو كان حقا ما كذبوه و هم أعرف الناس به! إذا ننتقل من إيلاف قريش إلى إيلاف الناس أجمعين، الذين يصدقون بهذا الدين، فهنا دافع للإيلاف و هو عبادة رب هذا البيت، أن يجتمع الناس أجمعون على عبادة اللّه الواحد القهار، و بهذا يتحقق الائتلاف لانتظامهم في اتجاه واحد في الحياة.

و هنا سبب يهيئ الائتلاف و هو الحفاظ على كرامة البيت العتيق، فلو أن أصحاب الفيل لم يمنعوا دون مسهم من حرمة البيت، لانهار حرم الموحدين في البداءة، و انهار رجاؤهم طول الحياة.

ليعبد رب هذا البيت لأنه الرب، و لأنه أطعمهم من جوع قاتل و من خوف قاتل، و على حد تعبير

الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «نعمتان مجهولتان، الصحة و الأمان».

إن الخوف كان شاملا لحياتهم في كافة مجالاتها، السياسية و الاقتصادية و الثقافية و الفكرية و العقيدية و النفسية، كانوا يعيشون الخوف، و كانوا أمواتا في حياتهم، فأحياهم اللّه بالقرآن، و آمنهم من كل المخاوف لو طبقوا شريعة اللّه.

سورة الماعون ـ مدنية ـ و آياتها سبع

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (٦) وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ (٧)

أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ:

التكذيب بالدين هو موضوع السورة، و بما أن الدين لا يحصر في الجانب

العقائدي و العلاقات الفردية، فهذه السورة ـ كأنها ـ تختص الدين بالعلاقات الجماعية و الاهتمام بأمور اليتامى و المساكين، إيحاء بأنها من الدين رغم التغافل الملموس في هذا الصدد، إضافة إلى الاهتمام بالصلاة التي هي صلات فردية برب العالمين.

«أ رأيت»: سمعته ما يكذب بلسانه؟ أبصرت ما يعمل بأركانه؟ عرفت ما يكذب بجنانه؟ حيث الدين: الطاعة، هو لفظ الايمان، و عقيدة الإيمان، و أعمال الإيمان، و كلّ يتطلب رؤية تناسبه.

«يُكَذِّبُ بِالدِّينِ»: هو طاعة اللّه يوم الدنيا، و الجزاء عليها، يوم الدين و هو بروز حقيقة الطاعة يوم الجزاء، و التكذيب بالدين قد يعم مراحله الثلاث، و قد يخص مرحلة دون أخرى، و قد يختص بما يحق في كلّ مرحلة و إن كان يؤمن بها إجمالا، فمن يعمل عمل المنكر المكذب لطاعة اللّه، فهو محسوب من المنكرين المكذبين، إذ إن الغاية من ألفاظ الإيمان و عقائد الإيمان هي أعمال الإيمان، و إن كانت لعقيدة الإيمان أصالة فلأنها نبعة الأعمال الصالحة.

و الدين الطاعة هو الإسلام للّه و التسليم له بكافة المظاهر و الأسرار: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» (٣: ١٩) «أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ

الْأَرْضِ..» (۳: ۸۳). و الدين القيّم هو طاعة اللّه وحده:

«أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (۱۲: ۴۰)

«وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ» (۴: ۱۲۵).

في هذه السورة عرض للتكذيب العملي الناشئ عن التكذيب العقائدي، أو كأنه هو، حيث الأثر هو الأثر، و هو اللامبالاة بشأن الخلق و الخالق سواء.

فَذٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ:

اليتيم لغويا هو «المنقطع» عما يحق الاتصال به لنضارة الحياة: ماديا و معنويا: من رحمة و عناية أبويه، و حنان الأم، و من هداية إلهية، و كما يجب للإنسان إنسانيا رحمة الأبوين، كذلك ـ و أحرى له ـ التوجيهات الربانية، و من الواجب الجماعي الإسلامي رعاية اليتامى من كافة الأصناف، الرعاية الأبوية لجبران نقصها بفقد الآباء، و الرعاية الروحانية كذلك ـ أصالة ـ و لجبران نقصها من الآباء الروحيين الذين قصروا في أداء ما عليهم، علاقات تضامنية بين المسلمين و لكي يجبروا ما ينقصهم في الحياة، بعضهم البعض.

إن الواجب هو الرحمة على اليتامى دون أن يبغى منهم جزاء و لا شكور:

«وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» (۴: ۶)..

عناية مجانية و رعاية دون مقابل لمصلحة اليتامى، إلا للفقير، فليأكل كما يعمل لأقل قليل.

القرآن يشرك اليتامى في الكثير من الانتفاعات الجماعية و العائلية، فيوسطهم في قسمة الميراث بين أولي القربى و المساكين غير الوارثين: «وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» (۴: ٨) و يردف بهم الوالدين و ذوي القربى في وجوب الإحسان إليهم:

«.. وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ بِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ» (۴: ٣۶).

فلو كان اليتيم مسكينا فله حقان: في الإرث و في الإحسان، و إلا فحق اليتيم لا يزيله عدم المسكنة لردفهم بالمساكين.

إن القيام بالإحسان و القسط لليتامى هو من واجبات الإيمان، مهما كان اليتيم فقيرا أو غنيا، لينوب مناب الوالد الذي كان قائما بالإحسان إليه مجانا:

«.. وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ» (۴: ١٢٧) «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ» (٢: ٢٢٠) كذلك فليكرم اليتيم الذي يجد نفسه مهانا بفقد الوالد أو الوالدين: «كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» (٨٩: ١۶) و ليردف بالوالدين و ذوي القربى في كافة الرحمات العائلية:

«.. لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ ذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ» (۲: ۸۳) «وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينَ» (۲: ۲۱۵).

و ليحذّر عن أموالهم و لا يقرب إلا بالتي هي أحسن، حفاظا عليها، و استزادة فيها دون أيّ مقابل: «وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» (۶: ۱۵۲) «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» (۴: ۱۰).

فمن يدفع اليتيم عن حق الإحسان اليه و الإكرام له، و من يدفعه عن إشراكه و يدعّه في الرحمة العائلية، و من يدعّه عن إصلاحه و إصلاح حاله و ماله، و من يدعّه عن ماله فيأكله ظلما، فهذا الذي يكذب بالدين: «أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ».

قال ابن جريح: نزلت في أبي سفيان، كان ينحر جزورين في كل أسبوع فأتاه يتيم فسأله لحما فقرعه بعصاه، و قال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، و كان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة و الإتيان بالأعمال القبيحة، و حكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل، كان وصيا ليتيم فجاءه و هو عريان يسأله شيئا من مال نفسه فدفعه و لم يعبأ به فأيس الصبي.

و قيل و قيل.. و لكنما الآية تأبى الإختصاص بمن نزلت في شأنه، إنها تعم كل سفياني يقرع اليتامى، و كل أبي جهل يجهل حقوقهم، فإنّ دعّ اليتيم و دفعه عن حقه هو من ظواهر التكذيب بالدين، مهما كان اليتيم يتيما في الدنيا أو الدين.

إنه ليست اللامبالاة بشأن العبادة ـ فقط ـ هي التكذيب بالدين، فإنها تكذيب به، سواء بحق الخالق أو الخلق، فالدين يجمع بين الحقين، كما السورة تجمع بينهما، ابتداء بحق الخلق و انتهاء به، و يوسط حق الخالق هنا إشارة إلى أن الخلق عيال اللّه فأحب الخلق إلى اللّه أحبهم إلى عياله المحتفين به، كما احتفت اليتامى و المساكين و ذوي الحاجة بعبادة اللّه.

وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ:

ليس إطعام المسكين هو الفرض فقط، بل الحض على طعامه أيضا، و المحاضة عليه، و ليس فرض المسلم أن يكون هو ـ فقط ـ الفائض الخير على المسلمين، فإن هناك فرضا ثانيا هو حض الناس أجمعين أن يكونوا فائضين، نبعة فوارة شاملة دون أن تيبس مهما يبست بنفس ذاتها، و لكنها فياضة بما تحضّ سواها و تبثّ، هكذا يجب أن يكون المسلم فياضا بكل خير، يكرّس حياته في هذه السبيل دون أن يجمد فوّاره.

و على المسلمين أن يحض بعضهم البعض على طعام المسكين، فعدم المحاضة و عدم الحض على طعام المسكين ينشأ من عدم الإيمان باللّه العظيم: «إِنَّهُ كـانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْـعَظِيمِ. وَ لا يَـحُضُّ عَـلى طَـعامِ الْـمِسْكِينِ» (۶۹: ۳۳ ـ ۳۴) «وَ لا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ» (۸۹: ۱۸).

هناک و هنالک كان ويل للناكرين حقوق اليتامى و المساكين: المكذبين بالدين.

ثم هنا:

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ:

يصلون و لكنهم لا يؤمنون، و كأنهم مكذبون بفرضها و الذي فـرضها، حـيث اللامبالاة في أدائها، و عدم الإتيان بشرطها الأصيل: «الإخلاص».

إن التفريع هذا «فويل» يربط هكذا مصلّين بالذي يكذب بالدين و يدعّ اليتيم و لا يحض على طعام المسكين، فاللامبالاة هي اللامبالاه، سواء أكان بحق الخلق أو الخالق، فالمنشأ واحد هو التكذيب بالدين، و فقدان الركيزة الإيمانية كما يجب.

و إذا كان اللامبالي بحقوق الخلق من المكذبين، فاللامبالي بالخالق هو من أشر المكذبين.

و إذا كان الويل للمصلين المقصرين في صلواتهم فما هو لتاركي الصلاة؟

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ:

عن صلاتهم ـ لا ـ في صلاتهم، إذ إن الإنسان، كائنا من كان، قد يسهو في صلاته، في شرائطها و أجزائها، إلا من عصمه اللّه...

و التنديد هنا بالساهين عن صلاتهم: فقد يصلون إذا حضروا و قد لا يصلون إذا غابوا، يحسبون صلواتهم كأهون ما يبغون، فهكذا سهو عن الصلاة مبدأه اللامبالاة بشأن الصلاة، سهو عامد، و نسيان مقصود، و تساهل متقصّد، كل ذلك لأنه مكذب بطاعة اللّه، لا يعتبر طاعته أصلا في الحياة، و لا أصلا من أصول الحياة، و لا فرعا لازما، و إنما في هامش الحياة، إذا ما أضرّت الصلاة بسائر ما يعملون، فلو أضرت بها لرفضوها و تركوها بتاتا.

و قد يشمل السهو عن الصلاة ـ إضافة إلى التساهل عنها ـ التساهل في شرائطها و أجزائها و وقتها، كما

يروى عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله في الآية: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»[1]

و كذلك السهو عن الصلاة معنويا، كان يشتغل في الصلاة بغير اللّه، أو لا يرجو

---

١. الدر المنثور ج ۶ ص ۴۰۰.

من صلاته خيرا[١].

و هذه هي صلاة المنافقين، الذين يتظاهرون بالإيمان و لما يدخل الإيمان في قلوبهم: «إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» (۴: ۱۴۲)

«وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى وَ لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ» (٩: ۵۴). إنهم يقومون إلى الصلاة و لكنهم لا يقيمونها، يأتونها و لا يقيمونها، يأتونها كسالى، كسلا مزدوجا:

كسالة أولى إذا تعبوا و كلّوا عن أشغالهم، و ثانية أنهم على كسلهم يأتون الصلوة و هي حمل ثقيل عليهم «.. وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ».

فصلاتهم إذا كسل على كسل، و فشل على فشل، فهم الذين يسهون عن الصلاة: عن صورتها أحيانا، و عن حقيقتها دائما: يؤدون حركات الصلاة و لا تعيشها

---

١. لما نزلت هذه الآية: «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ»

قال رسول اللّه (ص): اللّه أكبر هذه الآية خير لكم من أن يعطي كل رجل منكم جميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته و إن تركها لم يخف ربه.

عن أمير المؤمنين (ع) فيما علم أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه و دنياه:

ليس عمل أحب إلى اللّه عز و جل من الصلاة فلا يشغلنكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا، فإن اللّه عز و جل ذم أقواما فقال: «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ» يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها (نور الثقلين ۵: ۶۷۷ ح ۴).. و عن الصادق (ع) مثله (المصدر نفسه ح ٣).

قلوبهم.

الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ:

أحيانا لا يصلون و أحيانا يصلون، و لكنهم يراءون في صلاتهم؛ ليست صلاتهم للّه، و إنما لأجل الناس الذين من حولهم، و هذا شرك في عبادة اللّه، إضافة إلى توهينه تعالى بالسهو عن الصلاة: «قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (۱۸: ۱۱۰).

فلو أنه ترك صلاته هذه، كان خيرا له عند ربه، إذ يقدّم خلقه عليه في صلاته الرياء الساهي عنها، ثم يشرك به خلقه في هذه الصلاة الموهونة المهينة وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ:

و هذا جماع القول في الذين يكذبون بالدين، اللامبالاة بأقل قليل في حق الخالق و المخلوق: «منع الماعون» عن الخلق و الخالق، فالماعون لغويا هو القليل جدا، فإنه فاعول من المعن و هو الشيء القليل، و كما يرويه أمير المؤمنين علي عليه السّلام عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[1].

---

۱. الدر المنثور: أخرج ابن قانع عن علي بن أبي طالب (ع): سمعت رسول اللّه (ص) يقول: المسلم أخو المسلم إذا

←

فهم المناعون أنفسهم و سواهم عن القليل القليل، الذي لا قيمة له أحيانا، أو أنها رخيصة جدا لا يمنعها إنسان إنسانا، فرغم أنه تافه، يحتاجه الإنسان دائما.

هم المانعون الماعون بجنب الخلق و الخالق، فماعون الخالق هو الصلاة[1]، أسهل شيء على العبد دون أن تكلّف مالا أو سواه، فهم الساهون عنها و المراءون فيها، و المانعون هذا الماعون.

و ماعون الخلق هي الأشياء التي يحتاجها الإنسان، و لا يستغني عنها أحد، و هي طفيفة جدا، كالماء و الملح و أضرابهما، فالمانع لها من أبخل الناس و أخبثهم و ألأمهم.

و مانع الماعون بجنب الخلق هو المناع كل واجبات الحياة عن غيره، يـمشي مكبا على وجهه، لا يهدف إلا صالحه الشخصي.

← لقيه حياة بالسلام و يرد عليه ما هو خير منه، لا يمنع الماعون، قلت:

يا رسول اللّه ما الماعون؟ قال: الحجر و الحديد و الماء و أشباه ذلک، و في رواية اخرى عنه (ص) هو ما يتعاطاه الناس بينهم.

أقول: و يجمعه انه الشيء القليل التافه الذي يحتاجه الإنسان دائما، و لا ينافيه

المروي عن علي (ع) انه الزكاة المفروضة، فإنه من باب الأولوية القطعية، فالذي يمنع القليل هو الذي يمنع الكثير.

۱. و يؤيد شمول الماعون لمثل الصلاة: «ماعون الطاعة» ما أخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس في الآية قال: اختلف الناس في ذلک، فمنهم من قال: يمنعون الزكاة، و منهم من قال: يمنعون الطاعة، و منهم من قال: يمنعون العارية (المصدر ص ۴۰۱).

سورة الكوثر ـ مكية ـ و آياتها ثلاث

[سورة الكوثر (۱۰۸): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْناکَ الْكَوْثَرَ (۱) فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ (۲) إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ (۳)

سورة خاصة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، تعده بالخير الكوثر، و تعد أعدائه بالشر و البتر، و توجّهه إلى كامل الشكر، الأولى كثرة فياضة و ازدهار، و الثانية قلة منحسرة و انبتار.

من مكائد قريش لتوهين الرسالة المحمدية، و ليصرفوا جمهرة الناس عن حوله: أن تقوّلوا عليه قولهم: «إنه أبتر»، من أمثال العاص بن وائل، و عقبة بن أبي معيط، و أبي لهب، و أبي جهل، و أضرابهم من الحاقدين عليه، المتربصين عليه دوائر السوء، قال أحدهم مبشرا: «دعوه فإنه سيموت بلا عقب و ينتهي أمره» محاولة عريقة منذ أمد بعيد، من قسم من قريش على قسم آخر، من بني أمية المعادية، على بني هاشم و هم مفخرة قريش، و لقد انتهت الزعامة الروحية إلى شخص النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكان تعبيرا طبيعيا عن البيت الهاشمي.

وجد هؤلاء الأعداء الألداء من أمية قريش، ظرفا لإهانة النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ توفي ولده الذكور، حين كان ينتظر بنو هاشم أن يرث المجد الهاشمي المحمدي ذكور من ولده، فأول من ولد له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «زينب»، و لكن هاشم تنتظر الذكر، الثاني كذلک بنت «رقية» فقد كاد أن يخيب الأمل، و الثالث كذلک بنت «أم كلثوم» فقد قوي الكيد من أمية.

لكنما الرابع و الخامس هما من الذكران «قاسم ـ عبد الله».. لكنهما أ فلا قبل الإشراق.. فهل تلد خديجة بعد؟ و هل ذكرا؟.. إنها ولدت و لكنها الرابعة من بناتها: «فاطمة».. أجل ولد له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لآخر مرة ذكر «إبراهيم» لكنه أيضا أفل، و أخيرا لم تبق إلا البنات، ثم بنت واحدة هي الأخيرة، فما هو الأمل؟

كيد لئيم من حزب الشيطان وجد له مجالا، في القول: «إنه أبتر»[1]، في البيئة العربية، التي تتفاخر و تتكاثر بالأبناء! و يجد من يهشّ لها من أعداء الرسول صلّى

---

١. قال ابن عباس: إن رسول اللّه (ص) دخل من باب الصفا و خرج من باب المروة فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له: من استقبلک يا أبا عمرو آنفا؟

قال: ذلک الأبتر، يريد به النبي (ص)، حتى أنزل اللّه هذه السورة.

عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة و سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصابي المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا و نحن أهل الحجيج و أهل السقاية و أهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: «إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ» (ج ۶ ص ۴۰۳).

اللّه عليه و آله و سلّم و شانئيه، علها أوجعت قلبه الشريف، و إن كان واثقا بنصرة ربه، و خيبة أعدائه.

هنا، و بهذه المناسبة المؤلمة، و لأمور أخرى، نزلت سورة الكوثر، ماسحة على قلبه بالروح و الندى، مقررة حقيقة الخير الباقي الممتد مدى الدهر، الذي اختار له ربه، و حقيقة البتر و الانقطاع المقدّر لأعداء الرسالة المحمدية السامية.

قيل إن الكوثر نهر في الجنة أوتيه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لكنه لا يزيد عن أنه كوثر من الكوثر: «إِنَّا أَعْطَيْناکَ الْكَوْثَرَ» لا «كوثر».. كوثر هو امتداد للكوثر و على هامشه[1].

و قيل: إنه ولده من فاطمة الصديقة (ع)، حيث انتشروا أكثر من كل الأنسـال،

---

١. روايات متواترة

عن النبي (ص) تقول: إن الكوثر نهر في الجنة،

و منها ما

أخرجه ابن مردويه عن أنس قال: دخلت على رسول اللّه (ص) فقال: قد أعطيت الكوثر، قلت:

يا رسول اللّه! ما الكوثر؟ قال: نهر في الجنة عرضه و طوله ما بين المشرق و المغرب لا يشرب منه أحد فيظمأ و لا يتوضأ منه أحد فيتشعث أبدا، لا يشرب منه من أخفى ذمتي و لا من قتل أهل بيتي (الدر المنثور ۶: ۴۰۲)،

و فيه من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال: الكوثر الخير الذي أعطاه اللّه إياه، قال أبو بشر لسعيد بن جبير فإن أناسا يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه إياه (المصدر نفسه).

و فيه عن عكرمة قال: الكوثر ما أعطاه اللّه من النبوة و الخير و القرآن (ص ۴۰۳).

نقول: إنها أيضا من الكوثر و من أعظمه كما وردت في أسباب النزول و كما توحيه الآية: «إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

إذ إن معظم الشنئان كان اعتبارا أنه لم يبق له ذكر، فورد الجواب الحاسم، الحامل لنبإ الغيب: «إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ» و كما بتر، إذ انقطع نسل عدوّه اللدود رغم ولده الذكور العشرة، و كما الآية الأولى حملت بشارة الغيب:

«إِنَّا أَعْطَيْناکَ الْكَوْثَرَ» و القدر المتيقن، المناسب لسبب النزول، هو كوثر الصديقة الزهراء.

.. و بعد أن كانت المرأة مهانة و لم تكن في حساب الإنسان نراها الآن في الإسلام معززة مكرمة قد يفوق كيانها الرجال.

شاء اللّه تعالى أن تحتل فاطمة الزهراء المكانة العليا من الكمال، و لكي تسبق الرجال كما سبقت نساء العالمين من الأولين و الآخرين، طالما مريم (ع) فضلت على نساء عالمي زمانها..

شاء اللّه تعالى أن تنسل منها فحسب ذرية الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لأنها كانت من أهل بيت العصمة و الطهارة المحمدية، و تفوق العالمين، من

النبيين و الصدّيقين و الشهداء و الصالحين، فضلا عن السيدة مريم (ع)[١].

---

١. مقارنة بين فاطمة و مريم (ع):

قال لي اسقف من الأساقفة: هذه مريم المسيحية فضلت في قرآنكم على نساء العالمين و على فاطمتكم، و تختص بها سورة قرآنية دون أن يؤتى بذكر فاطمتكم..

قلت: إنها ليست مريم المسيحية، إنها السيدة مريم التي نعتبرها من خيرة نساء العالمين، نحن نصدقها و نكرمها كما تكرمون و زيادة.. و لا نهتكها كما في الإنجيل! الأسقف: ما هي الآية الإنجيلية التي تمس من كرامتها؟

المفسر: آية اولى تندد بالأم و الابن معا: «. و لما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر، قال لها يسوع: ما لي و لک يا امرأة» (يوحنا ٣: ١ ـ ١١).

فمسيح القصة يهتک أمه بهذه الجملة اللاذعة «يا امرأة!» رغم أنه أجابها في مأمولها، و صنع الخمر! ثم هتک ثان أنها لم تؤمن: «إذ كان يكلم تلاميذه فجاء حينئذ اخوته و أمه و وقفوا خارجا و أرسلوا إليه يدعونه و كان الجمع جالسا حوله فقالوا له: هوذا أمک و إخوتک خارجا يطلبونک. فأجابهم قائلا: من أمي و إخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين و قال: ها أمي و إخوتي، لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي و أختي و أمي» (مرقس ٣: ٣١ ـ لوقا ٨: ٩ ـ ٢١ ـ متى ١٢: ٤٦ ـ ٥٠).

فلو انها ـ و حاشاها ـ عصت في دعوة المسيح لصنع الخمر، فلما ذا يهتكها هنا بكلمة فحش شوهاء: أنها غير مؤمنة؟!

لكنما القرآن يختص سورة بتنزيهها و تطهيرها عما تقولوا عليها أمثال هذه.. و ما نسبت إلى الزنا.

إن القرآن لا يذكر امرأة باسمها، و ليس ذكر السيدة مريم إلا تبرئة لها، و إلا تأكيدا لولادة المسيح العجيبة، أنها كانت دون والد.

لكن فاطمة ما نسبت إلى منكر حتى يذاد عنها بآيات قرآنية، و مجرد الذكر في القرآن لا يدل على الأفضلية في الكمال، فهذا «زيد» يذكره القرآن لمهمة أحكامية، و لا يذكر من ألوف النبيين إلا ستة و عشرين.

الأسقف: و لكنها حسب القرآن مفضلة على نساء العالمين و منهن فاطمتكم «يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاکِ وَ طَهَّرَکِ وَ اصْطَفاکِ عَلى‌ نِساءِ الْعالَمِينَ».

المفسر: على العالمين: (عالمي زمانها).. لا من الأولين و الآخرين، و كما يقال: ان الأسقف أفضل الأساقفة في العالمين، أو أفضل علماء الإنجيل، فهل تعني أفضليته على علماء الإنجيل مدى الدهور؟! ثم هي خير نساء ←

إِنَّا أَعْطَيْناکَ الْكَوْثَرَ:

فما هو الكوثر بعد؟.

الكوثر لغويا هو المبالغ في الكثرة، و اعتبارا أنه يقابل الأبتر، فهو الكثرة الكثيرة من كل خير، من كل اتصال بمعدن الرحمة الإلهية، فلم يبق اللّه رحمة يمكن إعطاءها، إلا و قد أعطاها رسوله الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و إنه: «الكوثر» لا «كوثر» و لا «الكوثر من رحمة خاصة» بل «الكوثر»: الكثرة المنقطعة النظير و غير محدود، من كل خير بالإمكان أن يفيضه رب العالمين على أحد من العالمين.

إن الكوثر هذا، يشير تماما إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء، و أشمل عكسا، إنهم اعتبروه «أبتر»: منقطع النسل، و ربه يعتبر له «الكوثر» اتصالا غير محدود بمعدن الرحمة و العظمة الإلهية، و منه كوثرة النسل: فاطمة الزهراء (ع).

→ العالمين ـ لا ـ و رجالهم، و فاطمة الإسلام اختصت مع الرسول الأقدس محمد (ص) و زوجها و ابنيها، بعصمة و طهارة، لا يشاركها أحد من العالمين، من نوح و ابراهيم و موسى و المسيح (ع).. بشهادة آية التطهير: «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (٣٣: ٣٣) ف «إنما» تحصر إذهاب الرجس، و تحصر الطهارة، تحصرهما بأهل بيت الرسالة المحمدية و كما في متواتر الأحاديث الإسلامية دون خلاف.

فلو أن السيدة مريم مفضلة على نساء عالمي زمانها، أو نساء العالمين من الأولين و الآخرين، فالسيدة فاطمة مفضلة على العالمين بنسائهم و رجالهم، و حسبها انها كوثرة من الكوثر، من أعظم المعطيات الإلهية للرسول الأقدس محمد (ص).

فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر فهو واجده حيثما تصوّر أو نظر:

۱ ـ في رسالته التي هي خير الرسالات و خاتمتها، التـي جـمعت الرسـالات الإلهية كلها و زيادة، كأنها الرسالة وحدها.

۲ ـ في قرآنه: ينبوع ثرّ لا يفتأ، الكتاب الذي جمع فيه معجزة الرسالة و معجزة الوحي.

۳ ـ في علمه الغزير و عقله الوفير الذي فاق عقول العالمين.

۴ ـ في كافة محامده، و هو المحامد كله، و على حدّ تعبير سليمان بن داود في كتابه كما في الأصل العبراني: «.. حكّو ممتقيّم و كولو «مـحمديم» زه دودي وزه رعي بنت ير شالام» (نشيد الأناشيد ۵: ۱۶):

أي: فمه حلو و كلّه «محمد» هذا محبوبي و هذا ناصري الذي يرعاني يا بنات أورشليم.

كله محمد: هو بتمامه: بذاته و بصفاته و أفعاله، برسالته و كتابه..

محمد: في غاية المحمودية و الكمال و البهاء و الجلال، لا في اسمه فحسب.

۵ ـ في نسله الميمون ـ أيضا ـ هو محمد و كوثر، كوثر في العدد، و في العدد الروحية و الرسالية.

٦ ـ في زوجته الأولى: خديجة الكبرى أم المؤمنين، فإنها كوثرة في إيمانها و مالها و انجابها الكوثرة الزهراء، فهي أحبت محمدا بعقل الأربعين لا بغفلة التسع، و لا بنزوة العشرين، أحبته في إرادة التعبير فانساقت إليه انسياقة إيمانية فتضاءلت بين يدي حبها الكبير مجاهيد دنياها، و ذاب من تحت عينيها بريق الذهب، تاجرت بزواجها بالرسول، و بثروتها الثرّ، قرنا أنيسا برسالة السماء، و جاهدت في هذه السبيل بكل ما لديها من طاقات.

٧ ـ في صهره و ابن عمه عليّ أمير المؤمنين: استمرار الرسول برسالته، و استجرار سنته، و استكمال دعوته.

فعلي عليه السّلام كوثر من الكوثر، و له من الكوثر المنفصل عن كيان النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نصيب عظيم، و كأنه كله، إذ كان كلّ الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا في الوحي.

٨ ـ في خلفائه الباقين الأحد عشر، فإنهم كوثر من الكوثرين، من «علي و فاطمة» و بقائمهم تحيى الدنيا و كأنها الجنة!.

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ:

من هنا ندرس ألفاظ الآيات فنتطلع منها على معانيها المشار إليها.

«إِنَّا أَعْطَيْناکَ»: جمعية الصفات لا جمعية الذات، يعني بهذه الجمعية أن عـطية الكوثر للنبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تجمع مجامع الخيرات الناتجة عن مجامع الصفات الإلهية ـ غير الذاتية ـ فصفاته الفعلية التي تصدر على أضوائها أفعاله تعالى، هذه الصفات كلها اشتركت في هذه العطية الربانية، ففي الكوثر نصيب من جمعية الصفات الإلهية، و لو صح التعبير لقلنا: إن هذه العطية إلهة العطيات، إذ صدرت من إله الأرض و السماوات بجمعية الصفات، للنبي الأقدس و هو أفـضل الكائنات عبر التاريخ.

فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ:

إن هذه العطية الغزيرة الفائضة الكثرة، رغم ما أرجف المرجـون، إنـها تـتطلب شكرا يناسبها، فكما المشكور له عطية لا فوقها عطية، كأنها اسـتأصلت العـطيات فجمعتها في نفسها، كذلک الشكر، فليكن شكرا مستأصلا جامعا للشكر، و ليس إلا الصلاة للرب «لربک» ناحرا فيها.

صلاة تجمع جوامع معاني الصلاة و حقائقها، و تليق بساحة الربوبية: رب الكوثر المحمدي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، الصلاة التي تنقطع بک عما سوى اللّه، و عن نفسک، ألّا يبقي فيها بينک و بين اللّه أحد ـ و لا نفسک ـ صلاة الفناء المحض، و

إشارة باهرة لهذا الانقطاع التام إلى اللّه تعالى هو النحر:

«رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر، باطنهما إلى القبلة و ظاهرهما إلى خلفها»[١].

هكذا نحر يلائم و التكبير عنده، فالتكبير يعني أن اللّه أكبر من أن يوصف، لا أنه أكبر من كل شيء، فلا كبير بجنب اللّه حتى يوصف بأنه أكبر منه، إنما أكبر من أن يوصف إلا كما وصف به نفسه ف «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

إذ ذاک فليوجه العبد بكل وجوهه اليه، كما و يوجه وجهه الظاهر إلى بيته الحرام.

إذا فليعرض عما سواه إعراضا تاما لكي يتمكن من هكذا إقبال اليه، و رفع اليدين ـ كما وصفناه ـ إشارة اليه: أعرضت عما سواک داحرا لها خلفي، وجهت

---

١. رواه الفريقان عن النبي (ص) و عن علي (ع) و رواه أصحابنا عن الصادق (ع).

ففي الدر المنثور عن علي بن أبي طالب (ع) قال: لما نزلت هذه السورة على النبي (ص) قال النبي لجبريل: ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي؟ قال: إنها ليست بنحيرة، و لكن يأمرک إذا تحرمت للصلاة أن ترفَّع يديک إذا كبرت و إذا ركعت و إذا رفعت رأسک من الركوع، فإنها صلاتنا و صلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع، و إن لكل شيء زينة و زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة. قال النبي (ص): رفع اليدين من الاستكانة التي قال اللّه: «فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ» (ص ٤٠٣).

وجهي إليک دون حجاب إلا ذاتک المحجوبة عن خلقک، فكما أنه تعالى لم يبق نعمة إلا و أنعمها عليک، فعليک ألا تبق ممن سواه إلا و تدحره و تقبل إلى اللّـه، هكذا صلاة هي التي تحق لهذه العطية الربانية.

إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ:

إنه الأبتر عن كل ما لک من الكوثر، و قد صدق وعد اللّه له و عليهم، أن عدوه الشانئ الشائن انقطع عن خيرات الدنيا و الآخرة، فقد انقطع ذكرهم و انطوى إلا عن أمواج من السب و العدى، بينما امتد ذكر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و علا! و قد يشمل النحر هنا نحر الإبل ضحية، إشارة إلى أنني أفدي بنفسي للّه، بعد مـا فنيت عنها في الاتجاه إلى اللّه، و لكنما الانتحار محرّم في شريعة اللّه، إذا فـنحر الإبل تقوم مقامه كذكرى.

مسيلمة الكذاب يعارض فيما يعارض ـ هـذه السـورة قـائلا: «إنـا أعـطيناک الجماهر. فصل لربک و جاهر إن مبغضک رجل كافر» كلمات هي أشبه بالهذيان:

بين مأخوذة من الكوثر «إِنَّا أَعْطَيْناکَ ـ فَصَلِّ لِرَبِّکَ» و بين ما لا يحمل منقبة «... الجماهر» إذ لا منقبة في وجود الجماهر. فجماهر الشيطان أكثر من الكل، و لو أريد منها جماهر الخير و التقى، لم يكن فيها منقبة للرسول، إلا كمالا منفصلا عن ذاته، و

بين ما هو توضيح للواضحات: «إن مبغضک رجل کافر» ثم لا تحمل هذه الهذيانات من بشارات الغيب و إنذاراتها ما تحمله سورة الكوثر، فكوثر الرسول بشارة، و بتر شانئه إنذار، و كلاهما من ملاحم الغيب، و القرآن يتحدى ـ فيما يتحدى ـ بسورة واحدة منه، و أقصرها الكوثر، و طالما حاول الحاقدون المعاندون للرسالة المحمدية و قرآنها أن يعارضوه فخابت مساعيهم، و لو كان لبان.

سورة الكافرون ـ مكية ـ و آياتها ست

[سورة الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (٢) وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (٣) وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (٤)

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (٦)

ندرس في هذه السورة كيف يجب أن نعامل الكفار الذين: «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، فهل نبذل من عقيدة الايمان أو أعمال الإيمان

لكي نسايرهم علّهم يؤمنون، أم هذه خطوة ماكرة و شيطنة مدروسة منهم، يريدون أن نصبح كأمثالهم لقاء أن يؤمنوا بما نؤمن كما يدعون، و إن هم إلا كاذبين؟..

إن الإيمان لا يقبل المخادعة و المسايرة، و ليست هذه المبادلة تجارة رابحة و لو وفوا بعهدهم، فكيف و هم كاذبون!.

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ:

الكافرون الذين لا يؤمنون، و لا يرجى منهم أن ينسلكوا في سلك المؤمنين، بل هم يريدون من المؤمنين مسايرتهم، علهم يخرجونهم عن الإيمان كأمثالهم، و لذلك يستحقون هكذا خطاب قارع، يقرع أسماعهم و قلوبهم المقلوبة علهم ينتهون.

.. يلقى الوليد بن المغيرة و العاصي بن وائل و الأسود بن المطلب و أمية خلف، يلقون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلين: يا محمد! هلمّ فلتعبد ما نعبد، و نعبد ما تعبد، و لنشترک نحن و أنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه، كنت قد أخذت منه حظا، و إن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه، كنا قد أخذنا منه حظا، فأنزل اللّه هذه السورة.

في رواية أخرى: أن قريشا قالت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهک سنة، و تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهک سنة، فأجابهم اللّه بمثل

ما قالوا: فقال فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ، و فيما قالوا: نعبد إلهک سنة: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ، و فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ، و فيما قالوا: نعبد إلهک سنة:

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ.

نستوحي من الروايتين أنه كان هناک اقتراحان: الإشراک المتصل و المنفصل، فالثاني أن يشرک النبي باللّه منفصلا: يعبد أوثانهم سنة و يعبد ربه سنة أخرى، مقدما لأربابهم على ربّه! يوحّد كلا بالعبودية منفصلا عن الآخر، و يردّ هذا الاقتراح بالآيتين الأوليين «لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ» و لا لآن، فكيف بسنة «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» لآن فكيف بسنة، فما أنتم بتاركي آلهتكم و إن أنتم إلا كاذبون تمكروننا من ناحيتين:

١ ـ أن نبتدئ بعبادة آلهتكم و أنتم على حالكم.

٢ ـ أن تخالفوا وعدكم فتتركوا بعبادة إلهي في السنة الثانية.

و في الأول ـ و كأنه خيّل إليهم أنه أقرب إلى الحيلة ـ يصدون على أنفسهم باب المكر إذ يبتدئون مع الرسول في الشرک المتصل، و لكنه يصدهم عن ذلک أيضا: أن ماهية عبادتي تتناقض تماما مع عبادتكم، فعبادتي توحيدية محضة لا تقبل

الإشراك أبدا، و عبادتكم شركية لا تقبل التوحيد إطلاقا.

ف «لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ»: ليست عبادتي كعبادتكم[١]: تلائم كل عبادة لكل معبود «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» ليست عبادتكم كعبادتي:[٢] تختص باللّه الواحد القهار.

فهذه السورة تستأصل كل عبادة و كل معبود من دون اللّـه، شـركا مـتصلا أو منفصلا، و تختص العبودية باللّه دون أن تشرك به سواه.

إذا فلا تكرار في الجواب، و إن كان في صورة التكرار، فجاءت السورة حاسمة قارعة عليهم ما يمكرون.

إنهم كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم، و انهم أهدى من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة، فمن اليهود من كانوا يقولون: عزير ابن اللّه، و من النصارى من كانوا يقولون: المسيح ابن اللّه، بينما هم كانوا يعبدون الملائكة و الجن، زعم قرابتهم من اللّه، فكانوا يزعمونهم أهدى، لأن نسبة الملائكة و الجن إلى اللّه أقرب منها إلى عزير و المسيح.

---

١. «ما» في الآيتين الأخيرتين مصدرية، و في الأوليين موصولة ـ تفيد أولا رفض كل معبود من دون اللّه، و ثانيا ترفض كل عبادة شركية ـ فماهية الشرك تتناقض و ماهية التوحيد معبودا و عبادة، نستوحي هذا الفـرق بـين الآيتين من مضي الفعل في الثانية «وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ»:

عبادتكم، فلو كان المعني منها هو المعني من الاولى لم يكن وجه لاختلاف زمن الفعل.

٢. المصدر.

فلما جاءهم الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا: ملة أبيكم إبراهيم، إن دينه دين إبراهيم: حنيفا مسلما و ما كان من المشركين.. قالوا: و نحن على دين ابراهيم فما هي الحاجة إلى دين محمد.. ثم راحوا يحاولون مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يحتالون عليه طريقة وسطى.. و عرضوا عليه ما عرضوه فاعترضتهم قوارع الآيات أن لا طريقة وسطى، فإما التوحيد و إما الإشراك.

فعلّهم ماكروه فهذا العرض الكافر، و علّهم زعموا قرب المسافة، فبإمكانهم التفاهم عليها: بقسمة البلد بلدين و الالتقاء في منتصف الطريق.. إلا أن مكرهم أظهر، فلو كانوا جاهلين غير عامدين لم يكن القرآن يحسم الخلاف بترك الدعوة بعدئذ: لا نحن إليكم و لا أنتم إلينا «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ». إنهم ماكروه: أرادوا أن يخرجوه عن التوحيد و هم باقون على الشرک، فيخسروهم رابحون، و هكذا محاولة الشياطين في خطواتهم تجاه المؤمنين، إنهم يجنّدون كافة طاقاتهم، و يعملون كل دعاياتهم ليضلوا المؤمنين، كما هم ضالون، دون أن يهتدوا و لا قيد شعرة: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» (۲۹: ۱۲ ـ ۱۳).

أجل، و إن هناك: بين المؤمنين و هكذا كافرين، إن بينهم انفصالا لا يرجى معه أي اتصال، فلا التقاء إذن بينهما في طريق.. فهنا آخر المطاف في الدعوة ثم لا دعوة إذ لا رجاء.

لا بد للدعاة إلى اللّه أن يصرفوا طاقاتهم لإثبات الحجة و لكي يدلوا و يهدوا الضالين إلى اللّه، و أما أن يتاجروا بإيمانهم أيضا، زعم أن الكافرين الماكرين علهم يهتدون.. أما إذا وصلت الدعوة إلى خسارة الدعوة و الداعي هكذا فلا.. و إنما كلمة واحدة آخر المطاف: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ» أنا هنا و أنتم هناك، فلا معبر و لا جسر عليه يعبر، و ما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذا الموقف الحاسم و البراءة التامة عما ينافي الإسلام، و إنه ليس هناك أنصاف حلول، و لا التقاء في منتصف الطريق، و لا إصلاح عيوب، و لا ترقيع مناهج، إنما هي الدعوة إلى الإسلام كما بدأت بالصادع الأول.

و بغير هذه الفاصلة الحاسمة سيبقى الغبش و اللبس و الترقيع و الخداع، و ليس الإسلام بالذي يقوم على هذه الأسس المدخولة! أجل: الدعوة إلى الإسلام كما الإسلام يرام، و بالحكمة و الموعظة الحسنة و الجدال بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا، فبالمقاطعة أو التقويم بالقوة، علهم يتعرفون إلى الحق، أو تدميرهم لكي

تحسم مادة الفساد و جراثيم الضلالة، و أول المطاف هنا في آخر الدعوة هو القول: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ».

«قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ».. إعلانا دون إسرار، و لكي يدرس الأحرار درسهم في مواقفهم هذه مع المتعصبين، كيف يلتقوا معهم، نداء بحقيقتهم و وضعهم الذي أصبح لزاما لذواتهم: «لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ»: تريدون مني حدثا في العبادة و أنا لا أعبد معبوداتكم من الآن و مدى الحياة، كما لم أكن أعبدها منذ الولادة و حتى الآن.

«وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ»: قطعت رجائي عنكم، فلستم ممن يعبدون اللّه، فقد أصبح الشرک كأنه لزام ذواتكم فلستم بتاركي آلهتكم من الآن، كما لم تكونوا بتاركيه حتى الآن.. و هذه من الملاحم القرآنية، تخبر عن غيب مستقبل: أنهم ليسوا بمؤمنين حتى الموت.. و كان بإمكان أحدهم أن يؤمن في ظاهر الحال، و لكي يثبت كذب هذه الملحمة القرآنية، و لكنهم لم يقدموا و حتى على ظاهر الإيمان: «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ».

هنا حسمت الآيتان اقتراح الشرک المنفصل «تعبد آلهتنا سنة، نعبد إلهک سنة».

ثم الأخيرتان حسمتا اقتراح الشرک المتصل أيضا:

«وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ».. لست بالذي يعبد كعبادتكم... «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما

أَعْبُدُ» كذلک لستم ممن يعبد كعبادتي، تتركون آلهتكم و تعبدون ربي موحدين.. و حتى في حين تعبدون ربي سنة كما تزعمون، أو حين تجمعون بين العبادتين و أحرى، إذا «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ»...

و هكذا يدرس المسلم القرآن، كيف يجب عليه الصمود في الإيمان دون أن ينسحب عنه كثيرا أو قليلا بغية إيمان الكافرين، فعليه أن يقاوم الكافرين، لا أن يساومهم و يتنازل عن إيمانه.

فإذا سمع ممن تعوّد على بيوت القمار و الدعارة، شاركنا ليلة هكذا و علينا التكليف، ثم نشاركک في عبادة اللّه.. فاعرف أنه داعية الضلال، و إلا فلما ذا يقدم لک الضلال، فهل في ضلالک دافع أن يهتدي هو؟ كلا! إن هذا إلا مكر يمكرونه.

فالجواب إذا، لا أشارككم في معصية ربي، و لا تشاركوني في عبادته، «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ».. لكم شهواتكم ولي عباداتي، لكم الراقصات ولي الصلوات، لكم الدعارات ولي العبادات، و في آخر المطاف لكم جحيم النار ولي الجنة التي وعدها المتقون الأبرار.

و من الشياطين من يخفف الوطأة في المماكرة، يشاركونک في الخير فترة من الزمن كأنهم من المؤمنين، ثم يتركونک إلى ضلالهم القديم كأنهم فتشوا هنا و لم

يجدوا خيرا فانتقلوا إلى ما كانوا، ثم يحاولون أن تشاركوهم فيما هم: «وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ..» (٣: ٧٣).

.. هكذا يمكرون «وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ»، فليكن المؤمن عاقلا فتنا لبقا كيّسا لا يماكر و لا يغادر أو يضرر به، إذا يريد الحفاظ على إيمانه، و عليه أن يدرس طرق الضلال و ألوان الشيطنات، بجنب ما يدرس طرق الهدى، و كما هداه اللّه «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» طريق الخير و الشر واضحا على المنار، فليدرسهما لكي يثبت على الهدى و يجتنب مزالق الردى.

سورة النصر ـ مدنية ـ و آياتها ثلاث

[سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (٣)

آيات ثلاث تحمل بشارة النصر و الفتح، و قد سبقتها بشارات عدة، و هنا مزيد فيه مدى الفتح: «وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً» و فيه ما يتطلبه الفتح: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً».

بشارات تتضافر و تتواصل، في حين أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هاجر مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، و ملاحقات المشركين دائبة، و أذاهم دائم، و رجاء الرجوع إلى مكة بعيد، و حتى لأداء فريضة الحج.. و أن فتح مكة و تقاطر الوفود للدخول في دين اللّه من أهم الأهداف للرسالة المحمدية، و لأنها ام القرى، المركز الرئيسي للدعوة الإسلامية.

قال ابن كثير في التفسير: «المراد هنا فتح مكة قولا واحدا، فإن أحياء العرب كانت تتلوم (تنتظر) بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله مكة دخلوا في دين الله أفواجا، فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانا، و لم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر الإسلام و لله الحمد و المنة».

هذه الرواية تتلاءم مع ظاهر النص في السورة «إذا جاء..» فلم يقل «قد جاء».. إنها بشارة بمستقبل الفتح و النصر لا واقعه، فلقد كانت في هذه البشارات المتلاحقة حجة للرسالة المحمدية، إذ تحمل ملاحم الغيب، و تقوية لقلوب المؤمنين بهذه

الرسالة السامية، إذ تبشرهم بمستقبل العز و الإنتصار، و فيها تبكيت و تسكيت للكافرين إذ يسمعون الوحي يقرع أسماعهم بقوارع الفتح، و كما تضافرت به الروايات عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم[1].

---

١. أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: لما أقبل رسول اللّه (ص) من غزوة حنين أنزل عليه «إِذا جاءَ نَصْرُ اللّٰهِ وَ الْفَتْحُ» إلخ.. قال رسول اللّه (ص): يا علي بن أبي طالب و يا فاطمة بنت محمد! جاء نصر اللّه و الفتح.. سبحان ربي و بحمده و استغفره إنه كان توابا، و يا علي انه يكون بعدي في المؤمنين الجهاد. قال: علام نجاهد المؤمنين الذين يقولون آمنا؟ قال: على الأحداث في الدين إذا عملوا بالرأي و لا رأي في الدين، إنما الدين من الرب أمره و نهيه. قال علي: يا رسول اللّه أ رأيت إن عرض علينا أمر لم ينزل فيه قرآن و لم يقض فيه سنة منك؟ قال: تجعلونه شورى بين العابدين المؤمنين و لا تقضونه برأي خاصة. فلو كنت مستخلفا أحدا لم يكن أحد أحق منك لقربك في الإسلام و قرابتك من رسول اللّه (ص) و صهرك، و عندك سيدة نساء المؤمنين، و قبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب إياي، و نزل القرآن و أنا حريص على أن أرعى له في ولده (الدر المنثور ٦: ٤٠٧).

أقول: لا تخفى دلالة هذا الحديث على أحقية الإمام علي (ع) بالإمرة على القولين: انه (ص) استخلف أو لم يستخلف، إذ أبدى رأيه فيمن هو أولى. فهل يا ترى ان لو كان للسقيفة حق الاستمارة في الإمرة، فمن هو أولى بالاتباع؟ الرسول (ص) أم أصحاب الشورى، و بعد أن أبدى الرسول رأيه! و أخرج ابن أبي شيبة و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول اللّه (ص) يكثر من قول: سبحان اللّه و بحمده و أستغفر اللّه و أتوب إليه. فقد رأيتها:

إذا جاء نصر اللّه و الفتح ـ فتح مكة ـ و رأيت الناس، إلخ..

في تفسير علي بن إبراهيم القمي قال: نزلت بمنى في حجة الوداع و إذا جاء نصر اللّه و الفتح. فلما نزلت قال رسول اللّه (ص): نعيت إلي نفسي، فجاء إلى مسجد الخيف فجمع الناس ثم قال:

نصر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها و بلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله و النصيحة لأئمة المسلمين، و اللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، أيها الناس إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا و لن تزلوا، كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كإصبعي هاتين ـ و جمع

←

هذه ـ و من قبل كانت الآيات تتواصل في بشرى الفتح إعلانا و إسرارا، يقظة و رؤيا، و إلى حيث كأن الفتح واقع و لمّا يقع: «إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً..» ماض يعني مستقبلا قاطعا و كأنه أمر مضى،.. تنزل في السنة السادسة من الهجرة، قبل الفتح بسنتين، و في نفس السورة ذكرى رؤيا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن اللّه صدقها: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِکَ فَتْحاً قَرِيباً» (٤٨: ٢٨)، و لقد كانت هامة الفتح من غير المحتمل و حتى في الرؤيا، و لكن اللّه حققها وفاء بعهود تترى... يرى رؤياه هذه في حين كان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة، حتى في الأشهر الحرم التي كانت العرب تعظّمها في الجاهلية، و تضع السلاح فيها، و تتعظم القتال في أيامها، و الصدّ عن المسجد الحرام، حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون في ظلال هذه الحرمة، و يلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في وجهه سيفا، و لا يصده عن البيت المحرم، و لكنهم خالفوا هذه السنة و صدوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين طوال سنوات.

← بين سبابتيه ـ و لا أقول كهاتين ـ و جمع بين سبابته و الوسطى ـ فتفضل هذه على هذه (نور الثقلين ٥: ٦٩٠ ح ١٠).

«هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ..» (۴۸: ۲۵).

بشارات الفتح قبل وقوعها تتلاحق و تتلاصق هنا و هناک، تثبيتا للمؤمنين، و دفعا لشكوک المرتابين الذين في قلوبهم مرض: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ» (۵: ۵۲).

و لقد كان المؤمنون يرجون هكذا فتح و انتصار، يرددون رجاءه و بشراه ليل نهار: «وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (۶۱: ۱۳).. و لقد خص الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم برده إلى معاده: مولده و موطنه، لأنه فرض عليه القرآن: أم الكتاب الذي يجب أن ينشر من أم القرى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلى مَعادٍ» (۲۸: ۸۵).

بشارات تتخلل في طيات الهجرة، إلى أن قرب الوعد و نزلت سورة النصر بعد سورة الفتح و آيات الفتح، ثم تحقق الفتح و نزلت آياته و آيات بعدها تندّد بمن كانوا يعدون أنفسهم الحسنى لو جاء الفتح، و أن يخرجوا من الشكوک و من طالح الأعمال و لم يفعلوا: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ

رَمى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ. إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» (٨: ١٧ ـ ١٩).

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ:

لقد كانت للنبي الأقدس فتوح بعد الهجرة، ليست معنيّة هنا إلا أعظمها و أهمها، كأنه الفتح ليس إلا، و إنه فتح مكة المكرمة، إذ لم يكن دخول الناس في دين اللّه أفواجا إلا عنده لا سواه، و لذلک سمّي فتح الفتوح، و قال النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينه: لا هجرة بعد الفتح و لكن جهاد و نية[1].

و هذا وعد دائب للذين ينصرون دين اللّه أن اللّه هو ناصرهم في دينه من قريب أو من بعيد: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ».

نصرة في الطاقات الحربية و الانتصارات المعنوية معا، و كما نراه في حرب بدر

---

١. الدر المنثور ٦: ٤٠٦، أخرجه الطيالسي و ابن أبي شيبة و أحمد و الطبراني و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال:..

و الأحاديث مستفيضة أن سورة النصر كانت سورة النعي، و كما

أخرج الخطيب و ابن عساكر عن علي (ع) قال: نعي اللّه لنبيه (ص) حين أنزل عليه: إذا جاء نصر اللّه و الفتح، سنة ثمان بعد مهاجر رسول اللّه (ص) فلما طعن في سنة تسع من مهاجره تتابع عليه القبائل تسعى فلم يدر متى الأجل ليلا أو نهارا، فعمل على قدر ذلک، فوسع السنن و شدد الفرائض، و أظهر الرخص، و نسنخ كثيرا من الأحاديث و غزا تبوک و فعل فعل مودع (ص ٤٠٧).

كيف غلبت جنود المسلمين و هم ٣١٣ شخصا على قلة من العدة و العدة، علـى ١٠٠٠٠ شخصا من المشركين على كثرتهما لهم.

نصر و فتح:

نصر يعقبه الفتح، ليس لأن اللّه يريدهما دونما شرط، و لا لأن النبي و المؤمنين يريدونه دونما تأييد إلهي، إنما هما بينهما: استعداد بشري، فإعداد إلهي.

نصر اللّه: لبروز حجته و ظهور برهانه، و فتح اللّه للقلوب المقلوبة، فتحها اللّه بالرسول الأقدس إذ أضاء عليها بأضواء الدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة، و لو لا هذا الفتح الأول لم يكن للثاني: ـ دخول الناس في دين اللّه أفواجا ـ من معنى.

ثم نصر ثان و فتح ثان: أن انتصر المسلمون تحت الراية المحمدية على الوثنيين المحتلين بلد التوحيد، اضطرهم للإسلام أو الاستسلام، إسلام عن حجة مسبّقة و استسلام عن حجة دامغة بالغة، دون أن يكون هناك إكراه في الدين: «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» و إنما الإكراه في الاستسلام: قبول الإسلام ظاهريا لمن ليس يقبله، رغم براهينه الساطعة: «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُـلْماً وَ عُلُوًّا».

.. فهذه تهمة و وقاحة من أعداء الإسلام: أنه دين السيف و القوة، و ليس ديـن

الحجة، لا لشيء إلا أن رسول الإسلام دافع عن نفسه و أنفس المؤمنين بالقوة، ابتداء من الهجرة، بعد أن ذاق و ذاق المسلمون المهاجرون ألوان الأذى و البلاء طوال ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة.

إنه دافع كما يجب إنسانيا و في الشرائع الإلهية، و كما النبيون أجمع أمروا بالجهاد، فمنهم من وجد أنصارا كموسى و داود و سليمان و شعيب و يوشع (ع) و أضرابهم، إذ حاربوا حروبا دامية[١]، و منهم من لم يجد أنصارا رغم استعداده للحرب كالسيد المسيح (ع)[٢].

---

١. كما في سفر الاعداد ٣١: ٧ـ١٧ و التثنية ٢: ٢٤ـ٣٤ و ٢٠: ١، ٢، ٥، ٨، ١٠ـ١٤ و ٢١: ٢٤ و سفر الخروج ١٧: ٨ـ١٦.. و أغلب الفصول من كتاب يوشع و أول تواريخ الأيام الفصل ٢٧ و التكوين ١٥: ١٨.

٢. السيد المسيح و الحرب:

ففي إنجيل متى الفصل ١٠، الآية: ٣٤: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض.

ما جئت لألقي سلاما بل سيفا».

و في لوقا (١٢: ٤٩ ـ ٥٠): «جئت لألقي نارا على الأرض. فما ذا أريد لو اضطرمت.

ولي صبغة أصطبغها و كيف أنحصر حتى تكمل. أ تظنون أني جئت لأعطي سلاما على الأرض؟

كلا! أقول لكم: بل انقساما».

و في لوقا (٢٢: ٣٦): «فقال لهم: لكن الآن من له كيس فليأخذه و مزود كذلك، و من ليس له فليبيع ثوبه و يشتري سيفا».

هنا و هناك يأمر المسيح بالحرب و الدفاع، ثم في الآية ٤٩ يأمر بالضرب: «فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا: يا رب! أ نضرب بالسيف؟ و ضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى..».

و هكذا نرى السيد المسيح كيف استعد للحرب الدفاعية، و قد فشل إذ فشل أنصاره، فناموا بدل أن يقوموا بالسيف!.

وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً:

فهل إنهم كل الناس؟ هذا خلاف الواقع الملموس، و إن كان يوافق عموم اللفظ! أم إنهم الذين عرفوا الدعوة فحقّ لهم أن يصدقوها؟ فكذلک الأمر، أم إنهم المؤمنون فحسب؟ و هذا لا يلائم عموم اللفظ «الناس» ! أقول: رباط الدخول في الإسلام بالفتح يوحي أنهم الذين عرفوا الإسلام ثم كملت معرفتهم بالفتح، بما أنه كان من ملاحم الغيب، و قد صدق به وعد اللّه، ثم الذين آمنوا منهم هم الناس، و الذين لم يؤمنوا و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم فهم النسناس، فقد

«سئل الحسن بن علي (ع) من الناس؟ فقال: نحن الناس، و أشياعنا أشباه الناس، و أعداؤنا النسناس، فقبله علي (ع) بين عينيه و قال:

الله أعلم حيث يجعل رسالته»:

«فِي دِينِ اللَّهِ» هل إن سائر الأديان الإلهية ليست دين اللّه؟ فكيف يعتبر دخول غير المسلم في الإسلام دخولا في دين اللّه، الموحي أنه خروج عن غير دين اللّه، أو دين غير اللّه؟.

الجواب: أن الداخلين في الإسلام حينذاک كانوا بين مشرک لم يكن في دين اللّه، و بين كتابي لم يكن يلتزم بدين اللّه، إذ إن الإسلام للّه و التسليم له يقتضي

رفض السابق و إن كانت من شريعة اللّه، و الاعتناق باللاحق بما أمر اللّه، ف «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» و لا معنى للإسلام بعد نزول شريعة القرآن إلا اعتناقه و رفض ما سواه، مهما كانت من الشرائع السابقة.

و إضافة إلى كل ذلک فإن الشريعة الأخيرة الخالدة كانت هي الهدف الرئيسي من الرسالات قبلها، فلم تكن السابقة عليها إلا كتهيئة لها، فحق لها أن تعتبر كأنها هي الدين لا سواه، و أن رسوله هو الرسول لا سواه[١].

«أفواجا» : جماعات كثيرة تترى متسابقين، فقد كانت القبيلة تدخل بأسرها، بعد ما كانوا يدخلون واحدا واحدا و اثنين اثنين.. و عن جابر بن عبد اللّه «أنه بكى ذات يوم فقيل له: ما يبكيک؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول: دخل الناس في دين الله أفواجا و سيخرجون منه أفواجا».

هكذا دخول في الإسلام دليل قاطع لا مردّ له، على مدى وضوح البراهين الإسلامية لحدّ تتسابق أفواج الناس لتصديقه، ثم ليس خروج من يخرج إلا للمغريات التي تغرّهم، و المضلات التي تضلهم، أو خروجا عامدا للتضليل و كما كان دخوله للإدغال و التدجيل.

---

١. راجع كراسنا «وحدة الدين و اختلاف الشرائع» و كتابنا «المقارنات».

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً:

هنا يتحدد شأن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من معه، بإزاء تكريم اللّه لهم، و إكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم: أن شأنه و من معه هو الاتجاه إلى اللّه، أن يسبحوا اللّه بحمده و يستغفروه في لحظة الإنتصار.

التسبيح بالحمد على ما أولاهم من منّه: أن جعلهم أمناء على دعوته، حـراسـا لدينه، و على ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، و فتحه على رسوله، و دخول الناس أفواجا في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمى و الضلال و الخسران القديم.

التسبيح بالحمد، لا التسبيح و الحمد، كلّ على حدة، و لا كلّ دون سـواه، لأن التسبيح يعني الناحية السلبية من صفات اللّه تعالى، و الحمد: الناحية الإيجابية: (الصفات السلبية و الثبوتية).

فلو حمدناه دون تسبيح و تنزيه عما هو منزه عنه، لكنا خاطئين في حمده من جهات عدة، منها: أن الحمد يحمل الإثبات، و الثابتات من الذوات و من الصفات حسب إدراكاتنا ليست إلا حسب مقدرتنا من الإدراک، و هي محدودة من ناحية، و هي مشبهة له تعالى بخلقه من أخرى «سُبْحانَ اللَّهِ عَـمَّا يَـصِفُونَ. إِلَّـا عِـبادَ اللَّـهِ

الْمُخْلَصِينَ» (٣٧: ١٦٠). فإنهم لا يصفونه إلا كما وصف به نفسه.

و لو سبّحناه دون تحميد لخيّل إلينا أنه المنفي الذات و الصفات لأنسنا الدائب بالذوات و الصفات التي نعيشها، فإذ نسلبها عن ذاته تعالى فكأننا سلبنا عنه كل كيان موجود.

فبما أنه «خارج عن الحدين: حد الابطال و حد التشبيه» علينا أن نسبحه بحمده:

١ ـ نسبّحه و ننزّه عنه تعالى ذوات الكائنات و صفاتهم، بحمدنا له في ذاته و في صفاته، و هنا تصبح كافة الكائنات من صفاته السلبية.

٢ ـ و نسبحه عن تفسير أسمائه الحسنى و صفاته العليا بالمعاني التي نعرفها و نأنسها و نتصف نحن بها، فلا نعني من أنه تعالى: «عليم قدير حي» ما نعنيه من مفاهيم و معاني فينا، بل تسبيحا بحمده: أنه لا يجهل و لا يعجز و لا يموت، عليم لا كعلمنا، و قدير لا كقدرتنا، وحيّ لا كحياتنا.

فنحن و معنا كافة الخلائق، حينما نحمد ربنا و نصفه، لا ندرک جهة ثبوتية له تعالى، و إنما سلبيات نأنسها، و لكن السلب قد يكون بلغة السلب و يعني واقع السلب، كما في الصفات السلبية: «لا مركب و لا جسم و لا مرئي و لا له زمان و لا له مكان و لا له حد و لا له أول و لا له آخر و لا..».

و قد يكون السلب بلغة الإثبات: «عليم قدير حـي..» و يـعني واقـع الإثـبات (تسبيح بالحمد) دون أن ندرک منه إلا سلب ما يحق سلبه عنه: «اللاعلم و اللاقدرة و اللاحياة» في حين أننا نسلب عنه صفاتنا هذه أيضا: «ليس له علمنا و لا قدرتنا و لا حياتنا» إذ إنها صفات لا تتناسب و ذاته القدسية.

«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اسْتَغْفِرْهُ».. التسبيح بالحمد و الاستغفار هـما تـقديسه و الاعتراف بربوبيته كما يحق، ثم التماس الغفران منه.

و «استغفره»: فهل هو من العصيان و النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معصوم من العصيان، مطهّر من الأرجاس كلها كما طهّره ربه! «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»... كلا لا عصيان في ساحة النبوة القـدسية حتى يكون الاستغفار عنه، و لا يختص الاستغفار بحالة العصيان لكي نـضطر إلى التأويل، فإنما الاستغفار من الغفر و هو الستر، فهو التماس الغفر و الستر، إما عن عار و عورة العصيان، و النبي معصوم عن العصيان! و اما عما سواه من ملابسات لا يخلو عنها أي إنسان:

١ ـ من التقصير أو القصور في حمد اللّه و شكره، فجهد الإنسان ـ مهما كان ـ ضعيف محدود، و آلاء اللّه دائمة الفـيض و الهـملان: «وَ إِنْ تَـعُدُّوا نِـعْمَةَ اللَّـهِ لا

تُحْصُوها».. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار، و إن كان من القصور الذاتي، دون عصيان الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما

يقول: «ما عرفناک حق معرفتک و ما عبدناک حق عبادتک».

٢ ـ و الاستغفار من الخلط بالناس الذي يلزمه الغبار على القلب، و إن كان واجبا رساليا من حيث التوجيه، و لكنه يلازمه غفلة مّا عن ساحة الربوبية، و لذلک نراه ليلة المعراج حينما عرج عن الكائنات و استغفل عنها، أصبح من قرب ربه معنويا «قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى».

٣ ـ و الاستغفار طلب الغفر و الستر من بأس الأعداء: شياطين الجن و الإنس، و قد غفر اللّه لنبيه كذلک بما فتح له مدينة التوحيد مكة المكرمة، كما وعده و جعله من أهداف الفتح: «إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ..»: ليستر لک اللّه من ذنبک عند المشركين، إذ كانوا يتربصون بک الدوائر ليقضوا عليک، فستر اللّه و غفر عنه بأسهم بما فتح له أم القرى.

٤ ـ و الاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقه لطيفة المدخل: من الزهو الذي قد يساور القلب، أو يتدسس اليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، و فرحة الظفر بعد طول العناء، و هو مدخل يصعب توقيّه في القلب البشري... و قد غفر اللّه له حين

الفتح هذا الزهو و ستره عليه.. فتراه إذ يدخل مكة فاتحا منتصرا، مكة التي آذته و أخرجته و حاربته و وقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة.. تراه يدخلها منحنيا للّه شاكرا على ظهر دابته، ناسيا فرحة النصر و زهوته، عفوّا رحيما لا ينتقم.. فالمغفرة هنا تضمن عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين، ليرقب المنتصر فيهم ربهم، فهو الذي سلطه عليهم، تحقيقا لأمر يريده، على عجزه (ص)، فالنصر نصره تعالى، و الفتح فتحه، و الدين دينه، و إلى اللّه تصير الأمور.

«وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً»: يتوب و يرجع على عباده بالرحمة و المغفرة، لا يكل عباده المتوكلين عليه إلى أنفسهم، و كما

في دعاء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا».

أجل، و إن الإنسان ـ أيا كان ـ لا يستغني عن توبة ربه عليه و تأييده له.. فعبثا يحاول الانطلاق و التحرر و هو مشدود إلى ذاته، مقيّد برغباته، مثقل بشهواته.. عبثا يحاول ما لم يتحرر عن نفسه و يتجرد في لحظة النصر و الغنم من حظّ نفسه ليذكر اللّه وحده.

و هذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائما، يريد اللّه أن ترتفع البشرية إلى

آفاقه، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائما.

«إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً»: راجعا إلى عبده بالرحمة بعد ما يرجع إليه العبد بالمعذرة، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من اللّه: توبة أولى هي أن يوفقه اللّه للتوبة لكي يتوب «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» و توبة ثانية من اللّه هي قبول توبة العبد: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» (۴: ۱۷).

۵ ـ و الاستغفار بمعنى الدفع عن حملة العصيان، لا رفعه بعد وقوعه، كما المغفر في الحرب لأجل الدفع عما ربما يوجه إلى الجندي من الأخطار، كذلك الرسول الفاتح علّه يحمله ما نقموا منه على الانتقام، و هو مسموح له اعتداء بالمثل، إلا أن موقف الرسالة يجب أن يكون موقف الرحمة للعالمين، فليستغفر الرسول ربه حالة الفتح، لكي يسدده عن حملة الانتقام و يغفر له ما يحمله على ذلك.

۶ ـ و الاستغفار عله هنا للمؤمنين الفاتحين، إذ النص «وَ اسْتَغْفِرْهُ» لا «استغفره لذنبک».

۷ ـ و استغفاره عن ذنبه و غفران اللّه له عن ذنبه كما في آية الفتح، لا يعني إلا الحفاظ عليه من بأس المشركين، فإن الذنب لغويا هو الذي يستفظع عقباه، فإن كانت عقبى الدنيا فالذنب من أفضل الطاعات، و إن كانت عقبى الآخرة فالذنب من

أشر المعاصي، و لقد غفر اللّه تعالى ذنب الرسول: عقبى الدنيا الهاجمة عليه من قبل المشركين، غفره له بفتح مكة، إذ لم يجرأ المشركون بعد ذلک أن يؤذوه أو يقاتلوه.

سورة اللهب ـ مكية ـ و آياتها خمس

[سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ (١) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ (٢) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (٣) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)

فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)

هذه السورة تفنّد القومية و القرابة اللتين لا تحملان الإيمان، فلا قيمة لهما في الإسلام، و فيما إذا اعتبرتا ذريعة للصد عن سبيل اللّه، فالقرآن يعاديهما و يعلن زيفهما و انحرافهما، ففي الحديث: «إن ولي محمد صلى الله عليه و آله و سلم من والى الله و رسوله و إن بعدت لحمته، و إن عدو محمد صلى الله عليه و آله و سلم من عادى الله و رسوله و إن قربت لحمته»،

و من الشواهد القرآنية على ذلک ابن نوح و امرأته و امرأة لوط، فلا حرمة و لا كرامة لأي قريب إلى الرسول ما لم يحمل الإيمان، فحرمته على قدر ما يحمل من الإيمان و يعمل من الصالحات.

و أبو لهب[١] هذا عم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من زعماء قريش، لكنه و امرأته معه، كانا من ألدّ أعداء النبي و الدعوة الإسلامية، يجندان كافة طاقاتهما في سبيل تشويه سمعة النبي الأقدس و يعارضانه وجها بوجه، و لقد اتـخذ أبـو لهب موقفه هذا من الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منذ اليوم الأول للدعوة، لكيلا تنمو، و لتخبو وراء الستار فتدفن! و كون أبي لهب عما للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنه من زعماء قريش، و أن بيته كان قريبا من بيته، هذه كلها جعلت أذاه على النبي أشد.

يقول ربيعة بن عباد الديلمي: إني لمع أبي ـ رجل شاب ـ أنظر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتبع القبائل، و وراءه رجل أحول وضـيء الوجـه ذو

---

١. ٤٠٩ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه (ص): بعثت ولي أربع عمومة، فأما العباس فيكنى بأبي الفضل و لولده الفضل إلى يوم القيامة، و أما حمزة فيكنى بأبي يعلى فأعلى اللّه قدره في الدنيا و الآخرة، و أما عبد العزى فيكنى بأبي لهب فأدخله اللّه النار و ألهبها عليه، و أما عبد مناف فيكنى بأبي طالب فله و لولده المطولة و الرفعة إلى يوم القيامة.

جمة،

يقف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على القبيلة فيقول: يا بني فلان إني رسول اللّه آمركم أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا، و أن تصدقوني و تمنعوني حتى أنفذ عن اللّه ما بعثني به، و إذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات و العزى و حلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس، إلى ما جاء به من البدعة و الضلالة، فلا تسمعوا له و لا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا؟ قال:

عمه أبو لهب[١].

عن ابن عباس أن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أ كنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: أ لهذا جمعتنا؟ تبا لك، فأنزل اللّه تبّت يدا أبي لهب[٢].

---

١. رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ.

٢. الدر المنثور ٦: ٤٠٨، و فيه عن ابن عباس قال: لما نزلت «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ..» خرج النبي (ص) حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه! فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أ كنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك إنما جمعتنا لهذا، ثم قام، فنزلت هذه السورة.

و زوجته أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كانت تمشي بالنميمة ضد النبي الأقدس، و توري نيران العداوة و البغضاء ضده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن نزلت هذه السورة للقضاء على هذه الدعايات الفاتكة ضد الدعوة الإسلامية، و تشهير المضلين الذين كانوا يؤثرون على الناس، فلما سمعت السورة جاءت إلى المسجد فلم تـر النبي و هو جالس و أخذت تقول:

مذمّما (تريد محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أبينا و دينه قلينا و أمره عصينا.

و كان من عظيم خطر أبي لهب ضد الدعوة الإسلامية أنه كلما جاء وفد إلى النبي يسألون عنه عمه أبا لهب ـ اعتبارا بكبره و قرابته و أهميته ـ كان يـقول لهـم: إنـه ساحر، فيرجعون و لا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتبا له و تعسا.

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب على الدعوة الإسلامية، هو و زوجته، في عونه في هذه الحملة الدائبة، يـثيران حـربا شـعواء عـلى النـبي و عـلى الدعـوة الإسلامية، لا هوادة فيها و لا هدنة.

تنزل هذه السورة مصرحة بهما و بكيدهما، رادّة على هذه الحرب المعلنة منهما،

و تولى اللّه عن رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر المعركة، فلم يكد يسمع إليهما الوفود بعد تشهيرهما هكذا.

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ:

آية قصيرة في مطلع السورة، فيها تصدر الدعوة و تحقق و تنتهي المعركة و يسدل الستار.

أبو لهب اسمه عبد العزى، كره اللّه أن يذكره باسمه كرها لمعناه، فأبدل به من كناه هذا، لكي يدل على التهابه ضد الدعوة ليحرق صالح الإنسان، فهو لهيب النار كالجحيم: لا تبقي و لا تذر، لا شأن لها إلا الإحراق، بل إنه أبو لهب: أبو الإحراق.

و الآية تشير أن ذاتيته النارية المحرقة لا تحرق إلا نفسه، في الدنيا و في الآخرة، دون أن يقدر على إطفاء نور اللّه، فاللّه متم نوره و لو كره الكافرون.

تبت يداه: استمرت طاقاته تماما في الخسران، فما كيده إلا في تباب.

فاليدان هنا ـ و في كثير مثله ـ يعنى بهما كافة الطاقات، فقد تصرفان للخير فهما مباركتان، و قد تصرفان للشر فهما مبتورتان متبوبتان، و بما أن التبّ لغويا هو الاستمرار في الخسران، فالآية تشير إلى الاستمرارية الخاسرة للطاقات اللّهبية، أنها خاسرة ترجع بالخسار إلى أبي لهب، دون أن تكون مخسرة للدعوة الإسلامية، إلا

زمنا ما: «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ».

فمن الخاسرين من يخسر دنياه دون عقباه، كالمؤمنين المضطهدين، و منهم من يخسر عقباه دون دنياه، كالكافرين المترفين المرحين الفرحين، و منهم من يخسر الدارين كأمثال أبي لهب، يتعب نفسه في دنياه في حسد دائم و حسرة دائبة، ثم ينتقل في عقباه إلى عاقبة أسوأ، و إن تباب أبي لهب جمع بين العقيدة و القول و العمل.

و قد تكون اليدان هنا كناية عن قوة الجذب و الدفع، الإيجاب و السلب، و الدين و الدنيا، و الدنيا و الآخرة، اليد غير المرئية، و هي الطاقات الروحية، و اليد المرئية و هي الأعمال الجسدانية، و الآية تتحمل الكل، فقد تبت يداه عن كل نتاج صالح بالنسبة لهذه النواحي الحيوية إطلاقا، فلم يحصّل إلا خسارا دائما و بوارا دائبا.

«و تب» : تبّ هو: تبت ذاته، كما تبت يداه، فتباب الأعمال هكذا تنتج عن تباب الذات على قدره، فذات الإنسان و أعماله يتعاكسان مع بعض في التأثير، فمكاسب السوء تؤثر رينا في القلب: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» ثم تزداد مكاسب السوء من جرّاء الإزدياد في رين القلب إلى حيث لا يكاد يقبل صاحبه النصيحة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ

عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» (۲: ۷).

فرين القلب و ختمه ليسا إلا من جراء مكاسب السوء الاختيارية للإنسان، فقد خلقه اللّه تعالى ـ إذ خلقه ـ مؤمنا ذا فطرة نيرة موحدة: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (۳۰: ۳۰).

و في تقدم تباب اليدين على تباب الذات إيحاء لطيف إلى أن ذاتية الإنسان ليست شريرة خلقيا، و إنما من جراء الأعمال غير الصالحة، و لا سيما العامدة، «تبت يداه و تب هو»، اللّه يترك هكذا إنسان في غيّه يتردى «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» (۶۱: ۵).

و كما عرفناه ليست الآية دعاء من اللّه على أبي لهب، إنما هو إخبار عن واقعه الشائن، فممن يلتمس ربنا لتباب أبي لهب؟ أمن نفسه أم من إله سواه فوقه؟! فهذا الرأي من بعض المفسرين مسّ من كرامة الربوبية دون أن يعرف المفسر ماذا يرجع بقوله، و إنما تقليدا عن أضرابه..

ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ:

لقد تبت يداه و هلكتا، و تب هو و هلك، فلم يغن عنه ماله و سعيه، و لم يدفع

عنه الهلاک و الدمار: لا ماله الذي ورثه أو كسبه، و لا ما كسبه بما له و بماله من طاقات عقلانية و جسدانية، و لا ما كسبه من أولاده، فبدل أن تغنيه هذه المعطيات، أخسرته و جعلته في تباب من أعماله و من ذاته.

سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ:

فأهل النار ـ في تقسيم مختصر أوّلي ـ على طائفتين: خالد فيها غير خارج عنها، و داخل فيها خارج عنها بعد زمن قريب أو بعيد، فالخالد يصلى النار، أي: يوقدها، و غيره يصطلي بها و يتوقد منها، فالذات التي هي تباب كلها، و الأعمال التي هي في تباب كلها: إنها حصب جهنم و حطبه، ليس للنار و قود إلا هذه الذوات الشريرة العاتية، كما القرآن يصرح بهكذا وقود في آيات عدة.

«سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ» كما كانت ذاته لهبا، و أعماله و أفكاره لهبا: «لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ» حينما كان في الحياة الدنيا، و إن كان لهيبه خافيا ـ حينذاک ـ عند الجاهلين.. كذلک يوم الجزاء، فيظهر لهبه في منظر النار التي تحرق نفسه و تحرق غيره، يصلى النار و يصطلي به غيره ممن كان يتابعه في كفره و فساده، فرعا طبق الأصل جزاء وفاقا، فما النار يوم الجزاء إلا صورة واقعية عن واقع الإنسان في

حياة التكليف يوم الدنيا، و إن كان في غفلة من هذه النار يومها[۱].

وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ:

و تبّت يدا امرأته و تبت نفسها كتبا به سواء، إذ ساعدته و سايرته في تـهريج موقف النبي و العداء السافر ضد الدعوة الإسلامية.

يذكر هنا من صفاتها السيئة: «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» حال أنها ما كان شـغلها حـمل الحطب كتاجره و عاملة، و ليس العمل ـ أي ـ عمل ـ مذموما في الإسلام، لكـي يؤنّب به العامل، فما كان العمل حلّا تكسب به المـعيشة فـهو حـلال، و هـو مـن العبادات.

و أما إذا اتّخذ العمل ذريعة للإفساد فلا أفسد منه، كما كانت أم جميل امرأة أبي لهب تحمل الشوک و الحطب و تضعها في طريق الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكي تؤذيه، و علّها توقعه فتؤلمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تحطّ من كرامته.

و كما كانت تمشي بالنميمة عامة، و ضد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاصة لتهريج موقفه، و النميمة من شر الأحطاب، إذ إن الحطب يحرق الإنسان و

---

۱. لقد سبق طرف من البحث حول انعكاسات الأعمال في سورتي الزلزال و القارعة و تجد تـفاصيل أخـرى فـي غيرهما.

ماله، و النميمة تحرق عليه عيشه و دعوته و حياته، و تحرق المجتمع الإنساني.

و كما كانت تلدغ بلسانها النبي الأقدس فتذمّه و تعيّره بالفقر أو السحر و الجنون، تلميذة لزوجها، فرعا طبق الأصل.

فكانت بذلک كله، تحمل مختلف ألوان الخطايا و الآثام، فهي إذا حمالة الحطب لا حاملته، حمالة لكثرة مزاولتها لحمله، و أنها استغرقت حمل كافة ألوان الأحطاب لتحرق على الرسول دعوته، فهي لهبة كما زوجها لهب «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ».

فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ:

المسد هو الليف: فهل هو هنا حبل من ليف النخل، أم حبل من ذهب شبّه بالليف؟ أم حبل الشيطان يقودها حيث يشاء؟

إن حمل الحطب بحاجة إلى ليف يشد به، فلكل نوع من الأحطاب ليفه المناسب له.

فحملها للأشواک لتلقيها في طريق الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كان بليف من النخل، و حملها بالنميمة و التهمة ضد الرسول كان بحبل من الشيطان في عنقها، و حملتها على الرسول و تعييرها إياه كانت بدافع ثروتها التي اعتزت بها، و لكن الذهب ما كانت لترفع من شأنها كما الليف من النخل، فما أغنى عنها مالها و ما

كسبت، كما لم يغن زوجها، فحكم العقد الذهبي في جيدها كحبل من مسد سواء، فإن الحيوان حيوان ما لم يحمل صفات الإنسان، و إن لم يحمل على ظهره ثياب الإنسان الفاخرة، و الإنسان إنسان ما حمل صفات الإنسان و إن لم يحمل من ثياب الإنسان و زخرفات الحياة شيئا.

إذا فحق التعبير عما كانت تعلق في جيدها: أنه حبل من مسد، بكل مصاديقه: حبل الأشواك، و حبل الشيطان، و حبل الذهب! إنه: حين انتشرت هذه السورة ـ و ما تحمله من تهديد و مذمة و تصوير زري لأم جميل خاصة، تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدللة بحسبها و مالها و نسبها، ثم ترتسم لها هذه الصورة «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» ـ

حينها استنفرت و نهضت بأكثر مما كانت ضد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

فقد يروى عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما نزلت هـذه السـورة أقـبلت العوراء أم جميل بنت حرب و لها و لولة و في يدها فهر: (حجر قدر ملاء الكف) و هي تقول:

مذمما أبينا و دينه قلينا و أمره عصينا، و النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالس

و معه أبو بكر.

فقال له (ص) أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيک بشيء، فقال رسول اللّه (ص):

إنه سيحال بيني و بينها، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكـر! هجانا صاحبک، فقال أبو بكر: لا و رب هذه البنية ما ينطق بالشعر و لا يتفوه به.. فلما ولت قال أبو بكر: ما رآک؟ قال (ص): لا! ما زال ملک يسترني حتى ولت، و روي عنه (ص) أنه قال: صرف اللّه سبحانه و تعالى عني، ثم إنهم يذمون مذمما و أنا محمد[1]

إنها قالت و تقولت فزالت عن الوجود بما حملت، و لكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في هذه الآيات عن هذين الزوجين، قد سجلت في الكتاب الخالد، و سجلتها صفحات الوجود أيضا، تنطق بغضب اللّه و حربه لأبـي لهب و زوجته و حزبه، جزاء الكيد لدعوة اللّه و رسوله جزاء وفاقا، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

سورة الإخلاص ـ مكية ـ و آياتها أربع

---

١. نور الثقلين ج ٥ ص ٦٩٨ ح ٦.

[سورة الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (٣) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (۴)

هذه السورة تحمل إجابة وافية عن كافة الأسئلة التي تدور حول توحيد اللّه و سواه، من الحقائق المعرفية الإلهية، على قلة آيها.

يأتيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قادة الأحزاب الخمسة: الماديين، المشركين، الثنوية، اليهود، النصارى يسألونه أن ينسب ربه كما ينسبون[١] فتنزل سورة الإخلاص مجيبة عن متطلباتهم، قارعة أسماعهم بقوارع بوارع من آي التوحيد، هي نماذج شاملة عن قرآن التوحيد، و كما

عن باقر العلوم عليه السّلام: «إن الله عز و جل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل هذه السورة»[٢]،

---

١. الدر المنثور ۶: ۴۰۹ ـ ۴۱۲ ـ أخرجه عن جماعة من ارباب السنن بصور متفرقة.

٢. و في أصول الكافي بالإسناد عن علي بن الحسين زين العابدين (ع) مثله: سئل عن التوحيد فقال:

←

و لأنها عميقة أنيقة على اختصارها تعتبر بوحدتها ثلثا من القرآن[١] و الإنجيل و التوراة، توحيدا خالصا جامعا في الديانات الثلاث.

إنها تتضمن أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة التوحيد قرآنيا، و لأعمق ما بالإمكان أن ينزل من وحي السماء بشأن التوحيد، جارفة كافة التصورات الباطلة من وحي الأرض و إنسانها و شيطانها حول الكيان الإلهي.

إنها إثبات و تقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» سلب لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد و خرافة الشرك، و هما توضحان كلمة التوحيد الشاملة لكلي السلب و الإيجاب: «لا إله إلا الله» التي تصف اللّه تعالى في مختلف الآيات التي تحويها كالتالية:

«لا إله إلا الله ـ الرحمان الرحيم» (٢: ١٦٣) «الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (٢: ٥٥) «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (٣: ٦) «خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» (٦: ١٠٢) «لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى» (٢٠: ٨) «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» (٢٧: ٦) «وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً» (٢٠: ٩٨) «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

← إن اللّه عز و جل علم انه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل اللّه تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» و الآيات من سورة الحديد «هو الله الذين لا إله إلا هو» إلى قوله «عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ»

١. الدر المنثور ٦: ٤١١ عن أبي بن كعب قال، قال النبي (ص) من قرأ قل هو اللّه احد فكأنما قرأ ثلث القرآن.

فمن رام وراء ذلک فقد هلک، و الحديث الثاني ـ

انها ثلث القرآن ـ تجده في نفس المصدر ص ٧٠١ ح ١٩ بإسناده إلى ابن بصير عنه (ع).

الدِّينَ» (٤٠: ٦٥) يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» (٤٤: ٨) «عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ.. الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ،... هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (٥٩: ٢٥) ـ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» (٤٠: ٦٢).

فكلمة التوحيد هذه، القيّمة، المنقطعة النظير بين كلمات التوحيد، تجمع بين السلب و الإيجاب: سلب الألوهية عما ـ سوى اللّه بما لها من صفات و أفعال، و إيجابها لذات واحدة جامعة لكافة الصفات الكمالية، على وجه الحصر الحقيقي، في ذات واحدة قيومة سرمدية.

فاللّه تعالى حسب الأوصاف المسبّقة في كلمة التوحيد: واحد في كونه: رحمانا ـ رحيما ـ حيّا ـ قيوما ـ حكيما ـ خالقا ـ عليما ـ محييا ـ مميتا ـ ملكا ـ سلاما ـ مؤمنا ـ مهيمنا ـ عزيزا ـ جبارا ـ متكبرا ـ له العرش و له الأسماء الحسنى.

كما و أنها تسلب عنه تعالى ما يتنافى و كيان الألوهية ذاتا و صفات و أفعالا:

و إليكم تفسيرا مختصرا لسورة التوحيد:

«قل».. أظهر كما تضمر[1] في جواب الضالين التائهين عن معرفة اللّه، في جواب الناكرين لوجوده، و المشركين به و المثنّين له، و المثلّثين إياه و المتبنّين عليه:

قل: مقالة عاقلة تقضي على الأفكار الضالة العالقة بالأذهان: إن إلهي يختلف عن إلهكم و آلهتكم تماما.

إنها سورة تبرز المعاني التي تسمّت بأسمائها، و يا لها من أسماء سامية سمتها بسماتها:

إنها سورة: التفريد ١، التجريد ٢، الإخلاص ٣، التوحيد ٤، الولاية ٥، النجاة ٦، النسبة ٧، المعرفة ٨، الجمال ٩، المقشقشة ١٠، المعوذة ١١، الصمد ١٢، الأساس ١٣، المانعة ١٤، المحضرة ١٥، المنفرة ١٦، البراءة ١٧، المذكرة ١٨، النور ١٩، الأمان ٢٠[2].

---

١. الأمر بالقول هنا يرمز لأمور عدة: منها ان الرسول لا يقول إلا عن الوحي و بالوحي و إن كان عنده جواب حسب العقلية البشرية، فإنه إذاعة وحي السماء حتى في قوله «قل»، و منها أن القول إبراز ما في الجنان باللسان و لا بد أن تبرز عقيدة التوحيد بكافة وسائل الإبراز، و لكي يعرف الموحد بعقيدة التوحيد بين جماهير المشركين، و منها وجوب الدعوة إلى التوحيد، دون اكتفاء بالعقيدة القلبية البارزة، فانها لا بد أن تبرز موجهه للضالين» الناكرين توحيد اللّه، بروزا بالحجة البالغة الدامغة كما نراها في هذه السورة، و يشير إلى ذلك الحديث التالي:

التوحيد عن أبي عبد اللّه (ع) عن أبيه الباقر (ع) في قول اللّه تعالى: «قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ» قال: قل ـ أي: أظهر ما أوحينا إليك و نبأناك بتأليف الحروف التي قرأناها لك لتهدي به من ألقى السمع و هو شهيد.

٢. ... ٥ الولاية تعني هنا ولاية اللّه معرفيا و في العبادة و الطاعة، ٦ و النجاة: من كافة ألوان الشرك و الانحراف في

←

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ:

إنه تعالى: «هو» لا هذا و لا ذاک و لا ذلک، و لا هما و لا هم..

و لا أي مشار إليه بالاشارة الحسية أو العقلية أو إشارة التثنية و الجمع ف «هو» محجوب لأبعد أغوار الحجب، احتجابا لا يرجى معه ظهوره في أي من العوالم، و لأيّ من العالمين، فهو لا يدرک بأيّ من وسائل الإدراک: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (۶: ۱۰۳).

إنه الاحتجاب التام عن الحواس و العقول و الأوهام: «لا يحس و لا يجس و لا يمس و لا يدرک بالحواس الخمس».

ف «هو» (هنا) اسم يرمز به إلى حقيقة مرموزة، كنهه في غاية الخفاء، و هويته تختلف عن سائر الهويات، و على حد تعبير

باقر العلوم عليه السّلام: «هو» اسم مكنى و مشار إلى غائب»[1]

→ عقيدة الإله، ٧ و النسبة: لأنها نسبة رب العالمين كما يمكن دركه للعالمين، ٨ المعرفة: لأنها تحمل الغاية القصوى في معرفة اللّه، ٩ و الجمال: لأنها جمال اللّه تعالى بما تعرفه كما يمكن، ١٢ الصمد ـ لأنها لا جوف لها و لا نقص في تعريف التوحيد الالهي، ١٣ و الأساس ـ لأنها أساس الدين، ١٤ و المانعة لأنها تمنع عن الانحراف في معرفة اللّه و توحيده..

١. التوحيد للصدوق بإسناده إلى باقر العلوم (ع):.. و «هو» اسم مكنى و مشار إلى غائب، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت، و الواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما ان قولک: هذا ـ إشارة إلى الشاهد عند الحواس ـ و ذلک أن

←

و كما

في دعاء الإمام علي عليه السّلام: «يا هو يا من لا هو إلا هو..»، فإنه لا هويّة مطلقة، غائبة بإطلاق الغيب، إلا ذاته

المقدسة، أجل و إنه شيء لا كالأشياء:

«خارج عن الحدين، حد الإبطال وحد التشبيه»[١]، غائب بالذات و ظاهر بالآيات.

فمن المحجوبين ما هو محجوب لبعد مكانه رغم أنه محسوس ملموس، و منها المحجوب لبعد زمانه: ماضيا أو مستقبلا، و منها المحجوب لصغرة كالذرة، و منها المحجوب لخلل أو كلل في البصر، و منها المحجوب لعدم وسيلة إبصاره، المناسبة له، و منها و منها..

و إن هي إلا حاضرة رغم احتجابها أو غيابها، مشهودة في ذواتها، غائبة

← الكفار نبهوا عن آلهتهم المحسوسة بحرف إشارة الشاهد المدرك، فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو اليه حتى نراه و ندركه و لا نأله فيه: فأنزل اللّه تبارك و تعالى: «قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ» فالهاء تثبيت للثابت، و الواو إشارة إلى المحجوب عن درك الأبصار و لمس الحواس و انه تعالى عن ذلك بل هو مدرك الأبصار و مبدع الحواس (نور الثقلين ج ٥ ص ٧٠٨ ح ٥٥)، و الحديث الثاني نفس المصدر ص ٧٠٠ ح ٧ عن كتاب التوحيد للصدوق و فيه انه (ع) قرأ «قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ» ثم قال مقالته تلك.

١. التوحيد عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني في عرض دينه على الامام علي بن محمد النقي (ع).

لحواجب يمكن زوالها.

و لكن الهوية الإلهية هوية مطلقة، غيبة مطلقة لا يرجى ظهورها بالذات، اللهم إلا بالآيات..

يا من هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره بنور وجهه استنار كل شيء و عند نور وجهه سواه فيء[1] ف «هو» ضمير للتعريف بشأن الألوهية و ليس ضمير الشأن بل هو ضمير يشير إلى أنه تعالى ضمير: محجوب بحقيقة الغيب، رغم ظهوره و بهوره كالشمس في رايعة النهار، ظهورا بالآيات دون الذات.

ف «هو» من أسماء الغيب للّه تعالى دلالة و مدلولا، إذ لا يشار به إلا إلى الغائب، مطلقا أو نسبيا، و اللّه هو الغيب المطلق، فلو كان الاسم الأعظم لفظيا أو أن لفظا يدل عليه، لكان «هو» أو أنه من أفضله، ثم «الله» و كما في روايات عدة[2].

«هُوَ اللَّهُ» اللّه تعريف ثان باللّه: الاسم الأعظم الظاهر، و هو من إله «إذ إله الخلق عن درك ماهيته و الإحاطة بكيفيته، و هو المعبود الحق لا معبود سواه.

---

١. من منظومة الحكيم الحاج ملا هادي السبزواري قدس اللّه سره.

٢. التوحيد عن أمير المؤمنين (ع) رأيت الخضر (ع) في المنام قبل بدر بليلة فقلت له: علمني شيئا انصر به على الأعداء، فقال: قل: يا هو يا من لا هو إلا هو، فلما أصبحت قصصتها على رسول اللّه (ص) فقال لي: يا علي! علمت الاسم الأعظم، فكان على لساني يوم بدر.

و من أله: تحير ـ عجز ـ سكن ـ فزع ـ أولع: إذ عجزت الخلائق عن اكتناه ذاته المقدسة، و سكنوا اليه و فزعوا إلى ساحة قدسه، كما عن أئمتنا المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين[١] و إنه اسم يخصه دون سواه، و له من هذا الاسم في مختلف اللغات: ک «يهوه» العبراني و..

فكما لا يشاركه تعالى في ذاته و صفاته و في أفعاله أحد، كذلک في اسمه:

توحيد مزدوج: اسما و مسمى: لا شريک له، و لا اسميا.

نجد هذا الاسم المبارک للذات المقدسة الإلهية «٩٨٠» مرة مكررة في آي الذكر الحكيم، دون غيره من أسماء أو أسماء غيره، اهتماما بهذا الاسم الأعظم إلى مسماه.

ثم «اللّه» كتفسير ل «هو» كما «أحد» تفسير ل «اللّه» و «الصمد» يفسر «أَحَدٌ» و باقي ألفاظ السورة تفسير للصمد.

«اللَّهُ أَحَدٌ» إن بين الأحد و الواحد فروقا شتى: فالأحد يفي بما لا يفي به الواحد، و لم يوصف اللّه تعالى ب «أحد» إلا هنا، و أما الواحد فكثير، و الأحد في توصيف اللّه يشمل كافة الوحدات الحقة في الذات المقدسة الإلهية، وحدات لا كثرة

---

١. التوحيد عن أمير المؤمنين (ع): اللّه معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق و يؤله اليه، و اللّه هو المستور عن درک الأبصار و المحجوب عن الأوهام و الخطرات.

فيه عن الباقر (ع) معناه المعبود الذي أله الخلق عن درک ماهيته و الاحاطة بكيفيته.

فيها، و ليست عن عدد، و لا في عدد، و لا بتأويل عدد، و لا بعدد، على حد تعبير الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام، فما سوى اللّه لا توجد فيه وحدات إلا كهذه التي هي كثرات:

فالإنسان ـ مثلا ـ واحد عن عدد: من الآباء و الأمهات، و عن عدد من العناصر و عن..

و واحد في عدد: لأنه مركب من مليارات الأجزاء، لا يتمكن أن يتحلل عنها فيتوحد في جزء لا أجزاء له، إلا أن يتحلل عن الوجود.

و واحد بعدد و بتأويل عدد، تأويل المأخذ المسبّق، و تأويل الحال الحاضرة، و تأويل المستقبل، فإنه سوف يتعدد في أولاده و أحفاده الذين ينفصلون عن صلبه، و كما كان متعددا منبثّا في الأصلاب و الأرحام و هو الآن في عدد.

و لكن اللّه تعالى ليست وحدته عن عدد، لم يكن متعددا ثم توحّد، إذ لم يولد، و لا في عدد: لا أجزاء لذاته المقدسة، و لا بتأويل عدد: إذ لم يلد...

إنه واحد أزليا، و واحد أبديا، و واحد ذاتيا، و واحد صفاتيا، و واحد أفعاليا و واحد.. و إنه أحدي كما نجده في جواب الإمام علي عليه السّلام عن سؤال

الأعرابي في حرب الجمل[١] فكالتالي:

١) أحدي الذات، إذ لا جزء له و لا أجزاء، و لا حد و لا حدود، فإنه مجرد عن الحدود و الأجزاء، فلا أحد إلا هو، إذ لا مجرد حقيقيا إلا هو، أحدية سرمدية: دون بداية و لا نهاية.

٢) أحدي الشخص: فلا ثاني له و لا شريک.

٣) أحدي الصفات في معنيين: أن لا مثيل له في صفاته: ـ ٤) و أن صفاته عين ذاته، إذ لا تزيد على ذاته، لا جوهرا على ذاته، و لا معنى زائدا على ذاته، و لا أية حقيقة سوى ذاته المقدسة، فلا تعدد حقيقيا في صفاته، و لا في ذاته و صفاته.

٥) أحدي السرمدية: فلا أزلي سواه، و لا أبدي سواه: هو الأول و الآخر..

---

١. التوحيد بالإسناد: ان أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال: يا أمير المؤمنين! أتقول: ان اللّه واحد؟ قال: فحمل الناس عليه و قالوا: يا اعرابي! أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين (ع): دعوه، فإن الذي يريده الاعرابي هو الذي نريده من القوم ـ ثم قال: يا اعرابي! ان القول في أن اللّه واحد على أربعة أقسام:

فوجهان منها لا يجوزان على اللّه عز و جل، و وجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد ـ يقصد به باب الأعداء، فهذا ما لا يجوز، لان ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، ألا ترى انه كفر من قال: ثالث ثلاثة؟ و قول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه، لأنه تشبيه، و جل ربنا عن ذلک و تعالى.. و أما الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبيه، كذلک ربنا، و قول القائل: انه ربنا عز و جل أحدي المعنى، يعني انه لا ينقسم في وجود و لا عقل و لا و هم، كذلک ربنا عز و جل.

٦) أحدي في الخالقية: «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» (٣٥: ٣) «قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» (١٣: ١٦). فلا خالق سواه إلا بإذنه:

«وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي» (٥: ١١٠): خلقا بإذن اللّه دون استقلال.

٧) أحدي في المعبودية: لا معبود سواه «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (٤٠: ١٤).

و أحدي في كلمّا له من ذات و أفعال و صفات، إن صح الكل لما ليس له جزء، ف:

«هو خلو من خلقه و خلقه خلو منه» «لا هو في خلقه و لا خلقه فيه» «باين عن خلقه بينونة ذات و صفة، لا بينونة عزلة: «في علم و قدرة» (حديث شريف).

إنه واحد لا بعدد، و هو الأحد إذ لا ثاني له، و لا يدخل في باب العدد، إذ لا يقال: أحد اثنان.. إنما: واحد اثنان، فهو واحد أحدي، و ليس واحدا عدديا..

و إنه لا يتعدد في لفظ و لا معنى، فهو «أحد» رغم أن الواحد يتعدد فيهما:

١ ـ واحد اثنان، ٢ ـ أنا واحد، و قد تركبت من ملايين الأجزاء.

و «أحد» في وصف اللّه، يضم كافة الصفات الثبوتية و السلبية، كما و يكملها

«الصمد».

فالأحدية الذاتية و الفاعلية و الصفاتية و السرمدية و المعبودية، كلهما معنية من «أحد» دون اختصاص بناحية دون أخرى.

كما و تنفي كافة الكثرات عن ذاته و صفاته و أفعاله..

اللَّهُ الصَّمَدُ:

تفسير للهوية الإلهية: «هو» و إلهيته «الله» و أحديته «أحد» و كما يفسّر الصمد ب «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ».. خير مفسّر و مفسّر[1].

و «الصمد» هو الذي ليس له جوف، لا جسماني لأنه لا جسم له، و كل جسم مجوّف! و لا روحاني، لأنه جامع الصفات و الكمالات الذاتية اللامحدودة، لا ينقص صفة، و لا تنقصه صفة لائقة لذاته المقدسة، حتى يكون أجوف معنويا، و على حد تعبير

الإمام الصادق (ع): صمد لا مدخل فيه»

١. التوحيد عن باقر العلوم (ع): أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي (ع) يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم: بسم اللّه الرحمن الرحيم، أما بعد، فلا تخوضوا في القرآن و لا تجادلوا فيه و لا تتكلموا فيه بغير علم فقد سمعت جدي رسول اللّه (ص) يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، و أن اللّه سبحانه قد فسر الصمد، فقال: «اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ» ثم فسره فقال: «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ».

و كل مادة فيها مدخل! و عن أمير المؤمنين علي (ع): «الصمد بلا تبعيض بدد» فالصمد لا يبعض و لا مدخل فيه، فليست المادة صمدا، و لا الروح كذلک، لأنها مدخل و داخلة، و هي مبعضة.

إن المادة، أية مادة ـ و إن كانت ذرة و أجزاءها ـ إنها جوفاء، فكما التركب كيان المادة، كذلک كونها جوفاء، و كما المادة دون تركب هي لا مادة، كذلک المادة دون جوف هي لا مادة.

فالمادة جوفاء بالمعنيين، جوفاء ذاتيا: أن في ذاتها جـوف و خـلو، و جـوفاء معنويا لفقدانها الكثير الكثير من الكمالات.

إذا فالمادة ليست صمدا لا جوف له، إنما اللّه هو الصمد الذي لا جوف له: سالبة بانتفاء الموضوع: ليس ماديا حتى يكون له جوف مادي، و بذلک تسلب عنه الذات المادية بجميع مصاديقها و مراحلها، ثم سالبة بوجود الموضوع: أن لو تصورنا كائنا مجردا، ناقصا عن بعض الكمالات، فاللّه ليس مجردا أجوف، بل هو مجرد صمد: هو الكمال اللامحدود من ذات و صفات الألوهية.

و الصمد بهذا المعنى لزامه السيادة التامة و أن يكون مرجعا و ملجأ، إليه ينتهي

السؤدد و لا ينتهي سؤدده[١].

لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ:

لا هو والد كما المسيحيون يزعمون: «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ»:

الوثنيين الثالوثيين، و لا هو ولد له والد، كما هم يظنون: الإله الولد، و الإله روح القدس.

«لَمْ يَلِدْ»: ليس خلقه لما سواه في معنى الولادة، سواء أكانت بانفصال النطفة، أم بتبدّل الوالد ولدا، أم.. كما يقال في خرافة الثالوث بما اختلقته الكنائس، مضاهاة الوثنيين[٢]! لم يلد: و إنما خلق ـ أوّل ما خلق ـ لا من شيء و خلق منه سائر الخلق، فليس خلقه من ذاته، و إنما من شيء خلقه أولا، كما خلق الأول لا من شيء، لا من

---

١. التوحيد عن باقر العلوم (ع) عن أبيه عن جده الحسين بن علي (ع) انه قال: الصمد الذي لا جوف له، و الصمد الذي لا ينام، و الصمد الذي لم يزل و لا يزال.

في المجمع عن عبد خير قال: سأل رجل عليا (ع) عن تفسير هذه السورة فقال: قل هو اللّه أحد، بلا تأويل عدد، الصمد بلا تبعيض بدد.

أقول: ان كل تبعيض بدد و الى بدد، لمكان الحاجة، و اللّه ليس مبعضا فليس جسما، إنه الصمد الذي ليس له جوف.

و عن محمد بن مسلم عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن اليهود سألوا رسول اللّه (ص) فقالوا:

انسب لنا ربك فلبث ثلاثا لا يجيبهم، ثم نزلت هذه السورة فقلت: ما الصمد؟ فقال: الذي ليس بمجوف (نور الثقلين ج ٥ ص ٧١٣) و روى مثله الفاضلان الحلبي و زرارة عن أبي عبد اللّه (ع)، و روى هارون بن عبد الملك عنه (ع).. و صمد لا مدخل فيه.

٢. انظر تحليلنا في آخر سورة الإخلاص بعنوان: «توحيد الثالوث».

لا شيء، حتى يكون مبدأ الخلق عدما، و لا من شيء في البداية حتى يكون ذلك الشيء أزليا كمثله.

«وَ لَمْ يُولَدْ» ليس الوجود الإلهي مولود الخيال لكي يصبح الإله خيالا لا حقيقة له، و لا مولود إله آخر لكي يكون حادثا فمخلوقا، «فسبحانه سبحانه من إله لم يلد فيكون موروثا هالكا، و لم يولد فيكون في العز مشاركا».

و على حد تفسير

الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: «لم يلد: لم يخرج منه شيء كثيف كالولد و سائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، و لا شيء لطيف كالنفس، و لا يتشعب من البدوات، كالسنة و النوم و الخطرة و الهمّ و الحزن و البهجة و الضحك و البكاء و الخوف و الرجاء و الرغبة و السأمة و الجوع و الشبع، تعالى أن يخرج منه شيء. و أن يتولد منه شيء كثيف أو لطيف، و لم يولد: لم يتولد من شيء، و لم يخرج من شيء، كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها، كالشيء من الشيء، و الدابة من الدابة، و النبات من الأرض، و الماء من الينابيع، و الأثمار من الأشجار، و لا كما تخرج الأشياء اللطيفة من عناصرها، كالبصر من العين، و السمع من الأذن، و الشمّ من الأنف، و الذوق من الفم، و الكلام من اللسان، و المعرفة و التمييز من القلب، و

كالنار من الحجر، لا! بل هو اللّه الصمد الذي لا من شيء و لا في شيء، و لا على شيء، مبدع الأشياء، و منشئ الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته، و يبقى ما خلق للبقاء بعلمه، فذلكم اللّه الذي لم يلد و لم يولد، عالم الغيب و الشهادة الكبير المتعال، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ»[١].

وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ:

لم يكن: ـ في الأزل و من الأزل و لن يكون في الأبد و الى الأبد ـ من يكافئه في ألوهيته، أو يضاهيه و يناصره و يعاضده، أو يعارضه، رغم خرافة أزلية إله الابن في صيغة متناقضة: «مولود غير مخلوق» فإنه لا يعني إلا أنه: مولود غير مولود! إنه ليس له كفو، سواء أ كان والدا له، أو ولدا منه، أو من يتخذه ولدا، أو كائنا مستقلا بجنبه[٢]، أيا كان، فهو الوحيد السرمدي في ألوهيته، لا يشرك فيها أحدا من خلقه، فهو الخالق و الرازق و الموفق و المؤيد و الديان و الهادي، و.. لا سواه، إلا رسلا يدعون إليه، و ليس لهم من الأمر شيء.

---

١. نور الثقلين ج ٥ ص ٧١٣ عن كتاب التوحيد للصدوق.

٢. من جواب الامام الباقر (ع) لأهل فلسطين: و لم يكن له كفوا أحد فيعازه في سلطانه. أي يشاركه في عز الألوهية.

و عن أبي عبد اللّه الصادق (ع) في حديث: لم يلد لأن الولد يشبه أباه، و لم يولد فيشبه من كان قبله ـ و لم يكن له من خلقه كفوا أحد ـ تعالى عن صنعة من سواه علوا كبيرا (نور الثقلين ج ٥).

فهذه الآية الأخيرة تعم دلالة على عدم ولادته، و عدم اتخاذه ولدا، إذ هما يشاركان في لزوم الكفؤ له تعالى، و القرآن ينفيهما هنا إجمالا و في سائر الآيات تفصيلا.

فهذه السورة تنفي عن اللّه تعالى ما يحق نفيه عن ساحة قدسه، و تثبت له ما يحق لألوهيته، دون أن تنقص شيئا منهما على قلة ألفاظها.. ثم نجد التفاصيل منبثّة في الذكر الحكيم قرابة ثلث القرآن أو ربعه.

ثم نجدها براهين قاطعة للتوحيد الحق، كل آية تفسّر ما قبلها و تفسرها ما بعدها، ف «اللّه» يفسر «هو» : أن الذي هو غيب مطلق، اسمه اللّه، لا ما ما تختلقون من أسماء لمن تدعونهم آلهة، و «اللّه» أحد ـ فإن الأحدية الحقيقية المطلقة لزام من هو غائب عن ادراك الحواس. ف «هو» : اللّه ـ و «هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، ثم «الأحد» «صمد» لا محاله، فلو كان له جوف كان متعددا و لم يكن أحدا، و لو كان له جوف روحاني بمعنى النقص، لم يكن أحدا في الكمالات، و لو كان له جوف: بإضافة الصفات إلى الذات، لم يكن أحدا في الصفات، ثم لزام «الصمد» أنه «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ».. لأن الوالد ـ مهما كان ـ إنه أجوف مزدوج الكيان، و ليس صمدا: لا جوف له، و هو تعالى صمد لا جوف له:

سواء الجوف المادي أم سواه، فلا يخرج منه شيء كثيف و لا لطيف لأنه صمد لا جزء له و لا أجزاء، لا حد و لا حدود.

«وَ لَمْ يُولَدْ» إذ إن الحاجة إلى الولادة و الحدوث، هي خاصة بالكائن الفقير، و هو المادي الأجوف، فإذا كان صمدا فلا يحتاج أن يولد كما يستحيل أن يلد.

«وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» إذ إن الكفؤ إما هو ذات يخرج من ذاته، فهو «لَمْ يَلِدْ» فيكون في العز مشاركا، أو من يتخذه ولدا فأسوء حالا و أضل سبيلا، فإذا كان الولد ـ الذي هو من جوهر ذات الوالد ـ منفيا عنه تعالى، فبالأحرى من يتخذه ولدا، و لماذا يتخذ؟

أو أن الكفؤ كائن مستقل عن ذات اللّه و عن اتخاذه شريكا، فهو أيضا يتناقض و تجرديته المطلقة اللامحدودة، حيث اللامحدود لا يتعدد ـ و محال أن يتعدد ـ فإن العدد إنما هو في المحدودات.

و يتناقض أحديته و صمديته، فإن الصمد: غير المحتاج إطلاقا، ليس له شريك إطلاقا من أي الثلاثة: ولدا، أو من يتخذه ولدا، أو إلها مستقلا عن كيانه تعالى، فلم يكن له كفوا أحد[1].

---

١. التفصيل العقلي في كتابنا «حوار بين الإلهيين و الماديين».

و إليكم إجمالا بعد تفصيل في تفسير هذه السورة كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه أفضل التحية و السلام:

«سأل رجل عليا عليه السلام عن تفسير هذه السورة فقال:

هو الله أحد بلا تأويل عدد، الصمد بلا تبعيض بدد، لم يلد فيكون موروثا هالكا، و لم يولد فيكون في العز مشاركا، و لم يكن له من خلقه كفوا أحد»[1].

توحيد الثالوث!

و في ختام البحث عن طرف من التوحيد القرآني، لنطرح هذا السؤال في محكمة العقل و النقل الكتابي و نتبع وحي الكتاب على ضوء العقل..

مما لا يشك فيه أي عاقل: أن الثالوث يختلف عن الواحد، ضرورة اختلافهما عند من يميز الواحد عن الثلاثة.

ذلك، بالرغم من أن كثيرا من الكنائس في العالم المسيحي تعلّم: أن اللّه «ثالوث» مع أن كلمة ثالوث لا وجود لها في الكتاب المقدس.

إن الدستور «الأثنايوسي» يؤيد وجود (إله واحد): «الأب و الابن و الروح القدس ـ أي ثلاثة أقانيم في إله واحد»: ـ هذا الدستور ـ نحو القرن الثامن للميلاد ـ

---

١. نور الثقلين ٥: ٧١٥ ح ٨٥ عن عبد خير عنه (ع).

يقول: إن الأب و الابن و الروح القدس، هؤلاء هم كلهم من نفس الجوهر، و الثلاثة هم سرمديون و قادرون على كل شيء!! إلا أن هذه العقيدة لم تكن تـعرف عـند الأنبياء العبرانيين و الرسل المسيحيين، و تعترف دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة (ط ١٩٦٧ ج ١٤ ص ٣٠٦) بأن عقيدة الثالوث لا يجري تعليمها في العهد القديم، كما و تعترف أنها يرجع تاريخها إلى نحو ثلاثمائة و خمسين سنة بـعد المسـيح، لذلک فإن المسيحيين الأولين الذين تطمّوا مباشرة من يسوع المسيح لم يؤمنوا أن اللّه ثالوث.

و فوق ذلک نرى المسيح لا يرضى أن يخاطب بكلمة الرب، و يـعتبر قـائلها شيطانا، إذ قال له بطرس: «حاشاک يا رب، فالتفت و قال لبطرس:

اذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي لأنک لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (متى ١٦: ٢٢ _ ٢٣).

فالسيد المسيح عليه السّلام هنا يصرح: أن الإعتقاد في ربوبيته معثرة شيطانية من بطرس.

كذلک و يندد بمن يعتبره معادلا للّه، حيث اليهود اعترضوا عليه إذ شفى مريضا في السبت، فأجابهم: آبي يعمل و أنا أعمل، فمن أجل هذا قالوا: إنه كسر السبت و

جعل نفسه معادلا للّه (يوحنا ف ١٧).

يعني: خالقي يعمل و أنا أعمل، و ليس عملي عمل الخالق، إنما هو بإذنه و أمره، فلست إذا معادلا للخالق.

إذ إن الأب ـ بالمد ـ لغة يونانية تعني الخالق، و ليست عربية حتى تعني الوالد، إلا إذا أريد بها شهر الآب أو مثله من الآب! و من عجيب الخلط أن الكنائس تفسّر الآب دائما بمعنى الوالد! فيا ليتهم حذفوا المدّ حتى يصح لهم هكذا تفسير خادع! إن السيد المسيح لا يرضى أن يقال له: حتى: أنه صالح، فكيف بـالرب الإله؟: «و إذا واحد تقدم و قال له: أيها المعلم الصالح!.. فقال له: لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد و هو الله» (متى ١٩: ١٦ ـ ١٩).

فهل إن هذا العبد الخاضع المتواضع بجنب ربه يدعي الربـوبية و الألوهـية، و تساويه في الجوهر مع اللّه؟ كلا! و إنه حسب الأناجيل، يعترف بعبوديته و أنه ابن الإنسان كما في ثمانين موضعا[1].

كما و يصرّح: أن الحياة الأبدية معرفة اللّه بالوحدانـية، و أن المسـيح رسـوله (يوحنا ١٧: ٣) و: «أن أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحدا» (مرقس ١٢: ١٩) «و

---

١. و منها متى ٨: ٢٠ و ٩: ٦ و ١٦: ١٣، ٢٧ و ١٧: ٩ و ١٢ و ٢٢ و ١٨: ١١ و ١٩: ٢٨ و ٢٠: ١٨ و ٢٠ و ٢٤: ٢٧ و ٢٦: ٢٤ و ٤٥ و ٤٦ في الأناجيل الثلاثة الاخرى.

قال له الكاتب: لقد قلت حسنا: إن الله إله واحد و ليس غيره مـن إله، و لمـا رآه المسيح عاقلا في جوابه و كلامه خاطبه قائلا: لست بعيدا عن ملكوت الله» (مرقس ١٢: ٣٢ و ٣٤).

و نرى كذلك في الكتب المقدسة أنه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» () زمور ١٠٢: ٢٦) و لا تجوز الصلاة لغير اللّه (متى ٤: ١٠ مقابلة مع تثنية ۶: ١٣ و ١٠: ٢٠) و لربما راح المنجي يسوع إلى الصحراء منفردا يدعو (متى ١۴: ٢٣ و ٢۶: ٢٩ و مرقس ١: ٣٥ و لوقا ۵: ١۶) و أرفع صلاة و أعلاها التي تربو على صلواته كلّها، ما صلّاها أخيرا مع الحواريين (يوحنا ١٧: ١ ـ ۵ و ۶: ١٩ و ٢٠: ٢۶) و شكر ربه حيث استجاب دعوته (يوحنا ١١: ۴١ ـ ۴٢) و استعان بربه حينما سلّم إلى الصليب (يوحنا ١٢: ٢٧) و سأله: إلهي إلهي لم تركتني، و ذلک حينما صلب.! زعمهم.

أ فهل كان يصلي لنفسه لأنه الرب نفسه؟ أم لمعادله؟ لأنه معادل اللّـه! أم كـان يستعين بنفسه إذ سلم إلى الصليب؟!.. هذه الآيات المقدسات تؤيد و تتأيد بالمئات المئات من آيات اللّه البينات في كتابات الوحي طوال القرون الرسالية دون خلاف، فخلافها إذا مقحمة بأيدي الدسّ و التحريف كالتالي:

.. أنه: ابن اللّه (متى ٣: ١٧) و أوّل مواليده (عبرانيين ١: ٩) ابن اللّـه المـبارک

(مرقس ١٤: ٦١) و أنه هو اللّه (يوحنا ١: ١) الأزلي (عبرانيين ٩: ١٤) و الرب و مثل اللّه (متى ٢٣: ٣٤ لوقا ١١: ٤٩).

و مثل اللّه هو رب الشريعة، فبقدرته الشخصية يتم ناموس موسى و يعدّله (متى ٥: ٢١) و مثله يعتمد عهدا مع البشر (متى ٢٦: ٢٨) فالإيمان الذي يقتضيه مسيح الإنجيل في البعض من آياته المقحمة، إنما يقتضيه لنفسه لا لربه، فيريد أن يكون هو موضوع الإيمان و سببه (لوقا ٩: ٢٦) و يرضى بأن تقدّم له عبادة دينية فيقبل السجود لنفسه، ذلک السجود الذي ـ بحسب العقلية اليهودية و المسيحية (استير ١٣: ١٢، أعمال ١٠: ٢٦، رؤيا يوحنا ١٩: ١٠ ـ ٢٢: ٩) ـ ذلک الذي يعود و يختص بالإله الحق وحده، (انظر: متى ١٥: ٢٥ و ٨: ٢ و ٩: ١٨ و ١٤: ٣٣ و ٢٨: ٩ و ١٧).

هذه الآيات الأخيرة بعضها مقحمة كالمصرحة بما ينافي توحيد الإله، و الأخرى متشابهة أو غير دالة[1].

و القرآن إذ يصدق الإنجيل، فإنما يصدق ما فيه من وحي السماء، لا المقحمات مثل التثليث، و كما يندد بالثالوث في آيات، و يعتبره من الوثنية، و يصرّح أن

---

١. راجع «حوار» و «عقائدنا» باب التثليث.

المسيح من أعظم الموحدين المعارضين للخرافات الشركية قائلا:

«يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ» (٥: ٨١) «يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (٣: ٥٧) «وَ قالَ الْمَسِيحُ: يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» (٥: ٧٢) «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (٥: ٧٢ ـ ٧٣) «وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (٩: ٣١).

فالنصرانية ـ حسب الآية الأولى و الأخيرة ـ منذ القرن الثالث و حتى الآن، تقلّد قوما مثلثين ضلوا من قبل و أضلوا كثيرا، و هم الثلث الثالوثيون من مجلس «نيقية» و على رأسهم «اثناسيوس» و هؤلاء أيضا يضاهئون في خرافة الثالوث «قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» و هم من يذكرهم تاريخ الأديان الوثنية طوال قرونها، كالتواليث التالية:

الثالوث الفرعوني: (اوزيرس ـ ايزس ـ حورس).

و الثالوث البرهمي: (برهمة ـ فشنو ـ سيفا) و مثله البوذي و الصيني و الهندي و المصري و اليوناني و الروماني و ثالوث الفرس: (أورمزد ـ مترات ـ اهرمان) و الفنلندي: (تريكلاف) و الاسكندنافي (اورين ـ تورا ـ فري) و الدردي:

(تولاک ـ فان ـ مولا) و الأوقيانوسي و المكسيكي و الكندي[1].

أنا و الآب واحد!

و من الآيات الإنجيلية التي توهم إلى الشرک، هي القائلة عن السيد المسيح:

«أنا و الآب واحد» (يوحنا ١٠: ٣٠).

لكنها لا تدل على الثالوث، إنما على التثنية ـ لو دلت ـ (أنا و الآب) و لكنها أيضا لا تعني الوحدة في جوهر الذات و الكيان الإلهي، و إنما وحدة الهدف و الاتجاه، فلا شک أن يسوع لم يكن يناقض الآيات المقدسة التي سبقت في التوحيد، و ما عناه هنا إنما أوضحه هو نفسه فيما بعد، عند ما صلى لأجل أتباعه: «ليكونوا واحدا كما أننا نحن واحد» (يوحنا ١٧:) فيسوع و آبوه خالقه، هما واحد، بمعنى أن يسوع على وفاق تام مع خالقه، و صلى ليكون كل أتباعه على وفاق مع الخالق و مع يسوع

---

١. راجع «حوار» و «عقائدنا».

بعضهم مع بعض.

فهناک في الكتب المقدسة آيات مقحمات كالمصرحة بربوبية المسيح، و آخر متشابهات كهذه، و ثالثة محكمات، فالمفروض إرجاع متشابهاتها إلى محكماتها، و رفض مقحماتها.

فمن المقحمات الآية: «أ لست تؤمن أني أنا في الآب و الآب في، لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال» (يوحنا ١۴: ١٠) أو يقال إنها يفسرها قول السيد المسيح عليه السّلام: «كما أنک أيها الآب في و أنا فيک، ليكونوا هم أيضا واحدا فينا ليؤمن العالم أنک أرسلتني» (يوحنا ١٧: ٢١).

و ترى كذلک بجنبها محكمات في التوراة و في الإنجيل قائلة:

«قال الله لن تسكن روحي في الإنسان إلى الأبد لأنه لحم» (تكوين ۶: ٣) «و فيما هم يتكلمون بهذا أوقف يسوع نفسه في وسطهم، و قال لهم:

سلام لكم. فجزعوا و خافوا و ظنوا أنهم نظروا روحا. فقال لهم ما بالكم مضطربين و لماذا تخطر أفكار في قلوبكم. انظروا يدي و رجلي أني أنا هو.

جسوني و انظروا فإن الروح ليس له لحم و عظام كما ترون لي. و حين قال هذا أراهم يديه و رجليه. و بينما هم غير مصدقين من الفرح و متعجبون قال لهم أ عندكم

هاهنا طعام. فناولوه جزءا من سمک مشوي و شيئا من عسل فأخذ و أكل قدامهم» (لوقا ٢٤: ٣٦ ـ ٤٣).

فالآية التوراتية تحيل حلول الإله المجرد عن الجسم في الجسم ـ أيا كان ـ لأنه جسم، فإن المحدود لا يشمل اللامحدود، و المجرد لا يحوي الجسم.

و كذلک الآيات الإنجيلية تحيل هكذا حلول، إذا فالمعني من الآية: «الآب في و أنا فيه» ليس هو التداخل الجوهري، و إنما يعني كمال العبودية و الذلة:

ألّا يعتبر السيد المسيح نفسه في جنب ربه شيئا مذكورا، فكأنه فيه «أنا فيه» و أنه لا ينطق و لا يعمل إلا حسب مخططات الوحي الإلهي ليس إلّا: «الآب في» لا سيما مع كون الآب يعني: الخالق، و من المستحيل اتحاد الخالق و المخلوق في الجوهر.

و يزيد توضيحا لآلية: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا» (يوحنا ٥: ٣٠).

فالسيد المسيح ـ و معه النبيون أجمع ـ يسلب عن نفسه الربوبية و الشرک باللّه، و القدرة الإلهية و الحول و القوة المستقلة، و إنما يصرح: «أنه إنسان نبي» (لوقا ٢٤: ١٩) و ليس أحد صالحا إلا إله واحد و هو اللّه» (متى ١٩: ١٧) «و أما ذلک اليوم فلا يعلم أحد به و لا الملائكة و لا الابن إلا الآب الخالق» (لوقا ٥: ١۴ و ۴: ١٢) «و الله لم يره أحد قط» (يوحنا ١: ٨) «و لا يقدر أحد أن يراه» (اتيموثاوس ۶: ١۶) «و

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين» (متى ۴: ۲۶).

و في التوراة: «أن الله ليس له مكان» (أشعيا ۶۶: ۱ ـ ۲) «و لا يعبد إلا هو، و من عبد غيره يقتل» (خروج ۲۰: ۳۴ و تثنية ۱۳ و ۱۸).

إذا فإلى كلمة سواء:

«يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

أصحابنا المسيحيين! تعالوا اتبعوا المسيح و النبيين في توحيد الإله و رفض خرافة الثالوث اللامعقولة، و المضادة لنصوص الكتب المقدسة، هذه الخرافة الوثنية التي أصبحت كأنها من أصول الديانة المسيحية... تعالوا إلى كلمة سواء.

الثالوث في مختلف الأديان الوثنية:

«إن أقدم ما نعثر عليه في تاريخ الفراعنة، الثالوث المكوّن من الآلهة (اوزيريس ـ ايزيس ـ حورس) الأب و الأم و الولد، ثم المكوّن من «آمون» و زوجه «موت» و ابنه «خونس» و هو تثليث بلدة «تب» و هم الأب و الأم و الولد، ثم المكوّن من (فتاح ـ سنحت ـ ايموس) و هو لبلدة «منف» ثم المكوّن من (انوبيس ـ معات ـ

توت) ثم المكوّن من (آنوا ـ بعل ـ آيا) و هو ثالوث الكلدانيين، ثم المكوّن من (سن ـ شمش ـ عشتار) الأب و الابن و الأم، ثم المكوّن من (مينوسن ـ رادامانت ـ ايبال) أولاد «زوس» الإله الأعظم، ثم المكوّن من (الأب و الابن و روح القدس) و هو للمسيحيين[1] «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

و لقد «كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثالوثي، أي الإله ذو الأقانيم الثلاثة»[2].

و حقا إنه عزيز علينا اتباع الديانات الكتابية الإلهية هكذا أن يتبع بعضها الأمم البائدة الوثنية في الأصول الإلهية..

فإلى كلمة سواء بيننا و بينكم، يرضاها العقل و الدين!

بداية الثالوث المسيحي:

إن أقدم صيغة تعليمية رسمية لإيمان الكنيسة بشأن الثالوث (حسب ما في مختصر في علم اللاهوت العقائدي) هي قانون الرسل الذي اتخذته الكنيسة منذ القرن الثاني في شكل قانون العماد الروماني القديم كأساس لتعليم الموعوظين، و

---

١. حياة السيد المسيح ل: فاروق الدملوجي، ص ١٦٢.

٢. موريس في كتابه «خرافات المصريين الوثنيين» ص ٢٨٥ ـ ينقله عنه محمد طاهر التنير البيروتي في كتابه «العقائد الوثنية».

لاعتراف الإيمان في حفلة العماد عند اللاتين.

ثم.. قانون نيقية القسطنطنية (٣٨١ م) و قد نشأ ضد مذهبي آريوس و مقدونيوس، ثم المجمع الروماني برئاسة البابا القديس (داماسيوس) (٣٨٢) يدين بصورة اجمالية أضاليل القرون الأولى في الثالوث الأقدس! ثم إلى القرن ۵ و ۶ قانون أثناسيوس، ثم قانون مجمع طليطلة الحادي عشر (٧۶۵ م) ثم في القرون الوسطى قانون المجمع اللاتراني الرابع (١٢١۵ م) ثم مجمع فلورنس (١۴۴١ م) ثم في العصر الحديث تعليم لبيوس السادس (١٧٩۴ م).

و إن أول من دسّ في فكرة الكنيسة فكرة الأبوة و البنوّة الإلهيين، هو الخصي الكوسج المصري خادم الرهبان «اوريفين»[1] إلى أن تشكل مجمع «نيقية» (٣٢۵ م) إذ جاءت من الجماعات الروحية المسيحية من مختلف الأقطار من يزيدون على ألف مبعوث لانتخاب الأناجيل التي يجب أن تعتبر قانونية، و لقد كان ٣١٨ شخصا من هؤلاء من القائلين بألوهية المسيح.

و قد اجتهد آريوس رئيس الموحدين على أن المسيح مخلوق، و أنه عبد اللّه، مستدلا بما لديه من الآيات الانجيلية و بتفاسير الأعزة و الآباء من ايقليسيا، و

---

١. هو راهب أعزب عارف باللغات عاش في القرن الثاني الميلادي.

اعترف بهذه الحقيقة الثلثان الباقون من الألف، أعضاء المجمع.

و من ناحية أخرى قام رؤساء الثالوثيين (و على رأسهم اثـناسيوس) للـبرهنة على أن المسيح إله تام، و أنه متحد الجوهر مع اللّه، و أخيرا ترجّح رأي المثلثين، لا لشيء إلا للسلطة الجبارة آنذاك من قسطنطين (قونسطنطينوس) تحت ستار إيجاد الأمن بين المتخالفين، و أن قسطنطين هذا يرجح رأي صديقه البابا كـاهن رومـية الأعظم، و هو من الأقلية الثالوثية في النيقية، و يأمر بإخراج أكثر من سبعمائة من الرؤساء الروحيين الباقين الموحدين من المجمع، و يقتل آريوس رئيس الموحدين لكي يصفّي جو المجمع (٣١٨) الباقين المثلثين.

و لقد صرح السيد المسيح بهذا الحادث العظيم تنديدا بالمثلثين، و ترحما على الموحدين بقوله: «سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يـظن كـل مـن يقتلكم أنه يقدّم خدمة للّه و سيفعلون بكم لأنـهم لم يـعرفوا الآب و لا عـرفوني (يوحنا ١٥: ٢ _ ٣ و ١٣: ٩).

أي لم يعرفوا الآب «الخالق» بالوحدانية، و لا عرفوني بالعبودية.

و قسطنطين هذا كان و ثنيا ملحدا، فإن «بوسيبوس» بسقيوس قـيصرية (الذي تقدسه الكنيسة و تمنحه لقب سلطان المؤرخين) كان صديق الامـبراطـور، و هـو

يصرح: أن الامبراطور اعتمد و تنصّر حين كان أسير الفراش قبيل وفاته، و بناء على هذا نتأكد: أن خرافة الثالوث هذه ليست إلا من سلطان و ثني ملحد، و خصي كوسج مصري.

سورة الفلق ـ مكية ـ و آياتها خمس

[سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (٢) وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (٣) وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)

وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (٥)

ان هناك محاولات دائبة لإغلاق أبواب الخير و الفلاح على من يبتغيهما، فلا بد إذا من فالق و هو الخالق الذي خلق و فلق.

إن لشياطين الجن و الإنس إيجابيات و سلبيات كلها تنحو منحى الشر، غلقا لأبواب الخير، و فلقا لأبواب الشر، فسورة الناس تأمرنا بالاستعاذة من النوع الثاني،

و سورة الفلق منهما، و لكي تتم المكافحة علّ المؤمنين ينتصرون.

فربّ الفلق هو الذي يفلق ما أغلقته الشياطين: من غاسق إذا وقب، و من النفاثات في العقد، و من حاسد إذا حسد:

«ثالوث الشر و الفساد، الذي هو في قمة الشر، و لذلک تختص هي بالذكر بعد عموم الشر.

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ:

«إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِکَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (۶: ۹۵ ـ ۹۶).

فالفلق هو شق الشيء و استخراج ما فيه، و نحن نعوذ برب الفلق ليفلق لنا ما أغلقته الشياطين من أبواب الخير، و علينا أن نظل على الدروب: دروب الخير لنفتحها، و دروب الشر لنغلقها، مستعيذين برب الناس و الفلق، الذي يغلق للناس كل غلق، إلى ما فيه خير.

و الشر ـ أيا كان ـ قد يحصل بضم شيء إلى شيء، ففلقه فتقه، أو بفصله عنه، ففلقه رتقه، فكلاهما فلق اعتبارا بتحرير الخير الذي كان في أسر الشر، ففالق الحب

و النوى يحررهما عن جمود الحياة إلى حـريتها و نـضوبها و نـضوجها، و فـالق الإصباح يشق بطن الليل ليوضح وضح النهار.

و الشر ـ أيا كان ـ غلق على الحياة و أسر لها، فالفالق يفتح الحياة المغلقة و ينير الدرب على الأحرار، الذين يحاولون الفرار عن حياة الحيونة المتأخرة أو المجمدة، إلى حياة التقدم.

و كما يفلق اللّه تعالى الليل لإخراج النهار، و يـفلق الحب و النـوى لإخـراج الأشجار، كذلک هو الذي يفلق كل شر و يفتقه ليخرج منه الخير، كما و يخرج الحي من الميت بفلق الميت، و يخرج الميت من الحي بفلق الحي، و يخرج الجنين من المني بفلقه، و غير ذلک من فلق خيّر.

هذا الإله هو الذي يحق أن يستعاذ به من شر ما خلق:

مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ:

.. «ما خلق» لا «خلقه» إذ ليس في خلقه ـ و هو فعل من أفعاله ـ ليس فيه شر، فالخير كله بيديه و الشر ليس اليه: «بِيَدِکَ الْخَيْرُ إِنَّکَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

و أما ما خلق: المخلوقون، فهم الدين يفعلون الشر بسوء اخـتيارهم، أو سـوء الاختيار و التصرف فيهم من المتخلفين، و شاهد مسبّق عليه، الأمر بالاستعاذة برب

الفلق، فهل يستعاذ به تعالى مما فعل؟ كلا ـ و إنما مما يفعله ما خلق:

الأشرار من خلقه.

فللخلائق شرور عدة في حالات اتصال بعضها ببعض و بعضهم ببعض، و اللّه يفلق هذه الشرور فصلا بين عماله و أعمالهم.

و شرور الخلق تعم التفكير السوء و العقيدة و العمل السيئين، و تعم الجانب التشريعي و التكويني من الشر، و هو الفالق هنا و هناك: أن يسن قوانين و أحكاما لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، حيث الشرور ناتجة عن الانفصالات و التضادات، أو من الاتصالات السيئة، و هو الفالق: أن يقدر و يدبر الخير رغم هجمات الشر و همجاته.

و داعية الشر يفحص عن مجالاته الملائمة و هي الظلمات و لا سيما الغاسقة، يفحص عن ظلمات العقول و الأجواء.. و ليتمكن من تحقيق شره: و رب الفلق يفلق الظلمات إلى النور أيا كان:

وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ:

فالليل له غسق و هو مرتفعة في الظلام: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ» (١٧: ٧٨) و الطعام له غسق و هو الذي يظلم على الإنسان حياته و كأنه

يعميه من شدة الغصة: «هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ» (٣٨: ٥٧).

و الغاسق ـ و هو الذي يدخل في غسق ـ ليس فيه كثير خطورة ما لم يقب، و الوقب هو النقرة في الجبل يسيل منها الماء، فإذا وقب الغاسق و مكّن فهناک تمام الشر و وقعته.

فالليل مجال الغاسق: ليل الأفق الخارجي، وافق العقل و الصدر و القلب، فـإذا وقب و نقر في واحد من هذه الآفاق فقد انتصر.

و الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة، إنه مخوف بذاته، فضلا عما يثيره من توقع المجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس يهجم، و لص فاتک يـقتحم، و عدو ماكر يتمكن، و حشرة ضارية، و من شهوة تستيقظ في الوحدة و الظلام، و عقل قاصر، و شهوة حاضرة... كل ذلک ميدان لتجوال الغاسق، فلو لا الإمداد الرباني و الإعاذة الإلهية لكان يقب.

فليغلق المستعيذ برب الفلق على نفسه أولا دخول الغاسق: بخروجه عن الظلام أيا كان، أو إخراج الظلام عن نفسه، ثم إذا قصّر هنا فليستعذ برب الفلق مـن شـر غاسق إذا وقب... إذا دخل الظلام و نقر، فرب الفلق هو الذي يفلق بعد الوقب، كما أنه الذي يفلق قبله...

وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ:

.. النفاثات: أظنها جمع نفاثة كعلّامة، مبالغة مضاعفة، و هم الذين ينفثون و ينفخون بكل ما يملكون من وسائل النفث و النفخ لتنفّج الباطل في غيه، و فلج الحق في مضيه: ينفثون في عقد الحياة، التي يعقدها غاسق إذا وقب: فهنا شيطان أول يحقق خطوة أولى: أنه يعقد في نقرته، يعقد أمرا فيه تعقيد الحياة في أية مجالة من مجالاتها، ثم شيطان ثان ـ أو شطنة ثانية ـ ينفث فيما عقده الأول ليحكم العقد كيلا ينحل بسهولة.

فالنفاثات تعم قبيلي الرجال و النساء، دون اختصاص بالنساء، و تعم السحر و سواه دون اختصاص بالسحر، و تعم أية نفاثة تستحكم عقد الشر أو تحل عقد و عزائم الخير.

ثم النفاثات: الطاقات التي تنفث و تنفخ في العقد لتنفج الباطل و توهين الحق ـ إنها على ضروب شتى، كما العقد تعم عقد الخير و الشر، فمن نفاثات في عقد الخير التي عقدها و حكمها الخيرون ـ ينفخون فيها لتوهينها و محقها او تبديلها إلى شر، و من نفاثات في عقد الشر التي عقدها الشريرون ـ نفخا فيها لنفجها و تحكيمها، أية عقد من أية نفاثة: من عقد تعقد بها حياة خيرة، او تعقد عليها حياة شريرة.

فمن النفاثات في العقد السياسية محاولات تبعيد الدين و رجالات الدين عن السياسة و لكي تأخذ مجاريها الشريرة بفتح مجالاتها دونما رادع و لا مانع.

و من ثقافية تجمد العقول و الأفكار على مقالات الأولين من حق لم يكمل او من باطل..

و من اقتصادية هي ترک الفحص و البحث عن الأحكام الاقتصادية الاسلامية، و ترک تطبيق الاقتصاد الإسلامي، اللذان ينفثان في مشكلة الاقتصاد، و يفسحان المجال للاقتصاد الشيوعي و الرأسمالي.

و من حربية كالتقدم السريع في اصطناع الأدوات النارية، بحرية و برية و جوية و منها الطائرات النفاثة التي نفثت في عقد الحرب، التي يجب علينا مكافحتها بالمثل اعتداء بالمثل.

و من عقد عقائدية كالقول بتحريف القرآن بزيادة او نقيصة، و من ذلک هنا القول: ان المعوذتين ليستا من القرآن! رغم وجودهما في القرآن المتواتر القاطع، و السنة القاطعة: انهما من القرآن و من أفضل القرآن[1].

---

١. الدر المنثور ٦: ٤١٦ ـ اخرج احمد و البزاز و الطبراني و ابن مردويه من طرق صحيحة عن ابن عباس و ابن مسعود انه كان يحک المعوذتين من المصحف و يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه انها ليست من كتاب اللّه،

←

و من سائر الإسرائيليات و الكنسيات و الوثنيات و المختلقات الزور التي دخلت و تسربت في الروايات، كما هنا فيما

يروى: ان الرسول (ص) سحر، سحره؟؟؟؟

ابن الأعصم اليهودي في بئر ذروان، ف «كان يرى انه يجامع و ليس يجامع، و كان يريد الباب و لا يبصره حتى يلمسه بيده»[1].

فنحن نضرب بهذه و تلك عرض الحائط، مهما كثرت رواتها و قلت رعاتها، و رغم انها رويت من طريق الفريقين عن النبي (ص) و الائمة من اهل بيته (ع)، فاننا نعتبرها من عقد عقائدية نفث فيها نفاثات الرواة.

← انما امر النبي (ص) ان يتعوذ بهما و كان ابن مسعود لا يقرأ بهما، قال البزاز: لم يتابع ابن مسعود احد من الصحابة و قد صح عن النبي (ص) انه قرأ بهما في الصلاة و أثبتت في المصحف.

و ممن روى انهما من القرآن عن النبي (ص) أبي بن كعب و عكرمة و يزيد بن عبد اللّه الشخير و ابن مسعود و عقبة بن عامر و ابو حابس الجهني و ابو سعيد الخدري و ام سلمة و معاذ بن جبل و جابر بن عبد اللّه و ثابت بن قيس و قتادة و انس بن مالك و ابو هريرة و ابن عمر، أخرجه عنهم اصحاب السنن و المسانيد بطرق متواترة، و ابن مسعود هذا الذي اخرج عنه قولة الزيادة، سيخرج عنه هنا كما عن غيره من الاصحاب انهما من القرآن و من أفضل القرآن، و كما اجمع على ذلك أئمة اهل البيت عليهم السّلام، كما أخرجه في نور الثقلين (٥: ٧١٦) عن كتاب ثواب الأعمال عن الامام الباقر (ع) و عن اصول الكافي عن أبي الحسن الرضا (ع) و فيه عن الصادق (ع).

١. كما أخرجه على نور الثقلين عن كتاب طب الائمة عن الصادق (ع) (٥: ٧١٨).

في الدر المنثور (٥: ٤١٧: اخرج عبد بن حميد في مسندة عن زيد بن اسلم قال: سحر النبي (ص)

و اخرج ابن مردويه و الجهني في الدلائل عن عائشة و ابن مردوية من طريق عكرمة عن ابن عباس.. و ابن مردويه عن انسي بن مالك، و لقد رووها بألفاظ مختلقة.

كيف لا؟ «وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» (٢٥: ٩) «فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّکَ يا مُوسى مَسْحُوراً» (١٧: ١٠١) فقولة السحر على النبي (ص) قولة فرعونية ظالمة فـاتكة يعني توهين الرسالة المحمدية و تهوينها، و لكي تتطرق فرية السحر إليها كلها، و ساحة هذه الرسالة السامية و سواها براء منها.

فإن السحر أيا كان، هو من سلطان الشيطان، و ان كان اللّه لا يصده أحيانا «وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» و لكنه ليس من الرحمان، فهل ان للشيطان سلطان على حس النبي (ص) و عقله و ارادته، و لحد يخطأ الباب و لا يبصره و يرى انه يجامع و لا يجامع؟ فكيف إذا ينير الدرب لمن يدقه الى اللّه! كيف يسحر هكذا و هو أول العابدين «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِينَ» (١٥: ٤٢).

على انه (ص) معجزة رب العالمين، بقرآنه المبين و بيانه المتين، فلو حـاولوا ان يسحروه لم يک ليسحر او يتأثر، اغلبا للسحر و هو سلطان الشيطان، على المعجزة و هو سلطان الرحمان! و النبي بكيانه معجزة، كما هو بقرآنه معجزة!.

ثم الرسول (ص) هو بجملته: في ذاته و صفاته و أفعاله و أقواله، انه عودة من

الشيطان و داعية حق الى الرحمان، فكيف لا يعيذه رب الفلق من شر النفاثات في العقد؟ اجل و قد أعاذه بما انزل في كتابه انه لا يسحر و لن يسحر، و ان تهمة السحر الوقحة عليه قولة الفراعنة الظالمين النفاثين في العقد.

و إذا كان الامام من آل الرسول (ص) كما

يقول الامام الصادق (ع): «لم يزل مرعيا بعين الله، يحفظه و يكلئوه بستره، مطرودا عنه حبائل إبليس و جنوده، مدفوعا عنه وقوب الفواسق، و نفوث كل فاسق»[١]

فالرسول (ص) و هو امام الائمة بذلك أحرى! وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ:

.. خطوة ثالثة بعد فشل ما سبقتها، أو لتحكيمها: ألا إنها حسد الحاسدين، لا في أنفسهم فحسب، إنما إذا حسدوا.

و الحسد انفعال نفساني و جاه نعم اللّه على بعض العباد زائدا على سواهم، مع تمني زوالها، و نحن نستعيذ من شر الحاسد إذا حسد: أبرز انفعاله بشكل من الأشكال في النيل من المحسود.

صحيح أن الحسد شر نفساني، و لكنه لا يتعدى الحاسد إلى المحسود ما لم

---

١. نور الثقلين ٥: ٧٢٢ عن اصول الكافي

يحسد و يوجه انفعاله النفسي إلى المحسود.

و لكي نأمن كيد الحاسدين، علينا أن نخفي النعم المحسود عليها ـ ما أمكن ـ عنهم، أو نبرد و نخمد نيران الأحقاد بمياه الأخلاق الطيبة و العشرة الحسنة و الموعظة الصالحة، أو ـ أخيرا ـ بل: أولا و أخيرا: نعوذ برب الفلق:

.. و لكي يفلق حسد الحاسد و يدفع شره، و بعد ما كلّت محاولا تنافي دفعه.

إن الحسد ـ أيا كان ـ إنه حماقة و سوء ظن باللّه و معارضة للقدر، كما عن الرسول الأقدس: «كاد الحسد أن يغلب القدر»

فإذ يفضل اللّه عبدا من عباده على غيره لاستحقاق معروف أم غير معروف، أم لما يراه من مصلحة فردية أو جماعية، فالحسد إذ ذاك اعتراض على اللّه، فليحاول الحاسد أن يبلغ بسعيه مبلغ المحسود لكي يؤتيه اللّه من فضله كما آتى المحسود، إن كان مما يحصل بالسعي تماما، أو يحاول للوصول إلى ما أشبهه، و أما أن يجمد على حاله ثم يحسد و يحاول في إزالة النعمة عن المحسود بشتى المحاولات و الحيل، فهذه معارضة فكرية و عملية ضد الألوهية: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» (۴: ۵۵):

نزلت في جماعة من اليهود الذين حسدوا الرسول الأقدس محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على اصطفائه بالرسالة الأخيرة، و من حقدهم على هذه الرسالة السامية أنهم كانوا يفضلون المشركين على المسلمين: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ..» (٤: ٥٤).

كانوا يحسدون الرسول كأنهم يملكون فضل اللّه، فليستأذنهم اللّه فيمن يصطفيه رسولا! و هم لا يرضون رسالة إلا في إسرائيل!.

و لقد كانت جماعة من أهل الكتاب تحاول أن ترد المسلمين كفارا: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٢: ١٠٩).

فعلى المحسود ذي النعمة أن يحافظ على ما أنعم اللّه عليه بفضل سعيه هو و بفضل اللّه، و لا سيما النعم الروحية، ثم يحاول من وراء ذلك أن يجرّ الحاسد إلى ما

هو عليه من النعمة ما أمكن، بتوجيهه إلى السعي اللازم.

و على الحاسد أن يخرج من حماقة الطغيان إلى ميدان السعي و الإيمان باللّه، فما وصل إليه بالسعي فهو، و ما لم يصل إليه فليثق باللّه و لا يتهمه في تفضيل المحسود عليه، و أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

و للحسود علامات منها: «يغتاب إذا غاب، و يتملق إذا شهد، و يشمت بالمصيبة» و من مقالات الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام في التنديد بالحاسدين:

«أما بعد فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان، فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنة، فإن المرء المسلم البريء من الخيانة ما لم يغش دناءة فيخشع لها إذا ذكرت، و تغرى بها لئام الناس، كان كالفالج الياسر، الذي ينتظر أول فورة من قداحة توجب له المغنم، و يرفع بها عنه المغرم، و كذلك المرء المسلم البريء من الخيانة، ينتظر من الله إحدى الحسنيين: إما داعي الله، فما عند الله خير، و إما رزق الله، فإذا هو ذو أهل و مال و معه دينه و حسبه، إن المال و البنين حرث الدنيا، و العمل الصالح حرث الآخرة، و قد يجمعهما الله لأقوام، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، و اخشوه خشية ليس بتعذير، و اعملوا في غير رياء و لا سمعة، فإنه من

يعمل لغير الله يكله الله إلى من عمل له، نسأل الله منازل الشهداء، و معايشة السعداء، و مرافقة الأنبياء».

سورة الناس ـ مكية ـ و آياتها ست

[سورة الناس (۱۱۴): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (۱) مَلِكِ النَّاسِ (۲) إِلهِ النَّاسِ (۳) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (۴)

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (۵) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (۶)

ندرس في سورة الناس كيف يجب علينا أن نستعيذ؟ و بمن؟ و ممن؟ و ما هي الاستعاذة؟ و لماذا تجب؟

أركان الاستعاذة أربعة: المستعيذ ـ المستعاذ به ـ المستعاذ منه ـ المستعاذ من أجله.

و هي على الترتيب: ۱ ـ المكلف ـ ۲ ـ الرب الملك الإله ـ ۳ ـ الوسواس

الخناس من الجنة و الناس ـ ۴ ـ مطلق الشر.

و الاستعاذة هي طلب الإعاذة ـ و ليس طلبها لفظا باللسان، و لا عقدا بالجنان، و ليس المقال هنا إلا إشارة إلى الحال: كيف يجب أن تكون حالة الإنسان ـ النفسية و العملية ـ تجاه هذه الشرور؟ إنها حالة الفرار: لفظيا و عقيديا و عمليا بكل ما لديه من طاقات الايجابية، و لكنها ليست بالتي تعيذه، لو لم تدركه الرحـمة و العـصمة الإلهية، فعبادة الرحمان و عصيان الشيطان كلاهما بحاجة ماسة إلى تـأييد اللّـه و إعانته: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فكما لا عبادة دون استعانة كالعكس، كذلك لا فرار عن الشيطان دون استعاذة، كما لا استعاذة دون محاولة الفرار بكل ما لدينا من الطاقات.

هنا نعرف: لماذا يؤمر الرسول بالاستعاذة على عصمته؟ يؤمر بها لأن عـصمته منوطة باستعاذته: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (١٧: ٧۴) بعد ما هي مربوطة بمحاولاته لمنتهى المكنة و الاستطاعة قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ:

إنه أمر أن يخبر العبد عن نفسه: أنه يستعيذ، و ليست الاستعاذة من مقولة اللفظ، إنما هو يحكي عنها حكاية صادقة أم كاذبة، و القرآن لا يأمرنا بالقول الكذب، إنما يأمر هنا بما تتطلبها هذه المقالة، من استعاذة عقائدية و عملية: أن نفرّ من شيطنات

العقائد و الأعمال، مستعيذين حالها و قبلها و بعدها، بالرب الملک الإله المتعال.

هذه الاستعاذة تستحضر من صفات اللّه ما به يدفع الشر، الوسواس فعلى المستعيذ أن يستظل في ظلال الربوبية: علميا و تربويا، و في ظلال ملكيته طاعة و استقامة، و في ظلال الألوهية تخضعا و عبادة، و لكي يعيذه اللّه تعالى من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة و الناس.

و في كل واحدة من هذه الثلاث كفاية لكي نتخذه تعالى وكيلا و معيذا:

يدل على ذلک عدم العطف هنا «.. بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ. إِلهِ النَّاسِ فانه» ردف دون عطف، و كما أفردت بذكر كل واحدة منها في آيات ثلاث: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» (٣٩: ٦) «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» (٧٣٠: ٩) «لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (٥٧: ٥) هذا ـ و لكنما الجمع بين الثلاث هنا، فيه كمال العوذ و اللواذ باللّه تعالى، و كلما كان الاستظلال في ظل هذه الظلال أوسع و أعمق كانت الاستعاذة أوفق، فهو بالإعاذة أحرى و أحق «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى».

بِرَبِّ النَّاسِ:

بمالكهم و مربيهم، الذي يعرف ناسهم و نسناسهم، يعرف فضائل الأخلاق و

رذائلها، فله أن يخرجنا من الظلمات لأنه يعرفها، إلى النور لأنه يعرفه، يعرف الخير و الشرّ و كما هدانا إليهما.

و على المستعيذ، من اللاتربية إلى التربية، أن يستعيذ برب الناس: و ليعرف الموازين التربوية، علمية و تطبيقية، و ليعرف الشيطنات كلها، و لكي يستطيع الفرار من الظلمات إلى النور، في ظل ربوبية الرب المعيذ.

إننا لا نستعيذ بالأنبياء، فهم المستعيذون أيضا كأمثالنا لا معيذون نهتدي بدلالاتهم الرسالية: و إنما نستعيذ برب الناس: رب الرسل و المرسل إليهم..

ثم قد تكون الاستعاذة ناقصة غير ناجحة، إذا لم يكن المعيذ ملكا قديرا، فربّ ربّ يحاول الإعاذة و لكنه لا يملكها، لأنه ليس ملكا قديرا يدحر الشياطين بقوة، فكمال الاستعاذة إذا يتطلب أن تكون بملك الناس:

مَلِكِ النَّاسِ:

الذي يملك الجنة و الناس، و يملك الخير و الشر، و لكنه ليس منه شر، إنما يدفع عنه إلى الخير، فالمحاولات التربوية لا تكفي إعاذة من الشرور واقعيا مهما كانت قوية.

فقد تتطلب قوة للدفع و لتطبيق شريعة اللّه و دحر الشياطين، فشريعة اللّه ليست

شريعة علم و أحكام فحسب، إنها شريعة القدرة و الطاقة الجبارة أيضا:

إنها نظام و تطبيق، فالنظام بحاجة إلى تطبيق، و التطبيق فاشل ما لم تكن سلطة.

ثم إذا واجهتنا القوة المعاندة، يأتي دور الاستعاذة ب: «بملک الناس»..

الملک الرب، فلتجابه الطاقات المعاندة بالملكية العادلة.

إِلهِ النَّاسِ:

و في آخر المطاف نعطف بأنفسنا و بهم إلى الإله: طوعا و كرها، فهو أول المطاف «بِرَبِّ النَّاسِ» و هو آخر المطاف «إِلهِ النَّاسِ» و قد تجب في الوسط السيطرة الملكية لحمل النسناس إلى سيرة الناس، و لكي يعقلوا أخيرا و يضطروا للخضوع أمام: «مَلِكِ النَّاسِ».

هنا لک تمت الاستعاذة، و توفرت شروطها: استعاذة و مستعاذا به، و ليكن الإنسان هو الموضوع، و يحمل عليه و في هامشه سائر المكلفين من الجنة و سواهم، و لا يختص الناس بإنسان الأرض، إنه يعمه و سواه من إنسان الكون، في الكرات المعمورة..

فاختصاص الناس هنا بالذكر ليس إلّا لأنهم من أفضل المكلفين، فلا يخرج الجن عنهم، إنما يخرج النسناس من الجنة و الناس الذين يستعاذ منهم، هؤلاء الذين

يفقدون التربية الإلهية كأن اللّه ليس ربهم، و إنما هو الشيطان، كما

سئل الإمام الحسن عليه السّلام عن الناس؟ فقال: «نحن الناس، و شيعتنا أشباه الناس، و سائر الناس نسناس»[١].

مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ:

صفات ثلاث للمستعاذ منه، على عدد الثلاث للمستعاذ به: ثلاث و جاه ثلاث، و كما أن جنود العقل و الجهل تساوى بعضها البعض عددا و عددا، خمسة و سبعين بخمسة و سبعين، كذلک هنا، إلا في العدد فهما، لأن اللّه تعالى لا ينهزم في المعركة، طالما عباده ينهزمون لو لم يستعيذوا به كما يؤمرون، و إذا لم يخرجوا من طاعة الشيطان إلى طاعته.

هنا تطلق الصفة أولا: «الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ» ثم حدود العمل و مجاله:

«الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ» ثم العامل المحاول في التضليل: «مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ».

فبالصفات تعرف الذوات، فذات الشرير، الحيادية، لا يجب دحرها، إنما لصفاتها المعادية المتعدية: الوسواس..

---

١. هنا الإمام يشطر بني آدم إلى شطري الناس و النسناس، و في الناس أصول و فروع، فالقادة الهداة المعصومون هم الأصول، و أشياعهم هم الفروع، ثم المتخلفون عن شريعة اللّه هم النسناس، من الجنة و الناس.

«مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ»: إن المضلل لا يأتيک كمضلل لتعرفه فتحذره فيخيب سعيه، إنما يأتيک كمدلل، فيوسوس في صدرک الذي فيه قلبک، يوسوس إلى صدرک و يجتازه إلى قلبک، فيملک زمامک في أمورک كلها لو انک فتحت له باب صدرک فقلبک فالوسواس قد يتخفى في الجانب الخفي من كيان الإنسان، كالنفس الأمارة بالسوء: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (٥٠: ١٦) و كالشيطان «فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما» (٧: ٢٠) فالنفس و الشيطان يتخفيان في صدر الإنسان الذي هذا الفتحة الاصلية إلى قلبه.

أو أنه جلي في ذاته خفي في وسواسه، كما الإنسان الشيطان كذلک: «مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ» خفية او جلية.

فالجنة جمع الجان، آي الخفي، فتشمل النفس الأمارة بالسوء داخل كيان الإنسان، و الشيطان خارجه، و الناس هم الناس: الوسواس الجلي، و «أعدى عدوک نفسک التي بين جنبيک» و الشيطان من الجن و الإنس، المنفصل عن كيانک، لا يقدر و لا يجرو على وسواسک ما لم يجد تجاوبا من شيطانک الداخل «النفس الأمارة بالسوء» فالشيطانان الوسواسان هما المتعاملان المتعاونان في

إضلال الإنسان.

و أصل الوسواس هو صوت الحلّي و الهمس الخفي، و الوسوسة هي الخـطرة الرديئة، و بما أن الخـطرات هـي التـي تـدفع الإنسـان إلى مـختلف الحـالات و الانفعالات الخيرة و الشريرة، فـليدحر الإنسـان عـن نـفسه الخـطرات الشـريرة، المختبئة في صدره، بكفاح صارم دائم مستعيذا بالرب الملک الإله.

«الخناس» و يزيد الوسواس خطورة و شرا ما إذا كان خناسا: يخفي عنک أنه وسواس، فالخناس هو المنقبض و هو الكثير الاختفاء بعد الظـهور: يـحاول فـي تضليلک خافيا، فإذا برز لک أنه الوسواس، فمحاولة ثانية في إخفائه، إراءة لک أنه يريد صالحک: «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها».. غشاوات و غشاوات ليغطي عليک أنه شيطانک، و يستدل بـالعقل و بـالآيات و الروايـات ليفصلک عما يقتضيه العقل و تقتضيه الآيات و الروايات، و على حد قوم

إمام المتقين أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجـالا، فـلو أن الحـق خلص من مزاج الباطل لم يكن للباطل حجة و لو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يكن اختلاف، و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان

معا فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، و نـجي الذيـن سـبقت لهـم مـن اللـه الحسنى».

إن الخناس من طبعه أن يختفي أو يبتعد عنک مليا، إذا ملّ منک و كلّ و خاب سعيه، و لكنه خناس: يرجع و يرجع في خطوات و محاولات، و آخر المطاف أن يأخذک معه شر مأخذ، فكما هو دائب فـي تـخنسه فـلتكن أنت دائب اليـقظة و الكفاح، مسلحا بنور المعرفة لتنتصر في المعركة، فلتذكر اللّه ربک كلما وضع خطمه على قلبک، و على حد

قول الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «إن الشيطان واضع خـطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر اللـه خـنس، و إذا نسـي التـقم، فـذلک الوسـواس الخناس»[١].

«مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ»: إنه كما عرفت مسبقا: هو الجنة الخافية من النفس الأمارة من الجن، و هو كذلک الناس الذين يتدسسون إلى الصدور كالجنة.

---

١. نور الثقلين ج ٥ ص ٧٢٥، و هذا الحديث يبين طرفا من أطراف خنس الوسواس، و هو آخر المطاف، إذ يفر من الإنسان الذي حقق الاستعاذة حقا، و رواه الدر المنثور عن أنس عنه (ص) مثله ج ٦ ص ٤٢٠، و فيه عنه (ص): أن للوسواس خطما كخطم الطائر، فإذا غفل ابن آدم وضع ذلک المنقار في أذن القلب يوسوس، فإن ابن آدم ذكر اللّه نكص و خنس فلذلک سمي الوسواس الخناس.

نحن لا نعرف من وسواس الجنة إلا كما عرّفنا اللّه تعالى بها: عنه و عن لسان الجنة: «.. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» (٧: ١٧) (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (١٧: ٦٢).

و ما نجده من هواجس و وساوس تتنافس في نفوسنا، مهما كان الخلط بين وسواس الجن و وسواس النفس، إلا أنه وسواس.

و أما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الكثير الكثير، و نعرف ما هو أشر و أخطر من وساوس الشياطين، كأنهم أساتذتهم!:

رفيق السوء الذي يوسوس إلى صدر رفيقه من حيث لا يحتسب و من حيث لا يحترس لأنه مأمون! و إلى أمثاله من حملة السوء و دعاته بشتى ألوان الدعوة و الدعاية: من حاشية الشر للسلاطين، و النامين الواشين، و بائعي الشهوات، و عشرات و عشرات من الوسواسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل و يخفونها و يتسربون بها إلى الصدور و إلى القلوب، و هم شر من الجنة و علّهم أخفى منهم دبيبا.

إن حملة الوسواس تخنس في حملتها بألوان عدة علّها تنتصر: تخفي نفسها حالة الوسوسة، ثم تختبئ إذا قوبلت بحملة دفاعية، نظرة أن تجد الفرصة سانحة فتدب و توسوس.

فعلى الإنسان اليقظة الدائمة و النبهة الدائبة، كيلا يخسر هذه المعركة المتواصلة: يقظة بقوة العقل المتأيدة بوحي السماء، و «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» إنه لا يحتنك إلا الحمر دون العباد الصالحين «لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» فادحر الوسواس الخناس أن أن يستحمرك و يحتنكك، و كن من القليل الذين ليس للشيطان عليهم سلطان و سبيل و الحمد للّه أولا و آخرا.

مكة المكرمة في ١٧ محرم الحرام ١٣٩٧

محمد الصادقي

(تمّ هذا الجزء بعون اللّه تعالى)